عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧



- التحول السياسي من الشيوعية إلى الديجولية
- مالرو - سنجور وحضارة الإنسان
- الفعل الثوري في رواية الأمل
- اندريه مالرو: قدر الإنسان

عالم الفكر

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * اكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية ـ وزارة الاعلام ـ الكويت : ص.ب ١٩٣

المحتويات

اندريه مالرو



تمهيد

جيد : لا يوجد اغبياء أو بلهاء فى كتبك .
مالرو : اننى لا أكتب لكي اثير الملل في النفس ، اما عن البلهاء فهناك الكثيرون جدا منهم فى الحياة الواقعية .
(عام ١٩٣٨)

حين التقى اندريه مالرو لاول مرة بالجنرال ديجول عام ١٩٤٣ بادره ديجول بقوله : « الماضي أولا » . وكان ذلك فى رأى مالرو مدخلا غريبا لمثل هذه المقابلة الهامة ، ولكنه أجاب مع ذلك : ـ

« الأمر بسيط .. لقد خضت معركة ، ولنقل انها من أجل العدالة الاجتماعية ، أو اذا أردنا مزيدا من الدقة من أجل ان نعطى الناس فرصتهم ... كنت رئيسا مع رومان رولان للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل الى هتلر ـ الذى لم يستقبلنا ـ الاحتجاج على قضية ديمتروف والدين اتهموا كذبا بحرق الرايخستاج . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت لأقاتل هناك .. ليس فى الفرق والألوية الدولية التي لم تكن قد تكونت بعد ... اذ كان الحزب الشيوعي لايزال يفكر فى الأمر ... ثم كانت الحرب الحقيقية (الحرب العالمية الثانية) وأخيرا جاءت الهزيمة ... ومثل الكثيرين غيرى اخترت فرنسا ... عندما عدت الى باريس سألنى البير كامى : هل سنضطر يوما الى أن نختار بين روسيا وأمريكا ؟ ... لم يكن الاختيار في نظرى بين روسيا وأمريكا ولكنه كان بين روسيا وفرنسا ، حيث كانت فرنسا الضعيفة تقف وجها لوجه أمام روسيا القادرة القوية . لم اعد أؤمن بحرف مما كنت أؤمن به حينما كانت فرنسا القادرة تقف بمواجهة الاتحاد السوفيتى الضعف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية ، اما

روسيا القوية فتريد ديموقراطيات شعبية ... لقد قال ستالين أمامي « في بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الأوروبية ، اما الآن فالثورة الأوروبية تنتظر الجيش الاحمر » . لست أؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الاحمر ، ولاأؤمن بالعودة الى عام ١٩٣٨ » .

« وفى مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسي الاول الذى ساد السنوات العشرين الاخيرة هو فى نظرى ، أولية الامة ، وهو شيء يختلف تماما عن الوطنية . فهو لاينبنى على التفوق ولكن على الخواص المميزة » (اندرية مالرو ــ لا مذكرات ــ الجزء الاول ــ الترجمة العربيــة مــع بعــض التصرف) .

هذه الفقرة الطويلة المعبرة من حديث مالرو تكشف لنا عن عدد من النواحى الهامــة فى حياته وتفكيره ومواقفه ونظريته الى الحياة والانسان ، كما تبرز بعض جوانب شخصيتــه الفذة التى تجمع بين حب المغامرة بحيث ملأت حياته ورواياته ، وحب فرنسا الذى أملى عليه أن ينخرط فى سلك المقاومة بعد الهزيمة ، وان يقف موقف العداء من الشيوعية بعد ان كان ضالعا معها ، وأن يقارن فى مواقف كثيرة بين (الوجود الفرنسى) و (الوجود السوفيتي) الذى يحاول ان يطمســه فى المستعمرات ودول العالم الثالث ولكن دون جدوى ، بل ان حبه لفرنسا كان يملى عليه ان يقارن دائما بين مبادىء الثورة الفرنسية والثورة الروسية وما حققته كل منهما للانسانية. سبق ان التقيت ، ثم التقيت مرارا بعد ذلك بهذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفيتية لم تطمسه . ان الآلة تصطنع للبلاد الحديثة النموعمالا مهرة اكثر مما تصطنع بروليتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة وليس البروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية وحماس المعركة المعلنة من اجل العدالة ، من سان جوست الى جوريس الى ميشيليه وعلى الاخص فيكتور هوجو ، هذه الدعوة تحتفظ بتاثير يصــــارع الماركسية على اقل تقدير . وفى افريقيا وفى امريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسيا كانت لغتها لا تزال فرنسية . لقد رايت فى برشلونة أيام الحرب الاهلية اكواما من كتاب (البؤساء) بين (باكوتين) وكتابات تولستوى النظرية (لا مذكرات) . كذلك تكشف هذه الفقرة عن مدى حب مالرو للحرية وايمانه بالانسانية الذى يجب أن يعطى الفرصة كاملة لتحقيق وجوده ، ومن اجل الانسان والحرية تطوع مالرو فى عدد من الحروب للدفاع عن المستضعفين . وقد اعطاه هذا كله بغير شك ابعادا جديدة فى نظرته الى الانسان والمجتمع والحضارة الانسانية .

● ● ●

والشيء الذى يلفت النظر حقا هو انه على الرغم من شهرة اندريه مالرو ورغم الدور الذى لعبه فى الادب والفن والسياسة بحيث أصبح يعتبر واحدا من اكبر المفكرين الذين اثروا فى سير الثقافة المعاصرة ، فان هناك كثيرا من نواحى حياته ــ وبخاصة حياته المبكرة ــ لا تزال غامضة بل ومجهولة تماما . والظاهر ان مالرو نفسه كان يحب ان يحيط نفسه بالغموض ، او على الاقل يترك بعض جوانب حياته وبعض نشاطه وبعض الاحداث التى تعرض لها في منطقة الظل بعيدا عن الضوء . وحتى الذين يزعمون انهم على بعض الصلة الوثيقة به لا يعرفون فى الحقيقة كثيرا عن حياته الخاصة فيما عدا بعض الحقائق الاساسية عن مولده عام ١٩٠١ فى احدى العائلات البرجوازية

فى باريس ، وعن ميله فى ايام الصبا والشباب الى الترف وحب الظهور والتباهى فى اول الامر الى ان اصطدم بوقائع الحياة القاسية المريرة فى الهند الصينية حين ذهب الى كمبوديا للتنقيب عن الآثار والبحث عن كنوزها فوجد نفسه غارقا الى اذنيه فى مآسى البشر تحت وطأة الاستعمار . كذلك هناك معلومات كافية عن المآسى الشخصية التى تعرض لها في السنوات الاخيرة من حياته وبالذات منذ اوائل الستينات ، حين قتل ولداه الصغيران فى حادث سيارة عام ١٩٦١ ، ثم موت صديقة عمره الكاتبة لويز دو فيلموران Louise de Vilmorin عام ١٩٦٩ قبل أن يتحقق ما تعاهدا عليه من اتمام الزواج بوقت قصير ، وذلك بالاضافة الى ادمانه الخمر والمخدرات على الاقل فى فترات محددة من حياته ، الى جانب سوء حالته الصحية . ولكن كل هذه امور يمكن ان تضاف الى رصيده الهائل من التجارب فى الحياة التى انعكست فى كتاباته ، بحيث نجد احد النقاد يقول ان اهم واروع اعمال مالرو كانت حياته .

هذه الشخصية الفذة المتعددة الجوانب والتى تبدو متناقضة لاول وهلة ، كانت ولا تزال موضوعا للبحث والتحليل بقصد ردها الى نوع من المنهجية والاطراد والنظام والترتيب ، وذلك عن طريق دراسة انتاج مالرو وتصنيف اعماله الى (اتجاهات) رئيسية ، والزعم بان كل اتجاه من هذه الاتجاهات يميز مرحلة معينة بالذات من مراحل حياته . وتمثله هذه المحاولات على انه كان مغامرا اول الامر ، وحين سئم المغامرات وحياة المخاطر ، ونال كفايته من الرحلات والحروب انقلب روائيا ومفكرا اديبا ، وحين فكر فى التقاعد عن ممارسة هذا اللون من النشاط تحول الى (عالم الفن) فأصبح ناقدا فنيا . ولكن مثل هذه المحاولات لا تخلو من السذاجة الناجمة عن المبالغة فى التبسيط ، لان مالرو دخل (عالم الفن) منذ كان فى الثامنة عشرة من عمره ولم يغادره قط على ما يقول ارمان هوج Armand Hoog . فلقد احب مالرو وهو فى تلك السن الفن الشرقى ، وحضر محاضرات عنه في مدرسة اللوفر ، ثم قام هو نفسه بالقاء محاضرات عنه فى متحف جيميه Musee Guimte ومع انه مارس كثيرا من الوان النشاط الادبي والسياسي والثقافي فان هوج يحب ان يجعل مهنته الحقيقية — او على الاقل المهنة التى تمسك بها طيلة حياته — هى نشر كتب الفن . ومنذ بدايات كتاباته لم تخل رواية من فقرات تعكس نظرات عميقة فى الفن .

ولقد رأس مالرو بعثة اثرية الى الهند الصينية وهو فى الثالثة والعشرين من عمره للتنقيب عن الآثار الكمبودية ، ولكن اتصاله بثوار كمبوديا الذين كانوا يكافحون للتحرر من الاستعمار الفرنسى دفع الحكومة الى تلفيق تهمة له بمحاولة تهريب بعض الآثار ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، لولا ان انبرى للدفاع عنه بقوة عدد من كبار المفكرين والادباء الفرنسيين من امثال اندريه جيد واندريه موروا واندريه بريتون ولوى اراجون ، مما اضطر الحكومة لاطلاق سراحه . وزار مصر وبهرته حضارتها القديمة وفنها الاصيل الذى اوحى اليه بكثير من الآراء . ويقول فى ذلك فى كتابه (لا مذكرات) : « لقد التقيت فى مصر بالآراء التى ظلت لعدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى فى الفن .. ولد اولها من ابى الهول ولم يكن قد تخلص من الرمال .. ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الاطلال التى اخذت تستحيل الى مواقع أثرية » وظل ارتباطه قويا بمصر وآثارها الى ان أسهم فى الحملة لانقاذ معابد النوبة » مكتبة المتحف تعرض ايضا الخطبة التي القيتها من اجل انقاذ آثار النوبة ، وتعرض صورا فوتوغرافية كثيرة للاعمال الجارية .. انا اذكر صخور اسوان

المستديرة السوداء يعكسها نيل بلــون انهـــارالجحيم .. لا شك ان هذه الصخور لم تتغير منذ الوقت الذي اخذ فيه فلوبير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعي كوتشيك هانم ، كان منبهرا باسمها ، قدر انبهاره باسم ملكة سبأ ، ومعناه على ما أظن : السيدة الصغيرة .. وجذبته مملكة سبأ فقــام برحلة مليئة بالاخطار اليها ــ « كيف ادخلت فى رأسـى منــذ ثلاثين سنــة ان اعثر على عاصمة مملكة سبأ ، كان للمغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدتها .. فيم كانت ولا تزال شاعرية سبأ ؟ الملكة بلقيس ؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة ، وقد جاءتها من المجهول بفيلها المتوج بريش النعام .. (الخ) .. مملكتها تنتمى الى الحضـارات الضائعة » .. وحين تولى وزارة الثقافة فى فرنسا حقق انجازات هائلة فى الفن ,ونشر الثقافة الفنية وانقاذ كثير من الكنوز وتشجيع الاعمال الفنيــة والفنانين .. لقد عهد الى الرسام الشهير شاجال مهمة رسم سقف الاوبرا في باريس ، واشــرف على ترميم قصر فرسای الشهير ، ونفض التراب عن كثير من اعمال الفن الرائعة فى اللوفر نفسه . ولقد كان يؤمن ــ كما يقول فى كتابه الضخـم « **اصوات الصمت** » بان الفن هو بمثابة الدين ، وان كل فن انما هو ثورة ضد قدر الانسان ومصيره ونوع من الثأر من العالم المعادى ، وان الفــن الاوروبى ليس يعد كل شيء سوى فن واحد ضمن فنون كثيرة لدى سائر البشر .

وربما كان ذلك هو ما دفع موريس بلانشو Maurice Blanchot الى ان يقول « اننــا نعرف ان مالرو يهتم بفن التصوير والرسم ولكننا نعرف ايضا انه يهتم بالانسان » . وهذه عبارة لها مغزاها لانها تبين الى حد كبير اهتمامات مالرو ، ولكن الاهم من ذلك انها تعكس العلاقة القوية بين الفن ومصير الانسان وقدره ــ او الوضع الانسانى على العموم ــ كما تظهر فى كتابات مالرو . وتتبع هذه العلاقة ومحاولة ابرازها هى التى تجعل من مالرو فى حقيقة الامر ليس مجرد روائى او دارس للفن ، وانما تجعل منه فى الوقت ذاته مؤرخــا وباحثــا فى الحضارات والثقافات وبخاصـــة الحضارات القديمة ، والى حد ما الثقافات (البدائية بحيث تصطبغ بعض كتاباته بصبغة انثربولوجية واضحــة ، وتجعـــل منهـــا مصدرا للمعلومات الاثنوجرافية الموضوعة فى قالب قصصى جذاب . ورغم اعجابه بانجازات الحضارة الحديثة فانــه يعتبرها مجرد حضارة واحدة ضمن حضــارات كثيرة عرفها الجنس البشري خلال تاريخه الطويل ، تماما مثلما يعتبر الفن الاوروبى مجرد فن واحد ضمن فنون كثيرة .. « على الرغم من ان شبابى عرف الشرق شبيها بعربى عجوز يسير على حماره بينما يغط العالم الاسلامى في نومه الذى لا يقهر ، فقد اصبح المئتا الف من سكان القاهرة اربعة ملايين ، وبغداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقــار التى كــان فلاحوها البابليــون يصطادون بها ، وتاهت ابواب طهــران المطعمــة بالفسيفساء فى غمار المدنية كما تاهت بوابة سان دينيس .. امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التى اطلقوا عليها اسم الفطريات (والتى تتسع وتنتشر وتتشعب فى كل مكان) ، ولكن هذه المدن لم تكن لتمحو حضارات اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان » . (لا مذكرات) .

وبقدر ما كان مالرو يهتم بالحضارات القديمة التى اندثرت (وان تكن خلفت وراءها معالم حية تتمثل فى آثارها الرائعة كما هو الحال بالنسبة لحضارات مصر القديمة) بقدر ما يهتم بالاحداث الجارية فى المجتمعات المعاصرة على مختلف درجات تطورها . ومن هنا كان يمزج فى كتاباته بين الماضى والحاضر .. حضارة مصر القديمة ,وما يمثله ابو الهول بحاضر مصر وما يمثله انقاذ معابــد

النوبة .. وهذا المزج الذى يسيطر على معظم كتاباته يتخذ اتجاهات ومتاهات مختلفة وبخاصة حين يتكلم فى رواياته عن تجربته فى الشرق الاقصى حيث اندمج في احداثه السياسية المعقدة ، بحيث نجد **ادموند ولسون** Edmund Wilson يقول فى عام ١٩٣٤ ان مالرو اسقط المشكلات الحضارية والثقافية بكمبوديا القديمة من اجل المشكلات السياسية الراهنة على ما فعل بالذات فى رواية **« الغزاة »** Les Conquerants التى تدور حول احداث الثورة الصينية ، وتعرض لهذه الاحداث بطريقة تدل على فهم ومعرفة وثيقة بها وبالقوى المتعارضة فى الصين الحديثة بوجه عام . ولقد قال **تروتسكى** Leo Trotsky عن رواية «الغزاة» « انهم يسمون هذا الكتاب رواية ، ولكن الذى اراه امامى فى واقع الامر هو سجل تاريخى موضوع فى قالب خيالى للثورة الصينية خلال مرحلتها الاولى المعروفة باسم مرحلة كانتون » .

والمهم هنا هو ان ذلك المزج بين الحضارات القديمة والثقافات العديدة المعاصرة ، او بقول آخر الرحلة عبر الزمان وعبر المكان والتي تكشف فى مالرو عن روح المغامر الاثنولوجى او الانثربولوجى الى جانب روح المغامر الاركيولوجى انما تعكس فى آخر الامر الرغبة العميقة الصادقة فى فهم طبيعة الانسان ووضعه فى هذا الكون .

• • •

ولقد خضع مالرو لفترة من حياته ، وبخاصة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٣ لتأثير عالم الانثروبولوجيا الشهير ليو فروبنيوس Leo Frobenius الذى كانت سمعته الدولية قد انتشرت فى كل انحاء العالم فى ذلك الحين . والمعروف ان فروبنيوس الذي ولد عام ١٨٧٣ كان قد بدأ عددا من الرحلات في افريقيا ــ وبخاصة فيما كان يعرف حينذاك باسم الكاميرون الالمانية ــ امتدت حتى عام ١٩٠٤ ، وكتب عددا كبيرا من الكتب والمقالات حول الثقافات الزنجية ، ووجدت كتاباته صدى عميقا فى الاوساط العلمية واوساط المثقفين فى العالم قبل الحرب العالمية الاولى . وقد ترجم كتاب فروبنيوس **عن تاريخ الحضارة الافريقية** في نهاية الحرب العالمية الى اللغة الفرنسية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه باريس تشهد انتشار موسيقى الجاز وتتعرف بعمق على فن النحت الزنجى . ومن هنا دخل مالرو الى هذا العالم (البدائى) بشعوبه وثقافاته وافكاره واساطيره وطقوسه وتعاليمه الغريبة عن الثقافة الاوروبية ، والتى تكشف على اى حال عن جوانب جديدة من الطبيعة الانسانية . وقد زاد ذلك من شغف مالرو بالرحلة والسفر والمغامرة للدراسة والكشف والمزيد من المعرفة .

ولقد شغل مالرو نفسه ببعض الافكار التى شغل بها فروبنيوس من قبل وبخاصة المشكلة الرئيسية التى كان فروبنيوس قد اثارها حول : هل لفكرة الانسان اى معنى على الاطلاق ؟ ، وهو سؤال وجد كثيرا من الاهتمام وحاول الكثيرون الاجابة عليه ، وتراوحت اجاباتهم بين الذين يرون أن الانسان ليس الا نتاجا للظروف الايكولوجية والاقتصادية والثقافية اى انه محصلة لعوامل وضرورات خارجية ، والذين يرون ان الانسان هو ما يفعل او ما يصنع كما ورد على لسان احدى شخصيات مالرو نفسه ، وليس نتاجا لما يصنعه الآخرون او يريدونه منه . فالانسان وليد ارادته ، وهى فكرة آمن بها مالرو ، ووجهت حياته وتفكيره وانتاجه ، بل وعلاقاته مع الناس واعجابه بهم

وارتباطه بهم . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في روايته « **اشجار الجوز فى التنبرج** » وان لم تخل منها كتاباته الاخرى التى تمجد اعلاء الارادة الانسانية على كل العوامل والقوى الخارجية التى لا يمكن انكار الدور الذى تلعبه ــ رغم ذلك ــ فى تشكيل حياة الفرد . ولكن المشكلة التى يبدو انها كانت تشغل بال مالرو فى كل ما كتب هى ــ كما يقول هو نفسه ــ كيف يمكنه ان يساعد الانسان على أن يدرك ان فى استطاعته ــ وبدون ان يستعين بالدين ــ أن يبني عظمته على ذلك العدم الذى يكاد يسحقه .. وفى « **اشجار الجوز فى التنبرج** » التى ظهرت عام ١٩٤٣ يقول :

« اننا نعرف انه لم يكن لنا حق الاختيار فى ان نولد ولن يكون لنا حق الاختيار فى أن نموت ، مثلما لم يكن لنا حق اختيار آبائنا او امهاتنا . كذلك نحن نعرف اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال الزمن ، وان ثمة هوة واسعة عميقة .. تفصل بين كل فرد منا وبين الحياة الكونية . وحين اقول ان كل شخص يشعر بين جنباته بشعور عميق عن وجود القدر ، فانني اعنى انه يحمل فى داخله شعورا عميقا ــ مأساويا فى بعض اللحظات ان لم يكن فى كل الاحيان ــ بموقف اللامبالاة الذى يقفه العالم منه » .

والواقع أن مالرو نفسه يقول عن شخصيات رواياته انها تقوم اساسا على فكرة الحاجة او الرغبة فى ترجمة نسق معين من القيم الاخلاقية عن طريق افراد معينين من الناس . ولذا كانت رواياته تزخر بالافكار ، بل وايضا بالمبادىء الانسانية والاخلاقية الراقية العميقة عن الانسان ووحدته ــ تلك الوحدة المفروضة عليه والتى لا مفر منها ولا علاج لها ، ولهفة الانسان الغريبة للتخلص من الزمن والانتصار عليه ، والتزامه بان يتحمل عبء الحرية والدفاع عنها بحيث يضحى بحياته في سبيل تلك المبادىء والقيم التى يعتنقها فيتحدى الموت ، ويعتبر ذلك هو التوكيد النهائى للبقاء « الحقيقى » او الحياة « الحقيقية » .

● ● ●

فى بحثه عن ماهية الطبيعة الانسانية ومحاولته الوصول الى فهم اعمق للسلوك الانسانى اهتم مالرو اهتماما خاصا بنواحى العظمة ومظاهر النبل والسمو والتعالى فى السلوك ، باعتبارها اهم الملامح التى يجب ان تتوفر فى الشخصية الانسانية التى ترتكز على الارادة الحرة الطليقة التي يستعين بها الانسان فى صنع نفسه والتحكم فى مصيره وقدره . فهذه الملامح هى التى تتوفر فى الانسان الذى يقهر الصعاب ويتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ، والذى يشعر شعورا عميقا بان له فى هذه الحياة رسالة يتعين عليه ان يحملها ويؤديها وينفذها ايا ما يكون ثمن ذلك .. ثم هو الانسان الذى يتمسك بشدة وقوة وايمان بوطنه ، ويعتز به كل الاعتزاز وخاصة حين يمر هذا الوطن بازمة شديدة كتلك التى كانت فرنسا تمر بها تحت وطأة الهزيمة والاحتلال . والمعروف انه حين عقد الروس والالمان اتفاقية عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ نبذ مالرو افكاره اليسارية ، ثم قاد احدى فرق المقاومة اثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (بيرجين) وانه التقى بشارل ديجول قرب نهاية الحرب ، ثم تحول بعد ذلك الى الديجولية المحافظة ، وهى حركة قوبلت بكثير من الامتعاض والنقد والهجوم من المثقفين والمفكرين الفرنسيين الذين وصفوه بالانتهازية فقال لهم عبارته المشهورة

« لقد تزوجت فرنسا » . وفي اللامذكرات جملةعميقة الى ابعد حدود العمق وردت على لسان بيرجيه (مالرو) مخاطبا صاحبة الفندق الفرنسيةحين قدمت اليه بعض الخدمات البسيطة وابدت نحوه قليلا من العطف بعد ان وقع فى ايدى الالمانايام المقاومة .. « اشكرك يا سيدتي ! لقد كنت رائعة .. كنت تشبهين فرنسا .» ثم هو يقول فيموضع آخر : « ان ما يهمنى فى اى انسان هو الحال الانسانية ، ويهمنى فى الانسان العظيموسائل عظمته وطبيعتها ، وفى القديس طابع قداسته ، وبعض الملامح التى تعبر عن صلةخاصة بالعالم اكثر مما تعبر عن الطابع الفردى » .

ومن الطريف ان عددا من النقاد لاحظوا انروايات مالرو تخلو من الشخصيات الشريرة حقا، لان الشر الحقيقى العميق المتاصل يتنافى معالعظمة والسمو والنبل والتعالى ، ولا يمكن ان يتوفر نوع البشر الذين يهتم بهم مالرو فى كتاباته،والذين يكرسون انفسهم لصنع التاريخ وتغيير الوضع المؤلم للانسان ، والذين يتميزون بالبطولةوالعطاء والتضحية ويقفون من القضايا الانسانية موقفا ايجابيا بحيث يحملون عن غيرهم اعباءالحياة ، ويبعثون في نفوسهم الهدوء والراحة والطمانينة كما هو الحال بالنسبة لديجول مثلااو نهرو . وهذا النوع من الهدوء مختلف اشد الاختلاف عنالرضا بالواقع . انه الهدوء الذىينجم عن التحريض على رفض هذا الواقع ،والامل فى حياة اكثر اشراقا واكثر ابتساما ، والعمل مناجل ذلك .

وتتجلى هذه العظمة فى كثير من الافعالوالانجازات التى حققها اشخاص معينون يتميزون بالارادة الصانعة الخاصة . ويستشهد مالرو علىذلك بما كتبه سكوت Scott مثلا ,وهو يموت فى القطب الجنوبى « لقد فعلت ذلك لكى ادلك علىما يمكن للرجل الانجليزى ان يفعل » . كذلك الحال بالنسبة للذينذللوا طريقخيبر الذى يعتبرهمالرو احد الرموز او العلاقات الدالة على الارادة الانجليزية ويصفه بانه (طريق ملحمى) ويصفالذين ذللوه بانهم لم يموتوا وانما حفروا حقا وعن جدارة اسم انجلترا على هضبة البامير . ولقدكان ذلك المر ميدانا لكثير من المعارك حين وقف الوطنيون هناك يهيلون جوانب من الهملايا علىالطوابير الانجليزية فيبيدونها ، ولم ينج من الابادة الا ملازم واحد . وحين سئل : اين الطابور ؟اجاب الملازم بروح الفكاهة وروح اسبرطة : « انا الطابور » .. فهذه اذن انماط من الشجاعةوالبطولة والتحدى والعظمة تهز النفس ، وتعتبر فى نظر مالرو المعيار الحقيقى الذى يجب ان يقاسبه الانسان العظيم .

• • •

ولكن هذه العظمة تتجلىبافضل واعلى صورها فى اثنين من الساسة وكبار قادة الامم فى العصر الحديث ، اولهما هو نهرو ، والثانى ، وربما كانفى نظر مالرو اعظم الاثنين ، هو ديجول .

لقد هزه من نهرو هدوءه ,وسكينته وموهبتهفي اسكات ما يسميه مالرو « قطيع البشر » حين ظهر اليهم نهرو بشخصيته القويةالمتفردة الهادئة.ولكن لعل اكثر ما اعجبه فيه هو ما يسميه ايضا « ميزة الانسان » ، لان الموهبة وحدها ليستكافية . ولقد ذكر له نهرو انه لا يزال مؤمنا بما سبق ان كتبه فى الماضى . « قيل ان العملاللاعنيف خرافة ، ولكنه كان هنا (فى الهند) هو

الوسيلة الوحيدة الواقعية للعمل السياسى . ولكل عمل سيء نتائج سيئة .. حتى فى السياسة .. وهذا فيما اعتقد قانون من قوانين الطبيعة يضارع فى صحته اي قانون فيزيائي او كيمائي » . ثم قال اثناء الحديث : ـ « كنت اذكر راماكريشنا وقوله (لا يمكن ان يظهر الله حيث تكون الكراهية او العار او الخوف) ، ولكننى اذكر ايضا غاندى وقوله (افضل للانسان ان يناضل من ان يخاف) » . فروح النضال كانت تكمن وراء اللاعنف ، واللاعنف لا يعنى ابدا السلبية او الاستسلام .. ولقد سجن نهرو ، ولم يكن السجن بالنسبة اليه مجرد حادث عابر كما هو بالنسبة لكثير من المناضلين ، وانما كان غاية .. ويذكر مالرو انه اثناء زيارته لنهرو وبعد العشاء اصطحبه نهرو عن طريق سلم حلزونى مع بعض كبار المدعوين الى مسرح صغير اقيم تحت الارض .. « وبعد ان جلسنا مال نحوى وقال (كان السجن بالنسبة اليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة الينا غاية . وكلما القى القبض على واحد منا كان غاندى يبرق الينا مهنئا . وفى تلك الايام كان يقول : تطلب الحرية بين جدران السجون واحيانا فوق اعواد المشانق ، ولا تطلب ابدا فى المجالس والمحاكم او المدارس ») ـ **لا مذكرات** .

الا ان الشخصية التى يبدو انها فاقت فى نظره في عظمتها وقوتها وجبروتها اى شخصية اخرى عرفها مالرو عن قرب كانت هى شخصية **الجنرال ديجول** ... رجل الفعل ، الـذى يهب نفسه للقضية التى يؤمن بها .

وكانت هيبة ديجول أو عظمته تتبدى بوجه خاص من تلك المسافة التى يشعر بها الناس دائما وهو بينهم حتى وهو يتلطف معهم ، وهي نوع من المسافة الفريدة التى لاتظهر بين ديجول وغيره ممن يحدثونه فحسب ، بل انها تظهر ايضا بين قوله وشخصيته ، وهى اشبه شيء بالمسافة التى يشعر بها المرء امام العقول الدينية الكبيرة التى تبدو كلمات اصحابها العادية وكأن لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . الا أن هذه المسافة لاتعنى عدم وجود اتصال قوى بين ديجول ومن يحدثه ، ولكنه اتصال يصعب تفسيره نظرا لوجود تلك المسافة . اى ان ثمة اتصالا قويا رغم الشعور بهـذه المسافة او ذلك البعد ، وهذا فى رأى مالرو مظهر من مظاهر العظمة الحقيقية . فديجول يفرض على الانسان الاحساس بشخصيته الشاملة ، ومع انه كان دائما سيدا مهذبا فى معاملة الآخرين ـ حسب تعبير مالرو ـ فان المرء كان يشعر دائما انه فى وضع الشخص الذى يتعين عليه تقديم كشف حساب له . « لقد رأيت جنرالا يحب الافكار ويحييها فى الطريق تحية لاتكاد تحس ... كل امرىء يشعر أمامه بالمسئولية لانه كان يتحمل المسئولية فى مصير فرنسا ... هذا المصير الذى استولى عليه وملأ حياته وفكره وكان لزاما عليـه ان يكتشفه ويؤكده » . **(لامذكرات)** .

ويقارن مالرو فى **اللامذكرات** بين ديجول ونابليون ليبين مايقصد اليه فيقول : « ما ان يخلع الامبراطور دوره ، بل وفى بعض الاحيان وهو يتقمص هذا الدور ـ حتى يظهر نابليون السريع الغضب او الممثل ، زوج جوزفين ومدبر المقالب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . اما الجنرال ديجول في حياته الخاصة ليس عند معاونيه بالرجل الذى يتكلم فى الشئون الخاصة ، ولكنه فقط الرجل الذى لايتحدث فى شئون الدولة... لايرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التوانى عن ضبطها . وكان يتقبل عن طيب خاطر فى اثناء الحفلات او فى المناسبات التى يختارها

بنفسه ان يخوض فى حديث سطحى ، ولكن ذلك لايعدو ما تمليه عليه الكياسة التى لاتنفصل عـن شـخصه ... نابليون قد افزع جاراته ، امـاالجنرال فهـو فى راى جاراتـه متباعد وجذاب (جذاب معناها يحسن الاصغاء) لان هذا الرجل حتى وهو يحدثهن عن اطفالهن لايزال هو الجنرال ديجول ... » . بل ان مالرو يذهب الى ابعدمن ذلك للتدليل على قوة شخصية ديجول كرجل أفعال حين يعزو اليه أنه هو وحده الذى كان قادرا على انتشار فرنسا مـن وهدتها ومـن الاضطراب السياسي والتخبط الـذى وجدت نفسها فيه ، وانه كان يريد حقيقة ـ ووحده ـ ان يقف فى وجه الدول الشيوعية بفرنسا أخرى قوية ومستقلة ، ويعترف بان الناس لم يكونوا يعرفونه ، وبخاصة في المستعمرات ، « فهو لم يضع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرفتهم ، وكان يمتلك مـن الهيبة اكثر مما يمتلك مـن الشعبية » .

• • •

فى الصفحة الاخيرة مـن رواية « **قدر الانسان** » يقول جيسور موجها حديثه الى ماى : « انت تعرفين هذه العبارة (لابد من تسـعة أشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله) . وقد عرفنا ـ انا وانت ـ ماتنطوى عليه هـذه العبارة من صدق بقدر مايمكن ان تعرف ... ماى ، اسمعى : ان الأمر لايحتاج الى تسعة أشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لنصنع انسانا ... خمسين عاما من التضحيات .. ومن الارادة .. ومن ... اشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لايعود فيه شيء من الطفولة اوالمراهقة .. وحين يصبح رجلا حقا ـ لايصلح عندئذ الا لأن يموت » . (**ترجمة فؤاد كامل**) .وحين نضج مالرو واكتملت رجولتـه وتفكيره وكتاباتـه ، جـاءه المـوت فى نوفمبر ١٩٧٦ ،وهو فى الخامسة والسبعين من عمره .

وفى روايته « **الطريق الملكى** » La Voie Royale « يقول مالرو على لسـان احـدى شخصياته » ان مايثقل على هو ـ كيف استطيع ان اقولـه ؟ ـ قدرى الانسـاني ، وقصورى وحدودي الضيقة ، وانه لابد لى من ان تتقدم بى السن واشيخ ، وان الزمن ـ ذلك الشـيء الكريه ـ لابد من أن ينتشر فى كيانى انتشـار السرطان » ـ وقد انتشر السرطان بالفعل فى رئة مالرو حتى قتله .

ومهما كانت الآراء فى مالرو وأدبه وفنه وتفكيره بالذات في مواقفة السياسية اثناء حياته ، فقد شعرت فرنسا والعالم اجمع بفداحة الخسارة حين مات ، وخـرج مفكرو فرنسا وأدباؤهـا وفلاسـفتها جميعا لتحية البطل الذى مات ، وشاركهم فى ذلك مثقفو العالم . وخرجت فرنسا عن بعض تقاليدها العريقة لتحيته حين اطلقت اسمه على المسرح الفرنسى الذى يقع امام مسرح الكوميدى فرانسيز الشهير ، وهو اجراء لـم يسبق له مثيل فى الاغلب ، حيث تقضى التقاليد أن يمر خمسة اعوام على الاقل على موت اي شخص قبل ان يطلق اسمه على اى مكان عام ... ولكن مالرو لم يكن بالنسبة لفرنسا وللفكر وللثقافة مجرد « أى شخص » .

ولقد كتب الكثير عن مالرو اثناء حياتـه ومنذ مات فى ألعام الماضي . والدراسات الاربعة التى نقدمها هنا قام بها ن لأول مرة فى تاريخ هذه المجلة ـ اربع سيدات من المتخصصات فى الأدب الفرنسي الحديث ، وهذا اسهام جدي وجديد يضاف الى تلك الكتابات العميقة التى ظهرت فى مختلف انحاء العالم حول الاديب الثائر المغامر الفنان السياسي اندريه مالرو . وهي تحية مـن المفكرين والمثقفين العرب الى أحد رجال الفكر والثقافة العالميين الذى اتيح له ان يعرف عن قرب بعـض ملامح الحضارة العربية فى بعـض مراحل تاريخها القديم أو الحديث وان يكتب عنها بعمق وفهم وتقدير .

★ ★ ★

ضحى عبد العزيز شيحه

اندريه مالرو
التحول السياسي من الشيوعية الى الديجولية

ان الطريق السياسى الذى سلكه انـدريهمالرو لم يكن طريقا سويا ، ولم يظل في اتجـاه واحد ، فالرجـل الذى كان يميل للعقيـدة الشيوعية فى الثلاثينـات من هذا القرن لـم يلبث أن أصبح من أكبر معارضى ، بل ومحاربي الشيوعية فى وزارة الجنرال ديجـول . هـذا التحول الضخم لا يدل بأى حال مـن الاحـوالعلى ضعف أو تهاون من قبل الكاتب الاديب بل ياتى فى اطار مرحلة تطور ونضج أعمقواكبر .

لقد كان من رأى اندريه مالرو أن الوفاء المتحجر لا يمكن أن يعتبر دليلا من دلائل القيم وذلك على حد قول الكاتب الفرنسـي **فيكتـورهيجو** الذى كان قد كتب في مؤلفه **مذكـرات احد ثوار ١٨٣٠** : « انه لشناء باطل أن يقـال عن رجل ان اعتقاده السياسى لم يتغير منـذ أربعين عاما فهذا يعنى أن حياته كانت خاليـةمن التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكـرى فى الاحداث . أنه كمثل الشناء على الماء لركوده،وعلى الشجرة لموتها(١) » .

لقد كان لمالـرو مكان ومـواقف فى كلمنعطفات هذا القرن . فقد اشترك فى الاحداث التى كانت نتائجها المرجوةلاحداث تغييرات هامةفي مصائر الناس : « فقد كان فى شنجهاى عندما

(١) فيكتور هيجو ، مذكرات احد ثوار ١٨٣٠ — اكتوبر .

كان يتحدد مصير الكومنتنج ، وفي برلين لانقاذ شالمان وديمتروف . وكان في ميدلين معالطير الجمهوري ، وكذلك في تولوز داخل احد معتقلات الجستابو حيث أطلقت القوات الفرنسية بالداخل سراحه . وكان في الالزاس على راس كتيبة الالزاس لورين التي كان قائدا لها المعارك وحرص على المحافظة على الكنائس وقتئذ ، واخيرا كان مع ديجول عندما شكل حكومته(٢) » .

يعتبر اندريه مالرو الوحيد من بين المفكرين الذي لم يكتف بالكتابة دفاعا عن قضية يؤمن بها ، بل عمل ايضا في سبيل هذه القضية .

لقد اراد مالرو أن يقاوم ما اعتبره عبث الوجود الانساني ، والذي يتميز به مصيره الحياة ، والذي يحده الموت وينهيه . وقد كان مالرو دائم التفكير في الموت ، وقد كان ذلك شغله الشاغل . فقد خيم شبح الموت عليه طيلة حياته اذ راى الموت يختطف كل من أحبهم فقد مات أبوه منتحرا في عام ١٩٣٠ ، وقتل شقيقاه كلود ورولاند في عام ١٩٤٥ ، كما قتل ولداه في حادث سيارة في عام ١٩٦١ .

وقد نتج عن انشغاله الشديد بالموت أن حاول مقاومته بشتى الطرق والوسائل ووجد أن الانسان أثناء بحثه عن وسائل مقاومة الموت يستطيع مثلا أن يلجأ الى الدين والايمان لمساعدته ، فهما قد يشكلان وسيلة فعالة في هذا المجال . لكن مالرو يرفض هذا العون من قبل الدين فهو يريد أن ينقذ الانسان من مصيره المحتوم بواسطة وسائل بشرية .

اتخذ الكفاح في اعمال مالرو اشكالا وصورا مختلفة ومتعددة فذكر منها كفاح المقاوم وكفاح الثائر ، وفي نهاية المطاف كفاح الانسان الواعي بمصيره كانسان . وفي روايته **«الغزاة»** اختار جارين (بطل الرواية) طريق الثورة لانه وحده الذي يستطيع أن يولد الاحساس بالكرامة الانسانية عند الجائعين البؤساء الذين يملأون المدن الصينية « والذين يقضي الموت على دهشتهم من وجودهم في الدنيا بعد أن عانوا طيلة ثلاثين عاما من الاصابة بالجذام والسل أو الزهري وسط لا مبالاة لاحد لها من الآخرين (٣) » . كما تسمح الثورة بازالة الاضطهاد الذي يمحو شخصية الفرد ، وفي نفس الوقت تساعد الثورة على خلق هذه الكرامة التي لا غنى عنها للانسان .

« لكن هذا الطريق من وجهة نظر مالرو يعتبر مرفوضا ولا يجب التفكير فيه فهو ــ أي مالرو ــ وان لم يكن يخشى المخاطر التي يجلبها مثل هذا الارتباط الا أنه لا يوافق كلية على طرق العمل التي تترتب عليه(٤)» .

---

(٢) BIOSDEFFRE (Pierre de), Malraux, Editions Universitaires,Paris, 1969, 127 p. p. 70.

(٣) مالرو « الغزاة » ص ٢٨٠ .

(٤) MOSSUZ (Janine), Andre Malraux et le Gaullisme Paris, Armand Colin, 1970, 313 p. p. 17

بعد ان اختار طريق مالرو الثورة فى فترةما من حياته نجده يرفضه في النهاية ، لانــه لم يجد فيه الحل والعلاج الناجع لمأساة الانسان امام الموت القاهر ، ووجد أن الوسيلة المثلى للكفاح ضد هـذا العـدو القاهر هي أن يبصرالانسان ويرشـده ويوعيه بمصيره المحتوم . ويضع مالرو « الانسان نفسه فى مواجهة الموت فهو — أى الانسان — بسبب وجوده وتفكيره كأنسان ينفى عن نفسه حتمية مصيره«ويصبح»انسانا رافضا وعدوا قويا لقوى القدر(٥) » .

وتعتبر السياسة فى نظر مالرو هى المجال الامثل لممارسة الافعال التى تمكن الانسان من التعبير عـن نفســه وتاكيد وجوده . كمايعتبرارتباطه بقضية الشيوعية فى الثلاثينات ثم تحوله الى الديجولية اعتبارا من عام ١٩٤٥ مرحلتـين متتابعتين لهذا المسلك الطويل في الكفاح ضد عدوه **المـوت** وضد « موكب الضـغوط التى تلازمه ، مثـل الشر والاضـطهاد والعبـودية والقيود المتنوعة (٦) » وقد أثار مثل هذا التحول من جانب مالرو دهشـة الكثيرين ، كمـا أن الكثيرين اعتبروه تحولا جذريا ومتناقضـا من الشيوعية الى الديجولية .

وهنا نجد من الواجب علينا أن نطـرح سـؤالا يتبادر الى اذهان الكثيرين وهو : هل كان **أندريه مالرو بالفعل ماركسيا ؟** للاجـابة على هذا السؤال الهام نقول أن مالرو فى فتـرة الثلاثينات من هـذا القرن كان زميلا للثـوار الشيوعيين، وشارك فى معاركهم وتغنى ببسالتهم وأثنى على شجاعتهم فى كل من الصين والمـانيا وفي أسـبانيا .

ففى آسـيا كما هو الحـال فى أوروبـا« كان الشيوعيون دائما أول المضطهدين وأول من يشترك فى المعارك(٧) » وفى ذلك الوقت كان لزاما على كل مفكر واع وملتزم بقضية الحرية أن يساير الشيوعية اذا ما أراد أن يقاوم الديموقراطية البرجوازية او بالأحرى الفاشية » . (٨)

فمثل هذا المفكر يتبنى الشيوعية للوقوف فى وجه البرجوازية التي تفوح منها « رائحـة الموت » أو الوقوف ضد الاضطهاد الراسمالي. وهكذا نجد أن جارين أحد أبطال مؤلف الفزاه يقول « ومن المؤكـد اننى لا أشـعر تجـاه البرجـوازية التى انتمى اليهـا الا بالاشمئزاز والكراهية الشديدة ... واشعر فى أعمـاقي بأحقاد قديمة ضـدها وهى السبب الاول فى ارتباطى بالثورة(٩) » .

وفى رأى الناقد الفرنسى **روجيه ستيفان** أن مالرو « لم يرتبط بالشيوعية الا بقدر ماكانت النظرية الماركسية لا تتجـاوز مرحلة المنهـج الثورى وبقدر ما كان هذا المنهج يبدو بالنسبة

---

(٥) Ibid, p. 18

(٦) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 19

(٧) GAILLARD (Pol.), Malraux, Paris, Bordas, 1970, 224 p., p. 176

(٨) Id,. Les Critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970 191 p. Article de Roger Ste phane, Les Silences de Malraux, p. 126.

(٩) مالـرو : الفزاة ص

له وسيلة فعالة من وسائل التصدى للتخريب الفاشى(١٠) » ولكن أندريه مالرو لم يعتنق كلية الفكر الماركسى للثورة ونحن نعتبر ان راى **جاينان بيكون اكثر** حسما في هذا الشأن فهو يؤكد أن « فكر مالرو لم يتوقف لحظة عند « الحقيقة الماركسية (١١)» فهو لم يستبق من العقيدة الماركسية الاتهام التفاؤل البرجوازى والتنبؤ بهذه « الساعة الجديدة التي سوف تكون صعبة للغاية » والتى سبق ان تنبأ بها رامبو (١٢) « وهكذا نجد أن الماركسية لم تكن تشكل فى نظر مالرو دينا ولا عقيدة ،وانما كانت تشكل ارادة رفض عنيد ومتحمس للهزيمة . وكذلك تشكل ايضا احدى الوسائل الاكثر فعالية لكفاح الانسان ضد المهانة . وهذا يتفق مع ما يقوله **جيو** فى رواية « قدر الانسان »أعتقد أن الشيوعية سوف تعيد الكرامة وتجعلها ممكنة لكل من اناضل معهم « ويقول ايضا فى تعريف الكرامة انها » عكس او نقيض المهانة(١٣)

« فالشيوعية اذا تعيد للانسان الاحساس بالكرامة والخصوبة (١٤) »

وقد اكتشف مالرو أثناء كفاحه ضد عبث الوجود الانسانى ان الاخاء الانسانى هو اقوى حصن يمكن أن يقام صد عدوه القدر وهو حساس للعون النفسى الذى تجلبه المشاركة في قضية مشتركة للانسان الذى يعانى من ماساة العزلة .

فالشيوعية اذا فى نظر مالرو لا قيمة لها الا بقدر ما تقدم من قيم تحررية تمنح الانسان الاحساس بمسئوليته وذاتيته . ولكن الاسلوب الذى تطورت به الشيوعية فى الاتحاد السوفيتى فى الفترة من ١٩١٧ ـــ ١٩٤٧ جعلت مالرو يجزم بافلاس الشيوعية على الاقل في هذا البلد . وتعلق على ذلك الناقده الفرنسية **جانين موسوز** فتقول « لاحظ اندريه مالرو انحدارا مظلما جعل من الشيوعية نظاما استبداديا مطلقا . فهو اذا يقاوم بشدة النظام الستالينى(١٥) »

وعلى ذلك عندما خانت الشيوعية او الشيوعيون المبادىء الاساسية والانسانية التى فتنته ، وكانت سر انضمامه لها ، اعتبر مالرو ان تضامنه مع الشيوعية قد انتهى وكان رد فعله غاية فى العنف ضد ما اعتبره « خيانة للآمال العريضة وتغييرا للطبيعة واستسلاما لارادة الاستعباد » وهكذا حين اصبحت الشيوعية سلاح قمع وعدوان وأداة للطغيان ، وعندما بدت فى صورة مضادة للفردية تمنع الانسان من أن يعبر عن نفسه بحرية ، بل أكثر

---

(١٠) Stephane (R.) op. cit. p. 126

(١١) PICON (Gaetan), Malraux par lui-memo, Paris, Editions du Seuil, 1955, 192 p., p. 91

(١٢) Ibid., p. 92

(١٣) مالرو : قدر الانسان ص ٢٤٢ ــ ٢٤٣

(١٤) مالرو : مقدمة عصر الاحتقار .

(١٥) Mossuz (j.) op. cit. p. 108

من ذلك تجعله يحتقر نفسه ويملؤه الخجل ،حينئذ قطع مالرو كل علاقة له برفاق الطريق القدامى .

• • •

وتظهر لنا بوادر الخلاف بين مالروو الشيوعية من خلال اعماله الروائية قبل القطيعة النهائية بينهما . فقد بدأت هذه الروايات تشكك من قيمة القضية السياسية وعلى الاخص القضية الشيوعية وتظهرها وكأنها تمثل تهديدا للحرية الشخصية للانسان . فنجد أن رواياته **الفزاة** ، **وقدر الانسان** ، **والامل** (١٩٣٧) تكون مجموعة من الاعمال تعلن كلها أن الانسان لا يستطيع ، دون أن يقلل من قيمته كانسان ، أن يحرم من حقه المقدس فى الحرية .

وهذا ما يعكسه لنا حزن جارين واساه في قوله « عندما أفكر انى كنت طيلة حياتى أبحث عن الحرية ... من يمكن أن يعتبر حراهنا منظمة العمل الدولية أو الشعب ؟ أنا أم الاخرين(١٦) » أما فى رواية « **قدر الانسان** »فنلاحظ أن آراء أبطالها حول قيمة الشيوعية متناقضة فى أغلب الاحيان ، فمثلا يجد كيو فى الشيوعية وسيلة للوصول الى الكرامة الانسانية ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كونج يعتبرها مرادفة للمهانة . ونجد ان كلا من بيني وهمرلش يرى في الشيوعية طريق الخلاص ،بينما لا تجد فيها ماى الا تعبيرا عن التعصب الفكرى . وينتقد مالرو ايضا من خلال أعماله الروائية استبداد الراى عند الحزب الشيوعى وهذا بالضبط ما تفصح عنه كلمات فلوجين فى رواية « **قدر الانسان** » حتى لو كنت من عمال شنفهاى فسيكون من رأيى أن الطاعة للحزب هى الموقف المنطقى الوحيد . وفى روايته « **وقت الاحتقار** » يندد مالرو بوحشية اى سياسة استبدادية ، ولكن مساوىء الحزب الذى ينادى بتحطيم اى فكر فردى تظهر فى رواية « الامل » فيقول أن كل الذين لا يبدون الاستعداد لاعتناق ومسايرة السياسة الشيوعية محكوم عليهم ، كما يقول على لسان جلوكين «بالتغيير أو بالموت (١٧)»

ففى رأى مالرو ان الحزب الشيوعي لا يتميز فقط بقتل الحرية الشخصية للفرد لكن بالاضافة الى ذلك فهو حزب انتهازى على الرغم من استبداده بالراى . وتعكس رواية « الفزاة » ذلك فنرى أن برودين لا يتردد فى قبول اموال البرجوازية حتى يدفع لقواته روايتهم . وكذلك نجد فى رواية **قدر الانسان** أن فلوجين يقر صراحة بأن الحزب الشيوعي يستغل « الكومنتج » **وشانج كاى شك** ويضحى بالمناضلين الشيوعيين فى شنفهاى . وتظهر لنا نفس هذه الروح الانتهازية حيث نفهم من كلام فلوجين أن الفرصة سانحة أمام الحزب لاستغلال **تشن** فى حالة ارتكابه محاولة اغتيال **شانج كاى شك** ويبدو اذا ان الانضمام الى الحزب الشيوعى يهدم كل مظاهر الاصالة فى الانسان .

ولابد لنا أن نشير فى هذا الموضع الى انه على الرغم من اطار أعمال مالرو الروائية يدور حول الثورة فلا يمكن بحال أن يقال ان مالرو كان كاتبا ثوريا بالمفهوم الماركسى ، والدليل على

---

(١٦) الفزاة ص ١٨٩ .

(١٧) الامل ص ٢١٥

ذلك أن رواد حركة النقد الماركسي لم ينخدعوا بكتابات مالرو . ففي عام ١٩٣١ كتب تروتسكي بعد ظهور « الغزاة » ان مظاهر التعاطف من قبل الكاتب تجاه الصين الثائر لا يمكن التشكيك فيها ولكنها فسدت من المبالغات الذاتية والنزوة الفنية(١٨) « ويضيف تروتسكى » لو تفهم وتشبع الكاتب جيدا بالماركسية لكان من الممكن أن يتجنب المفارقات الحتمية التى من هذا القبيل (١٩) « وكتب عنه الناقد الفرنسى كلودروا فقال « ان فهم مالرو للماركسية غير عميق وانه من السهل ومن العدل اذا استرجعنا الماضي ان نجد فهمه غير كاف لها ، والذى يريد أن يتعرف على ماركس من خلال أعمال مالرو فسوف يجهل كل شيء عن تطور ونمو التحليل التاريخى ، وكذلك يجهل الطريق الذى ادى بماركس للتحول من المشاهد المذكورة فى أعمال مالرو الى العمل الثورى نفسه(٢٠)» أما جايتان بيكون فيرى أن « الثورة الشيوعية مرتبطة فى أعماله بالرمزية البحتة فقط وليس بالفحوى(٢١) »

وتقول جانين موسوز بعد أن بحثت عن الاسباب التى ادت بمالرو من زمالة الشيوعية الى القطيعة الكاملة مع الفكر الشيوعى أن هذه الاسباب ليست معروفة معرفة أكيدة .

ويبدو أن الاسباب التى دفعت مالرو الى أن يقاطع الشيوعية لا ترجع الى التفكير فى الآراء الفلسفية ، بل ترجع الى التفكير فى العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية المحددة. فهذا التفكير أوضح له عمق الخلاف وبعد الشقة بينه وبين الشيوعية . واعتبارا من عام ١٩٣٧ أصبح كل مفكر حر يعرف أن الاتحاد السوفيتي البلشفى يتحول الى دولة ذات حكم مطلق تشمل نظاما معنويا وتزمتا وطنيا ونظاما بوليسيا وتحقيقا تعسفيا وتعذيبا وقتلا (٢٢) »

لقد بدأ الاستبداد الستاليني واضحا للعيان ، ومع ذلك فلم يجاهر مالرو رسميا بشيء ضد الشيوعيين أو ضد الاتحاد السوفيتي بل حتى يصل به الحال لدرجة أن ينصح اندريه جيد بعدم نشر كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتى » .

لكن سرعان ما تبدأ الحرب العالمية الثانية ودخلها الاتحاد السوفيتى منضما لمعسكر المانيا الفاشية وأصبح الاتفاق السرى بين ستالين وهتلر على تقسيم مناطق النفوذ واحتلال ستالين لدول البلطيق وفنلندا يمثل أسبابا كافية من وجهة نظر مالرو تعفية من اى التزام ، وهكذا انفضى الاتفاق المضاد للفاشية بين مالرو والشيوعيين وأصبح مالرو حرا فى أن يقطع علاقاته مع الشيوعية .

---

(١٨) TROSKY (Léon), La Revolution Etranglee, in p. GAILLARD, Les Critiques......p. 38

(١٩) Ibid, p. 39

(٢٠) ROY (Claude), Le Marxisme de Malraux, in p. GAILLARD, Les Critiques......p. 118.

(٢١) Interrogation a Malraux, in Esprit, Octobre 1948

(٢٢) STEPHANE (R.) op. cit. p. 127

وقد قال مالرو شارحا التحول الذى طرأ على النظام السوفيتي واسباب زوال تعاطفه مع الشيوعيين « ان الايدلوجيةالاشتراكية،فى مقدمتها ماركس لم تلق بالعدل ابدا في سلة المهملات وعندما طلب مني الحزب الشيوعي،ان اتوجه الى برلين مع أندريه جيد لتسليم احتجاجات أوروبا كلها ضد الحكم على ديمتروف الذى كان بريئا من جريمة حرق المجلس التشريعى الالمانى فلم يكن الموضوع يخص البروليتاريا وحدها (...) ولم تكن نناضل لنستبدل الرأسمالية بهذه القوة الرابعة التى آل اليها بوليس الدولة(٢٣) »

وهكذا أصبح مالرو يرى فى الخمسينات أن الخطر الحقيقى الذى يجب التصدى له ومواجهته قبل اى خطر آخر لم يعد الفاشية بل الستالينية ، أى الاستعمار السوفيتي ، الذى أصبح يهدد حرية الجميع . وكذلك من بين الاسباب الاخرى التى أدت الى القطيعة بين مالرو وبين الشيوعية موقف بعض الشيوعيين أثناء حرب المقاومة الفرنسية « فقد انتاب مالرو الشعور بأن الكثير منهم كانوا يحاولون الحصول من أعضاء المقاومة الآخرين على كل المعلومات التى يريدونها دون اى مقابل (أى دون مقابلة هذا الاجراء بالمثل (٢٤) » وهذا هو نفس ما صرح به للجنرال ديجول عندما قابله فيما بعد فقال له أن الشيوعيين يستفيدون من الموقف لصالحهم الخاص لكن دون الاشتراك فيه (٢٥) » .

لكن يجب علينا ان نلاحظ أن كل هذه التحفظات التى ابداها مالرو تجاه الشيوعيين الفرنسيين لا يمكن أن تمثل حكما اجماليا أو كليا فنجد أنه احيانا كان يمتدح بعض الذين قابله منهم اثناء المقاومة وكان يقول عنهم انهم رجال عظماء . واحيانا كان يراوده الحنين حين يعود بفكره الى اخوة الكفاح القدامى ، وهذا يبدو فيما كتبه عام ١٩٤٥ عند رجوعه الى الجبهة «أثناء عودتي الى جبهة القتال (...) كنت افكر فى زملائي الشيوعيين باسبانيا وفى اسطورة البناء السوفيتي على الرغم من البوليس السياسى وفى الجيش الاحمر وفى المزارعين الشيوعيين فى الكوريز لقد كانوا دائما مستعدين لاستقبالنا على الرغم من وجود الميلشيا ... » (٢٦) لكن هذا الحنين لرفاق الكفاح القدامى كان يتوقف عندما تصبح العلاقة ليست بين شخص وآخر ، بل بين مجموعة ومجموعة اخرى .

واعتبارا من ذلك الوقت بدأ مالرو حملة الهجوم ضد الحزب الشيوعى الفرنسي لأن الشيوعية لم تعد تمثل فى نظره الا نقيضا للديموقراطية وهذا ما صرح به « لا توجد ديموقراطية عظيمة الا فى البلاد الاسكندنافية وفى البلاد الانجلو ـ سكسونية أو بمعنى أصح فى البلاد التى لا يوجد بها حزب شيوعي . » (٢٧) وانه من الآن فصاعدا سوف يقف فى وجه اقامة أى حكم

---

(٢٣) CITEPAR G. PICON, Malraux par Lui meme, p. 96

(٢٤) MOSSUZ (J.) op. cit., pp. 49-50

(٢٥) مالرو اللامذكرات ص ١٢٩ .

(٢٦) مالرو : اللامذكرات ص ١١١٨ .

(٢٧) Cite, Par MOSSUZ (J.) op. cit., p. 107

شيوعى فى فرنسا ، وانه سوف يقاوم التلاحم بين حركة التحرير الوطنية والجبهة الوطنية « التي تسيطر عليها اغلبية شيوعية حتى لا يصبح مجلس ادارة المقاومة المتحدة فى ايديهم » (٢٨) ولمنع هذه السيطرة الشيوعية على حركة التحرير الوطنية فى فرنسا بذل مالرو اقصى ما يستطيع كعضو مجلس ادارة للوقوف ضد هذا التلاحم .وكانت العداوة للشيوعية فى ذلك الوقت تعنى اولا وقبل كل شيء العداوة للستالينية « بالنسبة لهؤلاء الرجال على حد قول مالرو فان الستالينية تعنى نقيض كل المعانى والقيم التى كانوا يناضلون من اجلها » . (٢٩)

وفى رايه ان الستالينية قد خانت القضية الثورية « ان ثورة اكتوبر حاملة الامل العظيم قد غمرتها لأمد طويل موجة الحكم الاستبدادى »(٣٠) وتعبر « دعوة الى المفكرين التى وجهها عام ١٩٤٨ عن حزنه وخيبة أمله » لم يكن متوقعا أن الغد المشرق سيصبح هذا العويل الطويل الذى ياتى من بحر قزوين حتى البحر الابيض ، وان غنائهم سوف يتحول الى انين المساجين « ان الستالينية تعتبر اذا فى نظره جريمة بشعة ارتكبت ضد الفكر الانسانى . ومن ثم فان الشيوعيين الذين يمثلهم فى فرنسا الحزب الشيوعى الفرنسى يشكلون فى نظر مالرو أخطر اعداء البلاد الذين يهدفون للوصول بها الى الهلاك والدمار . ان هذا الحزب الشيوعى يمثل خطرا كبيرا ، ومما يزيد من خطورته انه ليس حزبا كسائر الاحزاب الاخرى ، بل انه عميل لقوة اجنبية هى الاتحاد السوفيتى. ويمكن القول ان انتقاده للنظام وللحزب الشيوعى وموجهيه ليس له اسباب ايدلوجيه فقط بل له اسباب اخرى ايضا اكثر خطورة . « فقد طرأ تغيير جعل من الستالينية ظاهرة تتعدى نطاق الحدود الروسية ذلك هو مولد قوة عسكرية سوفيتية حقيقية » (٣١) وعندما كان يفكر مالرو فى هذه القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفيتى محاولا معرفة قدراتها كان يشعر بشيء من الخوف من أن تصبح خطرا على فرنسا.

وبناء على ما تقدم يمكننا القول بانه فى نضاله ضد الستالينية لم يفكر الا فى مصلحة فرنسا وانه لذلك سوف يتبع مبادىء **جارسيا** احد ابطال روايته **الامل** الذى قال « لا يمكن ان نتصور العمل الا مقرونا بأساليب العمل ، فليس هناك فكر سياسى الا عند مقارنة شيء مادى بشيء مادى آخر ومقارنة امكانية بامكانية اخرى » (٣٢) ولما كانت الامكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا فى ذلك الوقت لمقاومة خطر اقامة الستالينية هى الديجولية فقد انضم اليها مالرو بقوة وكتب عن ذلك فى **اللامذكرات** « لن يستخدم الحزب الشيوعى المقاومة ضد الجنرال ديجول » .

عندما قابل مالرو الجنرال ديجول لاول مرة فى يونيو ١٩٤٥ قال له « ان الحدث الاول فى ميدان التاريخ خلال العشرين عاما الاخيرة هو اولوية الوطن » (٣٣) ونضيف نحن فنقول أنه ان كان

---

(٢٨) مالرو : اللامذكرات ص ١١٤ .

(٢٩) مالرو : اللامذكرات ص ١١٦ .

(٣٠) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 114

(٣١) MOSSUZ (J.) op.cit. p. 115

(٣٢) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٣٣) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .

الحدث الاول بالفعل فقد كان ايضا الاكتشاف العظيم بالنسبة لمالرو نفسه ، والذى كان سببا فى بدء التزامه بالديجولية .

ويمكن القول انه عند التحول من الشيوعية الى الديجولية مر بمرحلة انتقالية تمثلت فى اكتشاف الوطن . وكانت المقاومة هى التى هيأت السبيل لهذه المرحلة الانتقالية فلم تكن حرب ٣٩ ــ ١٩٤٥ صراعا طبقيا ولكنها كانت نضالا ضد امبريالية اشد خطرا من غيرها لانها كانت فى نفس الوقت عنصرية .

وهكذا امتزج النضال فى سبيل العدل والحرية بالنضال القومى واشترك جميع المفكرين سواء منهم من كان من اليمين او اليسار فى هذا النضال ضد النازية فعلى سبيل المثال نجد ان اراجون وهو من الكتاب الشيوعيين يتغنى ويقول « حزبى اعاد لى الوان فرنسا حزبى حزبى شكرا لدروسك » (٣٤) ويقول مالرو « اثناء المقاومة تزوجت فرنسا ولم اكن الوحيد » (٣٥) وقد بدت فرنسا فى نظرة فى هذه الفترة فى اجمل صورها من الاخاء والتضامن « (....) كانت فرنسا تتمثل فى تلك الفلاحة التى تراك مارا وانت محاط بدورية المانية فتتصور أنها سوف تنفذ حكم الاعدام فتتقدم نحوك خطوة وتنظر اليك فتشير برمز الصليب فى منطقة لايذهبون فيها الى القداس (٣٦) . وقد ساعدت عدة عوامل على ظهور وطنيته الشديدة : أولها مشاهدته لموت زملاء النضال والجنود الذين استشهدوا على أرض الوطن وكان من المستحيل أن لايؤثر ذلك فيه تأثيرا بالغا » وتحول حب الوطن الى وفاء لهؤلاء الرجال ووفاء للمتطوعين الذين حاربوا تحت قيادته « وكما كان لزاما عليه حتى يلغي فكرة مواجهة الموت أن يضع من الآن فصاعدا الوطن قبل كل شيء » (٣٧)

ومن بين الاسباب الاخرى التى ساعدت على ظهور وطنيته ما شاهده أثناء زيارته لالمانيا بعد الحرب ، وما رآه من مناظر الهدم ، فتصور بخوف شديد ما كان يمكن أن يحدث لفرنسا لو انتصر هتلر فقد كان من الممكن أن يصبح الوطن الحبيب « د'را شاسعة للموتى » (٣٨)

وهكذا نرى أن خوفه وحرصه على وطنه زادا من ارتباطه به فلأول مرة فى حياته يحارب مالرو على الأراضى الفرنسية وفى سبيل وطنه فرنسا « فى عالم اندريه مالرو سوف تبقى آثار هذا النضال الجديد لن تمحى ابدا ، وسوف يكون لوطنه منذ ذلك الوقت قيمة أكبر لم تكن له من قبل » (٣٩) وسوف تبدو له نتائج هذا النضال أكثر فاعلية لأنه كان يحارب لمصلحة وطنه وليس لمصلحة الآخرين » .

---

(٣٤) ARAGON (Louis) La Diane Francaise

(٣٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٣٦) حديث ادلى به الى جابريل دوباريد . GABRIEL D'AUBAREDE

(٣٧) Mossuz (J.) op.cit., p' 35

(٣٨) Ibid, p. 36

(٣٩) Ibid, Loc. cit.

فهم مالرو فجأة فى ذلك الوقت سبب فشلت . أ . لورانس فى بلاد العرب وفشل بر
عند قبائل مويس وفشل « جارين » فى كانتون وفشل فانسان برجيه فى السهوب الأفغانية
« ان التهجين لا يجدى مع الاجسام الغريبة فحتى أسبانيا الجمهورية اضطرت للانفصال
القوات الدولية التى ساعدتها بكل بسالة وكان ذلك أمرا صعبا عليها ويعطينا كل من ثوار
٩٢ والثوار الصينيين والجمهوريين الاسبان نفس الدرس وهو وجوب العمل فى وطن ال
نفسه قبل اى مكان آخر » (٤٠) وهذا نفس ما صرح به الكاتب لجانين موسوز أثناء حد
جمعهما بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٦٨ « لايمكن صناعة وطن الآخرين » (٤١)

اذن فقد اكتشف مارو وطنه ونظرا لحرصه على مستقبله فقد بدأ يتساءل عن القوى
تتصارع داخله وكذا عن مستقبل النظام السياسى الفرنسى . واعتبارا من ذلك الو
فسوف يبدأ مالرو القتال والنضال فى ميدان آخر ليس ميدان المقاومة او الجبهة بل ميدان السي
واصبحت فرنسا من الآن فصاعدا هى الأهم بالنسبة لمالرو ، واصبح للفكرة الوطنية والا
بجانب شخصية بطل تمثل الأمة قيمة خاصة لديه فهى الوحيدة التى يمكن ان تدوم .

لقد اصبح واضحا لمالرو فى عام ١٩٤٥ والاعوام التالية ان القوتين الحقيقيتين الوحيد
اللتين تمتلكان الفرصة لحكم فرنسا هما الديجولية والشيوعية . ولكن كما ذكرنا
مالرو يرفض الشيوعية التى انحصرت فى ذلك الوقت فى الصورة الستالينيه فقط والشيو
لا يمكنها انقاذ فرنسا بعد سنوات الحرب . ولكن الديجولية هى الوحيدة التى بوسعها انقاذه
فالشيوعية تبغى صراع الطبقات ولكن الديجولية تهدف الى « تجميعها » .

والجنرال **ديجول** هو الرجل الذى يستطيع ان يفرض على فرنسا سياسة تتمثل فى العظ
والحرية وهى السياسة التى كانت تتبعها فرنسا على الدوام . فالديجولية اذاً فى نظر مالرو ت
وكأنها الامل الوحيد فى البقاء . وعلى هذا نراه يعرف الديجولية للجنرال ديجول فيقـ
« اثناء المقاومة كانت الديجولية فى نظري شيئا يشبه الاهواء السياسية فى خدمة فرنسا كنقي
لفكرة فرنسا فى خدمة الاهواء السياسية سواء كانت يمينيه أم يسارية وبعد ذلك اصبح
شعورا بالنسبة لى » (٤٢)

ولكن السبب الرئيسى لتفرق الديجولية فى نظر مالرو هو انها كانت تمثل الاسطورة الوط
فالديجولية ليست عقيدة من السهل تعريفها مثل الماركسية أو الفاشية ولكنها « حركة س
وطنى » (٤٣) وارادة وطاقة .

والديجولية كما يتصورها اندريه مالرو « تجد مكانها فى التقاليد الوطنية الثورية بعـ
ميشليه وبيجي وباريس والجنرال ديجول ، نجد ان مالرو يتغنى بالثورة والوطن دون ان يفـر

---

(٤٠) Gaillard (Pol) Andre Malraux, p. 190

(٤١) Entretien avec J. Mossuz, 22 avril 1968

(٤٢) مالرو : شجر الزان الذى يقطع ص ٩٥ .

(٤٣) Carrefour, No. 195, Mercredi 31 mars 1948

بينهما » (٤٤) وتعتبر أيديولوجيته الديجولية ايمانا منه بقدرتها على اقامة عالم افضل ليس بمقدور احد غير شارل ديجول ان يبنيه ، اذ بالنسبة لاندريه مالرو فان الديجولية بدون ديجول « لايمكن تصورها » (٤٥)

ربما يبدو مفيدا أن تتوقف قليلا للبحث عن اسباب هذه الثقة الكاملة من قبل مالرو نحو شارل ديجول ترى متى وكيف تقابل الرجلان ؟

لقد قابل مالرو الجنرال ديجول لأول مرة في باريس عام ١٩٤٥ وذلك على العكس من الحكاية التى روت انهما تقابلا على جبهة الألزاس لورين في خريف عام ١٩٤٤ . وينفي مالرو نفسه هذه الرواية بقوله «ان المشاعر التى تربطني بالجنرال ديجول قديمة على الرغم من الرواية التقليدية حول مقابلتنا الأولى والتى هى من نسج الخيال، فمن المؤكد ان الجنرال ديجول لم يقل عنى فى الالزاس العبارة الشهيرة التى قالها نابليون عن جوته (« اخيرا قابلت رجلا ») وذلك لسبب بسيط هو ان على جبهة الالزاس لم يحدث أن قدم الكولونيل برجيه (الاسم الحركى لمالرو) الى الجنرال ديجول » (٤٦)

حقا تمت محاولة تقارب بينهما فى نوفمبر ١٩٤٠ بعد هروب مالرو الاول من الاسر فقد كتب مالرو لرجل ١٨ يونيو (ديجول) يعوض خدماته كطيار ولكنه لم يتلق ردا على خطابه فاعتقد أن اشتراكه غير مرغوب فيه وذلك بسبب اشتراكه فى حرب اسبانيا . ولكنه فيما بعد اكتشف أن خطابه هذا لم يصل على الاطلاق الى الجنرال ديجول . ولكن فى ذلك الوقت ورغم ذلك كان مالرو قد فهم نداء رجل ١٨ يونيو (ديجول) الذى جاء فيه : « مهما حدث فان شعلة المقاومة لا يجب ان تخبو ولن تخبو » (٤٧)

ولكن قدر لمقابلتهم الشخصية الأولى ان تتم بعد ذلك بخمس سنوات أى فى يونيو ١٩٤٥ . وقد تمت أول محاولة تقريب بين الرجلين باسم فرنسا ، وقد أعطانا مالرو شرحا تفصيليا لهذه المقابلة الاولى وللظروف التى تمت فيها وللعوامل التي ساعدت على نجاحها وذلك فى مؤلفه اللا مذكرات . ففى ذات مساء اتصل به تلفيونيا شخص غامض لم يفصح مالرو عن اسمه أو شخصيته فى روايته وأبلغه ان لديه رسالة شفوية هامة يجب أن يوصلها له وطلب أن يقابله مساء اليوم نفسه . وبعد مضي بضع ساعات وصل الزائر الغامض وسأل مالرو دون سابق مقدمات أن الجنرال ديجول يسألك باسم فرنسا هل أنت على استعداد لمعاونته « وعلق مالرو على ذلك بقوله » كانت العبارة غريبة »(٤٨) وقبل مالرو الدعوة وانتظر تحديد موعد المقابلة الاولى مع الجنرال ديجول .

---

(٤٤) Mossuz (J.) op.cit. p. 135

(٤٥) Carrefour, No. 284, 23 Janvier 1952

(٤٦) مالرو ، اللامذكرات ص ١١٤ .

(٤٧) شارل ديجول ، خطابات وكلمات (١٩٤٠ – ١٩٤٦) ص ٤ .

(٤٨) مالرو اللامذكرات ص ١٢٣ .

وقد كشفت **جانيين موسوز** عن شخصية هذا الزائر الغامض بقولها « يبدو ان الزائر الغامض لم يكن الا جاستون بفلسكى الذى تعرف واعجب بمالرو عند مقابلته عند كورنيليون مولينيه » (٤٩)

وبعد ذلك بايام تلقى مالرو دعوة لمقابلة الجنرال ديجول فى وزارة الحربية ، وتعلق جانيين موسوز على هذه المقابلة فتقول « من اللحظات الأولى ساد تفاهم حقيقي واتفاق عميق بين الرجلين (٥٠)

وقد بدا على الفور حديث غريب بين اندريه مالرو والجنرال ديجول ، فقد كانت كلمات الجنرال مختصرة وفى صورة اسئلة قصيرة كان يرد عليها الكاتب الفرنسى باسهاب ، ويبدو من وجهة نظرنا ان الجنرال كان يود معرفة « ماضى » هذا الرجل فى الفترة التي لم يكن يعرفه خلالها والتي كان يتوقف عليها مصير ومستقبل علاقتهما بعد ذلك . ويبدو ان مالرو فهم مايدور بخلد الجنرال فنراه يرد عليه يشبع فضوله ويرضيه قائلا : « لقد تطوعت فى نضال من اجل العدالة الاجتماعية ان صح القول او لاكون اكثر دقة لاعطاء الانسان فرصته » (٥١) وكان مالرو حتى ذلك الوقت قاد النضال خارج حدود فرنسا الى ان جاءت بعد ذلك **« الحرب الحقيقية ثم بعد ذلك تلتها الهزيمة وككثيرين غيري تزوجت فرنسا »** (٥٢) وكانما نطق مالرو بالكلمة السحرية التي تفتح جميع الابواب وهي **« فرنسا وحب فرنسا »** ثم تناول الرجلان بعد ذلك بالحديث مسائل اخرى ، وأدى اتفاقهما فى الراى وتلاقى وجهتى نظرهما الى زيادة قوة التفاهم بينهما .

لقد تحدث مالرو فى هذا اللقاء بافاضة فى المواضيع التى تحتل المكانة الأولى فى تفكيره ، وهى اكتشاف الوطن والشيوعية وخطورتها وموقف المفكرين ... الخ ولم يكن ديجول يقاطعه بالمرة رغبة منه فى اعطاء الكاتب الفرصة فى التعبير عن نفسه وعن آرائه وتصوراته وآماله بكل حرية .

وبعد أن تعارفا وزال الجمود وذاب الجليد بينهما وتلاقت وجهتا نظرهما واتفقا فى الرأي بدآ يفكران معا فى الموضوع الذى يشغلهما ويسبب لهما الارق وهو مستقبل فرنسا ، فقال ديجول « لقد اعدت الجمهورية ويجب عليها ان تعيد بناء فرنسا » (٥٣) ومنذ هذا اللقاء فصاعدا فسوف يعمل الرجلان بكل جهد لتحقيق هذا الحلم المشترك .

شكل الجنرال ديجول وزارته فى يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٥ وكان مالرو وزيرا للاعلام بها ونجد لدينا فى اللامذكرات تعليقة على هذا المنصب الهام والدور الذى لعبه فيقول : « لقد كانت مهمة مفيدة وكان المراد منها بصفة خاصة منع كل حزب من ان يستغل الموقف لصالحه » (٥٤) ولقد كانت مهمة

(٤٩) Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥٠) Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥١) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٢) مالرو : اللامذكرا ت ص ١٢٥ .

(٥٣) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٤) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٦ .

شاقة وعسيرة فى نفس الوقت لانه وديجول كاناعلى وعي بهـذا « التسابـق بين الاحـزاب على التضليل » (٥٥) وهو التسابق الذى سبب تحطيم الحلم الجميل الذى كانا يحلمان به وهو الوحدة الوطنية .

وفى ٢٠ يناير ١٩٤٦ ترك ديجول الحكم وهويتهم « نظام الاحزاب بالتحيز » وكما كان متوقعا فان اندريه مالرو ترك الوزارة فى نفس الوقت وتبع رجل ١٨ يونيو فى عزلته فقد كان محالا عليه ان يتصور الديجولية بدون بطلها شارل ديجول وقرر الا يعود ابدا الى اضواء الحكم طالما ان الجنرال ديجول لم يعد للحكم مرة ثانية ويتنـاول مصير فرنسا بين يديه .

ولحسن الحظ ان الديجوليين لـم يفقـدوا الامل ابدا ، ورفضوا البقاء فى عزلة دون عمل او نشاط ، وكان هدفهم الذى وضعوه نصب اعينهم هو اعادة الجنرال ديجول الى الحكم . وحتى يتهيأ هذا الرجوع يجب عليهم أن يتحدوا فى « حـركة رائدة يجب ان تكون مختلفة عن التنظيمات الاخرى الموجودة وتكون مزودة بروح المقاومة ويجب عليها ان تحاول تجميع كل فئات الوطن تحت قيادة رجل واحد » (٥٦) .

كان هذا هو الحلم الذى يراود مالرو ايضا وللعمل على تحقيق ذلك نشأت حركـة تجميـع الشعب الفرنسى فى يوم ٦ ابريـل ١٩٤٦ وعـين مالرو مندوبا للدعاية بها . لم يكن العملاقان مالرو وديجول متفقين على طول الخط بخصوص الطرق والوسائل التى يجب ان يسلكها التجمع للوصول الى الحكم .

لقد حاول مالـرو ان يطبق المعادلـة التى اعطاها « لجارسيا » فى رواية **الامل** وهى « لاتوجد فكرة سياسية الا عند مقارنة شىء مادى بشىء مادى آخر او مقارنة امكانية بامكانية اخرى (...) وليس بمقارنة تنظيم برغبـة او حلـم تغيـيـر شامل » (٥٧)

وكان مالرو يتمنى ان يكون التجمع باعثا على تغيير شامل جديد ، ومع ذلك فقد حذره ديجول حينما تقابلا لاول مرة عام ١٩٤٥ قائلا « لاتـدع الامر يلتبس عليك فان فرنسا لاتريد ثورة بعد الآن فقد مضى زمن الثورات » (٥٨)

لكن كان هـدف مالـرو ان يكون التجمـع « حركة ثورية » تستولى على الحكم حتى لـو اضطرت الى استخدام القـوة والعنـف وان تاتي بسياسة اجتماعية . وعن ذلك تقـول جانـين موسوز « كـان مـالرو يكرس التجمع ليستولي فجـاة على الحكـم وان يحـرر فرنسـا المكبلـة بالقيود » (٥٩)

---

(٥٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٣٦ .

(٥٦) J. Mossuz op.cit., p. 64

(٥٧) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٥٨) مالرو : اللامذكرات ص ١٣١ .

(٥٩) J. Mossuz, op.cit. p. 67

ولكن كيف يمكن الوصول الى الحكم ؟

هناك امكانيتان يمكن استغلالهما للوصول لهذا الهدف أولهما احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة والتى يكون الاتحاد السوفيتي مسئولا عنها ، وفى هذه الحالة يهب الديجوليون الذين فى الحكم لسد الطريق امام الشيوعيين . أما الامكانية الثانيــة فتكون بخلق موقف ثورى يهيىء السبيل لانقلاب يقوم به الديجوليون .

لكن تجمع الشعب الفرنسى جاء مخيبا لآمال كل من مالرو وديجول ، وبالتالي ابتعد عنه مالرو تدريجيا . اما اسباب انفصاله عنه وزوال المحبة تجاه هذا التجمع فهي عديدة . منها ان مالرو لم يتخل نهائيا عن حلم العدالة الاجتماعية ، وكان يتحتم على التجمع فى تصوره ان يرفع القيم التى يدافع عنها حزب اليسار بوجه خاص ، كما كان مالرو بالاضافة الى ما سبق يحلم بنظام ديجولي كريم وبرجال ديجوليين فى خدمة الانسان ، وكان يحلم برؤية الجنرال ديجول ملتفا حوله الرجال الذين قابلتهم منذ سنوات فى صفوف المناضلين ضــد الفاشية الذين حاربوا فى مقاومة الكوريز وكل من كانوا يكونون فى نظره شعبا بأكمله (٦٠)

هذا التجمع بعد ان غمرته اغلبية من حزب اليمين أصبح هو نفسه تجمعــا لليمين . وسبب آخر لنفور مالرو ولخيبة امله وهو غياب المفكرين الذين كان يحلم بتجمعهم حول ديجول . وفى عام ١٩٥١ رفض مالرو ان يكون ممثل تجمع الشعب الفرنسى فى الانتخابات التشريعية وبذلك الرفض عبر عن ارادته ورغبته فى قطع كل الصلات بينه وبين تنظيم لايرجو منه شيئا .

وفى عام ١٩٥٣ حل ديجول التجمع وسمح لزملائه بحرية التصرف كل حسب مايراه وهكــذا انتهى عمر تجمــع الشعب الفرنسي . وعنــدما تكلم عنه مالرو بعد ذلك بعدة سنوات فانه لم يخف مرارته قال «منذ ان بدأ فيه التجمع يتصرف كحزب مشابه للاحزاب الاخــرى فقد كــل معنى لــه فى نظــرى » (٦١)

ان اشتراك ومساهمة مالرو فى نشاط هذا التجمع ، وكذلك جهوده التى قام بها لانجاحــه تستحق منا كثيرا من الاهتمام . فقد كان مالرو بصفته كاتبا على حد قول جانين موسوز « الوسيط الامثل بين الجنرال ديجول ومجموعة من القراء المجهولين » (٦٢)

وقد حدد مالرو لنفسه المهمة التى يقوم بها ، وهى الكفاح لنشر الديجوليــة وفى نفــس الوقت فضح الشيوعية وسوف تتولى المجلة الشهريــة تحقيق هذين الهدفين اللذين سوف يكمل بهمــا التجمع وكانت هذه المجلة تسمى « حرية الفكر » وكان العنوان وحده يمثل برنامجا ومجاهــرة بالعقيدة . ولكن للاسف لم تــدم هذه المجلــة واختفت نهائيا عام ١٩٥٣ .

---

(٦٠) Mossuz (J.) op.cit., p. 89

(٦١) جاء فى جريدة الحدث « L'Evenement » عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

(٦٢) Mossuz (J.) op.cit., p. 74

وبصفة مالرو مندوبا للدعاية عن التجمع فقد اراد ان يرتبط بالديجولية فى مظاهرها « التاريخية » والعظيمة وكان تجمع الشعب لفرنسى يهمه بوجه خاص لانه يبدو كتعبير وقتى للديجولية » (٦٣) كما يجب على الديجولية ان تمثل « مدرسة طاقة » (٦٤) لكل الفرنسيين .

من اجل ذلك كان على التجمع ان يسلك طرقا مختلفة عن طرق واساليب الاحزاب الاخرى تتميز بانها مجردة تماما من الخسة والدناءة .ولكى يعمل على ايجاد اتصال مباشر بين الأمة باسرها والرجل الذى سوف يمثلها بدا اندريه مالرو حملات « السلام العام » التى كان يهدف من وراءها الى اثبات متانة وقوة الروابط التى تجمع بين الجنرال ديجول والشعب الفرنسى .

لكن كما ذكرنا من قبل لم ينجح الشعب الفرنسى فى اداء المهمة المحددة له طبقا لاحلام وآمال كل من الجنرال ديجول وصحبه من الديجوليين ، وبدا اندريه مالرو يكرس وقته كله لكتابة اعماله الفنية العظيمة التي كان قد بدا العمل فيها عام ١٩٣٥ . واستمر كذلك حتى عاد ديجول الى الحكم فى مايو ١٩٥٨ فأسرع مالرو بالحضور اليه من فينيسيا وقال له ضاحكا « لدى شعور بأنى ذو فائدة » .

وللمرة الثانية نجد مالرو يقص علينا فى اللامذكرات لقاءه مع الجنرال ديجول فى باريس فى فندق لابروز . ويشرح عودة ديجول الى الحكم فيقول « لم تفارقه ابدا العزلة الشديدة التي تركها ليبدأ المفاوضات ، وكذلك ليتولى مصير فرنسا الذى كان يلاحقه منذ سنوات طويلة . لم يطرأ اى تغيير على حديثه الرصين مع هذا الظل . وفى هذه الايام التى كان يعتبر فيها الاشخاص الذين يطالبون بعودته بشدة فاشيين والتي كان فيها اكثر من يهاجمونه هم الشيوعيون والتي كانت فيها فرنسا محكوم عليها بتلاحم الاحزاب المستبدة لم يكن يفكر هو الا فى اعادة بناء الدولة » . (٦٥)

ولقد استمر اندريه مالرو وزيرا للثقافة فى حكومة ديجول حتى عام ١٩٦٩ . وظل التزامه بالديجولية يتسم بنفس الدرجة من الامانة والاخلاص النادرين والحق ان اخلاصه كان تاما فلم يحاول ابد خيانة التضامن الذى يربطه بالحكومة على الرغم من انه لم يكن يوافقها على طول الخط « ولابد ان سكوته فى بعض الاحيان وكذلك فى بعض المواقف كان شاقا عليه » . (٦٦)

كذلك اصبح مالرو المدافع الكبير عن الديجولية التى سوف تسلك « سياسة التاريخ » والتى تمثل فى نظره قيمة اكبر من « سياسة رجال السياسة » . (٦٧)

---

(٦٣) Mossuz (J.) op.cit., p. 78

(٦٤) جاء فى جريدة التجمع . Le Ressemblement عدد ٥٣ ، السبت ٢٤ ابريل ١٩٤٨ .

(٦٥) مالرو : اللامذكرات ص ١٤٩ .

(٦٦) Gaillard (p.) Andre Malraux, p. 183

(٦٧) جاء فى جريدة التجمع Ressemblement ، عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

وظل مالرو يبذل ما فى وسعه جاهدا لهدم الادعاءات التى يسوقها اعداء الديجولية . وكان يرد على الذين يتهمون النظام بالفاشية ورئيس الدولة بانه دكتاتور بقوله « ان الجنرال ديجول ليس فاشيا والدليل على ذلك اننى معه ، ولدى اربع عشرة اصابة فى سبيل الحرية » . (٦٨)

ولقد ادرك مالرو ببعد نظره وشفافيته ان سبب هذا الاختلاط بين الفاشية والديجولية يعود فى المقام الاول الى عدائهما للشيوعية . ومن ثم فقد عمل على وضع تمييز بين هذين النظامين ، فقال ان لكلا النظامين عدوا مشتركا هو الشيوعيـــة ولكنهما يحاربانه لاسباب متناقضة « فالنازية تحاربها لكونها شيوعية اما الديجولية فتحاربها لانها الستالينية » . (٦٩)

فعندما تكون الديجولية هى الحاكمة والسائدة فان ذلك يبشر ببدء عصر جـديد هـو عصر الأمل ، ولسوف تولد فرنسا من جديد ولسوف تعود الى صورتها الحقيقية . ولكن لكي يتم تحقيق ذلك كله فيلزم كما اوضـــح مالـــرو ان يتعـاون الفرنسيون ويتكاتفوا ويتحدوا ويجمعوا صفوفهم حتى يبدأوا بناء وطنهم من جديد وفقا لاساليب العالم الحديثة .

لقد ظل اندريه مالرو فى الوزارة بجوار الجنرال ديجول بصفته وزيرا للثقافة وذلك حتى عام ١٩٦٩ . لكن عندما سقط ديجول فى الاستفتاء بعد احداث مايو ١٩٦٨ ترك الحكم . ومثلما حدث فى المرة الاولى تبعه وزيره وصديقه الحميم فى عزلته دون اى تفكير او تردد .

وهكذا ينتهى فصل من حياة ديجول الحافلة ويسدل الستار على تدخله فى تاريخ فرنسا بعد ان ترك بصماته وآثاره التى لن تنسى . ويشرح ديجول بنفسه الدور الذى لعبه بالنسبة لوطنه فيقول « لقد كان بينى وبين فرنسا عقد (...) لقد كان عقدا دون ما سند من حق ورائى وبدون استفتاء وبدون اى شىء على الاطلاق ، لقد كتب على ان آخذ على عاتقى الدفاع عن فرنسا وكذلك الدفاع عن مصيرها ، ولقد استجبت الى نداءها الصامت والآمر الذى لا يحتمل الرفض » . (٧٠) لقد كانت فرنسا متسلطة على ديغول ، كما كانت البروليتاريا متسلطة على لينين وكما كان الحال بالنسبة لماو والصين ونهرو والهند (...) . لقد تزوج ديجول من فرنسا قبل زواجه من ايفون فاندرو » . (٧١)

وربما يفسر لنا ما سبق السبب الرئيسي لهذا الاتفاق القوى الذى لم يشهد اى صدع ولم يمر بفترات فتور والذى جمـــع بـين الرجلـين العظيمين لمدة تجاوزت العشرين عاما والذى بدأ منذ مقابلتهما الاولى فى عـــام ١٩٤٥ . وتعتقـــد جانين موسوز ان مقابلة الرجلين كانت اشبه ما تكون بمقابلة « رجلين يشعران بالوحدة والعزلة ، رجلين يميز بينهما وبين سواهما توفــر موهبـــة التنبؤ لديهما ، رجلين استبعدا بسبب ذكائهما التنبؤى . لقد كان ينتاب كلا منهما شعور غير

---

(٦٨) محاضرة القاها مالرو فى ساوباولو ، يوم ٢٦ اغسطس ١٩٥٩ ونشرت بجريدة لوموند يوم ٢٨ اغسطس ١٩٥٩ .

(٦٩) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ١٩ ــ ١٨ .

(٧٠) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ١٩ .

(٧١) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ، ص ٢٠ .

(٧٢) Mossuz (j.) op.cit., p. 55

عادى بالعظمة ، وكانا يبحثان على الدوام عن هذهالعظمة وبفضل ذلك كانــا متشــابهين » (٧٢) وينسب « بييردى بواديفر » أسباب هذا التوافق والانسجام بين الرجلين الى ما اسماه « عزلــة متشابهة وشغف متشابه بالافعال التي تتســم بالعظمة » وكذلك الى تمتع كل منهما بنفس قوة الارادة وقوة الاحتقار . (٧٣)

• • •

على ضوء ما تقدم يمكننا اذا القول بان العزلــة المشتركــة هى التي قــربت بين الرجلين .
فمن جهة كان شارل ديجول يقف وحيدا فى عالم التاريخ وربما كان نداء ١٨ يونيو « بمثابة اعلان لهذه الوحدة القاه الى كل من يريد ان يضمهم الى عالم التاريخ هذا » . (٧٤) ومن جهة اخرى كان اندريه مالرو يقف وحيدا هو الآخر حتى عندما كان فى وسط الزحام وهو يناضــل مــع الآخرين ، وحول هذا المعنى تقول جانين موسوز « ان انضمامه الى هذه المعارك كان يحتوى على صفة ميتافيزيقية ملحة كان الهدف من اقحام نفسه فى قضية اجتماعية هو أن يتحدى الموت وينكره ويتغلب عليه . وهكذا نظرا لعدم استطاعته ان يمزج اهدافه بأهداف الآخرين فقد ظل وحيدا وسط الجماعات الاكثر التئامــا ، والحشــود الأشد ازدحاما » (٧٥) وعلاوة على هذه الوحدة التى جمعت بينهما يمكننا ان نضيف صفة اخرى مشتركة ايضا بينهما هى الحلم بالعظمة والرقى وهي صفة تعتبر من اشد عوامــل تفاهمهمــا . ومصداقا لذلك نجد ان مالرو كتب فى اللامذكرات « الذى يهمنى (...) فى اى رجل عظيم هى الوسائل التى توضح عظمته وطبيعة هذه العظمة » (٧٦) .

لقد فتن كل من الرجلين بقوة شخصيــة الآخر ، كما وجد كل منهما لدى الآخــر نفس الموقف الاخلاقى تجاه الاحداث التي دافع عنها بقوة . وحول ذلك تقول جانين موسوز أن « كلا منهما قد جعل من الارادة التى بمفردها تساعد على الفعل مبدأ أساسيا » . (٧٧)

لقد وجد كل من ديجــول ومالــرو عنــد الآخر تجسيدا للآمال والاحلام التي كان ينشدوها دون الوصول اليها .

وتضيف الكاتبة الفرنسية فتقول « لقد قابل اندريه مالرو رجلا (نقصد ديجول) علــى الرغم من انه كتب نانه قد نجح فى فعله وأوصله الى النهاية المرجوة (....) ومن ناحية اخرى فقد قابل ديجول رجل افعال استطاع ان يجعل من أعمالــه الروائيــة عالمــا مطابقــا لعالــم القــرن العشرين » . (٧٨)

---

(٧٣) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 7
(٧٤) Mossuz (j.) op.cit., p. 55
(٧٥) Ibid, Loc. Cit.
(٧٦) مالرو ، اللامذكرات ، ص ٢٠ .
(٧٧) Mossuz (j.) op.cit., p. 55
(٧٨) Ibid, p. 56

لقد بدا ديجول بالنسبة لمالرو منذ اول لقاء بينهما كرجل استطاع ان يحقق احلامه « أما بالنسبة لمالرو فقد اكتشف رجلا عظيما » . (٧٩)

ولم يقتصر الامر على ما سبق ذكره فقدعزا نقاد آخرون قاموا ببحث أسباب التفاهم التام بين مالرو وديجول الذى كان مثارا للاعجاب الى موقفهما الموحد ضد الشيوعية أو الستالينية.

ويجدر بنا ان نذكر هنا جزءا مما كتبه مورياك فى جريدة الفيجارو : « عندما كان باريس (BARRES) فى الخامسة والعشرين من عمره ممثلا لحزب بولنجييه بمدينة نانسى كان دوره يتلخص فى ان يقوم باتباع حصان اسود ورجل ذى لحية شقراء يرتدى الزى العسكرى ، أما مالرو وهو فى عنفوان الشباب فنجده يرتبط بقائد يعتقد انه ليس بقادر على تغيير المصير الفرنسى فحسب بل ايضا على منع تحقيق أطماع ستالين فى اوروبا .

فى الواقع أن كفاح هذا الرجل الذى يمكن ان نقول عنه انه مثل سيدنا داوود غير مرتبط بأى سن أو زمان كان كفاحا موجها قبل كل شىء ضد ستالين العظيم . لقد كان يحارب ستالين اكثر من انه كان يحارب مع ديجول .

هل ينبغى ان اقول ما افكر فيه صراحة ؟انني اعتقد ان اندريه مالرو كان يتميز بشىء من الكبرياء لدرجة انه يعتبر ديجول ورقة تعضد لعبته » (٨٠)

هذا ورأى نقاد آخرون فى المعاونة بين فانسان برجيه (Vincent Berger) وآنفر باشا فى رواية « شجر الجوز فى اللالتنبرج » تجسيدا مسبقا لما سوف يكون عليه التعاون بين مالرو وديجول بعد ذلك .

فنجد برجيه يقول فى رواية **شجر الجوز فى الالتنبرج** « انه من الصعب علينا الآن نظرا لقوات الوقت أن نؤثر على الاحداث لذا لا يمكن الا استخدام رجل ، وهذا الرجل لا يمكن الا أن يكون آنفر باشا » . (٨١)

ويعلق جايتان بيكون على ذلك قائلا « علينا ان نستبدل اسم آنفر باشا باسم ديجول وربما سوف نتوصل الى فهم شخصية وتفكير مالرو بالامس » . (٨٢)

أما بيير دى بوادفر فيقول ان مالرو تبع الجنرال ديجول كما تبع « برجيه » آنفر باشا ، وذلك لكى ينتزع من ايدى افراد مقاومة سبتمبر ورجال السياسة فى الجمهورية الرابعة فرنسا التى كانت مفككة ومشتتة التفكير » (٨٣)

---

(٧٩) Ibid, Ioc. cit.

(٨٠) Mauriac, article parudans le Figaro, cite par Gaillard (p.) Les critiques.- p. 14

(٨١) مالرو ، شجر الجوز فى اللالتنبرج ص ١٤٦ .

(٨٢) Cite par Gaillard (p.) Les critiques......p. 109

(٨٣) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 20

وبالنسبة لجورج مونان فمن رايه أن مالرو قد وجد فى ارتباطه بديجول والتزامه بالديجولية الفرصة التى كان يحلم بها لكى يلعب الدور الذىقد يتمناه فكتب « وهو نفس مالرو الذى أعطى الى بركن فى رواية **الامل** تلك الصرخة الصادرة من شخصية انسان ذي طموح بسكالى : « اريد ان اترك اثرا على هذه الخريطة » والذي يمكنه أن يفهم شخصية الرجل العسكرى الذى كانت كلمته الأخيرة فى مؤلفة **حد السيف** تعد مدحا وتعظيما لاصحاب الطموح الكبير الذين لا يجدون سببا للحياة سوى أن يتركوا آثار بصماتهم على الاحداث » . (٨٤)

ويذكرنا هذا التوافق الفكرى التام بين الرجلين باساطير القرون الوسطى الشهيرة وبالصداقة التى تربط الامير بشاعره والسيد بفارسه . وسوف تتغلب الصداقة والتفاهم التبادل بين ديجول ومالرو على جميع العقبات ، وسوف تواجه الفشل وخيبة الامل والمصاعب بشتى انواعها ، ولسوف يظل مالرو وفيا على الدوام لديجول ، وكان الاخير واثقا كل الثقة انه اذا تخلى عنه الناس اجمعين فسوف يبقى مالرو على الدوام بجانبه ولن يتخلى عنه أبدا .

لقد قرن مالرو وديجول مصيرهما معا ، وذلك لانهما أرادا ان يجسدا مصير فرنسا ، وفى اعتقادى ان السبب الحقيقى للصداقة والتفاهم والترابط بينهما يكمن فى هذه الظاهرة . وهذا يوافق ما عبر عنه مالرو نفسه عندما كتب بعد زيارته الطويلة لديجول فى كولمبى فى ديسمبر ١٩٦٩ « أيها الليل اهبط ببطء تحوطك زوبعة الثلوج . هذه هى نهاية زمن هذا الرجل وزمنى . نهاية زمن مسيرة غاندى نحو المحيط ليجمع الملح ، ومسيرة ماو نحو التبت ليستقبل الصين » (٨٥)

● ● ●

اذا خطر لنا أن نحاول اكتشاف الجنرال ديجول فى اعمال مالرو لوجدنا انه ظهر فيها ثلاث مرات ، ونجد ان الكاتب حاول فى كل مرة أن يحدد ملامح القائد وتعبيراته ويسجلها ، وهكذا اكتملت لدينا صورة حية للجنرال ديجول من خلال ثلاث فترات متباعدة . كانت المرة الاولى خلال اللقاء الاول بين الكاتب و « رجل ١٨ يونيو » فى عام ١٩٤٥ . وجاءت المرة الثانية بعد ذلك خلال المقابلة الثانية التي سجلها الكاتب فى اللامذكرات عام ١٩٤٨ . اما المرة الثالثة فقد وقعت فى ديسمبر ١٩٦٩ . ونلحق أن النقاد تداعطوا اهمية كبيرة لصورة ديجول فى اعمال مالرو وذلك باعتبارها انعكاسا لصورة الجنرال فى مخيلة الكاتب ، وحول هذا الموضوع يقول بول جايار « كان الجميع يرتقبون الصورة التى سوف يبدو بها ديجول فى كتابات مالرو ولم يخيب الظن فقد بدا بسيطا للغاية ووقورا ودقيقا لا يقبل اى تجاوز » . (٨٦)

وفى الفترة التي امتدت من لقاءهما الاول فى عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٩ تكتمل الصورة وتعطى لنا نموذجا للجنرال ديجول فى صورة حية ومعبرة وجذابه فى نفس الوقت .

---

(٨٤) Mounin (Georges) article in P. Gaillard, Les critiques......p. 109

(٨٥) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١٤٩ .

(٨٦) Gaillard (P.) A. Malraux, p. 151

قبل اللقاء الاول بين الرجلين لم يكن ديجول في نظر مالرو الا بطلا لاسطورة ، ولكن بدون ملامح محددة ، وفجأة يتجسد بطل الاسطورة امامه فاراد مالرو لاول وهلة ان يثبت كل شيء بواسطة الكلمات فكتب بعد اللقاء « لقد كنت احتفظ في ذاكرتي بصورة محددة عن وجهه فحوالي عام ١٩٤٣ اراني رفائيل (Ravanel) وهو احد قادة المجموعات غير النظامية صورة له ، وكانت صورة نصفية وصلتنا بالبراشوت ولم نكن نعرف أن الجنرال ديجول كان طويل القامة لهذه الدرجة (....) فحتى عام ١٩٤٣ لم نكن نعرف وجه الرجل الذي نحارب تحت قيادته »(٨٧) لقد نظر الكاتب الى وجه القائد ولم يغب شيء عن نظره وبعد مفاجأة اللحظات الاولى حاول مالرو ان يكتشف الشيء الذي يميز وجه الجنرال فكتب « لم اكتشفه ولكني اكتشفت الشيء الذي يجعله مخالفا للصورة ، فقد كان الفم في الحقيقة اصغر والشارب أكثر سوادا ونجد ان الذي اثر بشدة في نفس مالرو هو « النظرة النافذة المركزة » . (٨٨) ثم تزداد الصورة اكتمالا باضافة بعض التفاصيل الصغيرة بعد المقابلة الاولى بعدة سنوات وذلك في المقابلة الثانية التي تمت في عام ١٩٥٨ فنجد ان مالرو يعود بذاكرته الى ديجول الذي قابله في المرة الاولى ويلاحظ على الفور التغيرات التي طرأت على ملامحه فكتب بعد ذلك يقول « لم يكن شاربه الذي ظهر فيه الشيب واضحا وكان فمه ممتدا بتجاعيد عميقة حتى الذقن » ثم يضيف مالرو « ربما يجلب التاريخ قناعة معه » (٨٩) لقد ترك الزمن بصماته على ملامح القائد هذه الملامح التي زودت بمسحة من « الطيبة الظاهرة ولكنها ما زالت وقورة (...) . كانت كلماته وتعليقاته تنم عن الذوق واحيانا عن روح الدعابة وعندئذ كانت العين تصغر وتلمع وتستبدل النظرة العميقة لبرهة وجيزة بعين الفيل بابار »(٩٠)

ثم يتم الجزء الثالث من صورة الجنرال ديجول نتيجة المقابلة التي تمت في ديسمبر ١٩٦٩ فقد كتب مالرو عنها قائلا « ان عناء الايام الاخيرة من الحكم قد اختفى (...) كانت قامته الطويلة التي انحنت قليلا الآن تملأ فراغ الحجرة الصغيرة التي كانت تدفئها النار المشتعلة في المدفأة » (٩١) لقد كان مالرو ملاحظا لأدق التفاصيل ولم يفته شيء ونجده يضيف « لقد اكتشفت وانا اشد على يده الى اي حد كانت يدا هذا الرجل الطويل القامة صغيرتين ودقيقتين » (٩٢) وقد جعله هذا الاكتشاف يتذكر الزعيم الصيني ماوتسي تونج اذ حسب قوله كانت « ايدي ماو المحترقة من الماء المغلي تبدو كأنها ايدي شخص آخر » . (٩٣)

وهكذا فما بين اللقاء الاول في عام ١٩٤٥ الذي سجله مالرو في **اللامذكرات** وحتى اللقاء الاخير عام ١٩٦٩ نجد أن ملامح ديجول وصورته تفرض نفسها علينا حية ومثيرة للمحبة .

---

(٨٧) مالرو : اللامذكرات ص ١٢٥ .

(٨٨) مالرو ، اللامذكرات ، ص ٢٥ .

(٨٩) مالرو ، اللامذكرات ص ٢٤٢ .

(٩٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٥٠ .

(٩١) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

(٩٢) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٧ .

(٩٣) مالرو ، شجر الزان ، ١٧ .

هذا ولم يكتف مالرو بتحديد وتسجيل ملامح رجل ١٨ يونيو ولكن أراد أن يعرفة لنا كما عرفه هو واحبه فنجده يكشف لنا عن جوانب شخصية ديجول من خلال أقواله عموما ومن خلال صمته خصوصا الذى يبدو أكثر لباقة ، وهكذا يكشف الجنرال ديجول عن نفسه بنفسه ، وكما حدث بالنسبه لصفات الجنرال الجسمية فسوف نجد أن طباعة وأخلاقه هى الاخرى سوف تتطور من لقاء الى آخر أو على الاصح من حديث لآخر .

نجد فى عام ١٩٤٥ أن شخصية ديجول فرضت نفسها على مالرو بسبب ما أسماه « شكل صمته » (٩٤) ففى أثناء هذا اللقاء لم يتكلم ديجول بل كان يوجه الاسئلة ولكن ليس بالاسلوب الفاتر العابر الذى يميز الاستجوابات بأسلوب آخر متميز قال عنه مالرو « أنه يجب دقة الفكر ويمكن أن نتكلم بخصوص ديجول عن نوع من البعد الداخلي لم أجده فيما بعد الا عند ماوتسي تونج» (٩٥) لقد كان صمت الجنرال يبدو وكانه تساؤل موجه الى محدثه . وقد ثبت فى ذهن مالرو منذ اللقاء الاول ذكرى هذا البعد الداخلى فكتب عنه يقول « هذا البعد الغريب كان يبدو وكانه ليس فقط بينه وبين الشخص الذى يتحدث اليه ولكن بين قوله وطبيعته هو أيضا » (٩٦)

لم تكن أقوال ديجول تكشف شيئا من حياته الشخصية ، وكانت شخصيته القوية تفرض نفسها على محدثيه وتحدث ما اسماه مالرو بالحضور المركز وهو مالم يجده الا عند « الشخصيات الدينية العظيمة (...) ولهذا السبب فكرت فى المتصوفين عندما تحدث (ديجول) عن الثورة » (٩٧) كان ديجول يفرض « الشعور بشخصية كاملة وكان لكلامه » الوزن الذى تعطيه المسئولية التاريخية لبعض التصريحات البسيطة جدا »(٩٨) .

ان كل هذه التعليقات التي دونها مالرو بعد اللقاء الاول لا تكشف شيئا عن ذاتية ديجول، فهي لم تكشف له الناحية الشخصية من هذا الرجل الاسطورى .

لقد تمكن اندريه مالرو من خلال المعيشة لمدة طويلة بجوار القائد أن « يتعود على بعض السياق الفكرى وعلاقة ديجول نفسه بالشخصية الرمزية التى يسميها ديجول فى مذكراته أو بالأصح التى كتب مذكراتها حيث لا يظهر شارل أبدا (٩٩) فقد حرص ديجول على أن يخفى حياته الشخصية ، وعمل على أن يظل دائما الجنرال ديجول الرجل الاسطورة وذلك حتى بالنسبة لأقرب المقربين اليه من زملائه وأعوانه ومساعديه، فلم يكن باستطاعة المحيطين به أن يدعوا أبدا أنهم يعرفون «الرجل الخاص» الذى يمكنه أن يتحدث عن موضوعات شخصية ، اذ لم يكن يترك أبدا شخصيته الأسطورية أى الجنرال ديجول . وعن ذلك الأمر يقول مالرو فى اللامذكرات « لقد كان يبدو للجميع فيما عدا أفراد أسرته كصورة مهذبة لشخصيته الاسطورية (١٠٠) ولقد عمدت

---

(٩٤) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٥) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٦) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٧) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٤ .
(٩٨) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٥ .
(٩٩) مالرو اللامذكرات ص ١٥٠ .
(١٠٠) مالرو اللامذكرات ص ١٥١ .

مذكراته الى استبعاد شخصية شارل كلية ولم تظهر الا ديجول فقط ، والسبب فى ذلك فى رأى مالرو يسترعي الانتباه فهو يقول « لان الحياة هي التى شكلت شارل أما القدر فهو الذى شكل ديجول (١٠١) . فشارل اذآ انسان عادى صنعته الحياة بحلوها ومرها كأى انسان آخر ، أما ديجول فهو شيء آخر مختلف تماما ، فهو الرجل الاسطورى الذى أعده القدر وشكله ليتحمل المسئولية الضخمة مسئولية تغيير مصير فرنسا وانقاذها .

لقد لاحظ مالرو أثناء مقابلته للقائد عام ١٩٥٨ أن ديجول يمتاز بالروح العسكرية التى تتبعها فكرته عن الفعل . وفى رأيه أن تكوينه العسكرى قد أثر على فكره والدليل على هذا أنه ينظر الى الحكومة « كأداة نضال فى سبيل تنمية فرنسا » (١٠٢) ثم يسوق لنا الكاتب دليلا آخرا يتميز به غالبية الرجال العسكريين المتمرسين بالحياة العسكرية وهو سرعته فى صنع القرارات « لأن القرار التاريخي لا يمكن فصله عن الوقت الذى صنع فيه » (١٠٣) . نستخلص من ذلك أن حياته العسكرية قد لعبت دورا هاما فى تشكيل شخصيته كقائد اسطورى .

ثم يلتقى الرجلان وجها لوجه : رجل كان له تأثير ضخم فى التاريخ لا يمكن أن ينسى ، وكاتب كان دائم الاخلاص له وكان يعتبره القائد والقدوة والمثل الذى يحتذى ، وظل على رأيه هذا طوال حياته ، ويحاول مالرو فى هذه المرة الثالثة والاخيرة أن يسجل هذا اللقاء أيضا فى عمل أدبى لا ينسى يقول عنه الكاتب والناقد الفرنسي جان جروجان « ان هذه الصفحات تكشف أكثر من أى اعترافات عن ديجول من الداخل نرى فيها جوانب فكره وروحه كما كشفها لصديقه وهو يتقدم نحو نهايته » (١٠٤) . وسوف يؤكد لنا مالرو ذلك شخصيا وذلك فى مقدمة كتابه « ان كل ما يقوله الجنرال ديجول هنا يكشف عن شخصيته وأحيانا عن نواح سرية (١٠٥) لقد أراد مالرو هنا أن يصور لنا لأول مرة ديجول الرجل وليس ديجول القائد وذلك على خلاف سابق نهجه . لقد أراد كما صرح فيما بعد « أن يعطى صورة من الجنرال ديجول داخل التاريخ وخارجه ... لم أهتم بصورة فوتوغرافية لقد حلمت بعمل للجريكو ، ولكن ليس عملا من جريكو يكون الموديل فيه من صنع الخيال » (١٠٦) .

تعتبر هذه المقابلة الثالثة التى رواها لنا مالرو أكثر ألفة ، فقد كشف فيها ديجول جانبا أكبر من طبيعته الذاتية ومن حياته الخاصة عندما كان يسترجع بعض الذكريات العائلية ، ورغم كل ما ذكره ديجول نجد أن مالرو يستخلص فى نهاية الأمر أن من المستحيل معرفة جوانب شخصية شارل الخاصة من خلال الحديث مع ديجول فيقول « لقد كان يعبر عن مصير فرنسا وكان لا يزال يعبر عن هذا المصير حتى عندما كان يعلن عن انفصاله عن هذا المصير . ان الألفة مع ديجول

---

(١٠١) مالرو اللامذكرات ص ١٥٣ .

(١٠٢) مالرو اللامذكرات ص ١٥٥

(١٠٣) مالرو اللامذكرات ص ١٥٥ .

(١٠٤) Grosjean (Jean) Les Chenes qu'on a bat Preface.

(١٠٥) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١ .

(١٠٦) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١

لا تعنى جواز الحديث عن شخصه لأن ذلك يعتبرموضوعا محرما على العكس من الحديث عن فرنسا (...) أو الموت » (١٠٧) .

لقد قال مالرو يوما لصديق له « ان قوةالجنرال ديجول تكمن فيما فعل وفيما يفعل » . ان جزءا كبيرا من هيبة وقوة الجنرال ديجوليأتى من أعماله وقت الحرب والمقاومة وهو ما يسميه مالرو « ما فعل » .

لقد حافظ مالرو طوال حياته على تسجيلهذه الناحية الهامة من شخصية رئيسه ، ولقد اعتبر الجنرال ديجول قدوة ومثلا للبطل القوميالذى يجب ان يحتذى ، فهو وحده الذى استطاع ان يواجه العدو بجراة وشجاعة دون خوف أوموارية ، وهو الذى استطاع على حد قول مالرو أن يقول « لا للعدو وللخيانة دون تباطؤ أو مراوغةمنذ اليوم الأول » (١٠٨) .

لقد أحس مالرو بحساسيته وشفافيته منذاللقاء الاول بينهما عام ١٩٤٥ أنه قد اكتشف اخيرا الشخصية الحقيقية التى كان دائما يحلمبلقاءها ويتطلع الى العمل بجوارها . لقد كان ديجول يمثل وقتئذ أسطورة الوحدة الوطنيةلمعظم الفرنسيين ، وكان بالنسبة لمالرو يمثل شيئا أكبر ، وفى ذلك تقول جانين موسوز عنديجول « كان يمثل اسطورة ولكن لديه أيضا سمات الابطال الذين فتنوا مالرو طوالحياته » (١٠٩) .

لقد رفض ديجول الاحتلال والعدوان الالمانىمن اليوم الاول وهب بشجاعة منقطعة النظير للدفاع عن وطنه الحبيب فرنسا الذى كان يئنمن ضربات العدو المجرم. لم يقبل ديجول أن تموت فرنسا أبدا فكيف تموت وهى غنيةبرجالها من حوله . منذ الأيام الاولى للاحتلال جمع كل الفرنسيين الذين « يريدون ألا تموت فرنسا » .

ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النبيلالذى كان يعد حلما فى ذلك الوقت غامر ديجول بكل شيء وضحى بالنفس والنفيس فى سبيلوطنه . لقد كانت فرنسا على الدوام هى شغله الشاغل ولا شيء غيرها ، لقد تزوج ديجول منفرنسا على حد تعبير مالرو المفضل وكان دائما يمثل مصيرها .

لقد تجسد أمام مالرو أثناء اللقاء الاول ماذكره بوضوح فى اللامذكرات حول ديجول فوصفه بانه « الرجل الذى أراد أن يتحمل مسئوليةمصير فرنسا وهو رجل تسيطر عليه فكرة ثابتة . رجل يشغل فكره فقط هذا المصير الذى استطاعان يكتشفه واراد ان يعبر عنه » (١١٠) وهكذا من نص كلام مالرو نكتشف بسهولة ويسر انمصير فرنسا قد اقترن بمصير الرجل الذى التقى

---

(١٠٧) مالرو ، شجر الزان الذى يقطع ص ١١

(١٠٨) مالرو ، خطابات تابين ص ٢٦ .

(١٠٩) Mossuz (j.) op.cit., p. 271

(١١٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٣٥ .

به فى أول لقاء بينهما عام ١٩٤٥ ولقد كان هذا اللقاء بحق لقاءً تاريخيا انعكست آثاره على الصداقة التى ربطت بينهما بعد ذلك .

ثم تمضى الايام والسنون مليئة بالمحن والخطوب ، ها قد مضى ما يربو على العشرين عاما على اللقاء الاول وبدء الصداقة بينهما فنجد مالرو يتساءل عما يمثله ديجول ليس للفرنسيين فحسب بل للعالم الثالث أيضا ، ثم يجيب أن ديجول كان يمثل بالنسبة للفرنسيين الذين استجابوا وانضموا له والتفوا حول رايته « أحد الرجال الذين بدونهم تكون فرنسا مختلفة عما هي عليه ، أما بالنسبة لشعوب العالم الثالث التى تكافح الاستعمار وتتطلع الى الاستقلال فقد جسد ديجول الاستقلال (...) لقد أعاد فرنسا الى صورتها التى أحبتها فى الماضى دول كثيرة (١١١) لقد بدا ديجول بالنسبة لمالرو كتحقيق للأمانى التى كان يحلم بها كل الفرنسيين، فهو بطل من أبطال التاريخ كما أن « مجده مرتبط بالمشاعر التى جمعها » (١١٢) .

يتضح لنا من أعمال مالرو القيمة أن ديجول كان واعيا تماما لنفسه ولقيمة عمله فنجد انه يقول لمالرو « لم يكن ما أقوله هو المهم بل كان الامل الذى أحمله معى هو المهم لقد أعدت وجود فرنسا لأنى أعدت أمل العالم فى فرنسا » (١١٣) ومن هذا المنطلق فقد سمى ديجول الجزء الأول من مذكراته « مذكرات الأمل » .

لقد كان شارل ديجول يمثل دور المنقذ بالنسبة لفرنسا الذى حمل مسئوليتها كما سبق وحملتها البطلة الشهيرة جان دارك وكما حمل كل المنقذين مسئولية اتباعهم . ولقد بدا هذا الرجل وكانه رائد لحركة دينية فقد اعاد بناء فرنسا ابتداء من العقيدة ، وفى ذلك يقول مالرو « ان أى عقيدة تشتمل على ارشاد ربانى فى سبيل المسيح أو فى سبيل فرنسا تعتبر معدية للغاية ، ان ايمانه بفرنسا لم يكن كافيا ليصبح الجنرال ديجول ولكن بدونه لكان منتصرا دخيلا على المنتصرين الحقيقيين ، أو مهزوما تميز بشىء من البسالة » (١١٤) .

ان رجل ١٨ يونيو يبدو فى نظر اندريه مالرو مثالا للمفكر صانع الاحداث الذى استطاع ان يفكر ثم يحقق عملا عظيما ، وقد تطابقت أفعاله مع أفكاره ونجد أن « الرجل ذو الشخصية » الذى يتحدث عنه ديجول فى كتابه « حد السيف » هو نفسه الذى سيصبح قائدا لفرنسا الحرة بعد ذلك .

ان اعجاب مالرو بديجول كان لا حد له ، كان ديجول يمثل اعظم شيء بالنسبة له ولفرنسا فقد جاء فيه فى مؤلفه « شجر الزان الذى يقطع » انه « آخر رجل عظيم سوف يشغل فرنسا » (١١٥) وهو يجد مكانه فى صفوف اعظم رجال العالم ولقد كرر مالرو عدة مرات مكانة ديجول بين الرجال العظماء فى العالم فيقول مرة « كان الجنرال ديجول الرجل الوحيد الذى يمكنه

---

(١١١) مالرو ، شجر الزان ، ... ص ٤٠ .
(١١٢) مالرو ، شجر الزان ... ص ٤٠ .
(١١٣) مالرو ، شجر الزان ص ١٢٣ .
(١١٤) مالرو ، شجر الزان ص ٣١ .
(١١٥) مالرو شجر الزان ص ١٥١ .

ان يأخذ مكانا بعد غاندى وماوتسى تونج وآخرين فهو وحده الذى يمثل الاسطورة القومية » (١١٦) وهذا الشعور نحو ديجول هو ما احس به مالرو منذ البداية . ففى عام ١٩٤٨ عندما كان يعمل مالرو مندوبا للدعاية لتجمع الشعب الفرنسي كتب فى جريدة التجمع « منذ ثمانى سنوات واجه رجل تسيطر فرنسا على فكره جميع الاصوات التى ادعت انها اصوات الواقع والعقل واجهها بقوله « لا » التى تحدد من بعدها تاريخ بلادنا » (١١٧) واخيرا نجد فى اللامذكرات بعد لقاءهما الأول ما احس به مالرو وأعجب به وشده برباط لا ينفصم الى ديجول فيقول « **لقد كان مطابقا لأسطورته** » (١١٨) .

ان الشيء الذى كان يضايق دائما العديد من قراء اندريه مالرو الذين كانوا فى وقت ما من اشد المعجبين بأدبه وبأعماله الروائية هو انضمامه لتجمع الشعب الفرنسى R.P.F. ثم اشتراكه فى حكومة الجنرال ديجول التي كانت بعيدة فى نظرهم كل البعد عن اليسار . ونسوق هنا بعضا مما عبر عنه ايمانويل مونييه Emmanuel Mounier فى مجلة الفكر عام ١٩٤٨ عن هذا الموضوع فقال « حقا اذا كان مالرو كما يؤكد فى كل مناسبة وكما تدل قيمة أعماله ما زال مخلصا لعقيدته السابقة فان موقفه اليوم ليس سهلا (١١٩) . لقد كان الاعتقاد السائد فى فرنسا وقتئذ ان مالرو قد قطع الصلة بما كان يعتبره قدوة ومثلا فى سنوات شبابه ، وكذلك قطع الصلة وتخلى عن الافكار التي جعلته يشترك فى كفاح المناضلين بالصين واسبانيا ، ومن هنا جاء الاتهام الموجه الى مالرو بأنه قد تحول بسهولة من اليسار الى اليمين وانه انضم الى « الحزب المضاد » وكان البعض قاسيا ومتطرفا فى حكمه على مالرو الى حد ادانته بالاتجاه فى طريق نهايته المحتومة وهي الفاشية . والأثر الغريب الذى زاد من قسوة اتهامهم له هو أن اندريه مالرو لم يحاول من جانبه قط أن يدحض هذه الافتراءات والشبهات التي حامت حوله ، ولم يحاول ابدا أن يبرىء نفسه أو يدافع عنها وهو ما نراه غريبا فى رأينا .

• • •

بعد هذه الدراسة التفصيلية للفكر السياسي عند اندريه مالرو يمكننا القول بان التطور الايديولوجي عند الكاتب يمكن ان يتصف بالاتصال وليس بالقطيعة كما ادعى البعض من أعداءه . وذلك لأن الاتجاهين اللذين سلكهما فى التزامه السياسي وهما اليسار ثم اليمين يحتويان على أوجه تشابه لا يمكن تجاهلهما وانكارهما ، فاذا ماقمنا مثلا بمقارنة مبادىء الشباب بمبادىء فترة النضج الفكري نجد ان هناك اشياء كثيرة تدل على الاخلاص الفكرى لمبادئه فعندما أصبح اندريه مالرو المتحدث (الشاعر) باسم تجمع الشعب الفرنسى ونظمه ، وعندما انضم كلية للديجولية لا يصح أن نقول انه قد قطع اتصاله بمثالية شبابه . ونجد ان اليساريين الذين كانوا فى فترة ما رفاق طريقه وعلى نفس دربه لا يفهمون جيدا مغزى عمله وتعاونه مع الجنرال ديجول . ويعود سبب هذا الفهم الخاطىء الى الصورة غير الصحيحة التى كانت مأخوذة عنه واعتباره رجلا ثوريا فى البداية ثم شيوعيا انضم الى صفوف الماركسيين وانخرط فيهم .

لكن فى رأينا أن اندريه مالرو على وجه اليقين لم يتوغل ابدا فى طريق الماركسية المظلم فهو لم ينضم مطلقا الى الحزب الشيوعي الفرنسي وعندما وقف يوما يناضل بجوار بعض افراده خلال الثلاثينات كان هدفه هو مقاومة الفاشية فقط .

---

(١١٦) مالرو شجر الزان ص ١٥١ .

(١١٧) جريدة التجمع Le Ressemblement عدد ٦٢ ، ٢٦ يوليو ١٩٤٨ .

(١١٨) مالرو ، اللامذكرات ص ١٣٥ .

(١١٩) Cite par Moossuz (j.) op.cit., p. 264

لم يكن مالرو ابدا خائنا لعهد قطعه علىنفسه تجاه الشيوعيين كما أنه لم يحنث أبدا بهذا العهد وعندما صار ديجوليا لم يتخل عنآماله وأمانيه التى عبر عنها فى أعماله « قدر الانسان » و « الامل » . وفى رأيى أن جايتانبيكون كان محقا فى قوله عن هذا الموضوع « فى حالة مالرو تبدو لى القطيعة مع الشيوعية وكأنهاتوصل الى الوحدة والمخاطرة وليسللسهل (...) فلقد كان مالرو مع الشيوعيين فى الوقت الذىكان فيه من الصعب على المرء أن ينضم اليهم ، ولقد تركهم فى الوقت الذى كان فيه من السهلعلى المرء أن ينضم اليهم » (١٢٠) .

ان محاولة مالرو للشيوعية لم تكن فى يوممن الأيام صدى أو انعكاسا لليمين الكلاسيكى فلقد انفصل هو نفسه عن تجمع الشعب الفرنسيعندما اصبحت تسيطر عليه أغلبية من اليمين . كما يمكن القول أن محاربته للشيوعية لا تشبهمحاربة «القوة الثالثة» لها ولا يمكن أبدا تلخيصها فى مجرد ادانة الحزب الشيوعي الفرنسي .ويرجعالسبب الرئيسي لمعاداته للشيوعية الى انها لم تعد تعمل على تحرير الانسان كما كانت تدعى ، فقطعصلته بها أى أنه قطع صلته بأيدلوجية لم يعد لها معنى بالنسبة له ولكنه فى نفسالوقتلم يتخلأبداعن مبادئه الاساسية وظل محافظا عليها ومتمسكا بهـا .

وهكذا يبدو لنا ان افكاره فى مرحلةالشباب لا تتناقض مع افكاره فى مرحلة نضجة بل تكملها وعن ذلك تقول جانين موسوز« من وجهة نظر مالرو تبدو الديجولية فى صورتها التي يشعر بها وبدافع عنها وكأنهـا تحقق ثلاثةمطالب هى الحرية والاخاء والسـلطة (...) فالديجولية هي وحدها التي تسمح باقامة الحريةالحقيقية (...) وتعنى الديجولية الاخاء أيضا (...) الاخاء بينالمواطنين المتحدين والمتجمعين فىصورة شعب واحد . واخيرا فالديجولية كما يتصورها مالرو هي ظهور السلطة فى المكانة الاولىعلى مسرح الاحداث ، وأن السـلطة التي تعطى لرجل هي الوحيدة التى يمكن أن تكفل حريـةالافراد ، وهى الوحيدة التى يمكن أن تقدم المثل الاعلى الـذى يجب أن تعمـل مـن أجله كـلالطاقات (١٢١) اذا فقد بدت له الديجولية وكأنها الصيغة الوحيدة التي تستطيع أن توجد وتحافظعلى الاخاء بين افراد الشعب الفرنسي ، وقد بدا ديجول لمالرو كالرجل الوحيد القادر علـى« اعادة بناء فرنسا » اذا فلم تكن الديجولية الا مسيرة الاخاء التى تجمع رجالا احرارا يقودهم قائد الى تحقيق هدف عظيم . أما فى مرحلة كفاحة ضد الاستعمار والتي أثارت جدلا كبيرا فقد كانهدفه فى الهند الصينية وفى كفاحة ضد الفاشية فى فرنسا والمانيا وروسيا هو دائما خدمة قضيةالحرية ، ولم يكن هدفه ابدا الدفاع عن العقائد المتطرفة التى كانت تسعى بكل قواها للسيطرةعلى العالم . اذ لم يعتنق مالرو ويتبنى الايدلوجية الماركسية وحول ذلك تقول جانين موسوز « لقدكان التزامه محددا بقيمة ثمرة هذا النضال وهي الحرية التي كانت تهددها الفاشية وليس العقيدةالشيوعيـة التـى كـان ينتمـى اليهـا بعـض المناضلين » . (١٢٢) وعندما سافر الى برلين معاندرية جيد André Gide بصفتهما مندوبين عنالحزب الشيوعى الفرنسي للدفاع عنديمتروفلم يكن الدافع وراء عمله هذا مساندة الشيوعية بل كان هدفه الدفاع عن حرية الانسان . وكذلكعندما سافر الـى موسكو بعد سـفره الى برلين ببضعة أشـهر مدعوا مـن قبـل مؤتمر الكتـابالسوفييت لم تكن الكلمات التى القاها فى هذه المناسبة تتضمن مديحا للنظام القائم فى الاتحادالسوفييتى ، بل كانت تتضمن مطالبـة عنيدة مصرة بالحرية .

---

(١٢٠) PIGON (G.) Le Rupture avec le communisme, in P. Gaillard, Les Critiques.........p. 110

(١٢١) Mossuz (j.) op.cit., pp. 244-245

(١٢٢) Ibid, p. 246

لسوف تبقى الحرية دائما بالنسبة لمالروو جها معبرا ونبيلا لا يمكن أن يمحى بأى حال من الاحوال . ومن أهم مظاهر هذه الحرية حرية الفكر للأدباء وهذا النوع من الحرية غير موجود فى الاتحاد السوفييتى . فالفن مثلا خاضع للنظام الستالينى وعندما يضطر الفنانون أن يصمتوا على مضض أو يخضعوا للقوانين الظالمة خوفا من الهلاك نجد أن مالرو يثور باسم الحرية .

وهكذا نرى لزاما علينا الا نشوه أو نتجاهل الدافع الانساني والتحررى الذى كان على الدوام الطابع المميز لالتزامه السياسي ، وسوف يجد هذا الالتزام ضالته المنشودة فى الالتزام بالديجولية التى تبدو وكأنها على حد قول جانين موسوز « نهاية المطاف لبحث طويل » (١٢٣) ويبدو وكأنه وجد اخيرا « نجمه الثابت » الذى كان يبحث عنه وهو الجنرال ديجول . وبناء على ذلك فاذا اعتبرنا هذا المبدأ نقطة انطلاق لا يمكن ان ننظر الى تحوله نحو الديجولية وكأنه نقطة ضعف فى خط سير فكره السياسى ، فقد كانت الديجولية كما اتضح لنا تلبية لمطالب مالرو الأساسية والمستمرة وهي الحرية والاخاء والسلطة .

بناء على ما تقدم يمكننا ان نستخلص ان التزام اندريه مالرو السياسي بالديجولية لم يكن دليلا على الاخلاص لمبادئه السابقة فحسب ، بل يمكننا أيضا أن نعتبره انتصارا لها . فلأول مرة لم ينتهج مالرو منهجا فكريا وسياسيا لبضعة أشهر أو سنوات طارئة فى حياته بل اعتنق والتزم الديجولية كنهاية لمطافه الفكرى والسياسي ، وعندما وجد فيها بغيته نجد أنه تحمل بشجاعة مسئولية هذا الالتزام واشترك اشتراكا فعليا فى الحكم الديجولي . ولكى يجعل هذا الحكم الحبيب الى نفسه فعالا وحتى تجعل الديجولية من المطالب الاساسية الثلاثة الحرية والاخاء والسلطة حقيقة واقعة كان لزاما على مالرو أن يساند على طول الخط الرجل الذى يجسد بالنسبة له الاسطورة القومية .

لقد كان مالرو يناضل على الدوام فى جميع مراحل حياته من أجل قضية نبيلة كانت لها أهمية اساسية فى نظره وهي قضية الانسان . ونجد هذا واضحا فى التصريح الذى أدلى به فى عام ١٩٤٦ حيث قال « ان المسألة التى تطرح نفسها علينا الآن هي معرفة ما اذا كان الانسان قد مات أم لا على هذه الأرض القديمة أوروبا ... أن الانسان اليوم يجد نفسه مضطرا ليس فقط الى الاجابة على ما اراد أن يفعل وليس فقط مايريد أن يفعل بل ايضا على ما يعتقد أنها طبيعته » (١٢٤) ويمكننا القول أن مسيرة مالرو الفكرية والسياسية لم تكن الا محاولة منه للاجابة على هذا السؤال .

• • •

اخيرا ونحن بصدد ختم مقالنا لا نجد أبلغ من ان نسوق للقارى عبارة لجانين موسوز نستشهد بها على صحة رأينا فيما رأيناه من ان تحول مالرو من الشيوعية للديجولة ، ثم التزامه التام بها كان استمرارا لطريق ومنهج اختطه لنفسه طوال حياته فتقول « ان الديجولية التى انضم اليها اندريه مالرو لا يمكن اعتبارها انشقاقا ، ولكن كالتزاماته السابقة محاولة للتوصل الى مثل لا يتغير الا وهو ايجاد الانسان الحر فى عالم الاخاء . لقد اتخذت محاولات مالرو صورا مختلفة وبدت أحيانا ذات وجهين لكن لم يتغير مغزى بحثه ومغزى ارادة الاكتشاف عنده » (١٢٥) .

---

(١٢٣) Mossuz (j.) op.cit., p. 273

(١٢٤) Ibid, p. 286

(١٢٥) Mossuz (j.) op.cit., p. 287

قائمة باسماء المراجع التي ورد ذكرها في البحث

I. Oeuvres de MALRAUK : — اولا ــ اعمال مالرو

1. **Les Conquérants**, Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.
2. **La Condition Humaine**, Paris, Gallimard, 1946 284 pages (Collection Folio)
3. **L'Espoir**, Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)
4. **La lutte avect l'Ange, I**-Les Noyers de l'Altenburg, Editions du Haut Pays 1943
5. **Antimémoires**, Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.
6. **Les Chênes qu'on abat**, Paris, Gallimard, 1971, 151 pages.
7. **Oraisons Funèbres**, Paris, Gallipard, 1971, 139 pages.

II. Etudes consacrées à Malarux : — ثانيا ــ ابحاث عن مالرو

1. Biosdeffre (Pierre de), **André MALRAUX**, Paris, Editions Universitaires, 1969, 127 pages (Classiques du XXèmesiècle)
2. Gaillard (Pol) **André MALRAUX**, Paris, Bordas, 1970, 244 pages.
3. Id. ; **l'Espoir de Malraux**, Paris, Hatier 1970, page (Profil d'une oeuvre)
4. Id. **Les critiques de notre temps et Malraux**, Paris, Garnier, 1970, 191 pages, Cette ouvrage comprend des articles de :
   —Berl (Emmannuel) : **L'Intellectuel et La Révolution.**
   —MAURIAC (Francois) **Le Romantisme au pouvoir.**
   —Picon (Gaetan) **La Rupture avec le Communisme.**
   —Bor (Claude) **Le Marxisme de Malraux.**
   —Stéphane (Roger) **Les silences de Malraux.**
   —Trotsky (Léon) **La Révolution Etranglée.**
5. —Harris (G.T.), **André Malraux, L'Ethique comme fonction de l'Esthétique**, Paris, Minard, 1972, 153 pages.
6. —Mossuz (Janine) **André Malaurax et le Gaullisme, Paris**, Armand Colin, 1970 313 p.
7. —Picon (Gaetan) **Malraux par lui-méme**, Paris Editions du Seuil, 1955, 132 pages
8. —Id. **André Malraux**, Paris, Gallinard, 1945, 127 pages.

چوزين جَودت عـثمان

مالرو، سَنجور وحَضارة الانسَان

اندريه مالرو ، وليوبولد سيدار سنجور

قد يتساءل البعض عن العلاقة التى تربطبين هذين الاسمين ، وما مدى أوجه الشبه أو الأختلاف بين أديبين يتمتعان بمكانة خاصـــة فىتاريخ الفكر المعاصر .

فالى اى حد تصل المقارنة بين أندريه مالروولیوبولد سنجور ؟ اسمان يبدوان على النقيض فى اول وهلة . فقد يبدو من العجيب ان نتحدثعن نقاط الالتقاء أو حتى مجرد التشـــابه بين مؤلف « **القدر الانســـانى** » (١) اى مالرو وبينمؤلف « **اغانى الظلال** » (٢) أي سنجور .

ذلـك أن مالرو كاتب فرنسى بمعنى انـهأوروبى ، أما ليوبولد سنجور فهو شاعر أفريقيا السوداء الناطق بالفرنسية .

ولكن يقرب بينهما اكثـر من عنصر ، ممايجعل المقارنة بينهما هامة ومثمرة ، الأمر الذى سنتناوله فى بحثنا هذا .

---

(١) La Condition Humaine

(٢) Chants d'Ombre

لم تتح للكثير من الناس فى التاريخ ـ تلك الفرصة التى يتحدث عنها الشاعر الفرنسى « شارل بودلير » الا وهي : « ان يعيش المرء حياة يقترن فيها العمل بالخيال » .

فالعمل والخيال اقترنا بالفعل فى حياة وانتاج مالرو ، كما اقترنا فى حياة وانتاج سنجور **وهناك اكثر من لقاء بين الكاتبين ، لقاء فكرى ايديولوجى (Ideologique) ولقاء فنى استيتيكي (Esthetique) واخيرا لقاء اخلاقي روحي (Ethique) .**

١ ـ **الالتقاء الذهنى الفكرى :** الذى يرتكز على الايمان المطلق بافريقيا الغد ، والاعجاب الشديد بشخصية الجنرال شارل ديجول .

٢ ـ **الالتقاء الفنى الاستيتيكى :** الذى يقوم على مفهوم معين للفن ، الا وهو اصدق وسيلة لتحقيق الذات للنفس البشرية من خلال الحضارات . ووسائل التعبير الفنى عند مالرو أساسا هى : الرسم والنحت ثم الموسيقى والرقص ، وعند سنجور هى : الموسيقى والرقص والنحت ثم الرسم . ولكن اللقاء هنا يأتى من ان كل عمل فنى هو خلود للانسانية ووسيلة مقدسة لقهر عقبات القدر وانطلاق الانسان .

٣ ـ **الالتقاء الروحى الاخلاقى :** الذى يتلخص فى موقف سنجور ومالرو تجاه مفهوم معين للانسان الحديث ، والتمسك بقيم اجتماعية مثل الارتباط الاخوى ، والانتماء الى الجماعة التى نعيش فيها ، والاعتقاد فى ضرورة مزج الحضارات المختلفة لخلق حضارة القرن العشرين وهى الحضارة الانسانوية (٣) . فالحضارة فى المجتمع المعاصر لا يمكن ان تكون الا حضارة قائمة على مزج الحضارات المختلفة للانسان عبر العصور المختلفة وعبر الأجناس والأديان والقارات ، مما يؤدى بالضرورة الى ايجاد موقف اخلاقى معين يسلكه الانسان اينما كان تجاه اخيه الانسان فى أى مكان وزمان .

● ● ●

١ ـ الالتقاء الايديولوجي :

« ان المرء ليس ما يخفى وانما المرء ما يفعل » .

تلك العبارة وردت على لسان (Vincent Betger) « فانسات بيرجيه » بطل قصة مالرو « **اشجار الجوز فى الالتنبيرج** » (٤) ويقصد مالرو بهذه العبارة ، اى بلفظة « الفعل » : اقدام المرء

(٣) كلمة الانسانوية Humanisme توضح وتميز معنى اعتبار الانسان ركنا رئيسيا فى الفلسفة وهى ـ تختلف عن كلمة الانسانية (Humainite) التى استعملها معظم المترجمين ونحن متفقون مع الدكتور محمد غلاب استاذ الفلسفة بالجامعة الازهرية عندما استعمل هذه الكلمة فيما كتبه عن علاقة الاسلام بالثقافة والانسانوية فى عدد ١٩٥٩ من مقال « هذا هو الاسلام » (دار الشعب) .

(٤) Les Noyers de l'Altenburg

على فعل الحدث نفسه ، فالفعل عند مالرو هوالذى يحدد الأنسان تماما ويميزه عن غيره من المخلوقات .

ذلك هو مفهوم مالرو الذى مارسه فعلا فيحياته كما مارسه فى انتاجه .

ان حياة مالرو معروفة للجميع ، كما نعرفايضا نشاطه السياسي وشغله لمناصب وزارية وثقافية هامة ، وكلنا نعلم الدور البطولي الذىلعبه هذا الكاتب الديجولى فى المقاومة الفرنسية اثناء الحرب العالمية الثانية .

واذا ما عدنا بالذاكرة الى سنوات ما قبلالاربعينات رأينا : مالرو شابا فتيا أى فى الثالثة والعشرين من عمره ، يكثر من رحلاته الى الشرقالاقصى وينظم حركات تضامنية تحررية مع شباب الهند الصينية المعروف آنذاك باسم « آنامالفتية » فبلاد الآنام هذه ــ وهى جزء من الهند الصينية ــ كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى . فقاوم مالرو هذا الاستعمار بل استنكره وندد به فى اعماله وبفكره .

وهكذا يبدو لنا منذ بداية حياته أن تلكالحياة ما هى الا استجابة لاحداث توالت عليه . كما ان انتاجه الفني ما هو الا تلبية لنداءاتومحاولة اجابة عن تساؤلات فى فترة تتميز بكثرة الاحداث الفنية والسياسية التى اشترك فيهابالعمل وبطريقة ايجابية . فحياة مالرو كما يعلم الكثير منا ــ تعتبر مسيرة من تاريخ سياسى الىتاريخ الابداع الفنى ، وانتاجه الفنى ما هو الا لقاء الانسان بالقدر . بمعنى أن كل ما كتبه اندريهمالرو هو تعبير حقيقى وفعلى نتج عن موقفه وفعله تجاه الاحداث التى طرحها عليه القدر . واعمال مالرو الأدبية تحليل شغوف للمصير البشرى الذى طالما راود فكره فكتب عنه الكثير ،ولا نكون مغالين لو قلنا انه كتبه .

أيمكن ان ننسى انه مؤلف « القدرالانسانى » .

ودور مالرو الذى لعبه بجانب الوطنيينالاسبان فى المقاومة الاسبانية يظهر لنا بجلاء فى بعض أعماله الأدبية خاصة روايته « **الأمل** » (٥).

واخيرا لايقلّ نشاط مالرو فى المجال الثقافىوالفني البحث عن دورة فى المجال النضالي .

فاعمال مالرو الفنية تكاد تكون لاحصر لها . ونذكر منها اهمها : ــ

ــ اللامذكرات : (٦) .

ــ الحبل والفيران : (٧) .

---

(٥) L'Espoir

(٦) Les Antimemoires

(٧) La Corde et les souris Hotes de passage Les chenes qu'an abat Tele dèObsidienne Lazare

ـ الذى يتجرأ الى : ـ
ـ زوار ماريق .
ـ اشجار الزان التى نقطعها .
ـ راس السبج البللورية .
ـ عـازر .
ـ مرثيـات (٨) .
ـ اغراء الغرب (٩) .
ـ عطارد (ساتورن أو بحث عن الرسامجويـا) (١٠) .
ـ أصوات الصمت (١١)
ـ المتحف الخيالى (ويشمل عدة أعمال فىالفنون التشكيلية) (١٢)
ـ تحول الآلهه (١٣)ويشمل : مابعد الطبيعة
ـ اللاواقعيـة (١٤) .
ـ اللازمـنى (١٥) .

وفضلا عن كل هذه الأعمال فهناك نشاطملحوظ ومستمر لمالرو فى المجال الثقافى نفسه ، فما أكثر ما كتبه من أبحاث ومقالات ومحاضراتعن مفهوم الثقافة ودلالتها ودورهـا فى حضارة القرن العشرين ، ومايمكن ان تقوم به من دورخطير فى تحديد معالم الانسان المعاصر ؛ **فالأنسان فى مفهوم مالرو انسان شامل متكامل ومزيج منمختلف حضارات البشر .**

وهذا المفهوم هو بعينه منهج شاعر القارة السوداء**ليوبولد سنجور ، ومفهومه عن الثقافة والانسان .**

وليوبولد سيدار سنجور وان كان غنيا عنالتعريف (١٦) فهو شاعر ومفكر أولا وقبل أن يكون سياسيا ناجحا وزعيما مناضلا . فرئيسجمهورية السنغال لم يقتصر على النضال من أجل

---

(٨) Oraisons funebres
(٩) La Teutation de l'occident
(١٠) Saturne (Essai sur Goya)
(١١) Les Voix du silence
(١٢) Le Music Imaginaire
(١٣) La Mitamorphose de Dieux
(١٤) L'Fuiel
(١٥) L'Intemporel

(١٦) ولد ليوبولد سيدار سنجور يوم ٩ اكتوبر منعام ١٩٠٦ فى قرية « جوال » على بعد حوالى مائة كيلو متر من جنوب العاصمة السنغالية داكار . وبعد ان حصل علىشهادة الاجربجاسيون من باريس بدأ حركة نضال من اجل استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسى واستقلال دول افريقياكما ناضل من أجل مكانة الرجل الاسود فى العالم المعاصر وخلق هو ورفيق نضاله وفكره الشاعر المارتينيكي ايمـىسيزير ـ مفهوم « الزنوجية Negritude » كمـا اشترك سنجور اثناء الحرب العالمية الثانية مع المقاومةالفرنسية ضد الغزو النازى .

تحرير بلاده واستقلالها الذى نالـه عـام ١٩٦١ وانما كرس كل جهوده فى تعريف ونشر قضية الزنجي الحديث (Negre Nouveau) الذىهو اساسا عضو هـام فى المجتمع المعاصر فهـو يشغل مكانة لها أهميتها فى الانسانية الحديثـةحيث الأنسان مزيج من مختلف الحضارات من بينها حضارة افريقيا السوداء .

وبعبارة أدق فالانسان الجديد فى مفهومسنجور هو تطعيم الرجل الابيض الذى يضعف وتتلاشى فيه قيم ومعان حضارية بدأت تضمحلتحت تأثير حضارة الآلة والتكنولوجيا الحديثـة تطعيمه بدم الرجل الاسود ،دم القارة الفتية الذيسيحيى البشرية بقيمهوتراثه الحضارىالاصيل .

يجوز لنا أن نقول عن مالرو كما نقول عنسنجور أن كليهما « شاعر » مناضل وفنان مؤمن بالانسان كما سنرى فى بحثنا هذا . فلا عجب فىأن نرى مالرو يكتب أول ماكتب من مؤلفات سنة ١٩٢٠ بحثا معنونا « اصول الشعر التكعيبى »(١٧) ، ولا عجب أيضا أن نرى الشاعر الأسود يعمل بالمقاومة ويناضل طول حياته من أجـلاستقلال الشعوب السوداء فكل مافعل وماكتب محوره هو تكامل الحضارات والأجناس واحياءأمجاد وتراث الجنس الأسود عن طريق أسترداد الرجل الأسود لمكانته الحقيقيةفى المجتمع المعاصر. كل هذا يظهر ويتلخص فى شعر سنجور فى فكرة العودة الى الوطن الأم — (أفريقيا) .

ولكن الذى يقرن اعمال سنجور باعمـالمالرو عاملان : —

أولهما : نظريـة تكامل الحضارات ومزجالأجناس لخلق الأنسان من جديد .

وثانيهما : ايمانهما برسـالة الفن كعنصرأساسي يرتكز عليه المجتمع .

فأن سنجور عندما يتحـدث عن تجربتهالشخصية يتغنى أيضا بكل آمال وطموح وآلام أبناء جنسه ، وبالتالي فهو يعبر بصدق عن تجربةحقيقية تعرض لها : الا وهي بحث الانسان عن ذاته وعن حريته وتحقيق مجتمع مؤمن بالقيمالحضارية الاصيلة ، وهذا فعلا — كما سوف نرى — مايصبو اليه مالرو من خلال تجاربـة فى الفنوالسياسة والحياة .

فكلاهما مولع بالفن مؤمن برسالتهالحضاريةالقيمة كعنصر اساسي يرتكز عليه مجتمع القرن العشرين المتفتح لكل الحضارات والمؤمن بالقيمالثقافية العريقة التى تخلق الأنسان ، بمعنى ان الأنسان هو الذى يسيطر على العالم ولا يخضعلسيطرة الآلات وعبودية الايديولوجيات المزيفة فى المجالات السياسية والاجتماعية .

وتركت الحرب بصماتها الأليمة على مالرووعلى سنجور فقد مارسا التجربة المروعة التي جعلتهما بمجتمع السلام والبناء والقيم الحضاريةبدلا من مجتمعات الخراب والدمـار وأسـتغلال الشعوب بعضها البعض نتيجةلهذه الايديولوجياتالمزيفة التي تجعل قلة قليلة مسيطرة، ودكتاتورية تتحكم فى مصير البشرية جمعاء وتذيقهم المهانـةوالذل فتمحو من وجوههم ومن قلوبهم الملامـح

---

(١٧) Des origines de la pocsie cubiste

الانسانية . ويؤكد مؤلف « اللامذكرات » هـذه الحقيقة فى احدى مقالاته وذلك عندما يطرح بجدية هذا السؤال : « ماهو الفن » ؟

فأن السؤال الثاني يأتى على الفور الا وهو :« ماهو الأنسان » ؟

فمفهوم الفن اذن عنـد مالرو هو تعريف للأنسـان ، ودلالة على كيانه البشرى الذى يصنع القدر ويتمرد عليه حينما يخالف معاييره ومقاييسه وطموحه لتحقيق ذاته .

الفن اذن ليس خضوعا للقدر ولكن بفضله يتغلب الأنسان على القدر وعلـى المصير المحتوم ويخلق العالم طبقا لطموحه وآماله ، وبذلك يصبح هذا الفن السلاح المقدس الذى يغزو به الأنسان العالم وأن لم يستطع الغزو الفعلى المادى الملموس فعلى الأقل يتحرر من الاغلال والقيود والسيطرة ايا كانت ، وينطلق انطلاقة الحرية معبرا عن ذاته فى أعمق اعماقها ؛ وماعمل سنجور الشعرى الا صرخة انطلاق .

● ● ●

لقد كانت أول مقابلة بين مالرو وسنجور فى بداية عام ١٩٦٦ وفى مدينة داكار بالسنغال وقد ترك هذا اللقاء فى نفس مالرو أنطباعا عن شخصية سنجور وعن أفريقيا عامة ، أوضحه مالرو نفسه فى مذكراته حيث يقول فى احداهما : (١٨) .

« داكار مارس سنة ١٩٦٦ .

قـدم الرئيس ليبولد سـنجور ، رئيس جمهورية السنغال فى داكار المع مجموعة من النحت الافريقي الموجود فى أفريقيا ، وهي تتكون من ستمائة قطعة .

وهناك أيضا قالب القناع الشهير الذى يظهر الفن الافريقي لكل من دورين (١٩) وفلامينج (٢٠) ولفنانين كثيرين غيرهم . وقد اقيم المعرض فى المتحف الجديد المصنوع مـن الزجاج والصلب الذى اتم الرئيس بناءه مؤخرا .

ولقد ذهبت امس الى المعرض لأنني أعرف بالخبرة انه لايمكن رؤية شيء اثناء الافتتاح ولا أعتقد أننى شعرت يوما الى هذا الحد بمدى تحول الآلهة حتى عندما كنت أعمل فى المتخف الخيالى للنحت ؛ أن متحفنا هذا للأنسان وماهو الا معرض لعلم الأجناس وفيه تقص الآلهه لبعضها البعض قصة الوهيتهم وعلـى بعـد بضعة كيلـو مترات من هنا توجد قرى كثيرة وغريبة وهـي تتميز بالأكواخ المخروطية الشكل .

---

(١٨) لوار مارين Hotes de passage

(١٩) رسام فرنسي ١٨٨٠ ــ ١٩٥٤ (Deraiu) .

(٢٠) رسام فرنسى ١٨٧٦ ــ ١٩٥٨ (Vlaminck) .

ولاتصبح الآلهة أبدا تماثيل بهذه الدرجةالاخاذة الا بعد تجردها الكامل وهؤلاء فضلا عن ذلك يكونون عادة من الاجداد ، أن للغرب قدسيةوللصين موتاها اما أفريقيا فلها أصنامها ؛ وقد اشتركت منذ بضع سنوات فى احتفالات تحريرالسنغال ومن قبل كنت قد طالبت باسم الجنرال ديجول التحرر لبلاد أفريقيا الاستوائية القديمةمن السيطرة الفرنسية ...

... تشاد ، جمهورية أفريقيا الوسطى ،الكنغو ، وجابون ، وقد كانت أفريقيا الاستوائية هي أفريقيا قلب الظلمات كما وصفها جوزيف‌كونراد ـ وهي أيضا الادغال تترصد للعواصم . وفى تشاد ... فى فور لامى عند رحيل ليكلارك‌كان عدد السكان ستة ملايين نسمة ، ولكنهم اصبحوا الآن خليطا من خمسين الف نسمة ،وعندما أردنا الرئيس تومبالباى وأنا الذهاب من قصره الى عربته الكاديلاك وطولها ٢٠ مترا ، كان‌علينا اختراق مجموعة من الراقصين العراة الذين طلوا أجسادهم باللون الأزرق ، وفى الميدان الكبيركان ـ هناك عشرة آلاف من المنتمين الى القبائل تهزهم نفس الرجفة ...

سوف تفتح قريبا الجمعية الوطنية ـ ماأعجب هذا التناقض بين أفريقيا الماضى وأفريقيا اليوم ! ومن حولنا كانت تشاد ماقبل التاريخ‌وأفريقيا اللانهائيةالتي رأيتهامن الطائرة والشمس تشرق فوقها .

وهاهي رقصة « الرجال الفهود » تقام فى‌وسط دائرة من النساء يحملن على رؤوسهن الجرات .

بالامس كانت كلمة تشاد تعني بعض‌الوظائف‌المتناثرة فى عزلة الصحراء البعيدة ، أما الآن فتشاد تعنى كل هذه الجموع التى لا أدرى من‌أين أتت . ويبدو لى هنا فى أفريقيا الظاهرة نفسها التى شاهدتها فى آسيا من قبل فمن اى سافانابرزت هذه الجموع التى منذ الآن وصاعدا تبدو كأنها جاءت من كل مكان ؟

وكان على الرئيس تومبالباى أن يقيم دولةمن هؤلاء الراقصين ، المطلية أجسامهم باللون الأزرق، وحاملى الأقنعة والفرسان الكارو لنجيين(٢١) اسلام افريقيا السوداءووثنيتها وعلى‌امتداد الطريق من داكار الى برازافيل ترتفع المبانى‌الحديثة لتشاد الجديدة ، هذه المباني التي تعلو الرقص العريق وتعد الأمم الصاخبة بقيام‌الدولة ...

... كان رفاقى يرقبون انزال علم فرنساورفع علم تشاد بغضب مألوف لم أشاركهم فيه . لقد انسقت الى الثورة كما كانت مفهومة سنة١٩٢٥ بدافع من كراهيتى للاستعمار الذى عرفته فى الهند الصينية .

احد المحافظين الفرنسيين الذين حكمواتشاد فى الآونة الاخيرة ويدعى مارسيل دوكوبيت كان ليبراليا وقد دعا الكاتب « اندرية جيد »لزيارة تشاد . وتكفينى هنا يوميات جيد : « توجد بعض المستشفيات ولكنها لم تستطع ان‌تعوض المشاريع ذات الامتيازات الكبرى ؛»ويرجع

(٢١) الكارولنجيين : الجيل الثانى لملوك فرنسا الذى‌يستمد اسمه من شارلمان وقد حكموا من ٧٥١ ـ ٩٨٧ .

لنا الفضل نحن الديجوليين فى أن كل هذه الاعلام القومية ترفرف على سماء أفريقيا فقد نفذنا ماوعد به عبثا خصومنا منذ أمد طويل ، واذا كان اسلافنا قد انبهروا بالامبراطوريات فقد انبهرت أنا بالمغامرة التى قادتنا الي الميادين الأفريقية اللامتناهية حيث يصرخ الراقصون المطلية اجسادهم ، قادتنا ايضا الى الحدائق التابعة لقصور رؤساء الجمهوريات حيث يتحدى الرجال السود بعضهم البعض أمام المتفرجات المنبهرات فى زيهن القومى كما يحدث فى قرطاجنة (٢٢) ..

فكما راينا بادىء ذى بدء هناك لقاء أندريه مالرو بأفريقيا السوداء فمالرو تعلم أن يكتشف أفريقيا من خلال زياراته لها .

« فبين الزيارة البروتوكولية للرئيس سنجور وبين افتتاح متحف الفنون الزنجية بداكار ، ذهبت الى منطقة كازامانس ، اذ كنت أحلم بها منذ أمد بعيد ، ربما بسبب تغنى سنجور بهذه المنطقة التى تعرف بمنطقة الجزر » (٢٣) .

• • •

وفعلا هناك قصائد عديدة للشاعر الاسود تغنى فيها بجنوب السنغال اى الكازامانس . تلك المنطقة الشبه أستوائية ذات الخضرة الخصبة والمستنقعات العديدة والغابات الشاسعة ، وخاصة غابات ـ النخيل الذى هو الشجرة المفضلة عند الشاعر الأسود ؛ وعلى سبيل المثال نذكر هذه المقتطفات من ديوان « حبشيات » وعنوان القصيدة : « رسائل الى الاميرة ـ الماركيزة دانييل دى بيتفيل » (٢٤) :

« وصلتنى رسائلك يا أميرتى ، فى قلب البلاد العالية بين غامبيا وكازامانس حيث مكثت عند الأجداد القدامى ... » .

ولكننا لانستطيع أن نتحدث عما كتبه سنجور عن افريقيا ، لان كل ماكتبه سنجور هو افريقيا ، فهي الامل والحلم والواقع والحاضر والمستقبل ، منبع الحياة وموطن الجمال ، ورمز الامومة والأنوثة والحب فى مؤلفات شاعر أفريقيا الأسود .

ويستطرد مالرو حديثه قائلا عن القارة الشابة العريقة : ـ

« ولكن من وراء كل هذا بدلا من المركبات الصغيرة كانت هناك افريقيا الشامخة بمناظرها الخلابة : جزيرة جوريه التى توحي بأجمل اللوحات الفنية ، وتوحى بشهامة الماركيز دى بوفلير (٢٥) ومغامراته العاطفية العديدة ، والنساء أى سيدات المجتمع « السنيار » (٢٦) بملابسهن

---

(٢٢) زوار مارين : Hotes de passage

(٢٣) زوار مارين

(٢٤) والدة زوجة الرئيس سنجور .

(٢٥) الماركيز دى بوفلير كان فارسا فى القرن السابع عشر عين حاكما بجزيرة جوريه من قبل فرنسا وجزيرة جوريه امام داكار فى المحيط الاطلسى وهى مشهورة تاريخيا حيث كان العبيد السود يرحلون منها الى أوروبا وامريكا .

(٢٦) السنيار : كلمة تأتى من اللغة البرتغالية بمعنى سيدة من طبقة عالية .

الزاهية الجميلة ، والقمر الزاهي فوق الرأس الاخضر (٢٧) فنسيم جزيرة جورية المنعش كان يهتف على ليل افريقيا .... » .

وهذه الصورة بالذات تكاد تكون حرفيا فى قصائد سنجور ألا وهى « جوال » مسقط رأس الشاعر حيث يقول : ـ

« جـوال » :

أننى مازلت أذكر ....

مازلت أذكر السيدات السينار فى ظلال الشرفات الخضراء ، السينار ذات العيون البراقة الخيالية كضوء القمر فوق الشاطىء ... » (٢٨).

وعندما يتأمل مالرو من بعيد منظر جزيرة جورية هذه التى تطل على شواطىء داكار فهو يتذكر بالأخرى كل ماكتبه سنجور عن تلك المنقطة، فنافذة الشاعر فى مكتب قصره بداكار تطل على نفس المنظر ، وكم من مرة نظر الشاعر واستلهم أجمل ماكتب من تلك المناظر الآخاذة ...

ويحدق مالرو النظر لعله يعيش ثانية هذا العهد الذى أنطوى مع قرون مضت والذى طالما تحدث عنه سنجور واثر على مالرو حتى أنـه أصبح يرى افريقيا بعيون سنجور من خـلال ما كتبه .

وترد على خاطره صور السيدات الجميلات بأطرافهن الناعمة التى تتالق تحت ظلال الخضرة الوارقة والورود الحمراء ، بملابسهن الهفهافـة الرقيقة ... ولكنه لايسرح بخياله فقط وانما يعايش أيضا من خلال اعمـال سنجور واقـع السنغال الحالى، فيذهب ليكتشف بنفسه ماكتبه شاعر السنغال عن الشـاطىء والغابـة والبئر والقرية والتحضر والتأخر (اذا جاز لنا هـذا التعبير بمعنى المنظر التلقيدى للبلاد) فيعجب مالرو بالطقوس والعادات ـ والتقاليد فى نظام اختيار وانتخاب زعيم القرية الذى لـم يعد لهسـوى دور رومانى ، وعن ملوك القبائل الذين يجتازون كل انواع التحديات حتى يفوزوا عن جدارة بمناصبهم ... فمثلا يضرب حتى الموت ، فان نجح فى الصمود يصبح ملكا ، اى ان هنـاك قيما ومقاييس للشجاعة والاقدام مازالت حيـة وقوية فى ادغال القارة السوداء تسترعي انتباه مالرو بل تثير اعجابه وتقديره .

• • •

وقصة لقاء سنجور ومالرو ترجع الى امد بعيد ، ولكن الالتقاء هو أعمق ، وطالما وجد فى فكر وعمل كل من الكاتبين . فمـا أكثر لقاءات سنجور بمالرو الفعلية ولعل أهمها هو أولهـا ، حضور أندريه مالرو لافريقيا السوداء من أجل افتتاح أول مهرجان للفنون الزنجية الذى اقيـم فى داكار عاصمة السنغال فى سنة ١٩٦٦ بمناسبة أعياد استقلال السنغال .

---

(٢٧) الرأس الاخضر : رأس من الارض ممتدة فى المحيط الاطلسى فى منطقة داكار .

(٢٨) من اغانى الظلال .

ويجب ان نتوقف لحظة عند هذه العبارةالاخيرة اى استقلال السنغال .

فقد يتساءل القارىء ، وماعلاقة هذا بذاك ؟اى ماعلاقة استقلال السنغال باندرية مالرو ؟

الواقع أن هناك علاقة وثيقة بين الثقافةورجل النضال اندرية مالرو فى عهد شارل ديجول وبين مولـد دولـة ناشئة فى افريقيا السـوداءالسنغال فربطتنفس المبادىءبين قارتينمتناقضتين فى الحضارة والثقافة والسياسة آنذاك الا وهىاوروبا وافريقيا .

وحدث هذا بفضل رجل واحد حقق الكثيرمن أجل بلاده : شـارل ديجول وعلاقـة مالرو بالجنرال شـارل ديجول لاتخفى على احـد ،والدور الذى لعبه مالرو سـواء فى الكفاح مـع ديجول فى احياء فرنسا سياسيا وعسكريا ، أوكوزير لديجول فى المجال الثقافى ، فكان اندرية مالرو خير سفير لبلاده ليمثل احترام الحضاراتوتقوية الصداقة والأخوة بين مختلف الأجناس والشعوب .

فما من احد لايعلم الكثير عن وطنية الجنرالديجول ومافعله من اجل احياء فرنسا الممزقـة المهزومة فى مستهل الحرب العالمية الثانية ضدالالمـان ، ومامن احد يمكنـه أن يتجاهل الدور البطولى الذى قام به ديجول فى صنع فرنسـاالحديثة ، ومامن احد من قراء مالرو يمكنه ان ينسى ما فعلهمالرو ، وكاتب **الأمل واشجار الجوزبالالتامبرج** فى هـذه الحرب الشعواء التى طالما مزقت وهددت كيان أوروبا وتسـببت فى قيامحركات النضال من اجل استرداد الحرية على الصعيد السياسي فكانت حرب المقاومة ، كمـاكانت كانت سببا أيضا فى قيام حركة فكر واسعة الابعاد عنها نشأت فلسفة العبث مثلا على ايديالبير كامو واندريه مالرو وآخرين .

وعلى ذكر العبث ، فمـن العبث فعـلا انتتجاهل فرنسـا فى الثلاثينات ومابعدها حقوق الشعوب السوداء فى الحرية والاستقلال فى تقديرسنجور .

ففرنسا بلد الحرية التى طالما كافحت مناجل تحقيق العدالة والمساواة والحرية ، بلـد الفكر والعقيدة الحرة ولذلك فكانت هناك علـىحد تعبير ديجول ومالرو نفسـه حتمية تاريخية واجتماعية تحتم على فرنسا التي تحمل مشعلالحرية ان تترك لبلاد افريقيا السوداء حق تقرير المصير ، ولذا ايضا وعلى يد شارل ديجول كاناللقاء التاريخي بين سنجور وديجول الذيائمر عن استقلال السنغال .

اما اعجاب الرئيس الشاعر سنجور بديجول فيمكن ان نلخصها من خـلال رؤية لشـخصية ديجول نفسه والذى أطلق عليه الشاعر الاسوداسـم « الجيلوار » اى الفارس الهمام باحـدى اللغات السائدة فى السنغال وهى الولوف .

وترجع قصة سنجور مع ديجول الى عهـدالحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور كجندى فى الجيش الثاني للفرق الاجنبية التي كانت تحتاللواء الفرنسى ضد الألمان ، واصبح الشاعر اسير حرب فى معسكر مدينة اميان بفرنسا لمدة ثـلاثسنوات تقريبا ذاق خلالها ألوانا من العذاب هـو وامثاله من الرجال السود الذين على حد تعبـيرسنجور نفسه « قدموا انفسهم قربانا لكى تعيش

فرنسا » . وكان هذا الموقف ينجم عن اعجاب سنجور الشديد بشخصية الزعيم ديجول الخارقة الاسطورية ، فبينما رفضت قوات ساحل العاج أن تحارب مع فرنسا ضد الالمان ، دخلت السنغال الحرب وضحت بجنودها ودماء أبنائها الشهداء الذين يصفهم سنجور فى ديوانه « القرابين السود الذى ظهر فى عام ١٩٤٨ فى قصيدته المعنونه : » Assassinats على هذا النحو :ـ

« هاهم ممددون على طريق الاسر ، على طريق الكارثه .

هؤلاء ، أشجار الحور المشوقه .

تماثيل الآلهة السوداء ملتفين بغلاف براق من الذهب .

هؤلاء شباب السنغال الاسرى الممددون تحت تراب أرض فرنسا ..... »

كتبت هذه القصيدة فى معتقل رقم ٢٣٠ أثناء الحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور مع رفاقه السود عندما اقتحم الالمان فرنسا .

وبناء على ذلك نجد ان فى الازمات والشدائد يقف الجميع صفا واحدا ، ويساند المرء اخاه ، فالكل يقف وقفة واحدة ويدا واحدة فى مواجهة الصعاب .

وربما يظهر هذا الموقف جليا فى موقف سنجور تجاه الزعيم شارل ديجول فى قصيدته الشهيرة « الى الجيلوار » التى كتبها فى معتقل اميان فى عام ١٩٤٠ وهى استجابة من سنجور ورفقائه لنداء الجنرال ديجول لتحرير فرنسا مقابل وعد منه لتحرير بعض دول أفريقيا السوداء من الاستعمار الفرنسى الشىء الذى تم فعلا فى حضور مالرو نفسه ! .
« جيلوار » ! (٢٩)

لقد انصتنا اليك ، واستمعنا اليك باذن قلوبنا ، وانفجر صوتك براقا فى قلب ليل السجن الذى نعيش فيه ، دوى صوتك مثل صوت ملك الغاب وكم انتفضنا حرارة واستجابة فى ذل السجن ومهانته ! .

اننا كصغار العصافير الذين سقطوا من عشهم ، اجساد محرومة من الأمل تتعرض للأذى .

حيوانات متوحشة لكنها مقطوعة الأظافر ، جنود بغير سلاح رجال عراة .

وها نحن نتخبط ونتوه كالضرير الذى لا يجد الأيدى التى تساعده .

اشرف الأشراف قد ماتوا : لأنهم لم يقدروا على ابتلاع خبز العار فى الأسر .

---

(٢٩) كلمة الجيلوار : وهى باحدى اللغات القومية فى السنغال تعنى الفارس المقدام الهمام الذى اشتهر فى حضارة افريقيا السوداء باصالته وشهامته فى الحرب وفى حماية المرأة والطفل والشيخ وهو الفارس المغوار الذى يتمثل به كل شاب فى القبيلة والعشيرة ويتمنى ان يصل الى مرتبته فى الشجاعة والكرم ونبل الاخلاق .

وها نحن واقعون فى الفخ ، فى قبضة يدوحشية نبدو فيها كالحشرات ، فالمجد للعربات المصفحة والدبابات وقنابل الطائرات ! .

لقد بحثنا عن مأوى ، عن سند ، ولكن كل هذه الآمال كانت تنهال كتلال الرمال لقد بحثنا عن زعماء وقد كانوا غائبين ، وبحثنا عن رفاق ولكنهم لم يعودوا يعرفوننا ولم نستطع أن نتعرف على فرنسا .

وصرخنا لليل آلامنا ، ولكن ما من صوت أجابنا . أسياد الكنيســة قد التزموا بالصمت وأسياد الدول قد أشادوا بعظمة الضياع الحقير .

هل هذا هــو وقت الزنوج ؟! أهذا وقت الرجال ؟! : لا ! فالآن ما من شيء يهم سوى أوروبا ! .

جيلوار !

ان صوتك ينطق بالشرف والأمل والنضال ، وترفرف أجنحته فى أعماق صدورنا .

ان صــــوتك سيعلن لنا الجمهورية التى سوف نشيدها فى مدينة المستقبــل فى اليــــوم الأزرق . فى مساواة الشعوب الشـــقيقة وعنداذن نرد عليك :

« نعم يا جيلوار ! ها نحن بجوارك ورهن اشارتك ! »

ولعل هذه القصيدة تعبر أصدق تعبير عن اعجاب سـنجور بديجول وعن موقفه كصـــديق وكأخ رفيق للكفاح ضد مستعمر ظالم ، جهور ، وحشى ، دنس أرض الوطن الحبيب .

فالصديق لا بد أن يسعف صديقه فى وقت الشدة . ولعل أصدق مثال على ذلك هذا البيت من شعر شوقي فى قصيدته « دمشق »

« كلنـــا فى الهـــم شــرق » !

وهكذا ســمع ديجول النداء ووفى بوعده وتحررت السنغال وعلى أيدى مالرو نفسه !

ولكن اعجــاب مالرو لافريقيا لا يقف عند كونها قارة المستقبل وانما هو شــديد الاعجاب بتراثها الفنى السخى المعبر ، وبذا نصل الى نقطة اساسية تجمع بين سنجور ومالرو ، أى الالتقاء الاستيتيكى (الفنى) :

• • •

٢ ــ الالتقاء الاستيتيكى :

كثيرا ما يتعرض مالرو لأمر يرجعه الى حد كبير ، فهــو يروى أن الفن فى المجتمع المعــاصر أصبح ذهنيا ، أى أننا عندما نرى فى أى متحف أى تحفة فنيــة نراها بأعيننا فقط ونقيســها

بمقاييسها الجمالية التى اعتدناها واتخذناهامعايرا لقوانين الجمال ، ولكن أين معناها الحقيقى ؟ أين جوهرها الذى يتضمن المعانىالعميقة ، والفلسفة دينية كانت أو روحانية التى من أجلها خلقت هذه التحفة ؟ .

ان ألأمر يختلف تماما بالنسبة للفن البدائىأو الفن فى أقصى الشرق والحضارات القديمة وافريقيا السوداء ، حيث ان الفن كما يشرحهسنجور ما هو الا تعبير عن ذات الانسان البدائى بغض النظر عن المعايير الجمالية والمقاييسالاستيتيكية . ولذا يخلق المرء العمل الفنى من خلال رؤيته هو للواقع ،فالفن عبادة وتعبير وليسأداة جمالية وانما اداة للوصول الى المقدسات وعالم الارواح والاتصال بالعالم العلوى . وعلىهذا الاساس فالعمل الفنى مثل القناع أو التمثال أو الاصنام أو أى تيمة من هذا القبيل انما هوفى حد ذاته تعبير واتصال روحانى مع الآلهة والاسلاف والاجداد ومن ثم فصانع التيمة أوالقناع لا يصنعها طبقا لمقاييس جمالية أو معايير استيتيكية ، ولكن يجعلها تحمل معانى ورموزامعينة تعبر عن فلسفة محددة ومفاهيم معينة لأناس ينتمون الى قبيلة أو عشيرة لها معتقداتهاومقداساتها ، وبالتالي فان هذا العمل الفنى يعبر عن مشاهرهم تجاه تلك المقدساتوالمعتقداتويجسد افكارهم واحاسيسهم .

والفن فى افريقيا السوداء كما يقول سنجورملتزم ، بمعنى انه لا يوجد هناك فن جمالى بالمعنى المألوف . ولكن الفن له شكل وظيفى اىانه يقوم بوظيفة معينة يؤديها من أجل غرض معين وكل انسان فى القرية فنان ، وان كانت هناكدرجات مهارة تتفاوت فى الاداء . ولكن أى شخص فى القبيلة يستطيع ان يخلق قطعة فنية أو تيمةأو قناع أو يقوم برقصته ، لأن المقصود من أداء العمل الفني هو الاتصال بالأجداد والآلهة وجعلهم يتأثرون ويحققون الأمنية المطلوبة من البشر ، ثم يملون رغبتهم عليهم بدلالات معينة تبدو للبشر عنطريق العمل الفنى نفسه ، فالفن اذن مشاركة وجدانية وعاطفية قبل أى اعتبار آخر . فالزنجىيلمس ويحس العالم المحيط به عن طريق حواسه التى يعبر عنها فى كل عمل فنى .

وهنا يتقابل فكر مالرو بموقف سنجورالذى ما زال يعيش فعلا ما تمناه مالرو ، اى اعادة الأبعاد المقدسة والمعانى العميقة لكل عملفنى .

وهذا هو سر الصداقة والاعجاب الذى كانيربط مالرو بالرسام العالمى بابلو بيكاسو Picasso الذى يعتبر أيضا صديقا للشاعرليوبولد سنجور ، فعلاقة سنجور ببيكاسو وطيدة وقديمة نذكر عنها هذه القصيدة المهداة لبيكاسومن ديوان « أغانى الظلال » وعنوانها « قناع زنجى ــ الى بابلو بيكاسو » :

« نائمة هى هادئة فوق طهارة الرمال .

كومباتام (٣٠) نائمة تستر نخيلة خضراءشعرها الأحمر وجبينها النحاسى

الجفن مغلق والحاجب والمقلة الى الأبد .

---

(٣٠) كومباتام : ربة الجمال عند بعض قبائلالسنغال

هذا الهلال الرقيق ، هذه الشفاه السوداءالرقيقة أين منها الآن ابتسامة الأنثى المتواطئة الحنون ؟ .

ورقة الخد ، ورقة الذقن ينشدان توافقالخط والرسم فى متحف

يا لك من رأس نحاسية كاملة يصـــقلهاالزمن ،

لا تعرف دنس المساحيق ولا احمرار ولاتجاعيد ولا علامات للدموع أو للقبلات .

يالك من وجه خلقه الله قبل ذاكرة الزمن .

وجه فجر العالم ، لا تنفرج بحنان حتى لاتثير شهوتى .

اننى أعبدك يا جمال بعين « أحادية الوتر »

• • •

اكتشف بيكاسو الفنون الزنجية فى حوالي الثلاثينات ومن هنا نرى تشابها الى حد كبير بين اسلوب بيكاسو واسلوب الفنون الزنجية . فأولايعتبر بيكاسو شديد الاحساس باشــكال قديمة للغاية مرت بحضارات عريقة نذكر منها « جمجمةالموتى » « عنكبوت الكابوس » و « ثورة الشمس» و « جــواد الموت » ونســتطيع ان نرى هاتينالأخيرتين فى لوحة بيكاسو المشهورة « جرنيكا » Guernica .

وبذلك فأن أعمـال بيكاســو تنادى عبرالقارات تلك الأقنعة والتماثيل المقدسـة بأدغال افريقيا التى تجذبنا بسبب مالا نعرفه عنها تمامامثل تماثيل الآلهة فى مصر القديمة التى لم تعـد بالنسبة الينا تجسيدا لموتى اختفوا ، ومثل آلهةسومر التى لا نعتقد فيها الآن ، أو آلهة الهند أو المكسيك أو الشرق الأقصى أو حتى القديســينالذين لم نعد ندعوهم ، أو الأقنعة والاصنام التى لم تعد بالنسبة الينا ارواح الأجداد ، ان كل هذاالآن لا يحمل لنا المعانى نفسها التى كان يحملها لأولئك الذين ابتدعوه ، ولكن يكمن فى كل عمل فنى مما ذكرناه هنا ، يكمن شيء ما زال يحيرنا ويسترعى أعجابنا .

وفن بيكاسو يتماشى بل يلتقى مع الفنونالبدائية ، فبيكاسو يحيى تلك الفنون من جديد ويقترب منها لانه أساسا يحطم بفنه كل التقاليد ،ولا يعترف بأن هناك شيئا يســمى اســتمرار اسلوب أو مذهب . فيقول مالرو على لســانبيكاسو (٣١) :

« فليسقط الاسلوب ! هل كان لله اسلوب ؟ان الله خلق القيثــارة والكلب والقط والبــوم واليمام ، مثلى . والفيل والحوت ، نعم ، ولكنالفيل مع السنجاب ؟ انما خلق الله ما لم يكن موجودا ، أى خلق من العدم ، وها أنا أيضــاأخلق من العدم ، وخلق الله أيضا فن الرســم ، وأنا أيضا » .

---

(٣١) « راس السبج » ص ٢٥ Tete d'Obsidienne

وبذلك وعلى يد بيكاسو وكما هو الحال فىالفنون الزنجية فان الخلق الفنى يأتى من أعمق اعماق اللاشعور ، وباطن الانســان بكل ما هو قريب منه أعتاد عليه والفه ، وبكل ما هو غريب يجهله الانسان ، ومن هنا يأتى الشعور بشيء مالا نعرفه ، أو بفراغ كانت الحضارة الغربية تحاول ان تملأه بمعتقدات أو تقاليد أو مقاييس ولكنبقى هذا الفراغ الروحانى فى القرن العشرين بل تزايد . فبينما ناشد الفن الكلاسـيكى سـعادةالانسان فى الطبيعة والتوازن بين المرء والأشـياء وجمال الكـون ونظامـه ، وبينما ناشـــد الفنالمسيحى عموما رضاء النفس بما منحه الخالق ، نرى الفن فى القرن العشرين يحث الانسان علـىالتمرد على الاوضـاع وتدمير المعتقدات الزائفة والتقاليد الخانقة ويدعوه الى التعبير الصـادقلما يعرفه من قلق وغضب وتوتر من موقفه المهدد بالحرب والدمار فى عالم دون معونة الله .

ولعل سر أجمـل عمل فنى هـو قابليتهللتغيير ، بمعنى أن كل واحد يرى فيـه شـيئا يختلف عما يراه الآخر . وكل مذهب او مدرسةفنية تكتشف فيه أبعاداً جديدة وأسرارا جمالية أو فلسفية اخرى ، قد تتعارض مع الاكتشافاتالسالفة ولكن يستمر العمل الفنى ويفرض نفسه فرضا على الزمن وعلى المفاهيم والنظرياتالمختلفةالتى تكسبه كل مرة بنظرة جديدة .

فهو يحمل بداخله معانيه ، وبالتـالي فهوقائم بذاته مستقل عن الذى خلقـه وعن الذين يشاهدونه عبر الاجيال والعصور .

ويضرب مالرو امثالا عديدة فى هذا الشـانذكر منها الآتى : —

ان الرسام العالمى « رامبراندت » (٣٢) مثلالم يعد يفهم ويقيم بعد رؤية « فان جوخ » (٣٣) لم يعد يفهم بنفس الطريقة التى كان يفهم **بهـاويقيم فى زمـن دولا كروا (٣٤) اذ ان دولا كاروا** كان يرى فيه المقاييس الرومانسية التى كان هونفسه متأثرا بها ، أما فان جوج فقد رأى فيه كل عناصر المدرسة التأثيرية التى ينتمي هو نفســهاليهـا .

ويعتقد مالرو ان ميزة الفن الحديث انهلا يحاكى الطبيعة ولا يسرد ولا يحكى مثل الفن الكلاسيكى أو الرومانسي ، وانما هو يحطم الشكلالمألوف ويعبر عن رؤيته الخاصة للعالم الخارجي ولأحاسيس الفنان شخصـيا ، ومن هنا يلتقىبالفن البدائى ، فالفن الحديث حطم الشـكل التقليدى وخلق لنفسه معايير شخصية للابداعالفنى ، مثلما هـو الحال فى فن بيكاســو مثلا . وكما هو مبين فى نفس اللوحة التى رسمها الفنانالأسبانى الكلاسيكى Velasquez « فيلا سكويز » وبعدها رسمها بيكاسو والمسماه « **المنين** » (Les Menines) (٣٥) .

ويتضح اختلاف الأداء فى اسلوب الرسم فىمعالجة نفس الموضوع .

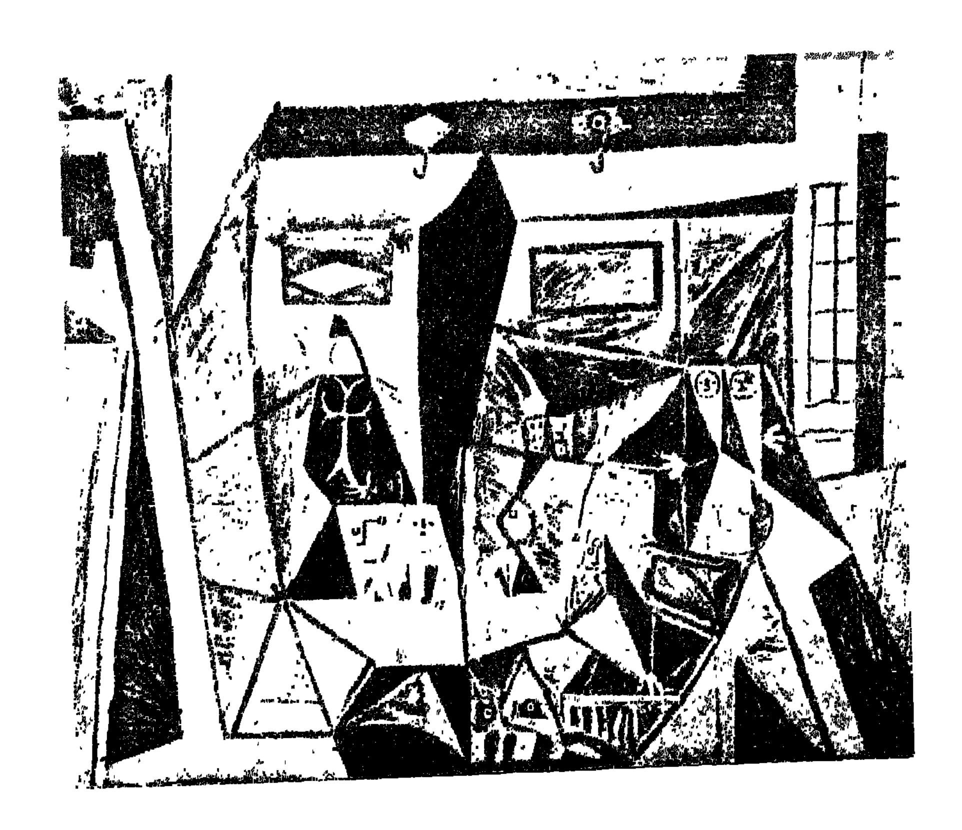
---

(٣٢) Rembrandt

(٣٣) Vau Gogh

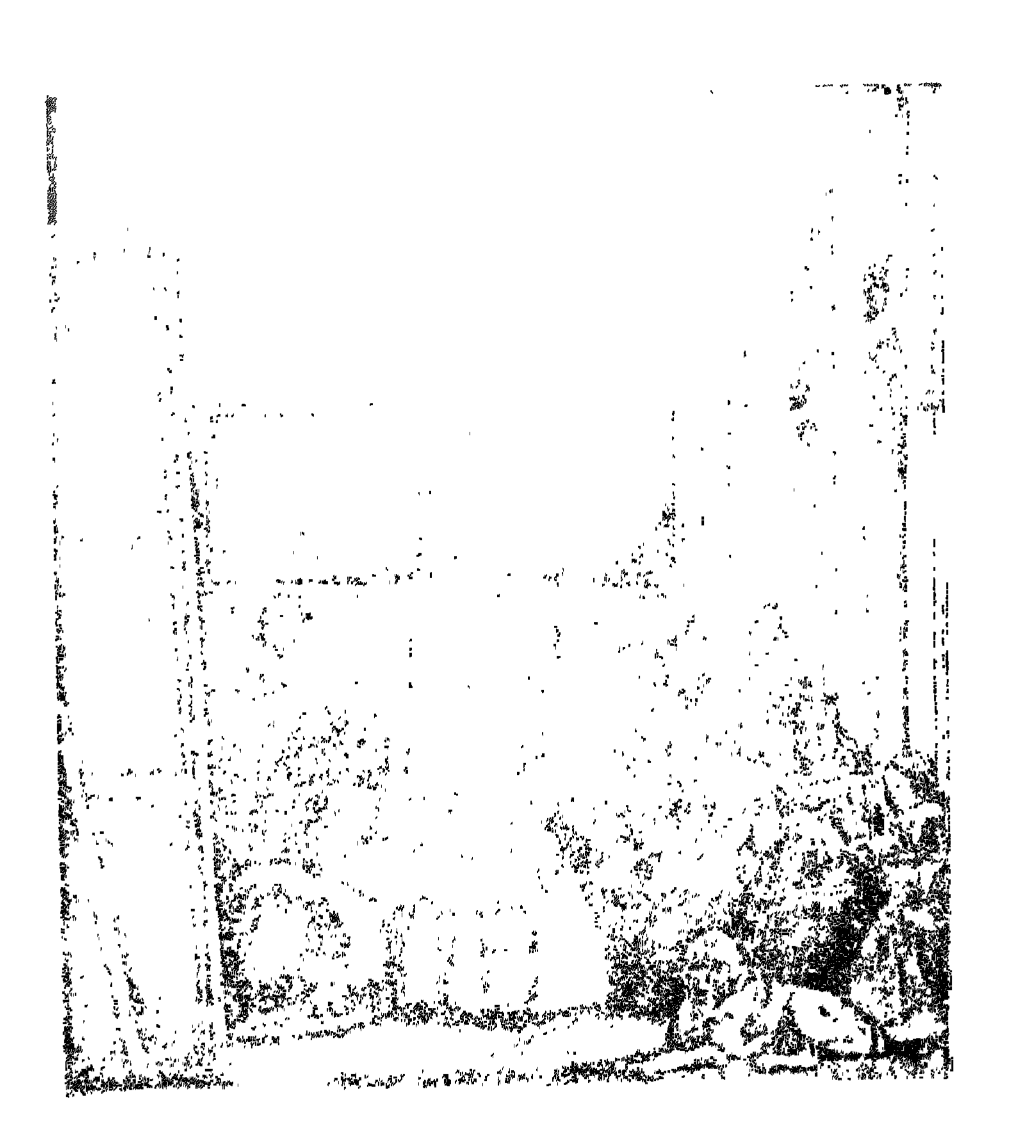
(٣٤) Delanoix

(٣٥) المنين : هكذا تسمى كل سيدة تصاحب اميراتاسبانيا كوصيفات الشرف او مربيات . Les Menines



٦٣١

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان



ويقول سنجور لصديقه مالرو :

« شاء القدر لبيكاسو يوما ما أن تهتز مشاعره أمام قناع باوليه (٣٦) Baoule ، كما شاء القدر أيضا لابولينير ان يتغنى بأصنام الخشب الزنجية كي يغير الغرب نظرته للفن ويوافق بعد الفى عام أن يترك محاكاة الطبيعة على حسب المعايير الكلاسيكية اننى ليس لي دراية عميقة مثلك يا صديقى بتاريخ تطور الفن ، ولكننى أعترف ان فننا الزنجي هذا انما أنبأت عنه فنون قبله ، فمهدت له الطريق ، فبشرت حضارات قديمة أخرى عن قدومه ، حضارات لها ميزة خاصة فى اكتشاف كل ما هو وراء الطبيعة من الطبيعة ، وكم تكون افريقيا منطلقة فى التعبير الفني بالنسبة لمدرسة بيزنطة التقليدية ! فنحن ونحن فقط هم الذين استبدلوا بمنطق الرؤية منطق اللمس » (٣٧) .

وهكذا يتفق مالرو مع سنجور على أنه يرجع الفضل لافريقيا السوداء فى ايجاد فن معبر قبل ان يكون خاضعا لأي معيار جمالى آخر ، وهذا الفن شديد الحرية فى تعبيره اذ انه يجسد الواقع على حسب حواس الزنجي وعلى حسب منطقه وفلسفته للأشياء المجاورة ، معتمدا كل الاعتماد على كل حواسه وليس على قوانين وتقاليد فنية معينة أو مذهب أو مدرسة ، فلا اضاءة خاصة ولا أحجام ولا خطوط ولكن رموز لها معاييرها ومفاهيمها ودلالتها المختلفة عند كل رجل زنجى عندما يرى هذا العمل .

والمدرسة التكعيبية والسريالية الفرنسية قد فهمتا كل هذا ، بل ادركتا أيضا أن أهم سمة للرسم الحديث على غرار الفن الافريقى يكون التعبير والانفعال ولعل سر نجاح المدرسة السيريالية بمختلف تشعباتها وبأسمائها اللامعة يرجع أيضا الي هذا الاتجاه فى الانفعال بالواقع أولا ثم التعبير عنه بالتحرر المطلق عن الخطوط والألوان والاحجام التقليدية .

وهكذا يدمر الفن الواقع تدميرا كى يعيد بناء العالم على حسب الرؤية الداخلية للفنان ، ومن هنا تبدو أهمية الفن الأفريقى بالنسبة للفنون المعاصرة . فالفن منذ اكتشاف الغرب لفنون افريقيا السوداء فى بداية القرن العشرين لم يعد اسلوبا فقط أو حتى مدرسة أو مذهبا ولكنه هو فن مجرد بلا أى تعريف آخر . ان الفنانين السرياليين تأثروا كل التأثير بالفن الزنجى لأنهم رأوا مثله فى ما وراء الطبيعة ، اى كل الابعاد المقدسة والخفية التى تربط الواقع بما وراء الواقع ، أو ان شئت هذا الذى سماه القديس بولس على حد قول مالرو : « بداية الذى لا نراه » . فكل الاشكال للفنون المعاصرة كما يوضح مالرو (٣٨) أصبحت طليقة ليست حبيسة الأشكال التقليدية كما هو مبين فى هذا التمثال الخشبى الذى نحته بيكاسو مثلا . وقد أسماه بيكاسو « الحاصد » (Le faucheur) كناية عن تلك التى تحصد رؤوس العباد مثلا ، والملاحظ هنا تجريد العمل الفنى من أى معايير تقليدية للنحت كلاسيكية كانت أو رومانسية أو غيرها ، وانما يقترب أشد الاقتراب من الفن البدائى وخاصة الزنجى .

---

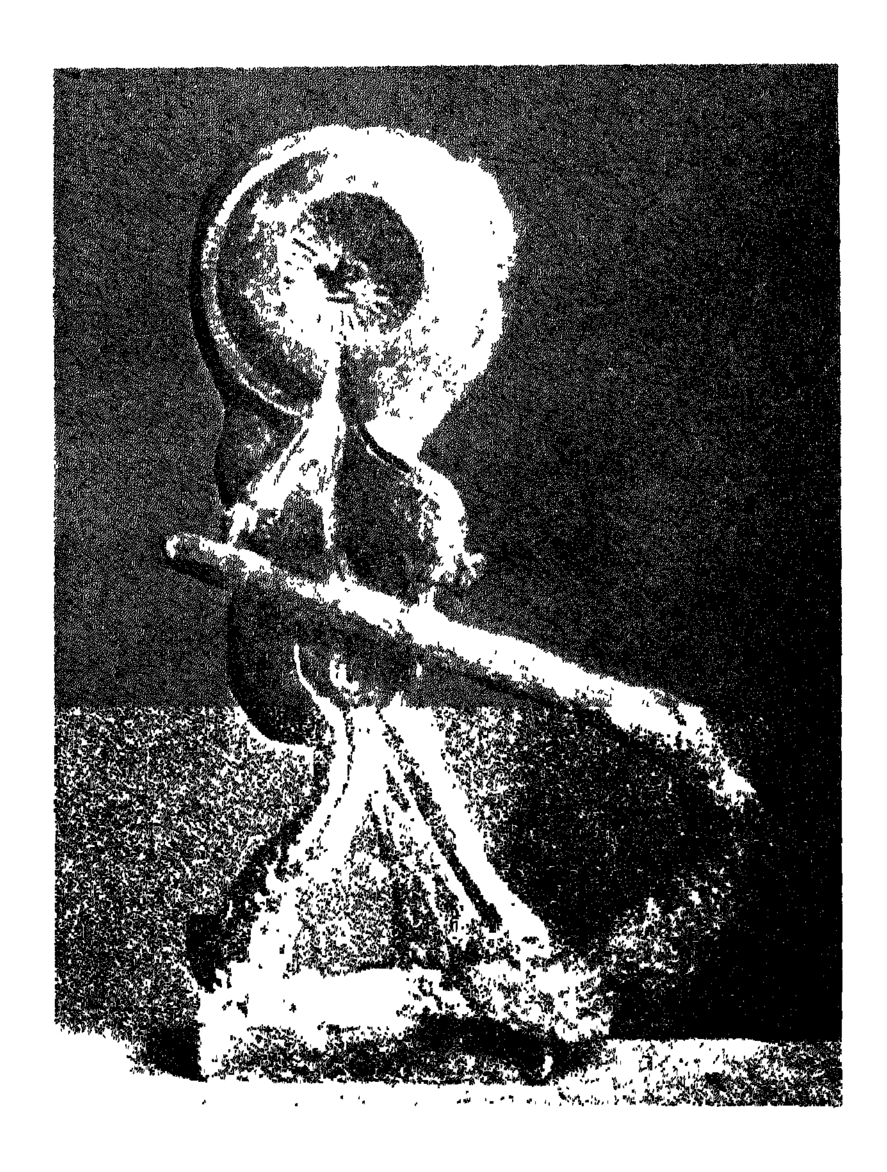
(٣٦) باوليه : قبيلة من افريقيا السوداء ذات حضارة عريقة مشهورة بمهارتها فى النحت وصنع الاقنعة الذهبية .

(٣٧) « زوار مارين » ص ٣١ .

(٣٨) رأس السيبج البلورية .

٦٢٣

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان



من هنا يلتقى هذا الاتجاه الحديث فى الفن بخط المقدسات فيبدأ بينهما الحوار ، وهذا ما يحدث بالفعل فى الفن الزنجى . فالفن يأتى بمقدساته أيضا وهى كامنة فيه مستقلة به لأنه يحمل الحقيقة الداخلية لكل انسان ، ولكن ميزة الفن الزنجى انه لا يؤدى الى العزلة بل يؤدى الى الاتصال بالآخرين فبينما يعبر تصوير الأشياء فى الطبيعة فى الفن الاوروبى فقط عن مقدرة الفنان فى الرسم فان تصوير الأشياء فى الشرق الأقصى يكشف لنا عن الحياة ، لماذا ؟ لأنه كما يوضح مالرو سواء كان فى الشرق الأقصى أو فى افريقيا فالأشياء تعبر عن رؤية الفنان لها وعن احساسه بها ، بمعاييرها المقدسة له ، وبذلك يلقى بالمظهر الخارجى للأشياء ويبدله بعملية خلق من جديد بكل أبعاده المقدسة . وكما يوضح مالرو ، بل كما وضح سنجور مرارا نفس الفكرة، هناك عملية مشاركة وجدانية ومشاركة كلية بين خالق الشىء اى الفنان ، والشىء نفسه حتى انه يصبح هناك أيضا فى المرحلة التالية عملية سيطرة وتملك من قبل الأخير على الشىء ، فالفنان عندما ينحت التيمة أو القناع انما هو يسيطر بخلقه هذا على القوى الخفية التى وراء هذا الشىء ومن ثم يسيطر على عنصر من عناصر الطبيعة المحيطة به فيتغلب عليها ، ومن هنا أيضا تأتى المعتقدات الكثيرة حول مقدرة السحر فى الفنون فى افريقيا السوداء وفى أقصى الشرق وعند قدماء المصريين .

فكما رأينا فان مالرو شديد الاعجاب بكل فن بدائى لأنه معبر ولأنه يعيد الأبعاد المقدسة لعملية الابداع الفنى . وربما هذا هو الذى شده نحو الفن الزنجى بالذات الذى غير مفهوم الفنون فى القرن العشرين . ورأينا كم كانت نظرة سنجور تلتقى بآمال مالرو بالنسبة لمقدرة احياء الفنون الحديثة بحيث تحقق للمرء الوصول الى الجمال فحسب ولكن التحرر من الرؤية التقليدية ، وبالتالى اعادة تكوين العالم الخارجى على حسب أعمق أحاسيس ورغبات الانسان . ومن ثم فهى عملية سيطرة الانسان على الطبيعة لا خضوعه لها ، ورأينا أيضا سر الفنون الزنجية واقتحامها للعالم الحديث . فالفن فى افريقيا طالما يعبر عن مدى اتصال المرء بالعالم الخارجى والعوالم الخفية ، يحمل معه قدرته الفريدة فى الدوام ، ويحمل معه أيضا أبعاده الدينية ، فالفنان مثل رجل الدين يتجاهل الواقع أو ينقص من قيمته لأنه مثله واثق بأنه يحمل فى نفسه مصدر الخلود ، وان كان طبعا خاضعا الى حد ما لحضارته ومجتمعه وتاريخه ، ولكنه يتخطى كل هذا بل يسبقه فى عملية تغيير الواقع واعادة صياغته من جديد . وهناك صلات خفية تربط بين كل فن صادق فى التعبير عما يبحث عنه الانسان فى اى مكان فى عملية الخلق هذه ، بل هناك حوار خفى يربط بين كل الفنون عبر القرون والحضارات ، فلا عجب اذا رأينا تشابها كبيرا بين تماثيل بيكاسو الفخارية وبين تماثيل قبيلة البنان (٣٩) ، ولا عجب أيضا ان نرى عمل كراسى الملك العجوز للفنان « رووه » (٤٠) يشبه الى حد مذهل ملوك الداهومى فى افريقيا السوداء .

---

(٣٩) Benin

(٤٠) Rouault

والملاحظ بالنسبة لمالرو كما هو الحال بالنسبة لسنجور أن هناك أيضا نقطة تشابه كبيرة على النمطين الستاتيكي ((Statique) التاملي والديناميكي (Dynamique) الحركي عندما يتاملان أي عمل فني .

• • •

١ ـ النمط الديناميكي :

ان الشيء الغريب والهام الذى يجمع بين مالرو وسنجور فى هذا المجال هو انهما كليهما يتخذ الفن وسيلة للاقدام على الفعل ، على الحدث فى الحياة ، ويؤمنان بانه بفضل الفن يقبل المرء على الاقدام على الفعل (الحدث) فى صنع التاريخ . فبالنسبة لمالرو راينا كيف لعب الفن دورا فى حياته ورأينا كيف ذهب الى أقصى الشرق كي يتعرف على حضارة الصين والهند الصينية العريقة ، وطاف العالم بحثا عن معرفة الحضارات والفنون المختلفة . وهذا يبدو واضحا فى « الطريق الملكى » (٤١) مثلا حيث نرى البطل كلود فانيك (Claude Vannec) يغامر بحياته بحثا عن تحف فنية فى الأدغال ، تلك التماثيل التى ترجع الى عهد بعيد فى حضارة الخمير (Khmer) بالصين .

أما بالنسبة لسنجور فالمعروف انه كرجل أسود لا يتخذ اى خطوة الا عن طريق فن من الفنون . فكما ذكرنا من قبل فان كل تعبير أو انفعال للزنجى انما هو اتخاذ موقف فى الحياة من خلال الفن ، أو بعبارة أدق كلما يحتاج المرء الى الفعل او الحدث عبر عن هذا فى عمل فنى ، نحت أو رقص أو شعر .

وارتجال الشعر هو أكثر الفنون للرجل الأسود وهناك العديد من أنواع الشعر كالرثاء والمدح والتفاخر وحث الشباب الى الصيد ، والحصاد ولعب الرياضة والاقدام على الحرب ، والتشبه بالاجداد .

وكل هذا ينعكس فى شعر سنجور نفسه الذى يترجم كل حدث الى شعر غنائى أو حماسي ....

حقا يمكننا أن نقول ان الزنجى يغنى حياته .... » (٤٢) .

ويضيف سنجور متحدثا الى مالرو :

« هل تعلم يا صديقى ان فلاحينا فى السنغال اخترعوا رقصة لخطة التنمية وان موسيقانا تصاحب دائما الاحتفالات والمسابقات الرياضية ؟ وفى النهاية استطيع ان اقول ان كل فن زنجى ليس الا شعرا » (٤٣) .

---

(٤١) La Voie Royale

(٤٢) زوار مارين ص ٣٠ ـ ٣١ .

(٤٣) زوار مارين .

من هنا يمكننا ان نقول ان الفن الزنجي اساسا وقبل كل شيء حوار . فهو حوار مع العالم الآخر ، وحوار مع المشاهد له ، وحوار مع الحضارات المختلفة الاخرى لأنه اساسا وقبل كل شيء مخاطبة للوجدان ، وللأحاسيس البشرية في محاولة لسيطرة الانسان على الطبيعة وصهرها في قالب يناسبه ويجعله يتوائم مع واقع حياته .

ان الموسيقى والرقص شيئان في دم كل زنجي يولد بهما وتجريان في عروقه ، ويستطرد الحديث بين سنجور ومالرو في هذا الصدد على النحو التالي فيقول سنجور لمالرو :

« ان اندريه جيد يقول ان اغانيكم الشعبية بالنسبة لاغانينا تبدو في غاية الفقر والبدائية ، وأذكر أن القس المسكين الذي كان يعلمنا التراويح الدينية في صبانا في الكنيسة ، ياله من مسكين ! انه كان يتعذب ! لأني انا واصدقائي كنا بالفطرة نرقص ونثب ونلهو على ايقاع الأيدي وانغام الجاز ! ..

والآن بدأت أوروبا تكتشف أسرار ومزايا الآلات الموسيقية الزنجية الايقاعية مثل الطبول والتام تام الذي سبق كل آلة في الوجود .

هل تعرف ما هو روح الموسيقى عندنا ؟ انه الايقاع بالضرب بالأيدي أولا » ! .

ويكمل مالرو الحديث قائلا : ـ

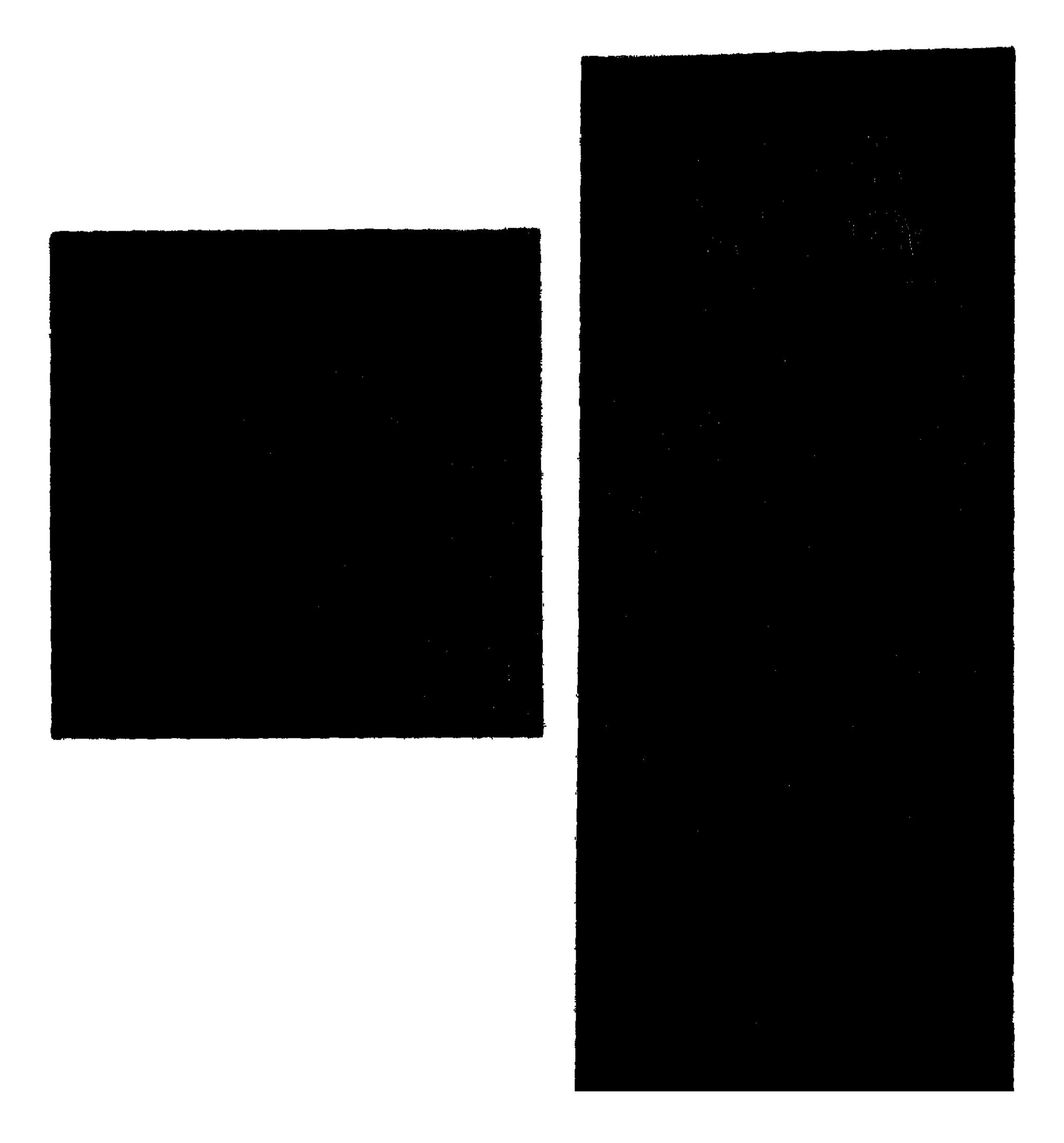
« ان لديكم ايضا موسيقى غطت العالم بأسره اعني موسيقى « البلوز » في الولايات المتحدة تلك الموسيقى الوليدة لاجيال من الالم والعذاب للجنس الأسود .

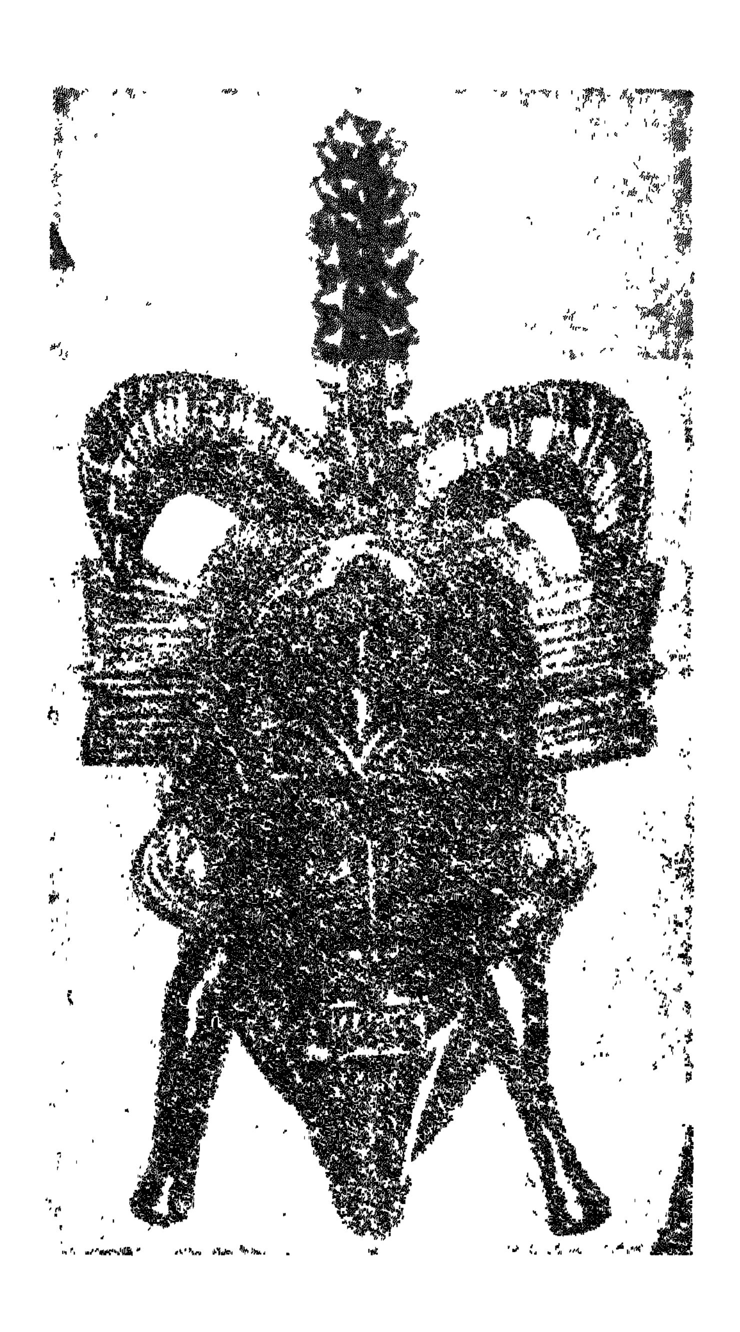
ويجب علينا هنا ملاحظة ان كانت كل الفنون تتساوى طالما هي تعبر عن الغرض الذي من اجله وجدت ، هناك فنون غير معروفة على الاطلاق مثل الرسم الذي لا يعرفه سوى الفن الحديث في افريقيا مثلا ، اما الفنون التقليدية التي تعبر عن التراث الحقيقي لافريقيا السوداء فهي كما نعلم الرقص والموسيقى والنحت ، وخاصة نحت الاصنام والأقنعة .

وهنا لكل مناسبة قناع ، فللرقص وللحرب وللاعياد والمواسم يلبس افراد القبيلة قناعا معينا ملائما للمناسبة ويشترك في الاحتفال فيتخذ هذا الاحتفال شكلا دينيا يتقمص فيه الفرد بشخصية ومعالم القناع الذي يلبسه ، كي يتغلب على صعوبات الطبيعة ، مثل الجفاف او الكوارث الطبيعية او المرض او العقم او ما الى ذلك ، وبالطبع هناك أقنعه لارواح شريرة كما هناك اقنعة لارواح خيرة واقنعة لالهة الشر والخير والقيم المختلفة . فكل قناع له معانيه وفلسفته وشكله ومعاييره ويتخذ شكل القناع احجاما مختلفة . فمنها الذي لا يبلغ طوله الا بضعة سنتيمترات ومنها ما يبلغ طوله بضعة امتار ، واحيانا يظهر القناع وحده ، واحيانا يركب القناع على جسد تمثال بأكمله كما هو مبين في هذه الاشكال في فن قبيلة الدوجون (Dogon) في وسط افريقيا السوداء .

٦٣٧

مالرو ، سنجور وحضارة الانسان





فالقناع حاضر وموجـود فى كل مناسبهتقليدية لانه يعتبر الأداة الرئيسية فى الاحتفاء بهذه المناسبة ، ومن « أغاني الظلال » نذكر مطلعهـذه القصيدة للشـاعر الأسـود : « ياأقنعـة يا أقنعه !

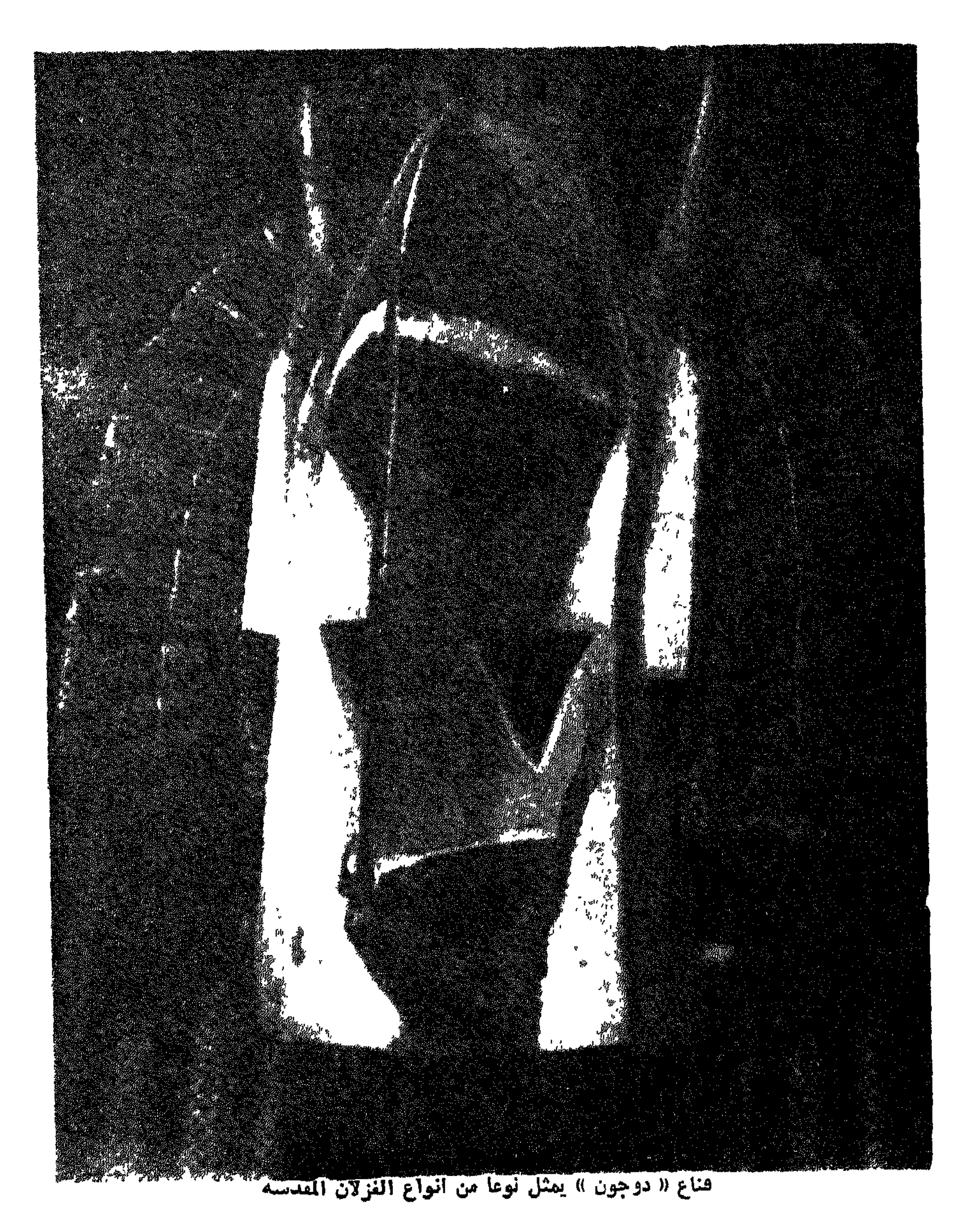
أنت أيها القناع الأسود وانت ايها القناعالأحمـر ، وأنتم الأقنعـة ذات اللـون الأبيض والاسود ايها الاقنعة فى الانحاء الاربعة التي تفتحمنها الروح تحيا البكم فى السكون .

تحية البكم فى السكون !

وتحية خاصة اليك ياجدى أيها القناع ذورأس الاسد » (٤٤) .

ففضل القناع اذن تأتى روح الجد وتنطق فى علامات ودلالات معينة يكشف عنها عراف القرية الساحر عن ارادة الجد باتخاذ موقف معين تجاه مناسبة معينة او حل نزاع او اشكال او ما يعادله ، فبفضل القناع اذن يعيش الموتى مع الاحياء ويفرضون احترام ذكراهم وارادتهم .

وهناك أنواع عديدة من الأقنعة فمنها الذى يصور الأسد أو الثور أو التمساح ، أى حيوانات مقدسة لها ميزتها كطلسم فى القبيلة ، ومنها مايجسد شكل احد افراد الاسرى الونى القدامى، ومنها الذى يجسد فكرة الجمال أو التمر اوالخصوبة أو الحصاد الخ . . .



قناع « دوجون » يمثل نوعا من أنواع الغزلان المقدسة



قناع نيمة من الكونغو خاصة بمراسيم الموت



قناع خشبي يمثل « ناميا لاية السيدات الحوامل في افريقيا السوداء »

وهنا يلتقى فكرا مالرو وسنجور حيث أن مالرو كثيرا ما كان يتحدث عن المعنى الحقيقي للقناع ، ذلك المعنى الذى يبدو واضحا كما رأيناه فى أفريقيا السوداء والذى افتقدناه فى الحضارة الحديثة ، اذ أن فى كل متحف نرى الأقنعة العديد من أقصى الشرق ومن ادغال افريقيا ، ولكن نشاهد من الخارج بنظرة ذهنية فقط وليست عاطفية ، أو بعبارة ادق متعاطفة مع القناع نفسه مثلما هو الحال فى المكان الذى صنع به القناع ، وكثيرا ماتحدث مالرو عن هذه النقطة بالذات فى **المتحف الخيالى** وفى **أصوات الصمت** فأشار الى المعنى الأساسي للقناع بالنسبة للذى يشاهده ، وأشار الى المقاييس الجمالية التي يخضع لها صنع القناع ، بل تناقش مع سنجور نفسه عن هاتين النقطتين .

وهذا الموقف يتقابل مع حضارات أخرى مثل حضارة الشرق الأقصى ، حيث ان الفن اساسا مشاركة وجدانية وعاطفية وانفعالية مع الفنان وتحفته ، او بعبارة ادق وماخلق . فلا يوجد فى أفريقيا فن جيد وفن ردىء ، وأنما هو الفن بمعناه المقدس المطلق ، اى تصوير الواقع من خلال رؤية مقدسة . ونفس الشيء يحدث فى حضارة سومر القديمة وفى الشرق الاقصى ، فهى عملية الخلق بعينه ، على غرار الخالق سبحانه وتعالى وماخلق . ولذا فكل عمل فنى قديم يحمل معه وينبثق منه هذا المظهر المقدس وهذا العمق الديني الذى يجعله يوحي للانسان المعاصر بمعان خفية من الروحانيات والأبعاد التى ترتقى بالانسان الى أسمى وأعلى معاني الرؤية الجمالية ، فان كانت الملامح تختلف تماما والمقاييس الفنية تكاد تتعارض من الناحية الجمالية والأستيتيكية عامة فالتحفة الفنية فى هذه الحالة تخلق مناخا واحدا ، وينبعث منها احساس واحد مثلما نستطيع ان نتاكد منه من خلال هذه الاشكال المختلفة لفكرة الخصوبة ، التي تبعد كل البعد فى هذا الشكل الموضح أدناه عن المعايير الجمالية المعتادة ، ولكننا نحس بمعناها العميق من خلال التركيز المناطق الخصبة فى المرأة كالبطن والثدى .

رأينا كيف ان النحت يعبر فى مظهره السائد فى افريقيا السوداء اى ان نحت القناع ونحت التماثيل له فلسفته وله أهمية بالغة فى حياة القبيلة .

ورأينا أن لكل مناسبة فنها الذى هو لغتها ووسيلتها للتعبير ، مثل الميلاد والحصاد والطهور والزواج والموت والحرب ، وهذه المناسبات لها موسيقاها وقصتها الخاصة .

حتى أن الشاعر الأسود يقول فى هذا الصدد بيت شعر صار خالدا :

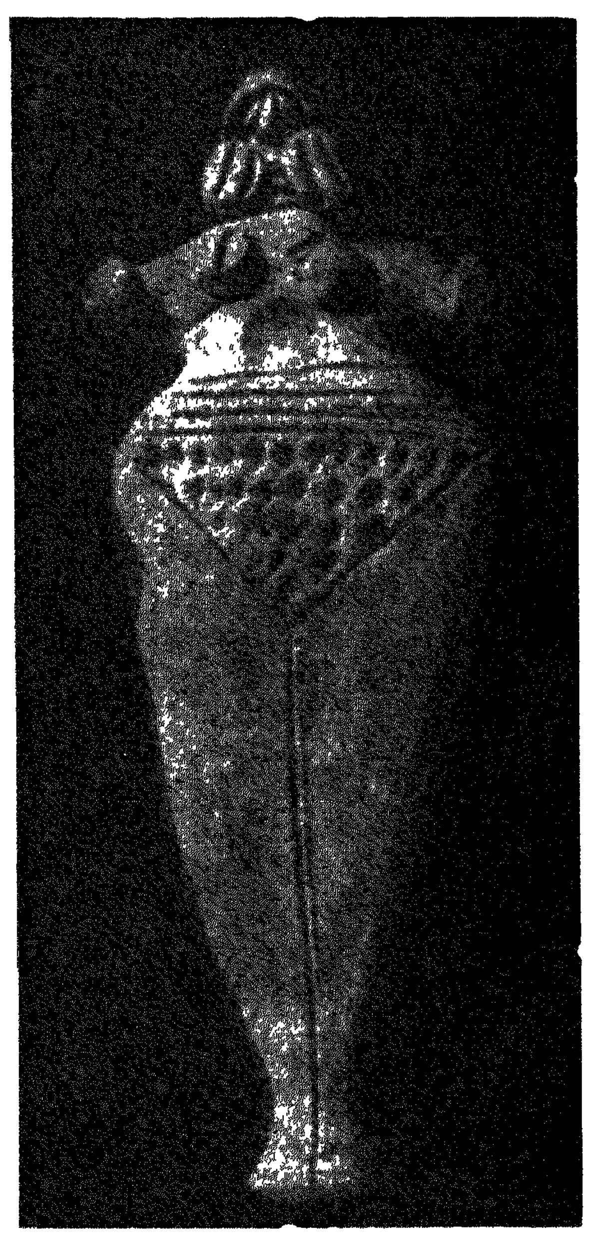
« اننا رجال الرقص ، الذين لاتثبت خطاهم الا اذا ضربوا الأرض ضربة قوية باقدامهم فتنطلق ! » (٤٤)

(٢) ــ النمط الستاتيكي التاملي : هناك شيء آخر وهو موقف الفنان نفسه من اى عمل فنى آخر ومدى تاثيره به ، وهو الوضع التاملى المتعمق الذى تحمله التحفة الفنية ، فلدينا

---

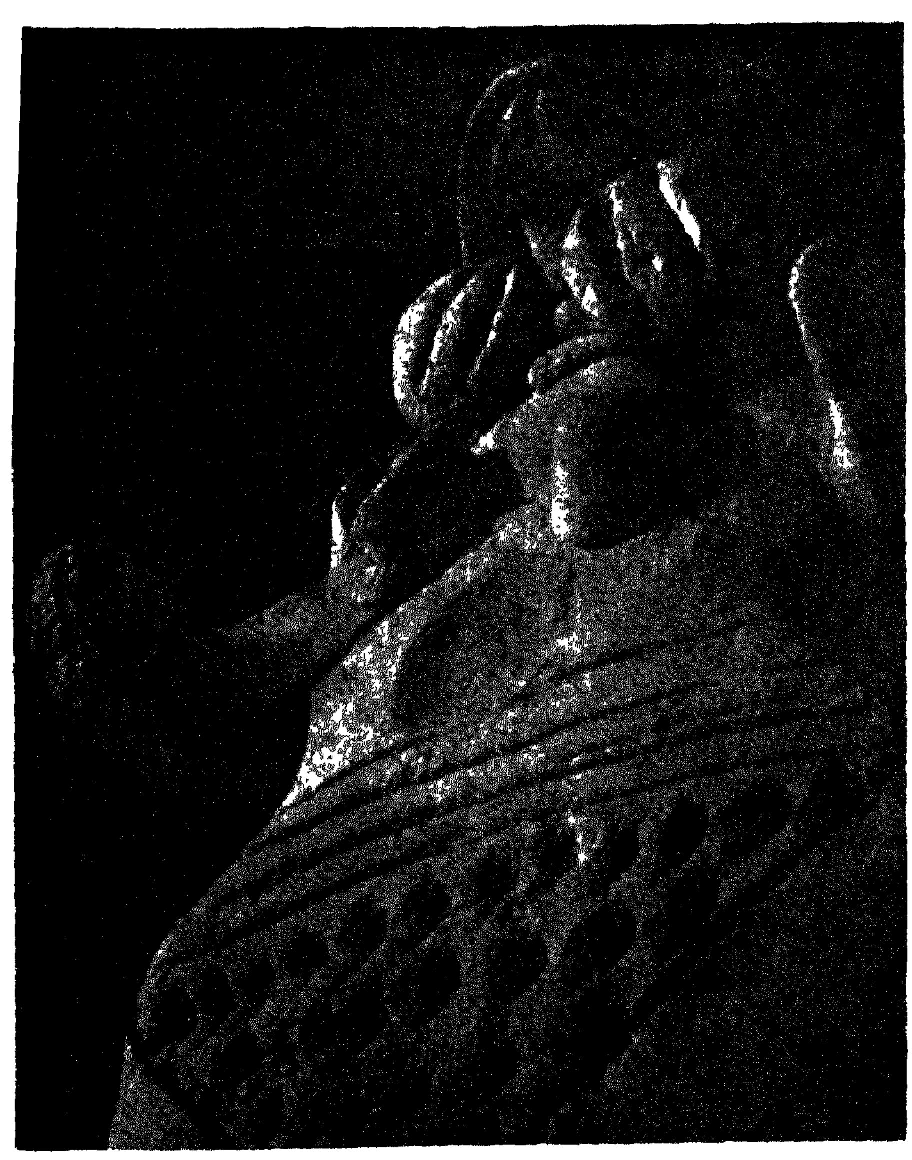
(٤٤) من ديوان اغانى الظلال قصيدة « لتصحبنى الآلات الوترية ... » .

بالنسبة لمالرو كما رأينا أعمال عديدة عن فلسفةالفن والتأمل ، أهمها سيكولوجية الفن (٤٥) بالبعيد حيث يحدق ويتفحص مالرو كل تحفةفنية يراها أو يتمنى أن توجد بالمتحف الخيالي من نحت ورسم وقطع زجاجية وفسيفساء وصور فوتغرافية ... الى آخره ... ومن هنا ثمرة انتاج مالرو فى فلسفة الفن وايجاد العلاقـاتوالصلات بين مختلف الفنون عبر القرون .



ربة الخصوبة فى حضارة ما بين النهرين القديمة
(منطقة العراق الحالى)

La Psychologie de l'Art (٤٥)



نفس القطعة مكبرة

كذلك الحال بالنسبة لسنجور الذى كثيرامايتأمل القطع الفنية فتوحي له بالتراث ال ق
والتفاخر مثلما نراه بشاهد القناع الذهبي الشهير« الباولية » حيث يتغنى الشاعر فى قعال ، ل
بالخطوط والرموز والايقاع لهذا القناع المشهور .

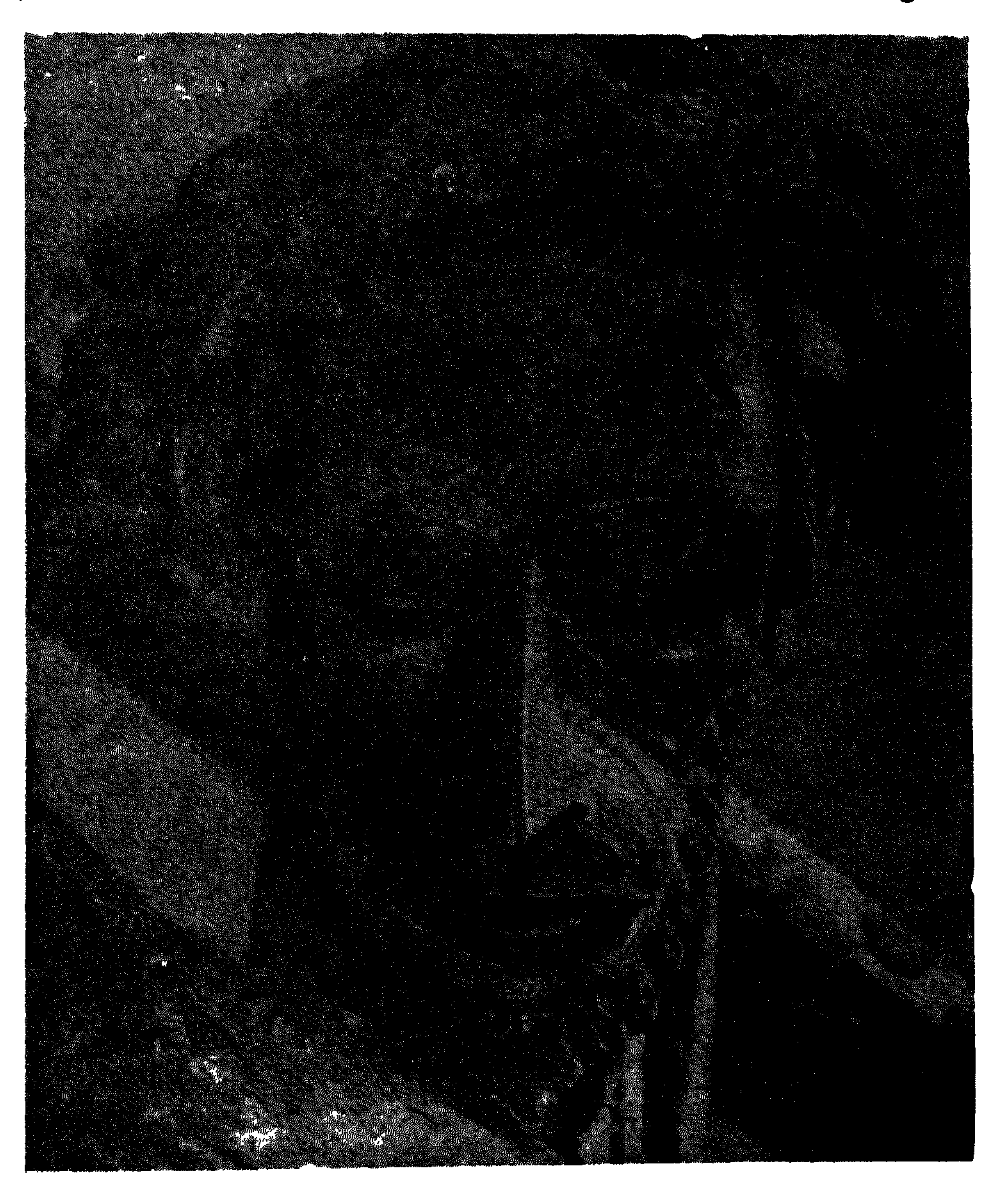
ويستطرد مالرو قائلا ان علاقتنا بالفن منذاكثر من قرن لم تتوقف عند كونها ثقافة بحـ ،
فتتخذ الاتجاه الذهبى البحث اكثر فأكثر .

فمعلوماتنا أكثر من احساسنا الفنى التلقائى ــ وبالتالى فالزائر الذى يقوم بزيارة لمتحف الـ ر
مثلا يعلم تماما أنه عندما يشاهد رسومات جويا ، أو مايكل انجلو فهو لايشاهد سوى تحفة ة
من أعمال هؤلاء العباقرة وانما وجدانيا وعاطفيا ، فهو لا يشعر بتلك الرهبة الرائعة والانفعال الـ ع

الذى احس بهما الفنان نفسه عندما خلق هذه التحفة مجرد صـــورة تعكس أول انطباع فقط للأحساس الحقيقى الذى حاول أن يعبر عنـــه الفنان والمشاعر العميقة التى هزته حينما خلق هذا العمل المبدع ، وهناك كثير من الأمثلة لمثل هذا الموقف نذكر منه مع مالرو نفسه الأحساس بالرهبة العظيمة والتقــوى التي تملكت الفنـــان عندما قدم لنا « المسيح التقى » المعروض بمدينة بربينيوه بفرنسا والتابع لمدرسة كولونيا للفن .

وهنا نستطيع أن نلمس الى اى حد يمكن للفنان أن يعبر عن أحســاس صادق ، وكيف ينتقل هذا الاحســاس الينا نحن الذين يشاهدون هذه التحف الفنية مـــن خـــلال القـــرون والاجناس والثقافات المختلفة .

وكلنا نشعر بالأعجاب ونشترك سويا فى دنيا الفن للمتحف الخيالي وان كلمة اعجاب لاتكفى وانما نستطيع أن نقـــول اننا نشـــارك وجدانيـــا وعاطفيا هذا الذى يعبر عنه الفنان العظيم .



أن مالرو شديد الأحساس بالرسم وبالنحت، اما سنجور فهو شديد الاحساس بالموسيقى وبالنحت . ولكن الذى يجمع بين الأثنين هـو الربط بين الأحساسيس والانطباعات التي تنتج من رؤية منظر معين فى الطبيعة فيترجم كل هذاالى ابداع فنى بمعالجة فنية ترتكز على تاثير كل منهما لفن من الفنون او لاكثر من فن ، فالحيـاةعامة ترى من خلال هذا الفن ، ومن زاوية معينة تخدم مقوماته .

ونستطيع أن ناتي بمثل لما نقوله من رواية« الأمل » لمالرو عندما نرى أن احد الابطال وهـو لوبيس (Lopez) النحات لايرى الواقع الا من خلال فنه ، حتى أنه عندما يصف رجل الكنيسة يسترعى الأنتباه فيه انه مهمل المنظر ، لحيته بيضاء قبيح المنظر ولكن « يتمتع بيدين يستحقان الرسم » .

والحـرب بالنسبة لنفس « لويز » تعني فرصة المرء لكي يسخر الفن فى خدمة النضال الوطني فيقول : ـ

« لقد نعطى الجدران العارية للرسـامين ياصديقى وهيا ارسم وأرسم ، أن الذين يمرون أمام هذه الجدران ونحن نتحدث اليهم ، يحتاجون الى الحوار . لايمكن أن يخلق فى جماهيرى عندما لانجد شيئا نقوله للجماهـير . ولكننا يمكن أن نناضل سويا ونفعل حياة سويا نضع اسسها معا، وفى هذه الحالة يكون لدينا كل شيء نقوله سويا» .

اما موقف سنجور من الفن فما علينا الا أن نتذكر أن كل مظاهر الحياة بالنسبة للشـاعر الأسود هى فن ، فالرقص والموسيقى والنحت جزء لايتجزأ من حياة كل زنجي ، فهو يعبر عن كل مظاهر الحياة بهذه الفنون ، حتى أن طبول التام تام نفسها تعتبر لغة قائمة بذاتها ، يتحدث بها سكان الأدغال من فوق الجبال والوديان .

وعندما يتحدث سـنجور عن الموسـيقى والرقص الزنجي او يتأمل أيا من الأعمال الفنية ، زنجية كانت أو من حضارة البحر الأبيض المتوسط العريقة التى طالما تفاخر بها سنجور على أساس أن هذه المنطقة منبع الحضارات والمدنية، نستطيع أن ندرك الى اى مدى تتقارب افكاره مع افكار مالرو ، فالتحفة الفنية تلعب دورا عاما عند هذين الكاتبين حيث تجعلهم يتاملون طبيعتها ومعدنها ومدى صلتها بالفنون الأخرى أو بتراث آخر .

ومن ثم يكون الفن بالنسبة لهما ذا طبيعة تاملية هامة ، فيتأثران به وينفعلان معه ويوحي لهما بعلاقات بعيدة ومثمرة بين مختلف الشعوب، ومن هنا تأتي عملية « فلسفة الفن » عند مالرو وعند سنجور التي تؤدى بهما الى مواقف مميزة تجاه الحضارة عامة .

أن الفن فى مفهوم سنجور ومالرو طليق ليس حبيسا او مرتبطا بمنهج سياسي او اى أنتماء آخر غير أنتمائه لقيمة الذاتية النابعة منه نفسه ، يمكن للفن أن يخدم فكرة أو مذهبا او فيما برجوازية او اشتراكية او شيوعية او ما الى ذلـك .

وطالما أن الفن يعبر عن ذاته فقط ، وينفذ على أيدى مؤمنة بقيمه بل مؤمنة بقدسيته ويحتكره الحرفيون المهرة المؤمنون بما يفعلون فانه فن بمعنى الكلمة ، وفن نحت يسـتحق اعجابنا وتقديرنا

ومحاولتنا لفهمه وهذا هو الحال بالنسبة للفن المصرى القديم وفن الصين وسومر والفن الزنجي ، لاننا نستطيع ان نرى أن الابداع الفني يلتصق فيه كما راينا من قبل بأسمى معانى العبادة فى الدين ، بل الفن نفسه يضع الطريقة المقدسة الوحيدة للوصول الى الروحانيات والمقدسات فى محاولة لاكتشاف أسرار الكون .

فما الفن المسيحى فى تقدير مالرو الا البحث عن الله من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع عشر .

وما الفن الزنجي الا البحث عن الانسان فى وسط الكون ، أما اذا أخضع الفن الى عوامل اخرى مات واضمحل وفقد معانيه .

• • •

هذا هو الذى حدث بالنسبة لفن النحت ابتداء من القرن السابع عشر حيث فقد النحت اتجاهه الديني المعبر واتخذ الشكل الأكاديمي الذى كان يخدم قضية سياسية واجتماعية وهي تخليد لويس الرابع عشر مثلا . تماما كالرسم الذى سلك نفس المنهج ، والأمثال عديدة تحت قلم مالرو حتى يصل الى الفن المسخر فى خدمة البروليتاريا ، الملتزم بمبادىء الأشتراكية المتطرفة أو الشيوعية فتدخل الرقابة والسياسة والسلطة وتحد من حرية الفنان وترسم له بالأمر خط الالتزام الذى يجب ان يتبعه . كذلك هناك عنصر آخر هو ظهور الانتاج المتزايد بالجملة والرغبة فى الارضاء لرغبة العميل الذى يشترى الفن بالمال .

وهناك فرق شاسع بين الابداع الفنى وبين الانتاج الفني الضخم الذي يرضخ الفن بسببه لمقتضيات مادية واعتبارات اجتماعية غيرت مجراه فى أوروبا قرونا طويلة ، حتى ظهر الفن الحديث السريالى فعاد بالفن الى أصالته فاصبح لا يرضخ لشخص معين ولا لنظام معين ولا ينافق ولا يتملق العظماء من رجال الدين ورجال السياسة وسيدات المجتمع ، ولا يحاكى الطبيعة فيقبل عليه عامة الذواقة ، وانما يعبر أصدق تعبير عن مأساة الانسان الحديث وبأسلوب يبعد كل البعد عن الأساليب المتبعة فى الفنون حتى هذا القرن ، وبذلك يستعيد الفن أصالته ويتصل مباشرة بكل فن بدائى تلقائى زنجي كان أو غيره يعبر عن نفسه مجردا من كل شيء آخر سوى رؤية الفنان البحتة . ويستطرد مالرو فى شرحه لنظريته هذه قائلا « انى لا اقول أن براك (Braque) (٤٦) يكمل النحت السومرى ولكن بقدر ما يجعلنا نتدارك تلك السمات المميزة للفن فى حد ذاته فانه بأسلوبه التحررى أعاد لبصرنا ذلك النحت السومرى الذى كنا قد افتقدناه . وكذلك الحال بالنسبة لبيكاسو كما رأينا .

ان زمن الفن لا يطابق زمن الأحياء . فالموت يقهر الفنان نفسه ولكن عمله لا يفنى عبر الدهر والأجيال ، ولكن هناك شيئا هاما الا وهو أن الفنان بصفته رجلا يفنى ولكن بصفته فنانا لا يرحل ابدا عن هذه الدنيا لان عمله يخلد . ويوجد الحوار بينه وبين الأجيال والأجناس ، فما يكل

---

(٤٦) براك رسام فرنسى سريالى معاصر .

« أنجلو » و « روفائيل و «وبولدلير» و «بيكاسو» و « مالرو » نفسه وغيرهم ان كانوا رحلوا عن هذه الدنيا فبفضل اعمالهم يعيشون ويخاطبون الشر، وهذه هي اهم واسمى رسالة للفن ، اى ايجاد الحوار على أعلى مستوى ، وهو المستوى الوجداني والعاطفى فى الانسان مع نفسه اولا ومع الآخرين ثانيا .

وكما يقول الشاعر شارل بودلير :

« ان الروائح ، والالوان والاصوات تتقابل » على أساس ان كلا من حواس الفنان تستجيب الواحدة للأخرى ، وتجعله أكثر حساسية لنوع معين من مظاهر الطبيعة ، فبالنسبة لمالرو أقتران رؤية الشجر بمجموعة من الأحاسيس والانفعالات التي تعود به الى الوراء فى حياته هو أو فى حياة البشرية جمعاء يجعله يستعيد دائما المواقف فى ذاكرته بنفس القوى والتعمق ، ولشدة حساسيته بفن الرسم مثلا .

كثيرا ما يتوقف مالرو عند انطباعه من انعكاس الضوء على منظر الأشجار . فالضوء سواء كان ضياء الشمس أو اضاءة جانبية يشغل مكانا هاما فى تحديد المنظر فى كل رؤية ، ويؤثر كل التأثير على البطل بحيث انه يتخذ القرار او يقدم على الحدث تحت تأثير مشهد انعكاس الضوء على الأشياء المجاورة .

فمن خلال الضوء تكتسب الاشياء والمناظر شكلا جديدا يختلف عما تظهر به فى واقعها ، فمثلا فى رواية « الطريق الملكى » (٤٧) تعكس الشمس نوعا من الضوء الباهت على شاطىء جزيرة سومطره فتبدو المياه عكرة وتبدو أشجار النخيل من بعيد كأنها سور رهيب من الوحوش المفترسة السوداء ، فيملأ النفوس كآبة ورهبا .

ونفس الشيء بالنسبة لضوء القمر الذى يلعب دوره فى تكوين الاحداث ، وهكذا نرى أن الضوء هو طريقة المعالجة الفنية الاساسية فى ابداع أندريه مالرو الروائى .

ويأتي النحت فى المرتبة التالية ، فاندريه مالرو شديد الاحساس بحركة الأيدى بهيئة الجسد ، كما يشده دائما احساس عميق بشكل الاشياء . اما بالنسبة لشاعر « اغاني الطلال » فاحساسه بالضوء لا يعتبر أهم معالجة من الابداع الفني ولكن هو الاحساس بدفء الضوء ، اى بحرارة الشمس مثلا وانعكاسها على الالوان ، الوان طبيعة السنغال من خضرة النخيل وحمرة زهرة الكانا المقترنتين دائما باصفرار زهرة الكاسيا ورمال الصحراء وحمرة الورود التى تتالق مع بريق الشمس على أرض أفريقيا، فيأتي الاحساس بالنبات قبل مظهره واساسا برائحته لتحديد المكان وتغير الفصول بين الحياة والموت أي بين الجفاف والحصاد .

فالرسم لايسترعى انتباه سنجور فى المقام الاول وانما الذى يستند عليه فى معالجته الفنية هو أولا الايقاع ونعنى بالايقاع ايقاع الطبيعة فى الدرجة الاولى مثلا كالايقاع الثنائى لليل والنهار ،

---

(٤٧) La Voice Royale

وللجفاف والخصوبة ، ايقاع المواسم الدائرى ،ايقاع الفلك الذى تدور فيه العوالم فضلا عن ايقاع التحفة الفنية ، فهناك ايقاع الملمس والشكل واللون بجانب الايقاع الموسيقى بمعناه الضيق وايقاع الشعر والنغم وما الى ذلك .

ويقول الشاعر نفسه : « الصورة والايقاع تلك هى المقومات الأساسية لكل فن زنجي وكل زنجى يعيش العالم الخارجي بفضل الصورة والايقاع لانه يجب ان يتأثر بحواسه لابمنطقه ولا بعقلـه » .

وأخيرا فهناك قيم مستمدة من مناظر الطبيعة نفسها مثل : الايمان بالنبات ، وحب الاشجار التى تربط الانسان بالبيئة وتوصله باجيال مضت وبواقع مشحون بالأحاسيس والانفعالات يتجاوب فيها البطل أو الشاعر مع الاحداث .

ونجد نفس الشىء فى معظم روايات مالرو : ـ

وأكثر من هذا نجد ان هناك ارتباطا وثيقا بين البطل وباقي اشخاص القصة، وبين منظر الاشجار التى توحي اليهم بأحاسيس معينة . وفى كل الحالات فهم لايمكنهم أن يتجاهلوا هذا المنظر .

وعلى سبيل المثال : يظهر هذا الارتباط فى قصة « القدر الانساني » : حيث نرى ان جيزور (Gisors) والد البطل كيو Kyo بعد وفاة ابنه لايستطيع أن يتحمل الالم ، ولكن الشىء الوحيد الذي يساعده على الصمود أمام مآسي الدهر هو جمال الطبيعة والاستماع الى الموسيقى، بينما لم يستطع ان يهرب من الحياة بالغرق فى متاهات الأفيون الذى يتناوله ولكى ينسى جروحه وفشله فى الحياة . ومنظر الطبيعة هو مايمكن ان يراه من خلف النافذة من أشجار النوير التي تنشد انشودة الربيع بالرغم من أن كل شىء فوق المدينة حزين .

وبذلك نجد أن هناك تشابها فى كل افكار مالرو وسنجور من ناحية ارتباط الأنسان بالمكان الذى يعيش فيه ، فالطبيعة تلتصق به ولايمكن أن يبتعد عنها أو يتجاهل وجودها .

وفضلا عن هذا الأرتباط فهناك ايضا ارتباط وثيق بين مظاهر الطبيعة وبين جميع الفنون الأخرى التى تترجم فى معظم الأحيان رؤية الفنان للطبيعة الموجودة حوله .

● ● ●

وطريقة مالرو والمسلك الطبيعى الذى يسلكه فى قصصه هو تجميع للاحساس العام فى احساس معين مركز يتجسد فى لحظة وينطبع على المشهد كما يظهر فى المشهد المذكور تماما .

وبهذه الطريقة نجد ان كل عنصر من عناصر السرد مرتبطة بالآخر بحيث يشكل بناءا متكاملا ويجيب كل عنصر منه على الآخر . فهو يختار الاشخاص والابطال ـ فى عملية الخلق الادبى تبعا لتطور الأحداث وطبقا لما يعطى له الواقع من مناظر ومشاهد ، ولكن الشىء الذى يهمنا هو ان كل بطل يعايش العالم . عند مالرو كما كان سنجور ـ فى الشعر من خلال احاسيسه ومشاعره الخاصة . فكل من مالرو وسنجور يتمتع بهذه الحاسة الفريدة التى تجعله مثل الفهد أو النمر أو الأسد يشم من على بعد كبير ، ويرى بريق الضوء ويحس بالحدث قبل وقوعه .

ويمتاز مالرو أساسا بهذه القدرة الفائقةعلـى خلق الجو المناسب للبطل وايجاد هـذه الاحاسيس والانفعالات التى تعطى المناخ المطلوب لمتابعة القصة ومعايشة الأحداث من وجهة نظر البطل او الشخصية التى يسلط عليها الضوء .

أما سنجون : أيمكن ان ينسى أنـه ابن الأدغال ؟ وانه لايصف الشـيء الا مـن خـلال احاسيسه المتربصة اليقظة دائما ؟ ! ربما يكون هذا هو الربط الحقيقى بين الأنسان والطبيعة ، فالاشجار مثلا هى الصلة الوثيقة التى تربط بين الانسان وبين البيئة التى يعيش فيها ، ففيهـا يرى الماضى بتاريخه ، والحاضر بقوته ، والغد بيشائرة .

فعندما يقف الكولونيل بيرجيه (Berger)(٤٨) الذى هو مالرو نفسـه ويتأمـل ، يحـس ان كل شىء تحت الاشجار « من بذور ، وخشب ، وجلد ، أو قش » فرائحة الطبيعة تفرض نفسها فرضا على بيرجيه وتتغلغل الى اعماقة ، وحفيف أوراق الشجر يجعله « يسمع حفيفا يأتي من تحت هذه الخضرة الخصبة الخلابة ، فيأتـي ايضا بهدير من اجيال مضت ، آتية مـن أعماق الظلام الحالك » . وربما هذا يعني قدرة الاشجار على الاستمرار فى الحياة من الجذع حتى القمة ، تحمل معانيا كثيرة بين اوراقها وفروعها . واول هذه المعاني الصلابة وثانيها الجمال ، وثالثهـا الصبر والجلد .

وهكذا نرى ان شجرة الجوز المتقلص كماتبدو لاتحمل ثقل الـدنيا وانمـا « تترعـرع » وتزدهر فى حياة لاتنقطع .

وهناك ايضا ذلك المنظر الذى يراود فكر مالرو فيظهر لنا مرتين الاولى : **فى اللامذكرات**، والثانية : **فى الامل** ، وهذا المنظر هو دائرة من الفاكهة الناضجة المتناثرة حول شجرة ، ويرمز قطعا الى امكانية تطور ، أو نهضة ، فهذا المنظر يقترن بوجود القس على منبره بالكنيسة وهـو يردد فى صلاته : ـ

« وانى الموت لكل شيء ، وانى مولد كل شيء وانى سكون الاشياء الخفية . . . »

واثناء هذه التراتيل كان البطل بيرجيـه يفكر فى حلقة الفاكهة ، حلقة الجوز الملقى حول الشجرة فى منطقة الالزاس ، وكان يبدو له وكانه حلقة اناس احيـاء ملتفين حول جسـد يحترق ببطء يمنح الحياة . . .

ويستمر دائما فى مخيلة مالرو ـ او بعبارة أدق ابطال روايات مالرو هذا الاقتران الوثيق بين منظر الشجرة والطبيعة عامة بمواقف معينة تتعلق باحداث تحدد موقفا انسانيـا ، وهكـذا يستمر دائما هذا الربط بين الطبيعة والانسان ، بل كل عناصر الطبيعة بالانسان .

فمثلا ان صرخة الغراب تأتي من أعماق الهند حيث يسرح الكاتب بخياله عبر المحيطات فيعيش لحظة مشاهدة الاشجار المقدسة التي يلتف من حولها الرجال مثل عنقود الفاكهة الذى

(٤٨) Les Noyers de l'Altenburg

سبق ان تحدثنا عنه ، ويجول فكر المؤلف تارةفى بناريس لتخيل هذا المنظر المألوف لديه ، وتارة يعود به الخيال الى سبورج الالتانبورج بالالزاس حيث تبدأ للحياة اول البراعم من فوق الجوز الميت منذ الشتاء الماضي .

وهكذا نرى أن هناك عند الانسان هذه الرغبة فى الدوام وفى الاستمرار وقهر الزمن وتحدى الطبيعة . ويرمز الى ذلك منظر اشجار الجوز بالالتانبرج واشجار التفاح ايضا فى رواية الامل وحتى منظر الرجال الملتفين حول حلقة النار ببناريس فى الهند تدل ايضا فى هذه الحركة الدائرة التى تكون هي ، وفى الوقت نفسه تتغير فى كل دائرة جديدة ولكنها محتفظة بنفس الشكل الدائرى ، تدل ايضا مثل مشهد تاج الفواكه الذى يطوق الاشجار ، كل هذا يدل بالطبع على طبيعة الاشياء القابلة للتغيير بصفة مستمرة ولكنها فى جوهرها كما هي ، وهذا هوسر الحياة التي تعود وتجدد دائما .

ويبدو هذا واضحا فى مشهد آخر من نفس رواية أشجار الجوز بالالتانبرج حيث نرى احد الابطال « مولبيرج (Mollberg) يتحدث بحماس بالغ مع الآخرين بينما يسترعى انتباه بيرجيه فجاة بالخارج منظر بعض الرجال يحملون جذوع اشجار الجوز تماما مثلما قام جده منذ اربعين عاما بنفس الحركة أمام مبنى البلدية المدينة بالالزاس ولكن هذه الحركة أيضا الم يكن يفعلها ايضا رجال القرون الوسطى فى الغابة المقدسة بينما كانت النافورة فى وسط المدينة بمياهها تنعش المساء ؟

وهذه الجذوع ، والخطابون والنافورة انما تجسد بالنسبة الى والد البطل هذا الشعور باللا مبالاة الذى يحمله الانسان تجاه مرور الزمن .

نفس الحركة انما تتكرر منذ قرون مضت وأجيال سلفت وستتكرر فى المستقبل .

وهكذا تصبح القرون الوسطى حاضرا مستمرا وتنتقل تذكرة الدوام البشرى من الجذوع الى الاشجار المليئة بالحياة ، اشجار الجوز التي تسيطر على القرى من فوق علوها بالالتنابرج فيصفها الكاتب على النحو التالي : —

« أن كثافة الاشجار العريقة تنبثق من كتلتها الممتلئة ، ولكن هناك احساس بجهودها المستديمة لاستخراج فروعها بأوراقها الخضراء من هذا الخشب المعوج القديم ، الثقيل الذى يبدو وكأنه يغرس غرسا فى باطن الارض ويثبت فيها لايخرج منها هكذا . يعطى الاحساس بالارادة القوية أولا ، وبالتغيير المستمر ثانيا ، فيجسد شجر الجوز لفنان بيرجيه الرغبة الاساسية لبلوغ الابدية .

ونفس الشيء يتكرر فى رواية الامل ، فى مشهد أثناء النزول من الجبل حيث يتوقف البطل ويتأمل شجرة التفاح فيرد على خاطره أن ثمرات التفاح لم تجن بعد ، ولكنها وقعت وتلتف من حول ساق الشجرة كالخلخال السميك يذوب شيئا فشيئا مع النجيل . وكانت شجرة التفاح فقط هى التى تنبض بالحياة فى وسط الحصى والحجارة التى تكسو الجبل ، فالنبات وحده ينبض بالحياة التى طالما تتجدد ومن حوله هذا الجمود الجيولوجى للجبل .

ويتحدث الشاعر الأسود بدوره عن ذلك المدار الدائرى للطبيعة وبالأحرى المدار الدائرى للنبات الذى يرتبط بالانسان ارتباطا وثيقا، بل يبدو هذا أوضح وأهم فى شعر سنجور حيث الانسان الاسود تقترن كل حياته بمظاهر الحياة الطبيعة ــ وترتبط ارتباطا وثيقا بحلول الفصول أولا وقبل كل شىء .

فدائرة الفصول هى التى تتحكم فى حياة الأفريقي لأنها مرتبطة بالحياة الدائبة القريبة من حياة القرية حيث رأى النهار . ولذلك فمعنى الطبيعة وخصوصا انعكاس مظاهر الطبيعة على النبات يرمز الى معان كبيرة بالنسبة للشاعر الأسود الذى يرفض ان يكيف حياته على النظام الأوروبي ويرتبط بهذا النظام « الطبيعي » (اذا جاز هذا التعبير) الذي يعيشونه فى افريقيا .

وعلى أية حال فما هو أبيض فى أوروبا يكون أسودا فى أفريقيا ، والعكس ، بمعنى أن فترة الجفاف فى أوروبا ، أى جفاف البرد القارس توازى فترة الخصوبة فى أفريقيا السوداء ، وبالعكس ففترة جفاف الأمطار فى أفريقيا توازى فترة الخصوبة أى الربيع والصيف فى اوروبا . والشاعر حساس للغاية لكل مظهر يشير الى أختلاف الفصول وقدومها فى معادها الدائرى .

ولذا نراه يحس بقدوم الربيع بمجرد شمه لرائحة الخضار : خضار الاوراق والنجيل من قبل أن تورق الأشجار أو تظهر البراعم ، فهو يسمع ويرى مالا يسمع ويرى الاخرون من الأوروبين .

فقدوم الربيع مثلا يأتي له وهو فى أوروبا على هيئة هفهفة النسيم القادم ببشائر القارة السوداء الدافئة فيعيش بأحاسيسه دفء أفريقيا حيث الشمس الحارة وموسم الحصاد بينما مازال البرد والصقيع والثلوج تغطى اوروبا ، ولا نبالغ عندما نؤكد ان كل حياة ومشاغل واحاسيس سنجور تحكمه وتتحكم فيها هذه الحركة الدائرة للفصول الأربعة .

فكل مناسبة هامة أو حدث أو احساس مرتبط بموسم الحصاد أو موسم الجفاف أو موسم الرياح حتى انه عندما يحدد ميعادا يصل به الى أنه لاينظر الى المفكرة الأوروبية المالوفة المكتوبة فى جيبه أو على مكتبة ولكنه يتحدث عن مفكرة الحصاد .

واحساس سنجور بالنبات يكاد يكون محور كل ماكتب وتحدث عنه لانه يقرن دائما النبات بالمراة بتربة أفريقيا عامة فى فكرة الخصوبة والانجاب والتفتح ، فالبذور تنبت وتترعرع وتثمر وتحصد ، والارض تثمر وتستغل فتزرع وتعزق بطنها ، أى تربتها الخصبة بعمل الرجل الذى يستغلها ويجعلها خصبة ومنتجة تماما مثلما يقترن الرجل بأنثاه فى فكرة الحب والأنجاب والخصوبة المثمرة . كل هذه الصفات موجودة فى النبات عامة ولكنها تتضح أكثر فى الاشجار . فكل شجرة تلخص معانيا كثيرة وتوحي بفلسفة الحياة بعينها .

ويرمز النبات عند الشاعر الأسود للأمل والصبر والتكاتف والقوة . فضلا عن انه يمثل أيضا الظلال والحياة فى المناطق الصحراوية الشاسعة فى أرض السنغال .

فالأشجار أولا تعنى التفاف الجماعة من تحتها فى النظام القبلي للقرية السوداء ، فالرجال يجلسون اسفلها للتشاور فى امورهم فى رطبة المساء وسكونه ، ومن هنا ياتي الأرتباط بين الأنسان والشجرة . فهي بمثابة الشاهد الذى يسمع ويرى ويحضر كل القرارات الهامة التي يتخذها زعماء القرية وأهل القبيلة لقضاء وتسوية أمورهم اليومية ، ومن هنا تأتي المكانة الخاصة التي تلعبها الشجرة فى حياة أفريقيا السوداء . حيث نجد أن كل قرية بها شجرة تسمى « شجرة المشورة » يجتمع تحتها أهل القرية .

والشجرة أيضا تعنى الجمال : بقامتها الفارعة المشوقة كالنخيل والحور ، أو بفروعها الممتدة كأشجار الجميز والصنت والزان والبلوط ، أو بقوتها الجبارة كأشجار الباوباب المعروفة فى أفريقيا السوداء والتى هي دلالة مميزة للمناطق الأستوائية والمدارية فى القارة السوداء .

والشجرة أيضا تعنى الخضرة أى الحياة لتلك المناطق الموحشة المحرومة من الخضار وتحت ظلا لها يستقر ويستريح الفرد من قسوة الصحراء وشراسة الشمس المحرقة .

والشجرة أيضا نحصل منها على الثمار ، فتطعم وترطب وتروى ، فبالاضافة الى قيمتها الجمالية فهى ذات قيمة انتفاعية .

وأخيرا — وهذا هو الأهم — فالشجرة توحى بفلسفة فى الحياة فعلى حد تعبير الشاعر الفرنسي « بول فاليرى » . (Paul Valery)

« الصبر .. الصبر
الصبر فى الأفق الأزرق

فكل ذرة من السكون
فرصة تفتح زهرة ونضج فاكهة ... »

فالنبات أيا كان يوحي بالصبر الأزلى طالما عرفه الأنسان : فهو يزرع ، ثم يروى ويتتبع الزرع حتى يجنى الثمار . وهذه هى الحكمة الكبرى فى حياة البشرية وهى حكمة النبات الذى يمثل دقة الطبيعة فى مدارها الدائرى الذى لايخلف الميعاد .

وحكمة النبات تتجلى أيضا فى أستقرار الحياة ، منذ الجذور الممتدة فى باطن الارض وحتى القمة الشامخة التى تشق زرقة السماء .

وسنجور كشاعر ، يتتبع بهدوء وباهتمام بالغ تفتح الزهور ، وعطر الورود وانطلاق الشجرة وحفيف الاوراق ، وكل نوع يوحى اليه بأحساس معين ، فأشجار الجوافة رائحتها تفيض بالأنوثة وكذلك أشجار المانجو ، والجمال المشوق يتمثل فى النخيل السنغالي وفى شجيرات اللورا البيضاء والوردية .

وكثيرا ما ينطبق منظر الاشجار على أحاسيس الشاعر نفسه ، فاذا كان تعيسا فيحس بأشجار الباوباب الضخمة تتلوى من الألم ، واذا كان — يرتجف من البرد فى أوروبا فيرى الأشجار ترتجف بردا ، أما اذا كان سعيداً منتعشا فان الأشجار تضحك معه .

وهكذا نرى انه بينما يشد مالرو منظر معين في الطبيعة كما راينا في مشهد الاشجار فالاحساس بمظاهر الطبيعة وخاصة بالنبات يتبلور في ذهن سنجور في حاسة الشم واقتران اللون الاخضر والأحمر والأصفر اى الوان مظاهر الطبيعة في السنغال نفسها . وهنا نقف لحظة لنتأمل ماذا نقصد من عبارتنا هذه ، فهناك بالنسبة لكل فنان تطابق بين مختلف مظاهر الفنون بعضها ببعض وبين مخيلته هو وملكته الفنية النابعة من بيئته الأصيله بمعنى ان كل فنان يخلق لنفسه في عمله الذى يقدمه لنا مناخا معينا يستوحى منه الالهام ويخلق الجو والمناخ المناسبين لما يتحدث عنه ، وقد تحدثنا عن فلسفة الفن والآن لنتناول دور الفن في فلسفة الحياة : فالفن عند مالرو كما هو عند سنجور موقف اخلاقى يـؤدى الـى سلوك الانسان المعاصر تجاه اخيه .

• • •

٣ ــ الالتقاء الاخلاقى (Ethique)

وهناك ياتي على الفن ان يقول :

« انني لم اجيء كى اعطى لكم الجزء الالهى الذى أتمتع به ولكنى جئت كى يسترد الانسان مكانته الصحيحة فى الكون وبصوت خافت اهمس له بعظمته » .

أن الفن الحديث سمح لنا أن نرى كل الاشكال في العالم المحيط بنا بحرية تامة لاتخضع لاى أعتبار آخر سوى رؤية المناخ الذى ينبع منه ويترعرع فيه عبر تراثه الثقافى .

فالفن في مفهوم مالرو هو اللاقدرية لأنـه المجال الوحيد لاختيار الانسان ، اختيار ماذا ؟ اختيار موقف اخلاقى ومعنوي .

اختيار تقرير مصير كل انسان ، اى رفض القدرية والمحتوم والتحرر من فكرة المكتوب علينا الذى نستسلم له لأن الفن يعتبر تجربة وانطلاق عن كل مايجول في النفس البشرية ، عن كل ماهو كامن ومكتوب وموقف الانسان من القدر فان فكرة الانسان ماتت بعد فكرة موت الله وكان على الانسان احياء نفسه من جديد .

ويعتبر عمل مالرو «**سيكولوجية الفن**»(٤٩) محاولة لأبراز أعظم مظاهر الانسان . ويطرح مؤلف سيكولوجية الفن عدة أسئلة في هذا الشأن ولعل أهمها السؤال الآتي : « كيف يمكن للمرء أن يتفق مع العالم الخارجي » سؤال حير البشرية من قبل ، أما اليوم فنزيد عليه سؤالا آخر كيف يمكن للمرء أن يتفق مع نفسه » ؟ على مدى التاريخ نرى أن الانسان يتفق مع نفسه من خلال هذا الذى يتخطاه دائما ، فاذا كان المرء اليوم يعتقد ان لاشيء يتخطاه ، وأن الالهة لم تعد أى شيء سوى أثبات لقدرته الفائقة في الابداع فكان لزاما عليه اذن ان يجد في نفسه ، ونفسه فقط ، هذا التوافق بينه وبين نفسه .

(٤٩) La Psychologie de l'Art

فان آلهة المتحف الخيالي فى مخيلة مالروهو « الممكن » (Le Possible) وأهم ما يتسم به هذا المتحف هو الكفاح من أجل الحياة ،النضال ضد الموت ونقصد هنا مع مالرو الموت بمعنى الفناء وليس الموت المحتم على نهاية كل انسان يرحل عن الدنيا .

فالفناء هنا يعني العدم ، العدم الذى يلاحق البشرية فيقضي على كل سماتها الانسانية ، ولكن الامر الذى يعنيه مالرو هو ذلك الشعور بالانفعال الأساسي الذى ينتاب المرء أمام الحياة ، بادئا فى أول الأمر بحياته الذاتية امام الخلود .

« لماذا يوجد شيء على شكل هذه التحفة الفنية بدلا من العدم ، بدلا من الا يوجد شيء » ؟ ذلك هو السؤال الذى حير مالرو أمام الحضارات القديمة التى تلاشت عبر العصور ، او بعبارة ادق انقرض الذين عاشوها ورحلوا ولم يعد لهم أثر سوى هذا التراث الفنى يفرض نفسه فرضا على الدهر وعلى القدر ويرمز دائما الى البقاء . فضلا عن انه يحيي لنا هذه الحضارات بكل معانيها ، بذلك تصبح المشكلة الحقيقية فى تقدير أندريه مالرو هي ليست توارث الحضارات وتداولها ، ولكن كيف وصلت الينا كل حضارة بتراثها الانسانى وكل ثقافة بمعالمها الخاصة بها وتوصلت الى اذهاننا بتراثها الانسانى وعواطفنا ووجداننا بأعمق معانيها السامية الجمالية والروحانية .

يعتقد اندريه مالرو الذى يرفض معونة الاديان وخاصة المسيحية أن عظمة الانسان ومجده هى فى ان يتوصل الى حل مأساة وجوده وحده بدون اى استناد الى قوى دينية . كيف نجعل المرء يدرك انه يمكن ان يقيم عظمته اى معونة اخرى غير تلك التى تنبع من نفسه .

ويصيح فى وجه الصحفيين :

ان الانسانية لاتعنى ان نقف ونقول :

« ان الذى فعلته لايمكن لاى حيوان فى العالم أن يفعله » .

لا ، بل ان الانسانية هي ان أرفض ما يمكن فى نفسى من حيوانية وأن أقول انى أصبحت انسانا بدون عون الآلهة :

ولكن مازالت المشكلة الأساسية غير محلولة بالنسبة له الا وهي « من هو الانسان وماجوهرة ؟ وهل هناك اى دلالة أو مفهوم يمكن ان نرسى أونقيم عليه تعريفا للانسان ؟ وكل انتاج أندرية مالرو الفنى والادبى بل وكل حياته ايضا وماحقق فى مجال السياسة والثقافة ماهو الا محاولة ايجاد حل ورد على هذا السؤال المطروح بشغف بل بقلق شديد من كاتب **« القدر الانسانى »** .

هل مات الانسان حقا ، الم يبق منه مايشير الى معالم الانسانية ؟

ففي محاضرة ثقافية فى قاعة السوربون يصيح فينا مالرو محاكيا نيتشه Nietzsche الفيلسوف الألمانى الذى تحدى العالم فى يوم ماحينما صرح « الله مات » لم يعد هناك رب فهل الانسان قد مات بدوره « ألم يعد هناك انسان » ؟

وهذا التساؤل المحير فى الواقع لايقتصر علىأندريهمالروولكن كثيرا منالكتاب يتساءلونبنفس الطريقة ، والمقصود بهـذا السؤال طبعا القيمالأنسانية التى لم تعد لها ميزة للبشر تحت تأثير التطور والحضارة الحديثة حضارة القرنالعشرينالتى خلقت للانسان مع التقدم والرخاء كثيرا من المتاعب والمشاكل ، بل المآسى ، مثـل الحـرب واستعباد الآلهه للانسان الذى لم يعد يعرف هل يمكنه الاستقرار فى الحياة ككائن حـر مدركاوواعيا .

وهنا يتأمل مالرو مصـير القارة الاوروبية فيقول انها تحتضر ، وانها مهددة بالفناء وتراجع نفسها فى قيمها مما يؤدى الى انشقاق فظيع بينالانسان والحضارة ، والفن المعاصر ما هو الا التعبير الحقيقي عن هذا الانفصام .

ان القرن العشرينمبصوم ببصمة«القدرية»على النقيض من القرن الذى سبقه ، ولكننا وصلنا الى نقطة بلغت بنا هذه القدرية الى حد يحتمعلينا ان نسيطر عليهااما ان نستسلم لها فنموت» .

فيما مضى كان مالرو يؤمن بمثل أعلى واحدهو « بروميثيوس » Promethee بطل اسطورة الاغريق الذى سرق سر النار من الآلهة فيرجع لهالفضل فى تقدم البشرية .

والمقصود هنا ببروميثيوس هو الانسـانالماركسى المعاصر الذى يصنع التاريخ ويغير وجهة تنمية امكانياته المادية والتكنولوجية فقط ، ولكنفيما بعد لم يعد مالرو يقتنع لا بالمذهب الشيوعى ولا بالماركسية لانها لم تشبع متطلبات أخـرىروحانية فى أعماق نفسه ، ولذا توجه الى نواح اخرى : فبدأ يعجب بالأساطير والتاريخ،والثقافةوالفن وبالتـالي بدأ يقتـرب من « أبوللو »ـ (Apollou) اله البطل الاسطورى الأغريقى الآخرعلى النقيض من بيروميسيوث ، ومن ثم فـرجل أبوللو هو الـذى يثـور على اسـتبعاد الالهةوالتكنولوجيا الحديثـة ، وهكذا يصـل المطاف بأندريه مالرو فى أهم مراحل فكره الى ردع حتميةالتاريخ ، بالتركيز على سيادة الروح والفكر ، وهذا هو أهم مظهر يؤكد عظمة البشرية .

ولكن أيا كان الانسـان المعاصر ، بيروميسيوثكان أو ابوللو فمامنشكان المنطلق واحد عندهما الا وهو تأليه الانسان ، هذه الفكرة التىوردت على لسان أحد أبطال مالرو :

« ان كل رجل يحلم بأن يكون الها » (٥٠).

ومن هنا جاء المدلول الجديد لمفهومالانسانيةالحديثة فى عمل وانتاج مالرو .

فلم تعد النظم السياسية والمذاهب أينماكانت تكفى لتغطية الانسانية فى النفس البشرية ، كذلك الحال بالنسبة لذواقة الفن الذين يكتفونبتقييم التحف من الفنون بالنسبة لحضارتهم هم فقط . الأمر تغير واصبح يشـمل مضمون كلالبشرية فى انحاء الكرة الأرضـية على مختلف الأجناس والبلاد والأديان والقارات ، وبالتالىكلمة « حضـارة » الآن يجب أن تعنى شـمول الحضارات وكل مظهر من مظاهر الفن والحضارةفى العالم عبر عن الانسان فى أى ركن من الدنيا .

---

(٥٠) القدر الانسانى ص ٢٧١ : (La Condition Humaine)

ويتساءل الكولونيل « بيرجيه » (٥١) الذيهو الكاتب نفسه :

« فما الذى يراود فكرى منذ عشر سنوات وانا اكتب سوى الانسان ؟ .... ان أبى لم يكن اكبر منى سنا بكثير عندما بدات هذه الفكرة تسيطر عليه ، فكرة لغز الانسان التى تسيطر علي اليوم والتى تجعلنى ربما أبدأ فى فهمه ، وهناك شيئان جعلا فنسان بيرجيه (او ان شئت مالرو) يفهم البشرية ، أولهما ايجاد قيم انسانوية (٥١)جديدة ترد على هذه المشكلة المطروحة التىلخصها مالرو فى هذه العبارة « ان مشكلتى الآن هى انأجعل المرء يعى ويدرك مدى انسانية اليوم » ، **وثانيهما** ايجاد حوار الفن والانسان .

١ ـ البحث عن القيم الانسانية الجديدة :

ما من شك ان المرء حبيس كما هو فى مصيره الذى يخضع له تماما ولكنه يتطلع فى نفس الوقت الى متطلبات تصعد به دائما الى أسمى وأعلى ، هذا المرء يجب عليه ان يخلق لنفسه قيما انسانية جديدة وصورة للانسان يمكنه أن ينظر اليها فلا يرى تلك الصورة التعيسة لمصيره الآن ، ولكن صورة تسمح له بالسمو وبالتوصل الى مجال اقوى من المصير نفسه ، ولذا كان لزاما على المرء فى عصرنا هذا ان يحاول صنع اسلحة تسمح له بالتغلب على القوى المضادة التي تثقل عليه فى العالم الحديث ، ونستطيع ان نلخص مشوار مالرو فى الفكر بأنه انطلق من العدمية الى الانسانية .

وما هى تلك القيم الجديدة التى يعرضها كاتب الأمل للانسان ؟

يسردها مالرو سردا فى منتهى الوضوح فيقول ، فى خاتمة رواياته **الغزاة** : (٥٢)

« نعلن أن القيم هى : ـ

ليس اللاشعور بل الادراك والشعور ،

ليس الهجرة بل الارادة ـ ليس شحن الرؤوس ولكن الحقيقة ......

واخيرا الحرية كل الحرية فى الاكتشاف » .

كل هذا لا نكمله بهذا السؤال : « الى أين »لأننا لا ندرك شيئا عن هذا ، ولكن نتساءل من أين نبدأ تماما كما يحدث فى العلوم المعاصرة فأمام العدمية التى تهدده فى كل مكان يتحتم على المرء ان يختار : خلق موقف اخلاقي جديد لنفسه أوالانتحار . والمقصود بالانتحار اما الانتحار الفعلى أو الانتحار بوسائل اخرى : الذهنى أو الروحانى الذى يفرض على المرء ان يقبل مذلة مصيره فيخضع للقدرية او ان يهرب منه ليخلق لنفسه اللهو عنه بشتى الطرق ، ولكن مالرو يترك اللهو ويترك الانتحار ويختار وضوح الرؤية بشجاعة تامة لمواجهة الحياة وهذا يتجسد فى شخصية « بركن » (Perkan) فى الطريق الملكى .

---

(٥١) اشجار الجوز بالالتنبورج ص ٢٩ .

(٥٢) Les Conquirants

وبعد كتابة ست قصص أى بعد أكثر من عشرين عاما تكلم مالرو مرة ثانية بوضوح بطريقة مطولة وباسلوب واقعى عن مشكلة الغرب وفي هذه المرة لم يكتف بعرض مجرد بل ويضع النقط على الحروف .

وقد أبرز مالرو فيما كتب « أصوات الصمت » و « سيكولوجية الفن » تدهور الحضارة الغربية خلال القرن السابع عشر الذى كف فيه الانسان عن التوجه الى الوجود وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الذى شاهد كل آماله أولا فى آلهة المنطق ثم آلهة السياسة حتى أدركته اخيرا اللحظة التى انهارت فيها كل مقدساته السالفة فتحقق هو من حقيقة واحدة انه لا شيء، أو يكاد لا يساوى شيئا ، وهنا بدأ دور الثقافة الغربية الحديثة فى التساؤل عن مفهوم الانسان وعن البحث عن قيمه .

ولكن فضل مالرو يرجع الى انه لم يكتف بطرح هذه المشكلة التى ظهرت فى أعماله الأولى بل أعطى ، أو على الاقل ، عرض حلولا من خلال أعماله .

فالانسان عندما يقدم على الفعل يحل مشكلة لا وجوده ، والفعل هنا لا يقف عند الاقدام على صنع الأحداث فقط بل يشمل الفعل الفنى أى الأبداع . فالفن وحده اذن ، ولا شيء سواه ، هو السبيل لاسترداد الانسان الحديث لانسانيته.

وفى الابداع الفنى سبيل اعمق لاتصال الانسان بأخيه عبر العصور والمجتمعات المختلفة ، فاذا كانت الثقافات والحضارات تنهار أو تختفى هناك القطع الفنية نفسها التى تحفظ التراث وتعبر عنه ، وأخيرا وهو الأهم تثبت لنا دائما استمرارية قدرة الانسان الخلاقة بالرغم من العدوانية والشراسة التى تحيط به فى العالم الخارجي .

كيف يعيش الانسان فى عالم عابث به ،ليس له اى معنى ؟ بل يعيش الانسان كى يعطي لهذا العالم معنى ولا يترك العبث يلعب به واهم رسالة للانسان المعاصر هى ان « يعطى معنى للامعنى » على حد تعبير الكاتب الفرنسي الشهير « مونية » (Emounier) .

ويبدأ مالرو من البداية حيث يبنى نظريته على العدمية كمنطلق لكل انسان ومن هذا المنطلق الذى يدفعه الى الاقدام على الحياة ، على فعل الحدث ، فيعطى معنى لحياته ، تتبلور فكرة الانطلاق من العدم للوصول الى الانسانية التى هى الايمان بالقيم الايجابية للانسان فتترك وراءنا عالما بأكمله من معتقدات وأفكار وتصرفات وايدولوجيات ، ولنواجه امامنا مصيرنا عاريا مجردا من أى اعتبار آخر . والملاحظ هنا ان ترك تلك القيم الحضرية والفلسفية مصحوب دائما بالنسبة لابطال رواياته ، ان مالرو نفسه ترك أوروبا أى الغرب وذهب الى اقصى الشرق للبحث عن مجهول يبنى به الانسان قيمه وعالمه الجديد . فمالرو نفسه هرب من فرنسا كى يتأمل فى هدوء وفى اعجاب عوالم اخرى ، والملاحظ ايضا ان ابطاله على غراره هم يبحثون عن انفسهم ، فهم لا ينتمون الى حضارة الغرب التقليدية المألوفة لديهم ، ولا ينتمون ايضا الى حضارة الشرق او البلاد الغريبة عليهم اينما كانت ، فلا سبيل اذن لخلق قيمهم لانفسهم بعد ان يواجهوا مصيرهم بشجاعة ويقظة ووضوح رؤية تجعلهم يدركون انه لا مفر لهم سوى الاعتماد على أنفسهم فقط كبشر .

ومن ثم اصبح لزاما على المرء ان ينظر لمصيره نظرة متفائلة بناءة من لحظات يأس شديد ، وتمرد على القدر ، وبالرغم من كونه يعلم جيدا أن مصيره يكاد يكون لعبة يلعب بها القدر ، صار لزاما عليه ايضا أن يعتقد فى دوام البشرية المهددة دائما بالزوال كما يراها مثلا لينج (Ling) أحد أبطال **القدر الانسانى** فيقول :

« انكم تعتقدون ان هناك فيما تسمونه الانسان دائما لا يوجد على الاطلاق » بل يوجد هذا الشيء . ومالرو بفكره يؤكد هذه الحقيقة ، **فهو لا يؤمن بدوام الانسانية فى الحاضر** وفى المستقبل فحسب بل يؤكدها بالنسبة للماضى فى كل حضارة قديمة وفى كلّ مظهر من مظاهر الفنون العريقة .

وبكل أحاسيسه وجوارحه يبحث مالرو مع ابطاله عن هذا الشيء الذى يحقق دوام البشرية ويؤكد معالم الانسانية منذ بداية الحضارات ، هذا الشيء الذى قهر الزمن والموت والتهديدات المختلفة وصمد عبر الازمنة والأجناس حتى أنقذ الانسان من الهلاك ، فهذا الشيء هو الايمان المطلق بقيم ايجابية نابعة من الانسان نفسه ، ولا تستند على أى شيء آخر سواه بقدراته وامكانياته لمجابهة واقع مصيره ، وهكذا تؤدى فلسفة العدم الى فلسفة الايمان بالانسان أى الانسانوية .

هناك بين كل الثقافات التى سبقتنا ترابط وثيق فنحن تعلمنا الآن أن نرى بأعيننا وبأذهاننا وبكل عواطفنا ، وبفضل فكرة المتحف الخيالى لكل الفنون نستطيع ان نقارن ونقيم ونكتشف العلاقات والصلات بين مختلف الثقافات والحضارات ، « فنوجد لها لغة مشتركة » وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح فى رواية الطريق الملكى حيث يسترد البطل كلود فانيك (Claude Vannec) حديثه فى هذا الشأن قائلا :

« ان المتاحف بالنسبة لى انما هى أماكن حيث تصبح كل الأعمال الفنية الماضية اساطيراً تنام حياة تاريخية طويلة فى انتظار أن يوقظها الفنان من جديد ويأتى بها الى الحياة الحقيقية ...... » .

فنكون كالمكفوفين اذ لا نرى أمام هذا المشهد ما تحمله هذه الأعمال الفنية من قيم حضارية وانسانية تشكل لنا الانسان الجديد بالمقارنة والوصول الى المعنى العميق لكل الفنون فنصل الى الفن العالمي ومنه الى « الانسان » مجرد من المكان والزمان والحضارة الخاصة به .

ولكن متفتحا الى العالم بأكمله تذوب خصائصه فى خصائص كل البشر .

وهنا تتسع فكرة الأخوة والجماعة وتشمل أخوة المجتمعات بأشملها ومحاولة التعمق فى العلاقات الانسانية عبر الحضارة ، وهكذا يصل الانسان الى جوهر الاشياء لا الى مظهرها بفضل هذه النظرية الى الفن العالمى والى الحضارات المختلفة التى تجمع فى معنى واحد هو تعبير المرء عن جوهره بفضل تعبيره الفنى الصادق ، ولعل هذا الذى يسميه مالرو « الانسانوية العالمية » انتصار الانسان على القدر ، بمعنى أن الفنان ، والبطل والقديس يتغلبون «بفعلهم» على القدرية ، ومن ثم يؤكدون أنفسهم كبشر فى المجتمع المعاصر .

وكلتا التجربتان لمالرو وسنجور تلتقيان فى نفس المجال : المعايشة لأحداث الحياة ــ فالفن مثل الثورة كل منهما مجال شاسع اى حقل واسع النطاق الى ابعد الحدود . فهناك صورة تأتى من الفن وهناك صورة تأتى من الحياة ولكنهما تلتقيان وتلتصقان التصاقا وثيقا فى مخيلة المؤلف .

ولنأخذ مثلا على ذلك فى رواية الامل : ونذكر كيف أن « مانويل » (Manuel) اى البطل كان اثناء تجوله على طرق اسبانيا يصطحب كلبه الكبير كما صوره مالرو « كان ذات الجسد الممتد مثل الرسوم البارزة على المبانى العتيقة ويمشي على الطريق مثل حركة الشير الأزلية منذ بدات هجرة المسيح الى مصر » .

ومثل آخر من قصته : **اشجار الجوز بالالتانبرج** » هو الذى يعبر عن فرحة جموع المساجين والصحة وعلامات السعادة التى كانت تبدو على وجوههم مثلما يبدو تماما هذا الشعور فى رسومات بروى (٥٣) .

ويأتى هنا دور المتحف الخيالى كما كان يروق لمالرو ان يتخيله . فأى متحف فى العالم هو من أكثر الأمكنة التى تعكس عظمة الانسان . فهو يفرض على المرء أن يتساءل عن معانى هذه التحف الفنية التى تعرض فى المتحف ، ومدى علاقتها ببعضها ، ومن ثم فيتساءل المرء عن رسالة الفن نفسه .

والمتحف الخيالى الذى بدا فى مخيلة مالرو بدا فعلا يجسده قبل وفاته عن طريق افتتاح متحف يجمع بين مختلف الفنون التشكيلية مثل النحت والخزف .

والمتحف المثالى هو الذى يشمل كل الفنون بشكل يجعل تداول الحضارات مستمرا ويسيرا من مختلف العصور والاجناس ، مهمته الاساسية الرد على المتطلبات الجمالية المختلفة الكامنة فى أعماق البشر والتى تعبر عن تراث عريق فى كل مراحل البشرية ، وهل هناك اجمل واسمى من تعارف الشعوب عن طريق الفن ؟

وكل انتصارات نابليون بونابرت فى ايطاليا لم تستطع أن تحضر الى فرنسا سقفا فيه الفاتيكان الى اللوفر ــ بينما ان مجرد عرض الموناليزا (اى الجو كوندا) لليوناردو دافنشى فى اللوفر مثلا جعلت حضارة النهضة الايطالية تزدهر وتترعرع فى عقول الفرنسيين عبر الأجيال حتى يومنا هذا بفضل هذا العمل الفنى مثلا .

ونضيف هنا نحن مثلا آخر : ان ما تركه معرض توت عنخ آمون المتنقل فى أوروبا وأمريكا منذ سنوات قليلة من تأثير واعجاب وتقدير فى نفوس كل الذين شاهدوه اكثر بمراحل من دوى اى انتصار عسكرى ، او حتى ما يعمله النشاط الاعلامي والسياسي على الصعيد الدولى من أجل معرفة مصر ، ومتابعة قضاياها .

---

(٥٣) بروجيل (بيير) (Purre Brueghel) رسام فلامنكى من القرن السادس عشر مشهور باتقانه للوحات الجماعية التى تعبر عن مشاهد فظيعة ورهيبة تتخبط فيها جموع البشر .

ان الفن اذن يلعب وحده دورا هاما وخطيرافى العلاقات الانسانية وانطباعات البشر بعضها عن بعض وبالتالى فرسالة الفن هى أسمى معانىالرسالات ، وتأتى فى تقدير مالرو فى المرتبة الاولى قبل الديانات السماوية وقبل الايدولوجياتالسياسية ، لأنه أصدق تعبير حضارى عن العمق الانسانى فى البشرية .

ولذلك يتعين أن يكون الفن الحديث حلقةتربط بين مختلف الفنون ومختلف الحضارات كى يصل الى المفهوم العصرى فى تكامل الحضارةالعالمية .

فنظرتنا الحديثة للثقافات المختلفة يجب أنتكون نظرة احترام وتفتح واعجاب لان كل مايعبر بصدق عن بيئته يستحق ان يعامل باحترام وتقدير وهذا هو الأهم ، يستحق ان نقف عنده فنأخذ منه ونعطى له فى حوار مثمر أخوى مثيرانسانى .

ان كل ابداع فنى يكشف عن امكانية البشرفى تخطى العصور وتجاوز الزمن وحتى لو ان الحضارات اختفت او ماتت فان فنها لم يمت . فمثلا كما يقول مالرو اننا لا نعرف شيئا عن الفلاح المصرى القديم أو الفراعنة لكننا نعلم الكثيرونتجاوب فعلا مع الفن الفرعونى القديم ، فنجد التماثيل المصرية فى متاحفنا بفرنسا » .

وهكذا نرى على حسب نظرية مالرو أن الفنيخلق لنفسه قيمه الاساسية بل قيمه المطلقة . ولعل أهم هذه القيم هى كما ورد مرارا علىلسان مالرو قدرة الفن على تحدى القدر .

فالفن يرفض العدم والعبث الذى يهددالانسان فى العالم الحديث ويعطى للانسان فرصة تغيير الواقع والأشياء فى عالم جمالى مستقل ،متماسك ومميز .

وهكذا فأن الفن ما هو الا بعث وهو الشيءالوحيد الذى يمنح للانسان فى هذه الدنيا فالقدر يكسر ، والزمن يغير ، أما نحن البشر فبفضلالفن فنختار وندوم فنحيي انفسنا من جديد خلال أعمالنا الفنية ....

ان الثقافة فى تقدير مالرو فى أوسع نطاق لهاهى تراث فكرى فنى وخلقى ويصفها مالرو كالآتى : ـ

« ان كل ثقافة عميقة عندما تصبح عالميةتبدأ فى الظهور لنا فى شكل مغامرة تماما كعلم الفيزياء الذى هو مغامرة لغزو العالم الحديث . فلنذكر أن علم الفلك عاش قرونا بأكملها بينما قيل فى قليل من الوقت ان الارض لا تدور ، كذلكالحال بالنسبة للثقافة الحالية التى ولدت لنا تساؤلات موجهةتنبعمنها ارادة قويةفى ازديادتداركالانسان لمعنى حياته على الارض » (٥٤) فالانسان هو اللغز الاساسي فى الكون .

---

(٥٤) 31 mai 1952congris de I' Oeuvre du XXsicile sur La Culture. (Paris)
مؤتمر حول الثقافة ٣١ مارس ١٩٥٢ (باريس).

ويمكننا أن نقول أن مالرو قطع أكثر من نصف الطريق بحثا عن الانســان ، أما سنجور فقابله فى النصف الآخر الذى قطعه هو كى يلتقى بالوجه الاخر للانسان المعاصر اى الانسان الغربى فأكد سنجور « بالفعل » ما نادى به مالرو بالفكر .

معنى اعتقاد الشاعر الأسود أنه لا يمكن أن تقوم حضارة الا اذا كانت شاملة متكاملة تجمع بين كل الحضارات وخصوصا تلك التى نعرفها بالحضارة الغربية والتى على شبه النقيض من الحضارة الافريقية ، ولكن هذا هو سير الكون نفسه الذى يقوم على نظرية التكامل والتعارض ، فالابيض على النقيض من الأسود ولكن لا بد من وجودهما فى الحياة سويا

والليل عكس النهار والشمس على النقيض من القمر ولكن كل هذه العناصر المضــادة لازمة لتكوين الكـــون فى مداره وفى فلكه وفى حــركته ونستشهد هنا بالآية الكريمة : ــ

« لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (٥٥). (صدق الله العظيم) .

وهذا بالضبط ما يعتقد فيه ليوبولد سنجور حينما يتحدث عن نظريته ، اى السـكينه التى يسبح فيها الفلك ويدور فيها العالم .

فالزنجى بطبيعته كالرجل الشرقي لا يعرف القلق والضياع فى الدنيا لأنه يتلاءم مع الطبيعة المحيطة به ولا يعرف سوى التسبيح والتكبير لهذا الذى خلق السموات والارض وكل ما عليها وان كان يحدد بالضبط اسم الله ســبحانه وتعالى باسم « مونتو » الاعلى ومونتو يعرف عند الرجل الأسود بكونه اعظم رجــل واكمل الرجال خلقا وشكلا ولهذا فهو يســتحق العبادة وهو أقوى الكائنات فخلق كل شــيء وكل شــيء فى مكانه ويؤدى وظيفته على خير وجــه . فلا تمرد ولا انشقاق ولا قلق فى حضارة الرجل الأسود حتى جاء اليوم المشــــئوم الذى سحق فيــه الرجل الابيض كل شيء واقتحم البلاد واســتغل اخاه الأسود أسوأ استغلال عرفه تاريخ العالم الحديث، فدنس المقدســات وحطم الحضــــارات ورفض الحوار .

ولكن لا بد للظلم يوما أن ينجلى ولا بد من يقظة شعوب افريقيا حتى تحقق الحرية وتسترد الكرامة وتوجد الحوار ، فتبنى الحضارة الجديدة للانسان المعاصر هذا هو بعينه خط سير الشاعر الاسود حتى يلتقى فكره بفكر صديقه مالرو وكيف كان هذا ؟

اذا كان أندريه مالرو قد رحل كثيرا بعيدا عن بلاده باحثا عن مفهوم جديد لحضارة الانسان المعاصر فان الجواب على بحثــه يوجد بافريقيا حيث تعلم ان الفن يعبر عن الانسان ، حيث تعلم الانسان أن يجد لنفسه فلسفته وحكمة وجوده فى هذه الدنيا .

« لا يجب ان يبدا نحاتونا فى نحت اقنعــة حديثة على ذوق اوروبا ، انك على حق ! ولكن الشيء الذى يجب أن يكون هو ان يحس نحاتونا انهــم فى منتهى الانطلاق ، فى مجال الفن العالمي

---

(٥٥) الآية ٤٠ من سورة يس .

بطريقتهم ، ويجب ايضا ان يدركوا أن قوةالانفعال والتأثر بالشيء (التى هى أصدق تعريف لكلمة افريقيا نفسها) قد منحت لهم وهذا سر تفوقهم ،نقطة امتيازهم عن الآخرين فى مجال الفنون . ان الأقنعة سوف تموت يوما ولكن أفريقيا سوف لا تخضع أبدا الى الفن الأوروبى الحديث .

اننا نعلم تماما ان هناك فى الطبيعة وفى كل بقعة بها وجود للانسان وسنتوصل يوما الى الامساك به ! » (٥٦) .

« فى ذات يوم أنزعج سرطان البحر (٥٧)العجوز « كو كروفو » من زوال الحكمة فى العالم ، فلا أحد يعير لها الاهتمام الكافى ويتبع ارشاداتها ولذا قرر « كو كروفو » ان تجمع كل الحكمة ويضعها فى حبة قرع كبيرة ثم يصعد بها الى اعلى شجرة عالية حيث يخفيها عن الناس ويحكى الاجداد انه بعد قليل من الوقت تعب « كوكروفو »من الصعود وتضايق من حمله الثقيل ومن مجهوده الضخم ولذا فالقى بحبة الفرع من فوق الشجرة فانكسرت الحبة وتبعثرت فى ارجاء العالم كله ولذا فهناك اناس اكثر حكمة أو أقل حكمة من الآخرين ! » .

هذه هى اسطورة زنجية تعلل درجة حكمة الشعوب ورقيها وأصالة الحضارات بين مختلف الاجناس .

والحكمة عند ليوبولد سنجور تتلخص فى أمرين : ـ

اولهما العودة الى الوطن الام افريقيا ،والايمان بالانتماء المطلق الى أرض الأجداد والى تراثها العريق هذا من ناحية ، والبحث عن الحكمة عند مختلف شعوب العالم لكى يكمل الحكمة المطلقة التى هى مزيج وخليط من الحضارات لكل الشعوب من ناحية أخرى .

فموقف سنجور من الحضارة المعاصرة ينقسم الى شقين : ـ

الشق الأول : الانتماء الى الأصل العريق للانسان الأسود بكل مظاهر هذا الانتماء السياسى ، الفنى والفلسفى .

الشق الثانى : هو ايجاد الحوار مع الحضارات الاخرى لبناء المجتمع العالمى المعاصر .
ورأينا أن كل ما كتبه سنجور هو أفريقيا ،أى أن انتماؤه مطلقا على الصعيد السياسي ، والايديولوجى ، والوجدانى والفنى ...

وبوفاء مطلق استمر الشاعر الأسود على مدى اكثر من أربعين سنة فى نشر حجته ، غير مبال بالمفاخر ولا بتقلبات الدهر ـ فهو يحب مجابهة الحقائق وكم هى مريرة وصعبة ، المواجهة فى بلد متخلف وفى قارة فتية خضعت قرونا طويلة للاستعمار الأوروبى : فكيف اذن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف والأمية ، والأمر من هذا ذل الاستعمار ؟ كيف يكون استرداد

---

(٥٦) زوار مارين ص ٣٤ .

(٥٧) ويعرف بالفصحى باسم « السلطعون » .

الكرامة وتتم استعادة الحرية واحياء التراث للقارة الشامخة ؟ لا سبيل الا فى الثقافة أولا ، فالثقافة سلاح الرجل الاسود ولكن اية ثقافة ؟الثقافة التى تعتمد على تكامل وشمول الثقافات وبالتالى ايجاد الفرصة للرجل الأسود لاسترداد مكانته الصحيحة فى المجتمع العالمى المعاصر الذى يعلمه الكثير ولكن ايضا يستفيد منه أكثر .

فلا يمكن لمجتمع يناشد العالمية حيث المنظمات والهيئات الدولية المختلفة مثل هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وما الى غيره أن يتجاهل الغرب مثلا وجود العالم الثالث التى تعبر القارة الافريقية أهم عنصر فيه . هذه القارة التى حتما ستلعب دورا هاما فى مسرح التاريخ القادم على الصعيد الحضارى كما تنبأ بهذا اندريه مالرو نفسه (٥٨)

« .. الآن من يسمع هديرا هائلا مدويا يأتي من أركان الأرض سوى أوروبا ... » وفى نفس الوقت يعلن عن جنازة عالم قديم ترى هل ينبىء بقدوم افريقيا ... ؟

أفكر فى طائرتى عام ١٩٥٩ التى كنت أجوب بها فجرا مستنقعات التشاد الشاسعة ؟ افكر فى الجندى الاسود المجهول تحت شمس باريس المتواضعة بميدان الكونكورد ، حيث احتفلنا يوم ١٤ يوليو بتوزيع اعلام اتحاد دول افريقية المستقلة ... أفكر فى الرئيس سنجور ـ وفى الزنوجيه التى كان يعلنها على الملا ...

... أن سنجور ايضا تنبأ بالدور الذى سيلعبه العالم الثالث على مسرح التاريخ فى عام ٢٠٠٠ هل سيقف العالم الثالث امام الحضارة التى تغزو القمم وتضيع شيئا فشيئا بها ؟

ان مالرو اذن مثل سنجور لا يمكن ان يتجاهل الحقيقة الجلية للقرن العشرين الا وهي تكامل الحضارات ومزج الاجناس المختلفة التي فعلا تنادى بعضها البعض بسبب هذا التناقض.

ان عطاء الحضارات المتبادل يساعد على ازدهارها وتفتحها ويوجد السكينه والسلام فى سير مشوار العالم القادم على غرار مسيرة الكون نفسه التى طالما تغنى بها سنجور فى شعره ، لم يعد من الممكن ما يعتقد سنجور انه حتى على الصعيد الداخلي لاى بلد أن نتجاهل بعض الحقائق الخاصة بالانسان المعاصر .

« ... أن ندرس الانسان فى ماهيته فقط فلا نعود الى أصله وجنسه وتاريخه وبيئته وجغرافيته ، فهذا موقف خاطىء ومائع وغير واقعى أن كارل ماركس عرف الانسان على حسب نظرية العلم الحديث بانه حيوان على المستوى يفعل نفسه ويتكون فى الطبيعة وبواسطتها فى المجتمع المحيط به وبواسطته . » (٥٩)

ويرجع فضل سنجور فيما كتبه واخذ به دائما فى انه يعيد الرجل الاسود على كل المستويات الى الجماعه الاساسية التى ينتمى اليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه

---

(٥٨) أشجار الزان التى نقطعها .

(٥٩) Senghor : Pierre Teilhard de Chardin au la politique africaine p.25

الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الابيض الذى كان العدو الاول والذى اصبح أهم صديق . وبذلك تتحقق فى افريقيا نفسها أولاما ينادى به مالرو وما حلم به وحققه سنجور اى « الافريقانية » (L'Africanite) خليطا سعيدا موفقا بين الزنوجيه (Negritude) والعربية (Arabite) والخطوط التاليه هى تفتح القارة كلها الى العالم الخارجى فتعطى وتأخذ بدلا من أن تعطى وتمنح دائما حتى ايامنا المعاصرة نفس الثروات البشرية والاقتصادية التى سلبها المستعمر الابيض من أرض افريقيا .

آن الاوان اذن أن تتمتع افريقيا الآن بثروتها أولا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والفنى ، تزدهر فنونها العظيمة لتعرف للعالم أجمع أنها أصدق تعبير للانسان فى البحث عن ذاته وعن وضعه فى العالم ، ثم تأخذ من الحضارات الغربية مايلائمها وما يتواءم مع تكوين الرجل الاسود وبيئته ولاتحاكى ولا تقلد تقليدا أعمى ، ولا تخضع لعبودية جديدة تحت ستار «الثقافة» أن أبشع انواع الاستعمار هو الاستعمار الفكرى ، الذهنى الذى يعرف الآن بالاستعمار الجديد . »

وكثيرا ما يحذر سنجور الشباب الاسود بل شباب افريقيا كلها من الوقوع فى هذا الفخ المريع الذى ينصبه لنا ثقافة الاستعمار الغربى . فالثقافة وان كانت متفتحة الى كل التيارات وهذا شيء طبيعى بل مرغوب ، لا يمكن ان تأتى من الخارج فتلطخ علينا لطخا بدون صلة ولا ارتباط لتقاليدنا الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، ولاتراعى البيئة والظروف التى نعيش فيها ولذا ــ يصبح الرجل الاسود عبارة عن مجرد دميه هزيلة تقلد تقليدا أعمى كل ما يفعله الغربيون ولا يمكن لها ان تصبح انسانا بمعنى الكلمة لان جوهرها لا يتلاءم مع هذه الحضارة . ثم أن هناك شيئا آخر يجب ان يؤخذ فى الاعتبار فحتى اذا حدث أن قلد المرء شخصاً آخر من حضارة وثقافة مختلفة تماما عنه فان هذا الشخص لا يحمل له الا الاحتقار والتسفيه والاستخفاف به ، لان الذى ينسى أصله لا أصل له على الاطلاق ، وبالطبع يصبح موضع سخرية واحتقار للجميع ، فلا مكان له لا فى مجتمعه الاصلى ولا فى المجتمع الجديد الذى يحاول أن يجد فيه مكانا دون جدوى .

والحقيقة ان هذه الظاهرة حدثت بالفعل لكثير من السود بعد حركات الاستقلال فى افريقيا ، ولذا فقد ادرك سنجور هذه الظاهرة الخطيرة وقد نجا هو شخصيا منها عندما تدارك الموقف فى صباه وحس بشدة انجذابه الى فرنسا وكل ما يأتى من فرنسا وخصوصا ثقافتها العالمية وحضارتها البراقة ولكنه كان دائما يتذكر ايضا انه أسود وأن موطنه الاصلى السنغال وقد عانى الكثير لكى يخرج منتصرا من هذه التجربة الصعبة التى تتلخص فى الآتى : ــ

أن سنجور شاعر أسود ورجل ثقافة فرنسى ... !

والثقافة هى شغل سنجور الشاغل فهو مؤمن تماما بأن الثقافة هى التى تصنع الشعوب ، وتكون الرجل ، وبالتالى يصنعها الانسان وانتصر بالفعل سنجور فجمع واشتق من الحضارة الغربية ما يعجبه وما يلائمه فقط ورفض منها الآخر ، وتذكر أنه ابن السنغال قبل كل شيء ولذا احتفظ بأصالته « وطعمها بثقافة الفرنجة » وربما هذا الذى انقذه هو أولا الاعتزاز باصالته

وثانيا تفتحه المطلق على كل حضارات العالـم فهو مؤمن تماما بان « الزنوجية هى انسانية » (٦٠) حتى انه تجنب الكثير فى هذا الشان .

ولقاء الانسان بالانسان يكون أولا مع ابناءالجنس نفسه ولكن يمكن لمعنى الاخوة ان يمتد فيشمل رفاق النضال فى ماساة واحده وضـــدعدو واحد وهذا يبدو اكثر وضوحا عند مالرو مثلما نرى فى هذا الموقف من روايته « المصـيرالانسانى » فلا يحتاج المرء ان يقدم نفسـه للآخر ولكن يتم لقاء الاخوة فى همســة أو لمسة يـد ،وهذا هو مانراه فى قصيـدة سنجور : البحـر الابيض المتوسط : (٦١)

« واردد اسمك : ديالو !

ويدك تشد على يدى ، وافكارنا تتلاقى فى نصف الليل ، ليلك ، ليل لغتينا الشقيقتين .

كنا فى البحر الابيض المتوسط ، ملتقـىالاجناس الفاتحة وزرقته لم تر عيناى مثلهـــا فى المحيط وابتسامته على مليون شفة من الضوءالناصع ...

... وكنا نتحـدث عـن أفريقيا وكـانالنسيم الدافىء ياتى لنا برائحتة الخلابة اكثر دفئا من روائح المراة السوداء ....

كنا نتحدث عن الوطن الاسود فى المساءعلى الجبال وكتفانا تتجاوران فى اخوة ومحبـة فكانت افريقيا تعيش هنا علـى مرسى الافـق بوجهها الاسود المضىء ... وكنت اردد اسمك : ديا للو .

وكنت تردد اسمى : سنجور »

ان فكرة الاخوة فى افريقيا السوداء عريقةمنذ الازل ، وهى مرتبطـة بالتراث المعنـوى والديني والروحاني ومفهوم الاخـوة فى الشرقالاوسط او بمعنى اصح فى البلاد العربية توغل عن طريق الفتوحات الاسلامية الى اعماق افريقياالسوداء وهذا المفهوم مرتبـط بنظـام الحيـاة البدوى القبلى ، فالانتماء الى القبيلة يقوى روابطالعم والخال والقريب والنسيب ... ، واكثر من ذلك فمجرد « المعرفة » بمعنى التعـرف علـىشخص بمجرد أن يذكر انه ينتمى الى شخص آخر معروف لدينا . فالتفاخر بالنسب والانتماءالقبلى والارتبـاط الاسرى والاحساس بالاخـوة وكل معانى الرجولة والشهـادة ، والسعـىلنجدة الآخرين فى وقت الشدة فى كرم : كـل ذلك يعتبر من العلامات المميزة للتراث الحضارىالافريقى وكثيرا ما تغنى شاعرنا سنجور بهـذه الصفات الحميدة : فعندما يخاطب زميل الصباورفيق الكفاح : الشاعـر ايميـه سنرير (٦٢) يقول له فى قصيدته الشهيرة : **خطاب الى شاعر :**

---

(٦٠) S : La Nigigritude est un humanisme

(٦١) S ; Hostes Nories (Miditerrance)

(٦٢) اغانى الظلال : .(S : Chants d'Ombre Letter a un poete)

« آلى الاخ الحبيب والصديق ... تحيةوسلام جاد واخوى ...

سأنتظرك ـ .... »

ان معنى الاخوة يتخذ أقصاه عند سنجورحيث يشعر الشاعر بأنتمائه الى أبناء دمـــه فى المحنة ، بل يمتد هذا الشعور فيشمل كـلأصدقاء الاسر أيا كـان لونهـم او جنسهـم أو عقيدتهم .

فالتضامن الانسانى لمواجهة موقف صعبأو محنة هو الذى يربط بين المرء واخيه ، وهو الذى يميز الانسان عن الحيوان ، فالاخوة يمتداحساسها الى كل مظلوم ومقهور ومفهوم تحت قبضة عدو غاشم أو نظام قامع غاشم : ولـذافيرى سنجور فى معنى الاخوة أعمـق الابعـاد فيقول عن رفاق الاسر :ـ

» مختلفى الملامح والهيئة والملبس والعادات واللغات ، ولكن فى عمق الا عن نفس أنشودة الالم تحت الجفون المريضة .

فالكافر والكابيل والصومالى والموريتانى والغانى والفينى والبامباره واليوبو ـ والمانديا جو اخوة .

وليد الرعاة وعامل المناجم والفلاح والحرفى والطالب والقناص وكل العاملين البيض فى النضال اخوة .

وها هو ذا عامل المناجم بجبال الاستورى، وعامل الميناء بليفربول واليهودى والمشرد مـن المانيا ودويون ودوبوى وكل ابناء سان دونى» (٦٣) نفس الموقف الانسانى ينجلى ويتبلور فى أعمال مالرو بشكل ملحوظ يوضحه لنا موقف كيوتشين(٦٤) فى السجن .

فعندما مات كيو على أيدى قوة الصينيين عرف كاتوى معنى اليأس والرعب فكان يتخيـل الموت البشع مصرع رفيقه البشع .

وكان يعلم أيضا ما بشاعـة مصيره هـوأيضا والزملاء الذين التقى بهم فى هذه الزنزانة الكئيبة السوداء الضيقة فبدأ يشعر بالوحـدة المريرة ولكنه ايضا تداركا للموقف الرهيب اراد ان يفعل شيئا من أجل هؤلاء الذين يتقاسمون معه نفس المصير والذين لا يعلم عنهم شيئا ولكن يحسن بوجودهم من أنفاسهم المضطربة فقط . فكان يرجح انه ما زال منهم على قيد الحياة وسط اشلاء الجثث الملقاة فى الزنزانة ولذلك قرر ان يتقاسم معه كل ما تبقى له لانقاذ نفسـه مـن المصير المحترم الا وهو جريمة الزرنيخ التى كان يحتفظ بها لنفسه لينتحر قبل ان يأتى الجنود

---

(٦٣) من ديوانه : القرابين السود : Hosties Nories

(٦٤) القدر الانسانى .

فينفذوا فيه الحكم ، وبما انه كان لا يستطيع الحركة خوفا من ان يوقظ انتباه الحارس فهمس لسوان وهو الوحيد الذى كان يعرف اسمه قائلاهيا ياسوان ضع يدك على صدرى برفق وخذ منى جرعة الزرنيخ الخاصة بى فور أن تصل يدك الى جسدى كن حذرا فليس عندى الا لاثنين فقط » .

وهكذا ضحى كانوى بنفسه فى سبيل انقاذ اثنين من التعذيب المهين والهلاك فقدم نفسه للهلاك بدلا منهما واعطى لهما فرصة الانتحار بدلا منه لانه يؤمن بروح التضامن . التى تربط بينهم فى مثل هذه الظروف .

وهناك فرق كبير بين المذهب الايديولوجى وبين معايشة حياة الجماعة . ولذلك فما أكبر الفجوة بين الشيوعية كمذهب وبين حياة الشيوع أى مشاركة الجميع فى كل موقف وهذا وحده هو الذى يجعل معنى الاخوة مطلقا وملموسا .

فبينما يرى « كيو » (Kyo) فى الشيوعية نوعا من الوصول الى الكرامه نجد أن هذه الشيوعية نفسها تعنى بالنسبة لـ « كونينج » وهو بطل آخر فى نفس القصة ـ المذلة والاستبعاد وبينما يرى الابطال الآخرون « بيبه » و « هملريسن » فى مذهب الشيوعية هذا وفى الاتحاد السوفيتى طريق الخلاص والامان . فترى « مى » أن هذا المذهب لا يعنى الا ضيق الافق والتعصب الفكرى . فالشيوعية لا تعنى الجماعة ، والمذهب ـ السياسى لا يعنى الاستقرار الاجتماعى . فالفرد مرتبط بجماعة معينة وليس بمذهب سياسى .

ولذلك فالواقع بالنسبة لبطل قصة « زمن الاحتقار » (٦٥) ليس له الا وجه واحد هو الحياة الجماعية وليس تطبيق الشيوعية ولذلك فهو عندما يضرب الحائط فى سجنه فلا يكف عن ضرباته حتى يسمع نداء أخويا يأتى اليه من اى مكان ، ولذلك أيضا نستطيع ان نقول أن تلك الضربات أنما ترمز الى ايمان مطلق بالاخوة البشرية .

وعندما يسمع فانسان بيرجيه (٦٦) رجال الاعداء يتحدثون فى الظلام فأصواتهم لا تعنى بالنسبة اليه أصوات الالمان ، ولكن تعنى صوت البشر أجمعين .

« ولاول مرة فى هذا الظلام الحالك ، سمع أبو الشعب الالمانى الشعب فقط ، وبما الرجال أى البشر » .

فالدم الذى يربط بين الذين يتحدثون والذين ينصتون ليس دم قومى وانما هو دم خفى يظهر وقت القتال وتتلاشى امامه كل حجة وكل مصلحة وكل حرب ليحل محلها انطلاق عميق ينبت منه شعور القلق وشعور الاخوة معا ويلتقيان دون فصل بينهما بانطلاق الى أبعد الحدود يأتى من أعمق أعماق الدهر » .

---

(٦٥) La Temps du Mepris

(٦٦) اشجار الجوز بالالتانبرج : Les Noyers de l'Atenburg

وبهذه الطريقه يكشف لنا مالرو عن مفهوم الصداقه او الاخوة التى يلتقى فيها المرء باخيه فيشعر انه انسان أمام لا انسانية القدر . ويتمثل ذلك فى هذه الروايه **(اشجار الجوز بالالتنبرح)** فى اطلاق الفازات السامة على العدو وهذا الشعور يصعد ويتخطى الامم والشعوب والزمن ، وهاهنا نجد الرمز القوى الذى يرمز الى صلابة الشعور بأخوية الانسان يتجسد لنا فى شماخة اشجار الجوز التى تعرض قامتها الهائلة متحدية بذلك كل التحديات ولذلك نجد أن بطل الرواية — فى نفس اللحظة — يتذكر تلك الاشجار العريقه التى تحيط به — فى الريف — من كل مكان والتى تكتسب دائما صفة الابوة حيث انها لا يتحدد عمرها بالسنوات فهى نفسها تحمل علامات الدهر ولكنها لا تخضع له وأن كانت تحتفظ بلمسات الرفق عليها . فالاشجار عامة ، وخاصة اشجار الجوز تتحدى الدهر فى شموخها ومتانتها وتعيش الاجيال تلو الاجيال .

ويقول مالرو من ناحية — معلقا عن موقفه من الصداقة والأخوة التى تربط بين بنى الانسان :

« اريد الوفاء فى الصداقة حتى النهاية وليست الصداقة المعلقة على مجرد موقف سياسي » .

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشاعر الأسود سنجور الذى يرى أن معنى الأخوة ليس فقط رباطا وثيقا بأهله وأبناء جنسه وانما هو رباط بكل البشر فى شتى انحاء العالم وذلك يبدو واضحا فى موقفه وعمله السياسي وخصوصا شعره حيث نجد أكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى للأخوة كما رأينا .

• • •

ان الفن وحده هو السبيل الوحيد فى اعتقاد سنجور ومالرو لتحقيق الذات واعلان تلك المظاهر التى تجعل البشرية انسانية تتحدى القدر والزمن والظلم ، والطغيان والعبودية ، فالفن لغة الشعوب جمعاء ، تربط بين كل حضارات الكرة الأرضية ، فتكمل بعضها البعض لتجعل المجتمع الحديث مجتمع ثقافه متحضر وانسانى .

وبالتالى تستطيع القول أنه اذا كان عمل مالرو الفنى يسمى كما كان يحلو له ان يقول « باللاقدرية » اى انه التعبير الوحيد عن حرية الانسان فى مجال حياته التى تخضع للقدر فى معظم ظروفها فأن الشاعر الأسود هو الآخر يعتبر الفن المخرج الوحيد بل المنطلق الوحيد للرجل الأسود منذ الازل للتعبير عن ذاته ، فالزنجى كما نعلم جميعا وكما يقول سنجور دائما « يغنى حياته » « ويرقص حياته » ، بل ينحت حياته فكل مظاهر الفن فى افريقيا السوداء ما هى الا انعكاس مستديم لمظاهر الحياة اليومية .

الفن موقف واختيار وتعبير : ان الفن فى اعتقاد مؤلف المتحف الخيالى (٦٧) هو بالدرجة الاولى مع العالم ، فالفنان عندما يخلق تحفته فى أى من الفنون التشكيلية : نحتا كان ام تصويرا ،

---

(٦٧) Le Musee Imaginaire

أم موسيقى فانما هو يوجد الحوار مع كل مايحيط به ، بل أن هذا الحوار يمتد الى الانسانية جمعاء من خلال هذا العمل الفنى ، فان هذه التحفة تصبح تحفة لكل انسان فى كل مجتمع ، فهى نفسها فرضا ، أيا كانت المعايير والمقاييس التى تخضع لها من ناحية الشكل والحجم والملامح فكل منا يحمل فى أعمق اعماقه هذا النداء الشديد نحو الجمال الفنى ، نحو جمال الابداع بصرف النظر عن قيمه وعن حضارته وعن تكوينه الشخصى الذى قد يختلف كل الاختلاف بل يتعارض احيانا مع الحضارة التى ينبع منها ويتشبع بها الفنان الخلاق الذى منحنا هذه التحفة الفنية .

ويعطى مالرو أمثالا كثيرة فى هذا الشأن منها تحفا فنية من مجاهل افريقيا السوداء ومن حضارات آشور وبابل وسومر والهند والشرق الأقصى ، وحضارة بيزنطه وأمريكا الجنوبية فكل هذه المناطق على اختلاف الأجيال والعصور والحضارات تعطى لنا تحفا لا يمكن للبشر الأختلاف فى انها تحف ، والكل يجمع على قيمتها الجمالية الاستيتيكية وخصوصا الذين لا ينظرون اليها الا من الناحية الجمالية فقط مثل مالرو نفسه . فان العالم الذى تخلقه لك هذه التحفة يكشف لنا عن لغة مختلفة تماما عن لغتنا الفنية وعن التراث الذى خلقه لنا الاجداد ، ولكن هذه التحفة تتحدث الينا وتتكلم لغة جديدة هى نفس لغتنا لأنها تتجه الى نفسنا العميقة التأملية ، وبالتالى تصل الى العمق البشرى فينا وتحرك فينا أسمى المشاعر أى الأحساس بالجمال أمام روعة ما خلق الفنان والأحساس بالجمال وان كانت معاييره تختلف من حضارة الى أخرى .

بل فى خلال حضارة واحدة تختلف عبر القرون مثلما حدث فى معايير الجمال عند الاغريق فمقاييس ربة الجمال نفسه فينوس تصبح الآن شبه مضحكة فى الحضارة الأوروبية الحديثة ــ الا ان هناك شيئا لا يختلف عليه وهو الاعتراف بمقدرة الفنان فى التعبير عن ما يجول فى نفسه وما يخطر فى مخيلته ، وهنا يأتي دور المتحف الخيالى الذى يجمع فى ذهن كل منا كل انواع التحف الفنية العالمية بحيث يجمع حضارة فنية مثالية متكاملة تشمل كل ما ينتجه الأحساس البشرى فى مختلف الأزمان والقارات .

ان الانسان موجود بفضل الحضارة ويترك بصماته فى العالم حيث هو ملقى بمجرد الصدفة بين زحمة الكون وتراكم المادة وتوالى الكواكب ، وفى سجنه هذا ترجع عظمة الانسان الى انه يستطيع أن يستخرج من نفسه صورا تبلغ من قوتها انكارا للعدم واثباتا للوجود .... الانسان ؟ ملاح عظيم غامر بحياته تاركا قارة أوروبا القديمة متجها الى العالم باحثا عن اخيه .

اننا نعيش جميعا فى هذه السنوات الأخيرة عملية التطعيم أو المزج هذه التى يتكلم عنها سنجور فمن منا لم يتأثر بالثقافات الغربية وبحضارة أوروبا ؟

ولكننا نحتفظ بالتراث العربى والأفريقى الذى يجرى فى عروقنا ، وبالتالي فنحن نحقق يوميا ما كان الأمل لمالرو وما هو الحقيقة لسنجور ، ولبى الشاعر الأسود نداء « بلد النبيذ الرطب والاغانى » (٦٨) كما يسمى فرنسا ، وسمع مؤلف **القدر الانسانى** دقات طبول التام التام فى أعمال افريقيا . فالكلمة والتحفة والعمل الفنى خير سفير لكل انسان يود أن يبدأ الحوار ويرسى حجر الاساس لحضارة عالمية جديدة ، حضارة الانسان .

---

(٦٨) من ديوان : اغاني الظلال : S : Chants d'Ombre

BIBLIOGRAPHIE

I—OEUVRES :

de **SENGHOR : Poèmes** (chants d'Ombre1945 - Hosties Noires 1948) - Ethiopiques 1956 Nocturnes1961 - Poèmes Dicers - Traductions).

Ed. du Seuil - PARIS 1964.

de **MALRAUX :**

...Des origines de la poésie Cubiste in La Connaissance lère année no 1 janvier 20

...Les Conquérants - Paris - Grasset 1928.

...La Voie Royale - Paris Grasset 1930

...La Condition Humaine - Paris - Gallimard 1933.

...Le Temps du Mépris è Paris - Gallimard 1935.

...L'Espoir - Paris - Gallimard 1937.

...Les Noyers de I'Altenberg - Lausanne 1943

...La Psychologie de I'Art - Genève - Skira 1947

...Saturne,Essai sur Goya - Paris - Gallimard 1950

...La Voix du Silence - Paris - Gallimard 1951.

...Le Musée Imaginaire de la sculpture mondiale - Paris - Gallimard 1952.

...La Métamorphose des Dieux - Paris -Gallimard 1957

...Discours au Congrès pour la liberté de la culture - Paris 1952.

...Les Antimémoires : Paris - Gallimard nf. 1968 réédité dans

...Le Miroir des Loimbes - Paris- Gallimard 1975

...Antimémories

...La Corde et les Souris

Hôte de Passage

Les chênes qu'on abat... Lazare

La tête d'Obsidienne

—Oraisons funèbres - Gallimard 1975

—La Tentation de 1,Occident - Paris - Gallimard 1975.

—Saturne, essai sur Goya - Paris Galimard 1975

—Les Voix du Silence - Paris - Gallimard 1975.

—Le Musée imaginaire de la sculpture mondiale - Paris- Gallimard 1975.

La Statuaire

Des bas-reliefs aux Grottes Sacrées.

Le Monde Chrétien.

—La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard réédité en 1975.

Le Surnaturel.

L'irréel.

L'Intemporal

II — OUVRAGES CONSULTES :

—Piere de Boisdeffre : André MALRAUX (Ed. Univers. Paris/Bruxelles 1955

—Pol Gaillard **Les Critiques de notre temps et Malraux** - Paris Garnier 1970
Malraux - Présence lit téraire 801 - Bordas 1970

—Gaetan Picon : **André Malraux** mf. - Gallimard 1945.
Malraux par lui-même - Ecrivains de toujours - Le Seuil 1955

—Pascal Sabourin : **La réflexion sur l'art d'André Malraux** : origines et évoluted. Klincksiek 1972.

—G.T. Harris : **André Malraux : l'Ethique comme fonction de l'Ethétique** - Letters Modernes - Situation 27 1972.

—Joseph Hoffmann : **L'Humanisme de Malraux** - Ad. Kilncksieck 1963.

سلوى محمد مطر

الفعل الثوري في رواية الأمل

حينما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية فى١٦ يوليو ١٩٣٦ لم يتردد اندريه مالرو فى الذهاب الى هذا البلد بعد مرور يومين من اندلاع الحرب لينضم الى صفوف الجمهوريين .

ولقد اكد الكاتب مرارا على هذه النقطة ،اذ أنه ذهب الى أسبانيا من تلقاء نفسه وقبل أن تقرر الدولية الشيوعية ارسال متطوعين للاشتراك فى الصراع .

وكان الجنرال فرنكو FRANCO يسيطر فى هذه الاثناء على جنوب البلاد ويشرع فى الزحف على مدريد مدعما بقوات مغربية وبالضباط الذين انضموا اليه .

ولقد تبين لمالرو ــ خلال بضعة أيام ــ انه من المستحيل تنظيم جيش من الجمهوريين بينما اتضحت امكانية الحصول على طيران يتيح لهؤلاء تدمير الطرق واعاقة زحف طوابير فرنكو ، واستطاع مالرو بواسطة طائرات اشتريت تقريبا فى أسواق « المخلفات » وبفضل طيارين من مختلف الجنسيات من تكوين سرب « اسبانيا » ESPNA، وهو السرب الذى سيطلق عليه الضباط ، بعد ثلاثة اشهر ، سرب « أندريه مالرو » .

واشترك مالرو فى ٦٥ مهمة جوية وحارب ضد طائرات موسيلني الحديثة « سافويا » Savoia وطائرات هتلر « دورنيه » Dornier وحضر الهجوم الذى شنه الجمهوريون ضد قوات فرنكو فى « مدلين » Medellin و « طليطلة » Tolede و « مدريد » Madrid و « جواد لخرا» Guadalajara واشترك أخيرا فى موقعة « ترول » Teruel التى تحطمت خلالها احدى طائرات السرب ، غير ان مالرو تمكن من انقاذ المتبقين من الحادثة وارجاعهم سالمين .

ولقد لعب سرب « أندريه مالرو » دورا هاما فى الحرب حتى ديسمبر ١٩٣٦ ، ويمكن القول أنه بفضله قد تمكن الجمهوريون من اعاقة زحف قوات الجنرال « فرنكو » على مدريد وتثبيت القوات الفاشية على مشارف العاصمة مدة ثلاث سنوات .

وبعد ان انهار السرب الذى لم تستطع طائراته الصمود أكثر من ستة اشهر ، قام « مالرو» ابتداء من مارس ١٩٣٧ بدورة اعلامية فى الولايات المتحدة حيث القى المحاضرات وجمع الاموال والمساعدات والتأييد لصالح الجمهوريين .

ان حرب اسبانيا التى اثارت كثيرا من العواطف والمشاعر ، اثرت ايضا على الاوساط الادبية والفنية المعاصرة لها ، ولعلنا نذكر مثلا ان التدمير الفاشى لمدينة « جرنيكا » Guernica قد الهم « بيكاسو » Picasso احدى لوحاته الشهيرة و « ارابال » Arabal احدى مسرحياته ، بل و « اليوار » Eluard الشاعر السريالى احدى قصائده . وهى اعمال تحمل جميعا اسم المدينة الباسلة الصغيرة واثرت هذه الحرب كذلك فى « برنانوس » Bernanos الذى احنقه موقف الكنيسة الاسبانية فكتب « **المقابر الكبرى تحت ضوء القمر** » Les Grands Cimetieres sous la lune و « **همنجواى** » Hemingway **الذى نشر بعد الحرب « لمن تدق نواقيس الموت »** For whom the bell Tolls و « **سارتر** » Sartre **الجدار** de Mur **ومالرو ، بالاضافة الى نشاطه الدعائى ، روايته « الامل »** L'ESPOIR .

• • •

وفى الفترة التى نشرت فيها رواية « **الامل** » كان مصير « جمهورية » اسبانيا لم يحسم بعد ، ولقد اثار هذا الكتاب ، الذى ظهر خلال شهر ديسمبر ١٩٣٧ ، ردود فعل عنيفة اختلطت فيها الاحكام السياسية بالاحكام الادبية : اذ ان بعض الناس اعتبره لونا من اليوميات الحربية لمناضل متطوع ، وبعضهم عده مؤلفا من مؤلفات « الدعاية الشيوعية » او نوعا من التقارير الصحفية الممتازة وليس من شك فى أن الاحداث التاريخية التى يرد ذكرها بدقة فى هذه الرواية تقربها من هذا الشكل الاخير من اشكال التعبير ، ولقد رد مالرو، على « ايف سالج IVES SALGUES » الذى لاحظ ذلك بما يلى فى عام ١٩٤٨ :

« تقرير صحفى ، اجل : ولكن بالقدر الذى التزمت فيه بصحة الوقائع ، ومن ثم هذه الوفرة من الاخبار . ولكن هناك أيضا التفسير الفلسفى للاحداث اذ ان الحرب الاسبانية تعد بمثابة

الضربات الثلاث التى تعلن عن مأساة أوروبا : فهى حرب تجريبية بالنسبة للفاشست ، وحرب جس نبض حذر بالنسبة للسوفييت ، واخيرا حرب الوهم الشاعرى بالنسبة للجمهوريين .. »

ويضيف الكاتب :

« هذه الحرب كان كل فرد يخوضها من اجل الجميع ، ولا فرد من اجل ذاته ، ولم تتالق البطولة قط مثلما تألقت فى فوضاها التى تذكرنا بلوحة « البوراكوس » لفيلا سكيز ... (١)

تقرير عن الاحداث وتفسير فلسفى لها اذن ، ويمكننا ان نضيف الى ذلك « المعنى الميتافيزيقى » الذى تتخذه هذه الاحداث بالنسبة للانسان . الا ان مالرو حينما يذكر لفظة تقرير لا يقصد بذلك التقرير الصحفى بالمعنى المألوف ولكن التأكيد فقط على صحة الاحداث التاريخية التى يسردها فى روايته وهذا ليرد ـ بلا شك ـ على النقاد الكثيرين الذين اتهموه بالتحيز للقوميين . وفى هذا المعنى نذكر ، على سبيل المثال ماكتبه « اندريه روسو » فى جريدة « **الفيجارو** » :

« ان مالرو لا يعد نفسه مخلصا للثورة الابتسخير قلمه لها ، وهذه هى نقطة ضعف رواية « الامل » التى تظهر للقارىء فى صورة كتاب من كتب الدعاية الشيوعية . فى هذه الرواية نرى كل الشعب الاسبانى وهو يدافع عن نفسه ضد مضطهديه ، اما اتباع فرنكو فيظهرون كمجموعة من « البلهاء » المضللين . ولا نجد بجانب الجمهوريين الا ابطالا وشهداء ، اما من جهة الفاشيين فلا نجد الا مغاربة مرتزقة وايطاليين والمانا ...

وحينما شرع « فرنكو » فى ضرب مدريد من الجو فانه قصد الاحياء الفقيرة وتجنب الاحياء الفنية . الخ .. ايمكن القول بأننى لا اريد فى هذا كله تمييز الحق عن الباطل هذا ببساطة لا يحسب له حساب ولا قيمة له بالنسبة لتاريخ الحرب الاسبانية وهو ايضا يفسد ثلاثة ارباع الرواية .. » (٢)

وليس من شك فى ان السياق التاريخى يحتل مكانا هاما فى رواية «**الامل**» وهو امر مرده الى

---

(١) راجع : GALANTE, Pierre - Malraux, Paris, Plon, 1971, p. 237
والبوراكوس « Borrazhos » هم السكارى ، وتعد هذه اللوحة من اشهر لوحات فيلاس فيلاس كيز Velas Quez فى متحف البرادو Prado بمدريد .

(٢) ROUSSEAUX, Andret- Un anarchiste total in Le Figureo, ler Janvoier 1938

وهذه الدراسة عن مالرو قد عالجها الكاتب من جديد تحت عنوان :
ANDREM Malroux, ecrivain revolutionnaire in A. Rousseaux Litterature du XX sierle, t. II, ed Varietes, Montrecl, 1944, pp. 53, 54

وراجع كذلك مقالة :
BRASILLACH, Robert- Lauserie Litteraire in L' Action Francaise, 6 Janvier 1938
حيث قام « برازيلاك » بتوجيه نفس ملاحظات « روسو » ثم ختم كلامه بقوله : « يسمى مالرو قصته « الامل » وهو يائس ، ويهديها الى زملائه فى « ترول » فى الوقت الذى سقطت فيه « ترول » .

الظروف التى كتبت فيها . ومع ذلك لم يقصد« مالرو » قط كتابة حوليات او تاريخ هذه « الحرب التى هزت العالم ... » (٣) ، الا اننا نلاحظ من وجهة النظر التاريخية ، ان الكاتب يغفل عن ذكر بعض الاحداث التى وقعت فى الفترة المعاصرة لموضوع الرواية بينما يتبين ان كل ما يشير اليه حقيقى وصادق (٤) .

واما بالنسبة لغياب اى تعليق على« ايديولوجية » المعسكر الآخر ، فان ذلك يرجع الى رغبة الكاتب ، من الوجهة الادبية فى تركيز اهتمام القارىء على المشكلة الاساسية التى يثيرها فى كتابه الا وهى انتصار الفعالية والتنظيم على« الحلم الفوضوى » . ولو كان من مقاصد الكاتب تصوير اتباع « فرانكو » ما كان ليتحرج عن فعل ذلك وفقا لعاطفتهم الحقيقية وهى القومية .

« الامل » ليست اذن وثيقة ، بل عمل روائيا الفه الكاتب على ايقاع الاحداث التى دارت فى اسبانيا بين يوليو ١٩٣٦ ومارس ١٩٣٧ ، اى فى خلال الاشهر الثمانية الاولى من الحرب الاهلية اما الوقائع التى يذكرها « مالرو » فهى : فشل الثورة فى « مدريد » Madrid و « برشلونه » Barrcelone وسقوط طليطلة Tolede فى يد القوات الفاشية ، القتال الذى حرر العاصمة ، سقوط « مالقا » Malga وهجرة سكانها ، استرداد « بريهويجا » Brihuega بواسطة الجمهوريين وانتصارهم فى « جواد لخرا » Guadalajara . وهذه المجموعة من الاحداث التى تكون هيكل الرواية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اما القسم الاول فهو ذو اسم معبر « الوهم الشاعرى » L'illusion Lyrique وهو يعلن بوضوح عن الموضوعين الرئيسيين لرواية « الامل » : التنظيم و « الابوكاليبس » أو الحلم (٥) وصراعهما . فهل يستطيع حلم الاخوة الثورى ان يحقق النصر بمفرده ؟ وفى القسم الثانى « المنزانريس » Le Monzanares يتطور الصراع ويتغير

---

(٣) راجع مقالات : HUGES, E. Y. - The War that Roused the World In Life, New York, 18 December 1961 and Ist of January 1962

(٤) راجع بالنسبة لهذا الموضوع :

WILHELM, Bernard - Hemingway et Malraux devant la gurere d'Espagne. Porentruà (Suisse) La Bonne Presse, 1966, pb. 83-94,

حيث برهن « فيلهلم » على ان الحقيقة التاريخية للاحداث قد لقيت احترام « مالرو » الا انه يلاحظ بعض التناقضات الزمنية بين الواقع ورواية « الامل » .

والغرض من هذه التناقضات ـ كدمج مثلا حادثتين فى زمن واحد ـ هو تكثيف الوقف « المأسوى » لبطل الرواية .

ونرى من جانبنا ان دراسة « فيلهلم » تعالج اساسا الجانب « الفنى » فى الرواية مثل « وصف العمليات والاسلحة » ، « الملاحظات الجغرافية » و « الزمنية »..... الخ .

(٥) كلمة معناها الاشتقاقى : « الوحى » وهى تكون : L'APOCALYPSE عنوان الكتاب الاخير من العهد الجديد ، كتاب القديس حنا الذى يشمل مجموعة الاحداث التى اوحيت اليه وخاصة عن نهاية العالم وحلول ملكوت الله . والكلمة تاخذ فى رواية الامل معنى « الثورة » ، التى تمد الانسان بالحرية والكرامة والاخوة وكذلك معنى « كشف الصداقة والاخوة » ـ ولقد أبرز مالرو فى كتابه : « اللامذكرات LES ANTIMEMOIRES » تفصيلة لكتاب القديس حنا ويستشهد ببعض نصوصه ، لذلك لا يعد اختيار هذه الكلمة اختيارا عشوائيا لان لها دلالة شبه روحية بالنسبة للكاتب .

اذ أن البطولة وحدها لاتكفى حتى ولو تميزت بالفعالية ، واذ أن الدفعة الثورية لابد لها ـ لكى تنجح ـ من أن تنصب فى تنظيم . وفى القسم الثالث والاخير يتحد الحلم والتنظيم ليولدا الامل « L'Espoir » وهو عنوان هذا القسم . وبما أن الكتاب يرتكز على الصراع وليس على حله ، فان هذا يكشف لنا التفاوت فى الطول الذى يميز الاقسام الثلاثة . فمن الطبيعى أن يكون « الوهم الشاعرى » أكثر الاجزاء طولا اذ أنه يحوى موضوع التنظيم وموضوع الحلم وصراعهما ، والجزء الثانى متوسطا فهو الذى يوضح الصراع ، والجزء الثالث قصيرا لانه يبرز قصور كل حل للصراع ويظهر طبيعته التى لاتخرج عن نوع من التوازن المؤقت الذى يصعب الحفاظ عليه .

• • •

من وجهة النظر الميتافيزيقية ، وبالنسبة لمجمل العمل الروائي للكاتب ، تقوم رواية «الامل» منذ البداية على تمجيد القيمة التى تجلت فى عمله الروائى الآخر « زمن الاحتقار » Le Temps du Yepris ، الا أنه بينما يقبل البطل « كاسنر » Kassner الثورة برمتها ، نرى معظم المحاربين فى « الامل » يتساءلون عما اذا كانت العقيدة الماركسية لا تتعارض مع المطامح الاولية التى أملت عليهم تطوعهم . أو بعبارة اخرى فان الوسائل التى يستخدمها التنظيم الثورى من أجل الوصول الى غاية محددة كثيرا ما تصطدم بالدفعة الاخوية التى حثت هؤلاء الابطال على الانضمام الى « القضية »؟

وانطلاقا من هذه الملاحظة يقوم هؤلاء باثارة قضايا السياسة والاخلاق ، والنظام والحرية وقضية الفعل الثورى : هل يسمح للانسان بتحقيق ذاته او الهروب من حتمية قدره ؟

على النقيض من روايات مالرو السابقة التى كانت تصور لنا بعض الابطال الواضحى الفردية ـ خاصة بالنسبة لمفهومهم للحياة ـ فان «الامل» تقدم لنا جمعا من الشخصيات لا يقل عن واحد وستين . ولا شك أن كل واحد منها يحمل هوية ، فهو اما فوضوى ، كاثوليكى ، شيوعى ، مثقف أو مرتزق ... ولا يهمنا الا بدوره الوظيفى فى الجماعة التى ينتمى اليها . ولكن بالرغم من كونهم فى الغالب، انعكاسا جزئيا لشخصية جماعية مجردة(٦) فانهم سرعان ما يكشفون لنا عن شخصيتهم الفريدة المؤثرة . ومن بين هذه الشخصيات العديدة ، يمكن اعتبار « مانويل » MANUEL . اكثرها اهمية ، نظرا لبروزه دائما فى الصف الاول وتواجده من أول الرواية الى آخرها ، اما بقية المناضلين فانهم اما يقتلون واما يختفون مؤقتا من الساحة ليظهروا مؤخرا . كذلك يعد « مانويل»

---

(٦) هذا التعبير للوسيان جولدمان : GOLDMAN, Lucien
Pour une sociologic du roman, Paris, Gallimasd, 1965, p. 220

ولكنه يعبر أيضا عن وجهة نظر عديد من النقاد ، مثل لويس جيلليه
GILLET, Louist- L'Espoirtde in Les NouvelleI
LitteraireI, 8 Janvier 1938

الذى يقول : انا لا اميز جيدا ، لسوء الحظ ، بين الشخصيات :

اريد ان اعرف شيئا عن تاريخهم ، اريد ان اعرف على جراسيا هذا ، على هرنانديز ، على مانيان او اتمينيز ، ولكن المؤلف يستبعد مراسيم التقديم ويوجز فى التعريف ولايتبقى لنا الا مجموعة من الخطب المجردة ، والاحاديث الباهتة ، الاتية من أقصى العالم » .

المناضل الوحيد الذى يتضح نهجه الثورى تماما فى رواية « الامـل » فنحن نعاصر فعـلا تطـوره التدريجى منذ كان شابا يقلد عادات « مونبرناس» MONTPARNASSE ثوريا عاطفيا مليئا بالحماس، الى أن صار ضابطا يقـود فرقة مـن الجيـش الجمهورى ثم شيوعيا ملتزما يسيطر على عواطفه، ان هذه الشخصية تبرهن على نظرية الرواية وهى التطور الحتمى من « الوهـم الشاعـرى » الـى النظام كما توعز الينا بالمغزى الميتافيزيقى لهـذا التحـول .

● ● ●

أولا : « وحى الاخوة »

« ان الرجال اذا اتحدوا بالامل والفعل وصلوا، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . » **(الامل ص/٠ ٢٧٩)** .

ان الاخوة الحقة تتدفـق منذ الصفحـات الاولى لرواية « الامل » وتجد لها وسـائل تعبـير عدة مثل المصافحات اليدوية وكلمات التحية التى يتبادلها المحاربون والشعب :

« وانطلقت السيارة بين الايدى التى تربت على الاكتاف والايدى المرفوعة بالتحيـة وكلمات السلام ، وهكذا كان الليل ليل الاخوة . » (٧)

وفى مكان آخر من الرواية :

« كان النقابيـون يتصافحـون بالايـدى ويصيحون : « السلام » وكان هذا الجمع المنتصر يبدو متحدا بفضل هذه الصيحة كمـا لو كـان كورسا مستمرا واخويا » (٨) .

وكذلك :

« كانت التحية الملحة ، المهجورة ، المعادة ، المتكررة أو الضائعة بين الحين والحين تجمع بين الليل والناس فى أخوة الهدنة » (٩)

وكان هذا الالتحام بـين الجمـوع وبـين الجمهوريين ، وهذا الاتحاد المباشر بين الشعب والمحاربين يظهر خلال الرواية كلها ويشكل خلفية الاحداث الرئيسية . وسوف نرى هذه الجموع

---

(٧) الامل ص /٠ ١٧ L'ESPOIR, Paris, Gallimasd, 1967

(٨) موضوع الجموع الذى نراه فى معظم الروايات الثورية للكاتب ، يكتسب كل معناه فى رواية « الامـل » . ويعقب على هذا الجانب من الرواية :

« يوجد فى كتب الفترة الثورية اكثر من التحام بـين البطل والشعب ، يوجد مزج بين تمجيد البطل واسـطورة الشعب » .

راجـع : PICON, Gaetan Malraux par Iui -meme, Paris, Le seuil, 1953, pp. 46,46

(٩) رواية « الامل » ص /٠ ٣١

وهى تحتل الصدارة عندما يعود الطيارون الذين سقطوا فوق الجبال معبرين بذلك اروع تعبير عن هذا الالتحام الذى نشير اليه ، ولنا عودة الى هذا الموضوع .

ولا شك أن هذا الحماس الاخوى الذى يلهب احاسيس الجموع يعكس ايضا المواقف الفردية للابطال ، فلا الخلافات الفلسفية اوالسياسية التى توجد بين المحاربين بقادرة على كبت الشعور الذى يوحدهم ولا شىء يمكنه أن يقف أمام وحدتهم التى يمليها المجهود والكفاح المشترك . وعلى هذا النحو نرى ان الفوضوى « بويج » Buig الذى يكره دعاة المسيحية يتضح له حينما تجعله الظروف يحارب بجوار الضابط الكاثوليكى « كسيمانز » XIMENS ان الاشتراك فى الفعل او النضال يلغى الكراهية ، ما دمنا نراهما : « اليوم وهما يحاربان معا فى اخوة غريبة »

وهذا الشعور بالاخوة يوجد أيضا عند المرتزقة ، وكثير منهم مثل الروسى « سيبرسكى » SIBRISKY طلب أن يحارب شهرا بأجر وشهرا بلا اجر « حتى لا تنقصهم النقود ولا الاخوة » (١٠). اما الالمانى « شراينر » SHREINER ــ الطيار القديم فى سرب ديشتوفن ــ فانه بالرغم من تحطيمه طائرة أثناء الانطلاق الى الجو لا يجد من زملائه الا صداقة لا حدود لها . وهكذا يبدو انه اذا « كانت الحرب تجمع بين المرتزقة والمتطوعين فى اطار الابداع الخيالي ، فان الطيران يوحد بينهم كما توحد الامومة بين النساء » (١١)

وبالنسبة لهذه العاطفة القوية التي توحد بين الطيارين فاننا نلاحظ تكرار ذكرها فى الرواية، اذ بينما كانت الطائرة التي يقودها « مانيان » Magnin تحاول خلال مهمة فى مايورك أن تتفادى الانوار الكاشفة والقذائف المعادية تبدو « صداقة السلاح لها كأنها ــ تحمى جسدها بهذه الاضواء المهددة » ويلاحظ قائد السرب » أنه لاول مرة منذ انطلاقهم بدأ هؤلاء الرجال يرون بعضهم بعضا » بالرغم من الظلام وما أجمل ايضا هذا الموقف الانسانى : فلقد كلف « لوكلير » بتدمير طابور مدرع للفاشست ولكنه رجع الى قاعدته بذخيرته وحينما سأله قائده عن سبب ذلك تبين أنه فر هاربا وحينما حاول أن يبرر موقفه وبدا كالطفل العزيز متلعثما فان قائده « فارجاس » VARGAS لم يلمه « متألما لمحاولته تبرير الموقف كطفل تسلق مدرسته هربا مع علمه أن « لوكلير » لم يكن قط جبانا » (١٢)

وتتجلى هذه الصداقة التي تربط بين المحاربين فى مشهد آخر بين « مانيان » Magnin و « أتينير » ATTIGNIES : اذ ان هذا الاخير ، الذى يخشى من فقدان ثقة زملائه نظرا لفاشسية والده المعروفة ، يتلقى ردا رائعا من « مانيان » حينما يحاول ان يستنكر افكار ابيه ، يقول له مانيان :

---

(١٠) « الامل » ص ١٣٥/٠

(١١) « الامل » ص ٦٨/٠ و٦٩

(١٢) الامل ص ٢٤٥/٠

« الصداقة ليست فى ان تكون مع اصدقائك حينما يكونون على حق، انها حينما تكون معهم حتى ولو كانوا على خطأ (١٣)

وفى موقف « مانويل » MAGNIN الذى لايحتقر الفارين من « طوليطلة » بل ويحاول تنظيم صفوفهم معرضا حياته للخطر ، انه يكاد يكرر امامهم قول « مانيان » :

« ليس من الصعب ان تكون مع اصدقائك وهم على حق بل حينما يكونون على خطأ » (١٤) ان صداقة السلاح ، كما يبدو لمناضلى « الامل » تتوثق عراها بسرعة وسهولة ، هكذا لايفترق « سيرى » SIRRY و « كوجان » KOGAN منذ ان التقيا فى الفرقة الدولية ويقول كوجان فى هذا الصدد قولته الرائعة : « لم تربطنى صداقة برجل قط فى مثل هذه السرعة » (١٥)

ولا شك ان النضال يوحى للجميع بهذا الشعور ، الامر الذى يدفع « جرسيا » GARCIA الى قول :

« ان ما نسمعه عبر النافذة، ياسيد مانيان، انما هو من وحى الاخوة ، وهو جد مؤثر وانى لافهم ذلك : هذه الأخوة أعظم الاشياء تأثيرا على سطح هذه الأرض واننا لا نراها الا نادرا » (١٦)

ولكن ما هو المعنى الحقيقى للاخوة ؟ انها اكثر من شعور جياش يتيح للانسان قهر وحدته ، انها قوة ترفع الانسان وتسمو به الى ما فوق وضعه . هى ليست ملجأ ضد الخزى ولكنها تتيح للابطال الذين يناضلون مجتمعين ضد قوى الاذلال والاستعباد من بلوغ اسمى واكمل المشاعر النبيلة التي يحملونها بين أضلاعهم ، والتى ماكانوا ليحسوا بها لو ناضلوا فرادى . وبعبارة اخرى ان الاخوة قوة تسمو بالبشر أكثر منها قوة موحدة لهم ويقول زارع الكروم العجوز « باركا » BARCA فى هذا الصدد الى « مانويل » MANUEL

« هذا هو ما أريد أن أقوله لك ، نقيض هذا ، اى الاذلال ـ كما يقول ـ ليس من العدالة فى شىء . ان الفرنسيين قد فهموا حتما شيئا وعبروا عنه فى كتاباتهم السخيفة على جدر مكاتب البلدية : فنقيض المضايقة هو لا شك، الاخوة »(١٧)

اذا كانت المضايقة هى الأخوة ، فان «كيو» KYO بطل رواية « القدر الانسانى » La Condition Humaine يعلن الى «كوينج» KONING : « الكرامة نقيض المذلة » .

---

(١٣) الامل (راجع قولة الان» ان الصداقة التى لاتصمد امام اخطاء الصديق ليست بصداقة »
ALAIN, Props, Bibliothequen.r.f. de la pleiade, 1960, p.I.235

(١٤) « الامل » هذا القول يوضح مقالة « كاتو » HEMELRICH CATOH الى « هميليخ » : « لا يجب ان نطالب الرفاق باكثر من طاقتهم »

(١٥) « الامل » ص ٢٨٥/٠

(١٦) « الامل » ص ٢٧٩/٠

(١٧) « الامل » ص ٨٩/٠

LA CONDITION HUMAINE

وهكذا نرى انه بتقريب هاتين الجملتين الاخريين يتحد معنى الاخوة مع معنى الكرامة وتصير الاخوة نفسها محل الكرامة . وهـذه العلاقة بين الاخوة والكرامة يعبر عنها أيضا مؤرخ الفن « سكالى SCALI » حينما يوضح « الفيار ALVEAR » ان الرجال اذا اتحدوا بامل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . ان هـذا السرب فى مجموعة لاعظم وانبل من كل فرد من افراده على حده » (١٨) .

وعلى هذه الشاكلة نرى الملازم « مورينو MORENO » الذى يعرف السقوط واحتقار الذات حينما يحبسه الفاشست ويحكمون عليه بالاعدام . الا انه حينما يتمكن من الفرار والالتحاق بزملائه يصور لهم نفسه قائلا : « انك ، أيها الانسان ، لمثل رجل التزم بعهود فصارت كل حياته ماضيا ولكن هاهي ذى الحياة تتغير فجاة فتتغير الحقيقة التي تنتمي اليها » ، وفى الوقت نفسه الـذى يكتشف فيه هذا الوجه الجديد من الحياة يأتلف « مورينو » مع كل من يحيط بـه . وان هـذا الائتلاف لقوى بمكان ان خذلان الماضى والموت لا وزن لهما فى حساب القدر بالنسبة للبطل :

« هناك شيء لم أفطن اليه وانا أقدم ضابطا ماركسيا ، الا وهو الصداقة التي لا توجد الا فى الجانب الاخر من الموت » . (١٩)

ولا يكتفى « مالرو » فى « الامل » بتجميد الاخوة بين الرجال ، ولكنه سيحدد خاصية هذا الشعور وسيعرف سماته فى الوقت نفسه الذى سيطلعنا فيه على تطور فكرة الاخوة ، وتحت هذا المنظور ، يمكن القول أن هناك تطورا فى فكرة الاخوة نفسها ، ففكرة الاخوة كواقع لم تعد تقدم فقط كقيمة أو طريق نجاة ، مثل ما كان الامر فى رواية :

« القدر الانساني » La Condition Humaine

و « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris

بل ان الاخوة لتبلغ ، بفضل وجود الجماهير ، بعدا جديدا كما كان الأمر فى حال نزول الطيارين الجرحى من الجبل :

استطاع فلاح من منطقة « البارسين » ALBARRICIN اجتياز خطوط العدو واعلام هيئة اركان حرب الجمهوريين عن وجود مطار فاشى ، الأمر الذى يتيح لمانيان وأعضاء سربه من تدمير مستودع وقود و ١٦ طائرة ، الا انه فى العودة تقوم طائرات المانية من طراز «هاينكلز» HEINKELS بمطاردتهم وتنشب معركة جوية فوق « ترويل » TERUEL وكانت النتيجة أن استطاع « مانيان » MAGNIN وموروس MOROS العودة سالمين الى القاعدة أما طائرة « جارديه » GARDET فتتحطم بعد اصابتها ويقتل « سعدى العربى » SAIDI ويجرح كل من « تايفير » TAILLEFER و « ميرو » MIREAUX و «سكالى» SCALI و «بوجول»

---

(١٨) « الامل » ص ٢٧٩/٠

(١٩) الامل ص ٣١٦/٠

PUJOL ويشو « جارديه » GARDET . ولقد استطاع « مانيان » MAGNIN ان يحدد بصعوبة مكان سقوط المصابين ثم انطلق مع فرقةمن المتطوعين لانقاذهم ..

وتم الانقاذ محاطا بمظاهر رائعة حقا ، فلقد كـان الفلاحـون يسيرون فى موكب خلف طابـور الطيارين المصابين وهم ينقلـون مـن« فالديلينارس » VALDELINARES الى قرية « لينارس » LINARES الصغيرة ، الأمر الذىعمق الالتحام ــ كما سبق أن أشرنا الى ذلك ــ بين الشعب الاسبانى والمحاربين الأجانب . انالعطف الساذج الذى أبداه أهل الجبل نحـو الطيارين والاحتـرام الدينى الذى أحاطـوا به« النقالات » كانا من احدى هذه المظاهر المؤثرة التي يصعب تلخيصها ، **فلنرجع الى النص :**

« كانت النساء وقد اثقلتها وطاة السنينتؤدى علامة الصليب عند رؤية الدم . ثم رفع رجل يده نحو « جارديه » و « بوجول » ، وأشاربعد ذلك الى الأجساد الممددة فارتفعت جميع السواعد فى صمت وهى تشير الى الطائرة المحطمةوالى الأجساد التى كـان يظنهـا الفلاحون قد همدت » .

وأوقـف « مانيـان » MAGNIN نقّالـة« جارديه » GARDET لحظة ليتأكد مـن ان صديقه لم يفقد بصره وحينما يجيبه هذا الأخيربانه يبصر .. يشعر « مانيان » برغبة فى معانقته وهزه ، ثم :

« عادت النقالة الى التحـرك وقد غابنصف قرية « فالديلينارس » خلفها . وحينما جاوزت نقالة «سكالى» SCALI مكان «مانيان» MAGNIN تقدمت امراة عجوز مشدودة الراس فى منديل أسود وأعطت للجريح حساء فى فنجان. كانت هذه المراة تحمل سلة بها زجاجة حافظة « ترموس » وفنجانا يابانيـا قد يكـون أفخمماعندها . وتخيل مانيان فجاة حافة الفنجان وهى تندس تحت ضمادات « جارديه » وقـدرفعت لذلك . فقال للمراة : يستحسن الا تعطي مـن حسائهـا الـى مـن جـرح فى وجهـــه . وأجابت هذه بوقار : ان هـذا يمثل الدجاجة الوحيدة المتبقية بالقرية » (٢٠) .

ووصل الموكب اخيرا الى « لينارس » :

« كان حاملو الجرحى مشغولين بأحجارالطرقات وامكانية تأثر الجرحى بسببها .. من جراء اهتزاز النقالات يسيرون وئيدا فى خطىمنتظمة ومتباطئة عند كل لفة ، وكـان ايقاع السير مـن شـدة ملاءمته للألم على طريق جدطويل كما لو كان يملأ هـذا الأخدود العظيم ، حيث تصيح بأعاليه العصافير المتخلفة . بضرباتمتانية على طبول فى موكب جنائزى . ولكن لم يكن الموت هو الذى يتلاءم فى هذه اللحظة مـعالجبال ، انما كانت ارادة الرجال وكانت مسيرة هؤلاء الفلاحين السـمر والنسـاء الغائبـاتالرؤوس فى مناديل لا يعرف لها عصر تبدو مختالة كموكب نصر جليل أكثر من انخراطها فى أعقابجرحى » (٢١) .

---

(٢٠) الامل ص ٤٠٧/٠

(٢١) الامل ص ٤١٠/٠

وفى « لينارس » وأمام وجه « جارديه » المشوه رفع الفلاحون أيديهم ــ تماما مثل فلاحى فالينارس ــ فى صمت .

• • •

فى هذه اللحظات لا يسعنا الا أن نترك الكتاب جانبا حتى نتخيل بفكرنا هذا المشهد وقد نقله « مالرو » الى السينما ... ولنحاول أولا أن نقدم موجزا عن الفيلم الوحيد الذى انجزه مالرو وهو « الأمل » ليقدمه تحية الى الأخوة .

انجز هذا الفيلم فى برشلونه عام ١٩٣٨ ،(٢٢) أى فى خلال سنة بعد ظهور رواية « الأمل » الا أنه ليس تطويعا للرواية نفسها ولقد أطلق عليه « مالرو » تمييزا له عن الرواية اسم « سيرا دى ترويل » SIEARA DE TERULE ولقد منعت عرضه فى عام ١٩٣٩ حكومة « دالاديه » بفرنسا وحاول الألمان بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤ العثور عليه لتدميره (٢٣) ولا يظهر هذا الفيلم الا ابان حكم ديجول عام ١٩٤٥ ، ويطلق عليه لأسباب تجارية وللاستفادة من نجاح الرواية اسم « الأمل » . وموضوع الفيلم هو تقدم القوات المغربية فى أول الحرب الأهلية نحو قرية لينارس . ويحاول مناضلو القرية المجاورة « ترويل » ارسال ذخائر الى الفلاحين المهددين ، وكان هؤلاء قد حاولوا صنع بعض القنابل البدائية ... ويتقدم مزارع الى اللجنة المحلية ويقدم معلومات هامة عن الأراضى المعادية فيقوم القائد « مينوز MUNOZ (المقابل لمانيان MAGNIN فى الرواية) بتجميع الطيارين ويشرع سرب المتطوعين الدوليين فى تدمير القاعدة الفاشية ، وتتحطم طائرة عند العودة فيخرج سكان قرية من قرى الجبال لجمع المصابين ونقلهم الى الوادى .

واذا كنا نعجب الى اليوم لهذا الفيلم فلا يرجع هذا الى روعة تمثيل الممثلين ، اذا استثنينا « خوزيه لادو » JOSE LADO فى دور المزارع .. ولكن الى القيمة العالمية للفيلم . ان الحرب التى خاضها الجمهوريون ضد الفاشست لا تكاد تذكر فى الفيلم والبواعث التى دفعت المناضلين الى حماية الوطن لا يشار اليها الا لماما ، على العكس من هذا يركز المؤلف جل اهتمامه فى الفيلم على الأخوة التى تتولد فى الحرب بين الرجال وعلى موقف الفرد أمام الموت وتأثير ذلك على جموع الفلاحين . (٢٤)

---

(٢٢) راجع بالنسبة للصعوبات التى لاقاها مالرو لتصوير هذا الفيلم اثناء الحرب

MARION, Denis Commcnt fut Tourni le film Espoir in Magazine Litterairc No. II. Octobre 1967

(٢٣) اذا فشل الالمان فى تدمير هذا الفيلم فهم قد نجحوا فى تدمير الجزء الثانى من مخطوط مالرو . La Lutte avec I'Ange الذى لم يعاود كتابته .

(٢٤) اذا كان تمثيل الرئيسيين لم يكن متقنا فان دور الجموع الذى قام به فلاحون وفلاحات اسبان حقيقيون كان رائعا . ولقد قال اندريه جيد فى هذا الصدد عام ١٩٤٥ لقد اكتسب هذا الفيلم الان فخامة ونوعا من الوقار المأسوى . فليس به أى تنازل لذوق الجمهور او لما يسلى ويعجب . انه يتميز من خلال الاحاديث النادرة لابطال المأساة من خلال مواقفهم وتعبيرات وجوههم ومن خلال البساطة الجميلة للصور بهذا الشعور الكامن بكرامة الانسان ، وهذا الشعور يؤثر فينا بالقدر الذى يخص اناسا فقراء لاينفصلون عن الارض التى يزرعونها ، غير داعين بنبالة موقفهم . انهم فلاحون متواضعون ولكن خطورة الحادث ترفعهم الى مرتبة الابطال ، والشهداء » .

راجع :

GIDE, Andre-Andre Malraux, I'Aventure Humaine in Terre des Hommes, Ier December 1945

ونلاحظ أن الكاتب لم يستخدم فى سيناريو الفيلم الا حادثة واحدة من حوادث الرواية وهى الغارة التى قام بها الجمهوريون على مطار العدو الخفى والتى تبعتها حادثة سقوط الطيارين الجرحى على الجبل . ان المشهد المنقول الى السينما يقارب فى قوته التأثيرية المشهد الروائى ويثبت تماما فى مخيلتنا ، اذ انه بفضل اللونين الأسود والأبيض والتناقص اللونى بين الطيارين والجموع من جهة وجدران القرية القاتمة من جهة أخرى ، ثم مسيرة الفلاحين وهم يحملون الجرحى ، كل ذلك يتخذ أمامنا طابع الأبدية :« وكان يبدو أن الموكب يفر من صمت الجبال الغريب بصوت قباقيبه بين صرخة الكواسر الأبدية وصوت النواح الخفى » (٢٥) .

الا أنه بصفة عامة ينقص هذا الفيلم بعض الأبعاد الفلسفية التى ترفع من شأن الرواية والتى يستحيل تحقيقها خلال الزمن المتاح للفيلم ، وهذا ما لاحظه الكاتب حينما كتب فى « محاولة فى سيكولوجيا السينما » : « يبدو أن الرواية تتميز عن الفيلم بميزة عظيمة وهى القدرة على استكشاف سرائر الشخصية » (٢٦)

وانه ، بلا شك ، عن طريق اكتناه بواطن الشخصيات يستطيع الكاتب فى رواية « الأمل » أن يكشف لنا عن « ثنائية » الفعل ، لأنه اذا كانت الثورة تتيح لأبطالها هذه الدفعة الجياشة التى تغير من شخوصهم وتسمو بها ، فهى أيضا حركة سياسية لابد لها لكى تصل الى أهدافها ، من تنظيم ومن خطة لا علاقة لهما بمصير هذا البطل أو ذاك .

● ● ●

ثانيا : من الحماس الى النظام

« ان أى فعل لا يمكن أن ينجح الا باتفاق منفذيه ، وحينما تصدق عزيمتهم الى أقصى درجة فانهم لن يتفقوا الا على التنفيذ السريع للأوامر ولن يكون لأى تابع امكانية الحكم أو المناقشة » . (آلان : اجايت ، ص ٥٦٢)

ان عالم الاجناس « جرسيا » GARCIA يعبر لأول مرة فى رواية « الأمل » عن ضرورة التنظيم العسكرى . وكان « جرسيا » قد صار رئيسا للاستخبارات العسكرية بعد مرور شهر من الحرب واخذ يناقش الأحداث الأخيرة مع « فارجاس » VARGAS ، و « مانيان » MAGIN أنه يقول لقد أحرز « الدوليون » نصرا عظيما فى « ميديللين » MEDELLIN وخسر الجنرالات المتمردون محاولة انقلابهم بسبب البطولة التلقائية للشعب .. ولكن بالرغم من ذلك ، وبينما كان سرب « مانيان » MAGNIN ، يلقى على « بداخوز » BUDAJOZ أعلاما تحمل ألوان الجمهورية استغل المغاربة فرصة حماس الجماهير ونشوتها للاستيلاء على المدينة ، ومن ثم شرع «جرسيا» GARCIA يؤيده «فارجاس» VARGAS ذو الخبرة الفنية ، يشرح للقائد أن حركة شعبية مثل حركتهم لا يمكن أن تستمر الا اذا دخلت فى اطار تنظيمى ، ويضيف موضحا :

---

(٢٥) الأمل ص ٤١٢/٠

(٢٦) MALRAUX - Esquissc pour une psychologie du cinema, Paris Gallimard 1946, pas de pagination

« نحن نمثل الشعب ، أجل ، ولكن الثورة،لا ، بالرغم من أننا لا نتحدث الا عن هذا . اننى اسمى ثورة نتيجة تمرد تقوده كوادر (سياسية. فنية. وكل ما تريد) تمرست بالنضال وقادرة على الحلول محل الكوادر التى حطمتها » .

باختصـار ، يختم « جرسـيا GARCIA حديثه بقوله « من الآن فصـاعدا ، لا يوجـد تحول اجتماعى وبالأحرى ثورة من غير حرب ولا توجد حرب من غير فن أو تقنية (٢٧) » ، وحينما يحتج « مانيان » MAGNIN قائلا بأن « القوى المعنوية » ضرورية وأن حماس الشعب يشكل جانبا ايجابيا يرد عليه « جرسيان » بأن « دفعة الأخوة » لا شك من أعظم الأشياء المؤثرة فى العالم ولكنها غير قادرة على الحفاظ بالنصر الا بواسطة تقنية تقابل وسائل العدو :

« وهى الأخوة يريد كل شيء وفى الحال ،ولكن الثورة لا تحصل الا على القليل تدريجيـا وبصعوبة . والخطر الماثل هو أن كل رجل يحمل فى قلبه رغبة أو باعثا على الأخوة ، الا أن هذا الشعور يمكن مع مضى الوقت ومع استمرار النضال أن يكون مصدر هزيمة لسبب بسيط هو أن شعور الأخوة ، كشعور فى حد ذاته ، لا مستقبل له ، حتى ولو زعم انسان ان له مستقبلا . ان وظيفتنا المتواضعة ، يا سيد « مانيان » ، هو تنظيم هذا الشعور » (٢٨) .

الأخلاق والسياسة ـــ المثقفون والفعل

« اذا هاجم الثـورة « مثقف » ثورى ، فهذا يعنى دوما وضع السياسة الثورية موضع التساؤل باسم اخلاقياتها » . (الأمل ص ٣٢٤)

على شعور الأخوة اذا أن يتحول « والا قضى عليه بالفناء » ، اى عليه أن يتجسد فى قوانين التنظيم الثـورى . وبما أن الثـورة فعـل ، « فالفعل لا يمكن تصوره الا فى اطار الفعل (٢٩) » . وهكذا ففى اللحظة التى يقـرر فيها الأبطـال النضال ضد الفاشية ، يجب أن يكون همهم الوحيد هو قيادة النضـال بأكثـر الوسـائل فعاليـة . وبمـا أنـه « لا توجـد خمسـون طريقة للكفاح » ولكن واحدة وهى « أن تكون منتصرا » (٣٠)، فان الابطال عليهم أن يختاروا حتما اما التضحية بالفعالية فى سبيل المثـل الأعلى واما بالمثل الأعلى فى سبيل الفعالية .

وفى بعض الأحوال ، يكـون ، الاختيـار صعبا ، وخاصة بالنسبة للمثقفين لأنهم رجـال يحسـون « بالفروق الدقيقة ، بالكيف ، بالحقيقة المجردة وبالطابع التركيبى للأشياء » (٣١) ولهذا السبب كثيرا ما يرفضون الانخراط فى الثورة لأنها ــ فى نظرهم ــ لا تعنى بالقيم « الأساسية » للانسان .

---

(٢٧) الامل ص ١٠٤/٠

(٢٨) الامل ص ١٠٧/٠

(٢٩) الامل ص ١٨٧/٠

(٣٠) الامل ص ٣٣٩/٠

(٣١) الامل ص ٣٣٥/٠

يعبر « ألفيار » ALVEAR العجوز ، في المشهد الوحيد الذي كرس لـه ، على موقف المثقف ، اذ حينما يحاول « سكالي » SCALI مكلفا من قبل ابنه « جيم الفيار » JAMES ALVEAR أن ينقذه من مدريد ، يرفض العجوز مفارقة كتبه فلقد عاش حياته كلها في الفن ومن أجل الفن ولا يقبل لأية قوة أن تنتزعه من عالمه هذا . واذا حاول المغاربة أو فيما بعد الجمهوريون قتله ، فانه لن يقاومهم « احتقارا » كما يؤكـد ذلـك لسكالي . ويقـول لمنقذه أيضـا : انهم سيجدونني مثل الآن في مكتبتي ، و « هل من الصعب حقا ، يا سيد سكالي ، أن ننتظر الموت (الذي قد لا يأتي) ونحن نشرب في هدوء ونقرأ أشعارا بديعة » ، ثم يتناول ديوانا لكيفيدو ويقرأ بصوت عال :

« ماذا تريد هذه الخشية ، خاليـة التعقـل ، هذه الخشية التي تتولد من تفاهات الحيـاة ، والتـي تغذيهـا الـروح بتقواهـا » (٣٢)

ان « ألفيار » غريب عن الثورة بالقـدر الذي يعتبرها تقوم هي أيضا على التعصب أو على عقائد لا تقبل الجدال ، فهو يقول لسكالي : ما فائـدة عبودية اقتصادية أقـل اذا اضطر الانسان لتحقيقها « الى تقوية العبودية السياسية والدينية والبوليسية ؟ » (٣٣) ان الحرب تبدو للرجل العجوز كما لو انها خلقت لتنزع أوهـام المحاربين : فالثورة ، بالنسبة لكثير من الناس ، تلعب نفس الدور الذي كان يلعبه قديما العالم الآخر أو الحياة الأبدية .

« ان بداخل الانسان أملا فظيعا وعميقا ، أمل الذي أدين ظلما ، أو الذي لم يلق الا غبـاء وجحودا وجبنا في هذه الحياة ... انه يود أن يعيد الكرة مرة أخرى ... (٣٤)

غير أن المناضلين سوف يلحظون ان عاجلا أو آجلا أن أي حـل جماعي لا يعفي الانسـان من المجهود الخلقي ، فمن الضروري ، كما يقول « الفيار » أن تكـون علاقات الرجـال علاقات « انسانية » وألا تكون محكومة بالموقف السياسي وأن يكون الفرد « مسئولا أمام نفسه » (٣٥) ، وليس أمام قضـية مهما كانت سـامية . ان « ألفيار » يضـع قبـل الأحـزاب والتقنيات والتنظيمات ضرورة المجهود المتجدد دوما والذي يبذله الانسان للسمو بذاته :

« ان الأمل الوحيد الذي تعقده اسبانيا الجديدة على نضـالكم ، انت وجيم وكثيريـن آخرين هو أن يبقى ما حاولنا ان نعلمه للناس طوال سنين عديدة ..

ـ ماذا تعني ؟ سأله سكالي .

فالتفت العجوز « الفيار » وقال بلهجة الحسرة :

---

(٣٢) الامل ص ٢٧٦/٠

(٣٣) الامل ص ٢٧٧/٠

(٣٤) الامل ص ٢٧٨/٠

(٣٥) الامل ص ٢٧٨/٠

ــ قيمة الانسان .. » (٣٦)

الا انه اذا كان « الفيار » يريد الدفاع عن القيم « الأساسية » ضد متطلبات الفعل الثورى واذا كان لا يثق فى الثورة فلا يرجع ذلك فقط الى أسباب ايديولوجية ، ان موقفه يتضح لنا فى آخر حديثه حينما يقطع « سكالى » كلام الأستاذ المسن ويسأله : « هل تعتقد أن «جيم» قد اخطأ فى اختيار النضال ؟ »

فيرد « الفيار » : « ايه ! فلتكن الأرض فاشية ولا يفقد ابنى نظره .. » (٣٧)

هكذا يتضح لنا أن موقف « الفيار » تجاه الثورة انما يرجع الى أن واقع الفعل الثورى قد انتزعه من عالمه انتزاعا حينما اتت رصاصة على نظر ابنه فى احدى المعارك . انه يشبه شخصية « جيزور » Gisors فى « القدر الانسانى » La Condition Humaine أى انه يراقب الحرب من بعيد ولكن حينما تمسه الأحداث يفقد بصيرته ويدفعه الألم الى اساءة الحكم ، ولقد أشار « مالرو » الى ذلك بطريقة غير مباشرة حينما أفهمنا أن « الفيار » لم يعد يثق فى شيء أو فى أحد بعد أن فقد الأمل اذ حينما يخبره « سكالى » بأن الأطباء يؤكدون امكانية شفاء ابنه ــ وجيم سوف يشفى فعلا ــ يصيح :

« انهم يكذبون على اى ضابط فى هذه الآونة ! »

مخافة أن يقال عنهم انهم فاشست لو قالوا الحقيقة ،

هؤلاء الحمقى ! » (٣٨)

سوف يسيطر هذا الحوار مع « الفيار » على بال « سكالى » طويلا ، اذ أن الجانب الشمولى للفعل . الذى بدأت تؤكده تجربته الشخصية ، بدا له كما لو أنه يحقق تنبؤات الرجل العجوز ، ولقد أوضح عن خواطره أمام « جرسيا » الذى قال له :

« لا أعرف أى كاتب قال : انا مسكون بالجثث مثل مقبرة قديمة .. ونحن منذ اربعة شهور مسكونون جميعا بالجثث ، اى سكالى ، جميعا ، على طول الطريق الذى يقود من الأخلاق الى السياسة . اذ أن بين كل رجل يفعل وبين ظروف فعله صراعا دمويا ... وهناك حروب عادلة ــ مثل حربنا فى هذه الآونة ــ ولكن لا توجد جيوش عادلة وتوجد سياسة للعدالة ولكن لا يوجد تنظيم عادل » . (٣٩)

وبعد أن فكر « جرسيا » فى حالة « أونامونو UNAMUNO الذى يرفض التطوع ويتذرع أمام الفريقين بالالزام الخلقى ، يقول : « اذا جاءنى مثقف ، اى رجل وظيفته التفكير ،

---

(٣٦) الامل ص ٢٨٠/.

(٣٧) الامل ص ٢٧٩/.

(٣٨) الامل ص ٢٨٠/.

(٣٩) الامل ص ٣٣٩/.

ليقول لى مثل « ميجل » : « أنا أتركم لأنكم لستم عادلين » ساجد هذا الموقف لا اخلاقيا ، يا صديقى العزيز ! » (٤٠).

« معارضة » أونامونو « اذا معارضة خلقية » (٤١) . ومثله يوضح طبيعة الصراع الذى يوجد بين المثل الأعلى الثورى وبين الوسائل المستخدمة لتحقيقه : وهى وسائل تستبعد تلقائيا المثقف من نطاق الفعل ، لأن المثقف بطبيعته ضد الثنائية :

« كل وسائل الفعل ثنائية لأن كل فعل ثنائى الطبيعة . وكل ثورى ثنائى وكذلك كل سياسى . » (٤٢)

وبعبارة اخرى ، ولكي نلخص وجهة نظر « جرسيا » نقول :

ان « اللاأخلاقية » بالنسبة لرجل ملتزم هى قبوله الظلم باسم العدالة ، او تخليه عن العدالة مخافة قليل من الظلم او لون آخر من الظلم ، وعلى الثورى الحق ان يخضع لمنطق الأحداث وأن يستفيد منها حتى ولو كانت هذه الأحداث تتعارض مرحليا مع مطامحه العقائدية» .

• • •

الكينونة والفعل ،

« اذا اردنا أن تكون الثورة اسلوبا للحياة من اجل ذاتها فانها تصير حتما طريقة للموت ». (الأمل ص ١٧٦)

ما فائدة الثورة اذن « حينما لا تصلح من حال الناس ؟ » يتساءل بقلق القائد الكاثوليكى « هيرنانديز » HERNANDEZ فهو مثل كل أسبانى يتهيب فكرة الموت ويخشى كل ما يعرض فكرة « خلاصه » وخلاص أمثاله للضياع ، ولذلك فان ما يضعه موضع التساؤل هو بالذات قدرة الثورة على حل المشاكل الفردية للمحاربين . اذ انه اكتشف أن الثورة « تجهل آلاف التعهدات التى أخذتها على عاتقها » وانه ليس على الرجال أن ينتظروا منها « حل مشاكلهم » وهنا يظهر جرسيا GARCIA من جديد ، حينما يعترف له « هيرنانديز » بقلقه ، ليشرح ضرورة التنظيم الثورى وضرورة التفرقة بين المسائل الخلقية والمسائل السياسية :

« هيرنانديز » .. فكر فيما يجب ان يكون بدلا من التفكير فيما يمكن أن نفعله حتى ولو كان ما فى مقدورنا أن نفعله ضئيلا . ان هذا الموضوع سم بلا دواء ـ كما يقول جويا ـ وهو موضوع خاسر مسبقا بالنسبة لكل انسان وموضوع لا امل يرجى منه يا صديقى الطيب .

---

(٤٠) الامل ص ٣٢٨/٠

(٤١) الامل ص ٣٢٧/٠

(٤٢) الامل ص ٣٢٥/٠

اذ ان الكمال الخلقى ونبالة النفس مسائل فرديةلا تتدخل فيها الثورة بطريقة مباشرة وللأسف ليس هناك اتصال بين الاثنين بالنسبة لك الافكرة التضحية بذاتك » . (٤٣)

الا أن « هيرنانديز » لن يقبل قط من جانبه ، أن يفرق بين ما يجب أن « يكون » وبين ما يستطيع ان « يفعل » . ولذلك حينما يحاصر الجمهوريون منطقة « الكزار » ويطلب منه قائد فاشى توصيل بعض الخطابات الى زوجة« موسكاردو » MOSCARDO يقبل « هيرنانديز » هذه المهمة عن طيب خاطر ، الأمر الذى يحيرزملاءه .

غير انه يشرح لهم انه يفعل ذلك عن كرم انسانى لأن زوجة « موسكاردو » مريضة .

وبعد ذلك نرى هذا البطل ، المسئول عن الدفاع عن مدينة « توليد » وهو يغمره الأسى حينما يرى الجنود يهربون امام هجوم القوات المغربية، انه سوف يتحمل الى النهاية مسئولياته كقائد وسوف يحمى مؤخرته بواسطة مدفع رشاش :

« بدات مؤخرة الجمهوريين تتقهقر بغير انتظام بينما كان بعض زملائهم يداسون بالأقدام. اما « هيرنانديز » فما عاد يفكر فى شيء ، لقد اخذ يشد مدفعه على كتفه وكان فى تمام السعادة » . (٤٤)

واستطاع « هيرنانديز » بفضل حركته الفعالة أن ينسى مؤقتا مأساته ولكنه سرعان ما يجرح ويؤسر ، وفى السجن لا تساء معاملته لأنه تولى ارسال خطابات « موسكاردو » ، الأمر الذى يزيد من امتعاضه .

ونراه بعد ذلك وقد تسلط عليه الملل والتشاؤم اللذان يحولان بينه وبين الهرب ــ مثل زميل له ــ حينما يقاد الى منصة الاعدام ، انه« متعب لا يرى للحياة طعما .. ايجرى من جديد ... ومرة اخرى ... » . (٤٥) ان الموت فقط يمكنه ان يحرره من قلقه وعندئذ ينظر الى « الأرض بشهوة ويقول : ايتها الأرض الميتة !لا يوجد ملل وسأم الا لدى الأحياء .. » (٤٦)

وهكذا يجد البطل ــ باسلوبه الخاص ــ« طريق خلاصه » . لقد بلغ المرحلة الوجدانية التى وصل اليها « جارين » بطل رواية « الطريق الملكى » فى لحظة مغادرته للصين : الثورة ستتم او لن تتم ولكنه لن يكون احد روادها . الا انه مع ذلك ، فى لحظة الموت ، يعود بذاكرته الى محادثته مع « جرسيا » ويبدو انه يصوب راى هذا الأخير : هل كان « كرما » حمله لخطابات العدو ؟ :

---

(٤٣) الامل ص ١٨٧/٠

(٤٤) الامل ص ٢١٥/٠

(٤٥) الامل ص ٢٢١/٠

(٤٦) الامل ص ٢٢٤/٠

« ما معنى هذا ، ما معنى نبالة الخلق في عمل مثل هذا ؟ الشهامة ؟ ... ان الشهامة هي أن تنتصر » (٤٧)

ان اعدام « هيرنانديز » HERNANDEZ الذي يختم به الكاتب الجزء الأول من روايته لبالغ التعبير لأنه يجسد نهاية «الوهم الشاعري». فهذا الصراع بين الأخلاق والسياسة ، بين الغاية والوسائل ، بين الدفعة الثورية المشبعة بحب الناس لذاتهم ، وبين ضرورة تقييمهم بمعيار منفعتهم (٤٨) ، كل هذه التناقضات التي ولدتها ظروف المعركة نفسها تلتقي في احدى أسماء الجزء الثاني للكتاب وهو : « **الكينونة والفعل** »: عنوان يذكرنا بصبغة « جرسيا » GARCIA حينما قال :

« ان الشيوعيين يريدون فعل شيء مـا ، أما انتم المثاليون والفوضويون ، تريدون لاسباب مختلفة ، ان تكونوا شيئا ما ... (٤٩) »

واذا كان هناك جدال دائم بين الفوضويين واتباع « لينين » ، فذلك مرده الى ان الفوضويين يريدون الفكاك من التزامات العمل المنظم الذي لا يأتي بنتائج ملموسة الا في المدى الطويل . فبالنسبة لهم ليست الثورة الا نضالا يسمح لهم بأن يحققوا « كينونتهم » وبأن يحصلوا في الحال على ما يتوقون اليه : الاخوة ، الكرامة والحرية . ولا يهمهم بعد ذلك النتائج السياسية للصراع ، فالمهم هو التحمس ، هو هذه النشوة التي توصل اليها المعركة . وعلى هذا النحو ، يحاول « النجوس » LE NEGUS أن يفسر الامور للصحفي الامريكي « شاد » SHADE ابان هدفه « طليطلة » :

« اذا كنا قد سحقنا هنا وفي « مدريد » ، فان الرجال قد عاشوا يوما بقلوبهم ، اتفهم ذلك) ؟ فبالرغم من البغضاء هم احرار ولم يكونوا كذلك قط . انني لا اتحدث عن الحرية السياسية ، وانما عن شيء آخر ! اتفهمني ؟ » (٥٠)

وفي مكان آخر يضيف « النجوس » :

« لا داعي لنسج الروايات ، فالانظمة صنعت للرجال وليس الرجال للانظمة ونحن لا نود اقامة دولة أو كنيسة أو جيشا . اننا نريد ان نصنع رجالا » (٥١)

صنع الرجال ، « الكينونة » ... افكار يعبر عنها أيضا « بويج » PUIG وهو متطوع من

---

(٤٧) الامل ص ٢٢٤.

(٤٨) نلاحظ ان هذا الصراع كان موجودا في رواية « الغزاة » اذ كان « جارين » يلوم « بورودين » على معاملته للرجال كأنهم « الات » وعلى رغبته في « صنع ثوار كما يصنع فورد السيارات » !

(٤٩) الامل ص ١٨٦ – نلاحظ ايضا انه ، منذ رواية « الغزاة » كان مالرو يقارب بين المثاليين (تشينج – داي) وبين الفوضويين (هونج) : وكلاهما يكونان برغم اختلافهما عقبة امام التحرك الثوري .

(٥٠) الامل ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٥١) الامل ص ١٧٨.

منطقة « كاتالونيا » . لقد قام « بويج » أثناء تمرد« برشوته » بدفع سيارة ضد مدافع العدو واستطاع ان ينجو من هذه العملية الجريئة ،وفى هذا الصدد كتب المؤلف :

« بالرغم مما كان يعرفه عن باكونين ، كانت الثورة فى نظره انتفاضة شعبية ، وتجاه عالم بلا أمل كان لا يتوقع من الفوضويين الا ثورات مثالية ، لذلك كانت كل مسألة سياسية تحل بالنسبة له بالجرأة وثبات الخلق » (٥٢)

ولكن الفوضويين حياتهم قصيرة ، ففى محاولة اخرى مثل الاولى ضد الحواجز الفاشية لقى « بويج » مصرعه ... وبذلك حقق ما يصبو اليه : ان يموت « بأسمى طريقة ممكنة » بعد ان يعيش يوما «بكل احاسيسه » ولا شك أن هذا المطمح العظيم بالنسبة للفوضوى نوعا من « اللاقدر » ويقول « لو نيجوس » وهو يفكر فى« بويج » على الارجح : « ان الرجال المصممين على الموت ، ينتهى بنا الامر بان نشعر بمرورهم » (٥٣)

ان ما يعتبه « لونيجوس » ــ المتكلم باسم الفوضويين فى الرواية ــ بالاخص على الشيوعيين هو بالضبط « خط » العمل الذى يحدده الحزب،والذى يمنعهم حينما تسنح الفرصة من انجاز اعمال بطولية مثل عمل « بويج » . وفى هذا يقول حكمة : « ان الذى يخشى الموت ليس ضميره مطمئنا » (٥٤) .

انه يعتبر الشيوعيين غير مخلصين للقيم التى يدافع عنها الجمهوريون ، بينما هم ، الفوضويون ، لم يكفوا قط عن خدمة هذه القيم منذ ثورة « الأستورى » Les Asturies :

« ان يكون الإنسان ثوريا ، بالنسبة لكم ،هو ان يكون خبيثا . ولكن بالنسبة لباكونين وكروبوتكين لم يكن الامر كذلك بالمرة . انتم اكالكم الحزب . اكلكم النظام : وبالنسبة للشخص الذى لا ينتمى اليكم لا تعاملونه بامانة أو واجب . انتم لم تعودوا مخلصين . اما نحن فقد قمنا منذ ١٩٣٤ ، بسبعة اضرابات للتضامن فقط مع الاخرين وبدون اى هدف مادى » (٥٥) .

ويرد « براداس » PRADAS الشيوعى عندئذ على « النيجوس » LE NEGUS قائلا : « بصراحة انه من الافضل أن نكون غير مخلصين على أن نكون عاجزين » فالفوضويون ، فى رأيه ، حتى ولو كانوا « مستعدين للموت » لا يمكنهم ان ينجحوا الثورة الاسبانية لانعدام النظام بينهم ، أما الشيوعيون فلقد اثبتوا ، حسب قوله ، أنهم الوحيدون الذين استطاعوا استغلال الظروف فى « بناء » الثورة ، ويقول . مستندا الى حجج« جرسيا » GARCIA التى نعرفها :

« لقد سيدنا دولة ثورية وهنا نكون الجيش عمليا بصفاتنا الحميدة وبعيوننا والجيش هو الذى سينقذ الجمهورية والبروليتاريا » . (٥٦)

● ● ●

---

(٥٢) الامل ص ٣١/٠

(٥٣) الامل ص ١٧٦/٠

(٥٤) الامل ص ١٧٦/٠

(٥٥) الامل ص ١٧٧/٠

(٥٦) الامل ص ١٧٧/٠

يتضح من هذا ان الحزب الشيوعي هو احدى الوسائل التي يجدر استخدامها فى الدفاع عن : قضية الجمهورية ، انه احدى الحقائق الواقعية التى تتبلور حولها الثنائية بين « الكينونة » و « الفعل » . الا انه يتبقى مع ذلك ان الوسائل التي يستعملها هذا الحزب تشبه كثيرا ما قامت ضده الثورة ، ومن ثم سوف يتجاوز الصراع حول مفهومى العمل الثورى الخلاف بين الفوضويين والشيوعيين أو حتى بين المثاليين والشيوعيين ... وعلى هذا فالثورة ليست غير مكلفة بحل المشاكل الفردية للمناضلين فحسب ، بل ان كرامة هؤلاء تظل معلقة حتى تتحقق الاهداف .

وهكذا نرى « مانيان » MAGNIN الواعى بدوره الرئاسى مضطرا الى اطاعة اوامر المنظمة وطرد « شراينر » SCHREINER الذى يشك فى كونه مرشدا فاشيا . الا انه بالرغم من اعترافه بفعالية الوسائل الشيوعية يعتب بمرارة على « اينريك » ENRIQUE احد زعماء الحزب ، لا انسانية اوامره ، ويعتقد ـ كما يعتقد « النجوس » ـ بأن الرجال لهم الاسبقية على الحزب (٥٧) .

غير انه فى آخر الرواية سوف يحير جوابا امام « جرسيا » GARCIA حينما يذكر هذا الاخير ، اثناء تقريره لنتائج الاحداث ، جملة « لجيرنيكو » GUERNICO : « الشيوعيون لهم كل فضائل الفعل ـ وهذه الفضائل فقط » ويضيف : « ونحن فى هذه اللحظة نحتاج الى الفعل » (٥٨) .

ان « مانيان » لا يستطيع ان ينكر هذه البينة : « الفعل لا يمكن تصوره الا فى اطار الفعل ... » ، « فالفعل هو الفعل وليس العدالة » (٥٩) .

موقف « مانيان » MAGNIN تجاه الثورة يذكرنا بموقف « روبيرت جوردان » ROBERT JORDAN فى رواية « همنجواى » : « لمن تدق اجراس الموت FOR WHOM THE BELL TOLLS فهو مثل هذا الاخير يترك فكره « معلقا » (٦٠) الى ان تنتهى الحرب ويمكن ان ننسب اليه ، ما يكتبه همنجواى عن بطله :

« كان تحت حكم الشيوعيين خلال فترة العمليات . وهنا فى اسبانيا كان الشيوعيون يهيئون افضل نظام واعقله واسلمه لمتابعة الحرب ولقد قبل قيادتهم لمدة العمليات لانهم ، فى قيادة الحرب كانوا يشكلون الحزب الوحيد الذى يمكن احترام « برنامجه ونظامه » (٦١)

ان المخرج الوحيد الذى يتبقى اذا امام المحاربين هو تطويع انفسهم لضرورات الفعل وقبول اوامر المنظمة والاعتراف بأسبقية النظام العسكرى ... حتى ولو كان ذلك ايضا يناقض المبادىء

---

(٥٧) الامل ص ./١٣٨

(٥٨) الامل ص ./٢٢٧

(٥٩) الامل ص ./١٤٠

(٦٠) همنجواى ، فى طبعة فرنسية :

E. Hemingway.Pour qui sonne le glas, ed. Heinmann 1968, p. 218

(٦١) همنجواى ، الطبعة المذكورة ، ص ./١٨٠

التى دفعتهم الى التطوع . وكما سيكتب « مالرو» بعد ذلك فى « اللامذكرات » Les Antimemoires ، انه منذ اللحظة التى يتبنى فيها المناضل قضية ، فان هذا الاختيار يتضمن فى حد ذاته قبول منهج ما وتنظيم ما :

« اذا كانت المعركة مرتبطة بالخلق ، فكل شخص يعرف ذلك ، الا انه قد لا يعرف ان المعركة تتضمن تنظيما خاصا للفعل على الذى اختار النضال ان يقبله فى نفس الوقت » . (٦٢)

المرور اذا من حالة الحماس الى النظام ، ومن العفوية الشعبية الى التنظيم التقنى يفرض نفسه لنصرة قضية الجمهورية ، وليس الامر الآن فى ان يكون الرجال شيئا ما ولكن ان يفعلوا شيئا ما ، حتى ولو كانت المأساة التي يشارك فيها المحاربون تتصل بماساة اخرى روحية .
وهكذا يتكون الجيش الجمهورى ، جيش الشعب الذى لم يكن موجودا فى البداية ، من خلال الآلام والتضحيات حتى يصير اداة علمية منظمة يتبح للجمهورية الانتصار فى موقعة « جوادلخرا » GUADALAJARA . وهذا حادث جلل يصوب راى الذين اختاروا تحقيق الحرية بواسطة النظام .

ولكن ما مصير العلاقات الانسانية فى داخل الاطار التنظيمى للجيش ؟ والى اى مدى يبرر هذا النصر الاخير اختيار الرجال ؟ علينا فى هذا الصدد ان نتتبع « مانويل » فى طريقه الثورى حتى نرى الى اى حد يمكن ان يلتقى الالتزام الواعى بالفعل مع السعى الميتافيزيقى او الروحى للمناضل .

• • •

ثورية « مانويل » وايثار الفعالية .

« ان الشجاعة امر ينظم ، يحيا ويموت ، وعلينا ان نعنى بها كما نعنى بالبنادق ... ان الشجاعة الفردية ، ليست الا مادة اولية طيبة لشجاعة القوات ... » (٦٣)

منذ الصفحات الاولى للكتاب ، يقدم لنا المؤلف شخصية « مانويل MANUEL » كشاب بوهيمى عين فى وظيفة مساعد « لراموس RAMOS» ، سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، فى المقر المركزى للهاتف بالمحطة الشمالية فى مدريد . وكان « مانويل » قبل ان ينخرط فى جماعة الجمهوريين مهندس صوت فى استوديو سينمائي اسبانى ، موسيقيا هائما بفنه ورياضيا يمارس بانتظام التزلج على الجليد ، ونراه فى بداية الحرب يقود حرب عصابات بطريقة رومانسية واضحة بجانب « راموس » و « باركا BARCA » ، ومثل جميع المحاربين نراه مفتونا بالاخوة الشاعرية التي تتفتق بين زملاء السلاح ، مكرسا كل همه وفكره الى قضية الجمهورية . واكبر دليل على مشاعره الجياشة بالاخلاص هو تخليه للحزب عن « سيارته الصغيرة العزيزة » التي اشتراها ليذهب بها الى جبال السيرا حيث يمارس هواية التزلج على الجليد ، وبفقدانه هذه السيارة التي

---

(٦٢) اللامذكرات : A. MALRAUX - Les Antimemoires Paris, Gallimard, p. 1967 153

(٦٣) الامل ص ٢٢٨/٠

كان جم التعلق بها ، شعر فجأة بنوع من اللامبالاةنحوها : « لم تعد هناك سيارة ، وكان هناك هذا الليل المحمل بأمل غامض وغير محدود ، هـذاالليل الذى يجد به كل انسان ما يشغله علـى وجه هذه الارض » . (٦٤)

ولكن بسرعة ، ومع تدرجهفى السلكالعسكرى ، تعود « مانويل » أن يسيطر على « شـعور الاخوة » وان ينظمه ...

وهناك حادث فى أول الرواية يوعز الينابهذا التحول فى شخصيته : اذ بينما كان يشاهد منظر فلاح شاب وهو يخضب اصبعه بدم جندىمقتول ثم يكتب على جدار بحروف كبيرة « الموت للفاشيين » تأثر جدا واعتبر هذا المشهد نقطةتحول فى التزامه الثورى : « شىء مـا تغـير فى داخلى ، ولبقية حياتى ، قال لراموس ، شعرت،امام الشخص الذى يكتب على الجدار ، باننـا مسئولون » . (٦٥)

منذ هذا اليوم ، فهم ان بناء اسبانيا الجديدة لن يتم الا بتضحيات جسام من هذا المعسكر وذاك .

وكان ترقية العسكرى سريعا ، اذ فى خلالشهرين من بداية الحرب ، يضعـه حـزبه تحت قيادة الكولونيل الكاثوليكى « يمينز XIMENES»ليتعلم فن القيادة : وبدأ « مانويل » الذى لم يكن منظما عن حب فى الطاعة أو رغبة فى القيادة ولكنبالسليقة واحساسا بالفعالية ، يتعلم كثيرا بفضل « النظام الفكرى » الذى يتميز به . ان « يمينز »وكان متشددا حتى فيما يتصـل بمسـئولياته الخاصة ، قد بدأ بتلقينه خط السير الضرورىللزعيم الثورى وطبيعة العلاقات التي يجب ان تربطه برجاله :

« قريبا سوف تكلف انت نفسك بتكويـنضباط جدد . سوف يطلبون المحبة وهذا أمـر طبيعي بالنسبة للانسان ، ولا أفضل منه ولكنبشرط ان تفهمهم هذا : ان الضابط يجـب ان يحب لطبيعة قيادته ـ حينما يكون دقيقا ، فعالاوممتازا ـ لا بسببخصائصاو مميزاتشخصية . اتفهمنى ، يا ولدى ، حينما اقول لك أن الضابطلا يجدر به قط أن يلجأ الى الجاذبية ! »

وفهم « مانويل » ، الذى كان يصغى باحترام ، أن « اعظم اقدار الانسان هو ان يحب مـن غير ان يلجأ الى الجاذبية » (٦٦) ، ولكنه سرعانما تبين له ان هذا ايضا « من اصعب الاقدار » كما تنبأ بذلك « يمينز » .

ثم طغت عليه مشاغل القيادة الى أن صار« كولونيلا » ولم يعد يهتم بما « يكون الناس»،ولكن بما يفعلونه » (٦٧) ، وعلى هذا النحو أمر باعدامجنديين من فرقته بتهمة التعاون مع العدو ، وان كانت خيانتهما لم تثبت بشكل قاطع ، الا انـهلم يعد يستطيع ان يفكر بطريقة اخرى .

---

(٦٤) الامل ص ١٩/٠

(٦٥) الامل ص ٨٢/٠

(٦٦) الامل ص ١٥٣/٠

(٦٧) الامل ص ١٤٧/٠

ونراه حينما يخرج من المجلس العسكرىوقد تعلق به المتهمان والتفا حول ساقيه طالبين العفو ، متخبطا بين شعورى النفاق والاستنكاروغير قادر على القول أو الفعل : فهو لم يكن يقدر ان الحكم بالاعدام يقود الناس الى الترجى والىالضغط على النفس ، بالنسبة للحاكم ، لمقاومة هذا الترجى ، وحينما يكشف له الضوء برهة عنوجه مجهول الى هذه اللحظة ، يبدأ يلمس فيه « الوجه الا بدى لمن يدفع دائما .... » ــ « اذن،لم تعد تنطق حرفا من اجلنا » صاح الجندى(٦٨). وتبين « مانويل » فجاءه انه طوال المشهد لم ينبس بكلمة ، فهو « لم يشعر قط بحساسية الاختيار الى هذه الدرجة بين النصر والشفقة » (٦٩)

لقد اعدم الرجلان و « مانويل » واثق منأنه ادى واجبه ، الا ان ذكراهما وهما ملتفين حول ساقيه ما زالت تعاوده . انه لا يستطيع الرضوخالى الوحدة التي تفرضها عليه قيادته ويعترف « ليمينز » بقلقه :

« انني اتحمل مسئولية هذا الاعدام ، فلقدتم لانقاذ الآخرين . رجالنا ، ولكن اسمعنى : لم يكن هناك حد تجاوزته من أجل فعالية اكبروقيادة افضل الا وابعدنى اكثر عن الرجال . انني اشعر بأن كل يوم اقل انسانية » (٧٠).

ويحاول « يمينز » ان يواسيه وان يجد لهمبررات : « الانسان صغير جدا » لكى « يفعل ولا يفقد شيئا من الاخوة » ، ولكن هناك ــ لاشك ــ تعويض : « فان ما يفرق بينك وبين الرجال يقرب بينك وبين الحزب .. » وكان« مانويل » يفتقد هذا الاعتقاد ، ولكن بتوجس احيانا نظرا لتجربته المريرة . « تقربنا من الحزبلا يفيد شيئا اذا بعدنا عن الذين يعمل الحزب من أجلهم » (٧١)

وعلى هذا يجيب « يمينز » : ايه ! ماذا تريديا بنى ؟ ان تحكم بالاعدام وتبقى هادئا .. ؟ انك تتعود حتى على هذا ... » (٧٢).

ويتدخل الجنرال الروسى « هيريج »HEINRICH لفض هذه المناقشات قائلا « لمانويل» :

« نحن نعمل على تغيير مصير الحرب . هلتعتقد انه يمكن تغيير الاشياء من غير ان تتغير أنفسنا ؟ فانك منذ اليوم الذى تقبل فيه قيادة فيجيش البروليتاريا . ليس لك حقعلى نفسك... احساسك يمكنك ان تحتفظ به ، هذا امر آخر . ولكن لا بد أن تفقد نفسك مثل ما فقدت شعرك الطويل ونغمة صوتك » . (٧٣)

---

(٦٨) الامل ص ٣٣٢/٠
(٦٩) الامل ص ٣٣٢/٠
(٧٠) الامل ص ٣٤٧/٠
(٧١) الامل ص ٣٤٧/٠
(٧٢) الامل ص ٣٤٨/٠
(٧٣) الامل ص ٣٥٠/٠

وحينما يسأله « مانويل » عما يعنيه ، وهوالماركسى عن « فقدان النفس » ، يوضح لـه « هينريخ » : « فى كل حرب توجد خسائـر . وليس فقط فى ساحة القتال ... والآن لا يجدر بكأن تشعر ابدا بالرحمة على رجل فقد » . (٧٤)

هذا التباعد التدريجـى وهـذه العزلـةالمتصاعدة عن الرجال يعبران ايضـا عن طبيعـة العلاقـات التي كانت تميز حيـاة « مانويـل »الخاصة ، فنحن نراه فى بداية الرواية يعترف « ليمينيز » بحبه العظيم (٧٥) لامراة تفصلها عنه تربيتها الدينية وتحول بينها وبين الزواج به ، الامر الذى يؤثر عليه تأثيرا شديدا ... وبعـدبضعة اشهر بينما كان مشغولا بتنظيم الفارين من « طليطلة » أتى الى الضابط العجوز وقال له :

« لقد ضاجعت فى الاسبوع الماضى امراةكنت قد احببتها سدى خلال سنوات عديدة : وكنت اشعر برغبة فى الذهاب ... وانى لآسفعلى ذلك ، ولكنى اذا كنت اهجرها فلسبب : فنحن لا نستطيع ان نمارس القيادة الا لاداء خدمةوالا .. » . (٧٦)

وهكذا يتخلى « مانويل » عن حبيبته لانهاقد تشكل عقبة امام حرية فعله ، وبالنسبة له ، حتى المجندات ، ولهن فعاليتهن فى جانـب معين من الحرب ، قد يؤثرن على عزيمة الرجال . (٧٧) « ان الحرب تولد العفة » ، كمـا يقول . (٧٨)وهذا يدفعنا الى مسالة هامشية ولكنها هامة : فلقد اتهم « مالرو » بعداوته للمـرأة ، فالمـراةبالنسبة له وخاصـــة فى اوائل رواياته مثـــل « الغـــزاة » Les Cunquerants و « الطريـــقالملكى » La Voie Royale لا تمثل الا « القطب الآخر » فى لذة الرجل . الا ان الكاتب يفسر هذاالموقف بانه يتحدث عن المراة « المحلية » وان ذلك تفرضـه طبيعة البيئة التي تدور فيها الاحداث ،اما بالنسبة لعدم اهمية المكانة التى تحتلها النساء فى مؤلفاته فان مالرو قد شرح ذلك« لبيير جالانت »ورد هذه الظاهرة الى نوع رواياته الذى يتطلب هذا اللون من البناء :

« فى اللحظة التي تولج فيها ـ مثل همنجواى ـ قصة حب فى نضال ثورى فاننا نهزا بالناس، لانك اذا كنت فى قصة حب لن تكـون فى نضـالثورى . واذكر « انه حينما قابل دانتون روبسبيير فى ردهات مجلس الثورة وقال له : « انت تخوننايا روبسبيير » ! افحمه هذا بقوله : « يا احمق ليس فى مقـدورنا ان نخـون ونحـن نمـارسالحب ... » . (٧٩)

وحينما نعاود قراءة بعض فقـراتروايـة« **لمن تدق اجراس الموت** » تتضح ملاحظة« مالرو » اكثر . اذ أن « روبيرت جوردان » الـذى يغـرم« بماريا » يعطينا احيانا الاحساس بان اونيس

---

(٧٤) الامل ص ٣٥٠/.

(٧٥) الامل ص ١٥٥/.

(٧٦) الامل ص ٢٤٧/.

(٧٧) الامل ص ٨٢/.

(٧٨) الامل ص ٤٢٢/.

(٧٩) GALANTE, Pierre, op, cit., p.83,

يهمل مؤقتا التزامه بالنضال . وعلى هذا النحـو يبدو لنا ، فى فصل الرواية المسـمى «بالحـب الارضى » وكانما الزمان معلق بالنسبة للحبيبين :

وبالنسبة لها لم يكن يوجد الا اللون الاحمراو البرتقالى . او ذهب الشمس المشوب بحمرة على عينيه المغمضتين ، وكان كل شىء بهذا اللون، نعم كل شىء : الشمول، التملك، الرضا، كانوا بهذا اللون وكان كل شىء يشع بهذا اللون . اما بالنسبة له، فكان معبرا مظلما لا يؤدى الى مكان او الى شىء ، لايؤدى الى شىء ، ومرة اخرى لا يؤدى الى شىء وهكذا بلا نهاية لايؤدى ابـدا الى شىء . متكئـا بمرفقية على الارض بلا هدف كان يطالع هذا المعبر المظلم اللانهائي وهو معلق طوال الوقت بعـدم لا مخرج منه ، هذه المرة ومرة اخرى الى الا بـد من اجل لاشىء ، الآن ، آه ! لو لم نولد مرة اخـرى من اجل لاشىء ، والآن عبر كل ما نستطيع تحمله الى اعلى ثم الى اعلى ثم الى علو اكبر فالى لاشىء . فجاة « انبهار » ثم سعادة « علوية فاختفاء لكل ما كان مظلما وعدما ، اما الوقت فصار سكونـا ابديا وكانا هما الاثنان هاهنا والزمـان معلـق يشعران بالارض تتحرك ثم تغوص تحتهما » . (٨٠)

• • •

واضح اذا ان هذه القطعة بمفردها تبلـور ملاحظة الكاتب التى اشرنا اليها ، « فمالرو » على العكس من « همنجواى » ، ولكى يبرز الجوانب الماسوية للفعـل يركـز اهتمامـة على العنـاصر الاساسية التى تكون عالم الحرب وهذا يتناسب تماما فى رواية « الامل » مع شخصية (مانويل) **فمن الطبيعى اذا ان البطل الذى ضحى بالقيـم المباشرة فى سبيل القضية الثورية يبتعد عن المراة الحبيبة حتى لا تشغل باله عن عمله القيادى .**

ونلاحظ فى هذا الصدد حادثا آخر فى الرواية يدل على ان وجود المراة مضر ، بل وقاتل بالنسبة للمحاربين . لقد شاهد « جيرنيكو » و « جرسيا » حوارا بين زوجـة مناضل وزوجهـا تتردد فيـه الزوجة عن مغادرة مدريد كما يطالب منها زوجها : « يقول انه علي ان اغادر ، اخذت تندب حالها . يقول انه لا يستطيع ان يحارب اذا كنت هنا . . ولكنى لا استطيع العيش اذا علمت انـه يحارب هنا . . . حتى ولو لم اعرف ماذا يدور . . » ويعلق « جرسيا » على قول الزوجة هذا ببرود : « كلهن سواء . اذا رحلت فسوف تتحماة فى كثير من الالم ولكنها ستتحمله ، واذا بقيت فسوف يقتل (٨١) »

على النقيض مما يدور فى روايات « الطريق الملكى » و « القدر الانسانى » أو « زمن الاحتقار » ، يكاد يكون شعور الحب غـير موجـود فى روايـة « الامل » او يمثل كعقبة فى طريق المجهود الثورى . . ، الامر الذى يقودنا الى ملاحظة التوازى الذى يوجد فى روايات « مالرو » بين الحياة الخاصـة للشخصيات ورؤيتها الشمولية للوجود ، فـفى هذا الكتاب الذى يمجد التنظيم العسكرى نـرى البطل الذى كرس نفسه للنضال المنظم لا يجـد فرصة للتفكير فى علاقات عاطفية من اى نوع كانت .

---

(٨٠) راجع همنجواى (الكتاب المذكور ـ ص. ١٧٦/)

(٨١) الامل ص ٢٦٥/.

واذا رجعنا الى « مانويل » وجدنا ان تحوله كان شاملا . وليس الامر فقط مجرد ميلاد زعيم، او نجاح خارق استثنائي ، اننا بصدد تحول جذري ، وهنا يكمن الفرق الجوهري بين البطل في روايات مالرو المكرسة للثورة الصينية وبين البطل الشيوعي في رواية « الامل » المكرسة للحرب الاسبانية . فينما « جارين » GARINE في « الغزاة » و « كيو » KYO في « القدر الانساني (٨٢) » يعرضان الى النهاية الصراع يثور في دخيلتهما ، ينتهي « مانويل » على العكس من ذلك بقبول ضرورات الفعل بلا نقاش :

« لما كان » مانويل « شيوعيا ، فانه لم يكن يتساءل عن سلامة اسس قراراته ، لم يكن يضع تصرفه موضع التساؤل ، وكل مسألة من هذا النوع كانت لا بد ان تنتهي في نظره ، اما بتغيير افعاله (وهذا التغيير لم يكن واردا) ، واما برفض التساؤل » (٨٣)

وبعض الملاحظات في الرواية توحي الينا بالرغم ـ او فلنقل ـ بفضل حزمة في القيادة بان « مانويل » كان محبوبا من قبل زملائه في السلاح وكان هذا الحب صادقا من غير افتتان . لذلك لا يرى، بعد حكمه بالاعدام على جنديين هاربين، في عيون رجاله الذين يستعرضهم الامودة واخوة :

لم تكن هذه النظرات وهي تخترق نظره في كل التقاء ، تتسم بالغموض او اللامبالاة : كانت اخوية باسى ، مليئة بهذا الظلام (٨٤) » .

بل واكثر من الاخوة :

« كانت نظرات » مانويل « تلتقي بتلك النظرات ، الواحدة تلو الاخرى ، وهي تعقد معها تحالفا بالدم (٨٥) » .

بعد انتصار الجمهوريين في « جواد لخرا » يحس « مانويل » الذي قطع ـ اثناء المعركة ـ كل صلة بينه وبين المتعة الشخصية والذي اعلن « لجارتنر GARTNER انه لا يقدر الموسيقى ، بان اهم ما يحتاج اليه في هذه اللحظة هو سماع قطعة موسيقى ... فبسماعه سيمفونية لبيتهوفن كان يكتسب اليقين ـ حتى ولو شك احيانا ـ بانه يحمل في طيات نفسه كل الامكانيات الانسانية سليمة وكاملة :

امكانيات الفن والرقة والحب ، ولا شك ان السلام سيبعثها يوما ما فالمستقبل كله ملك له :

« كان يحس بالحياة تزخر حوله بالتنبؤات، كما لو كانت تنتظره ، خلف هذه السحب الدانية التي لا يهزها « المدفع » ، بعض الاقدار العمياء . كان الكلب ـ الذئب ينصت ممددا كما تصوره

---

(٨٢) في رواية « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris ـ كان البطل « كاسنر » Kassner يمثل الصراع ضد كل ما هو « لا انساني » . الا ان المسألة الخلقية ـ السياسية لم تكن مطروحة في هذه الرواية .

(٨٣) الامل ص ٣٢٨/٠

(٨٤) الامل ص ٣٤٦/٠

(٨٥) الامل ص ٣٤٦/٠

بعض النقوش البارزة . فى يوم ما سيأتى السلام وسيصبح « مانويل » انسانا جديدا ، مجهولا من ذاته كما كان يجهل مناضل اليوم الشخص الذى اشترى السيارة للتزلج على الجليد فى جبال السيرا .

ولا شك كان الامر كذلك مع كل واحد من هؤلاء الرجال العابرين بالطرقات او العازفين بعناد أغنيات الحنين الحزينة والذين حاربوا تحت اغطية الرأس المدببة (...) ان الحرب لا تكتشف الا مرة واحدة ، ولكن الحياة تكتشف أكثر من مرة .

كانت هذه النغمات الموسيقية التي تتوالى عبر الماضى تحدثه كما لو تحدثت اليه هذه المدينة ذات الماضى العريق ... وهذه السماء وهذه الحقول الابدية ، ولاول مرة كان « مانويل » يسمع صوتا اهم من دم الرجال واشد بأسا من وجودهم على البسيطة ، صوت الامكانية اللا محدودة لقدرهم — وكان يشعر فى داخله بهذا الوجود ممتزجا بهدير الجداول ، مختلطا بدبيب خطوات الاسرى ، متصلا عميقا مثل نبضات قلبه » .(٨٦)

● ● ●

ثالثا : الامل الثورى :

« فى عالم بلا امل يصعب التنفس » ،(الامل /ص ١٩٩)

هذا السطر الذى نستشهد به يختتم الرواية ، الامر الذى يقودنا الى رؤية للوجود ، كلها سلام وأمل ، كما وعدنا بذلك عنوان الرواية .

وليس من شك فى أن هذا الكتاب نشر فى فترة كان يتوقع فيها الجمهوريون نهاية موفقة لهذه الحرب، وخاصة وانه يشير من بين الاحداث الاخيرة الى انتصارهم فى « جواد لخرا » GUADALAJARA الا انه يبدو لنا معبرا ان «مالرو» احتفظ بهذا العنوان بعد الهزيمة السياسية للثوار . فمن الناحية « الفنية » يمكن ان نذهب مذهب « لوسيان جولد مان » LUCIEN GOLDMANN فى تعقيبه على هذا الجانب :

« يرجع رفض الاهتمام بالاحداث اللاحقة على الرواية الى ضرورة داخلية فى بناء القصة : اذ ان رؤية الكتاب كانت مرتكزة على التضحية فى سبيل النظام بكل القيم من أجل الفعالية ومن ثم فان هذه التضحية ستبدو هزلية وغير مبررة اذا ادت الى الهزيمة بدلا من النصر » (٨٧)

---

(٨٦) الامل ص ٣٢/٠ .

(٨٧) لوسيان جولدمان ، من أجل سوسيولوجيا الرواية، ص/٢٣٦
GOLDMANN, L. - Pour une sociologie du roman, p. 236

ومع ذلك فرواية « القدر الانساني » انتهت بفشل سياسي وكذلك « كيو » KYO

البطل الثوري الاصيل يموت في نهاية الرواية بالرغم من وجود فقرات عديدة في الكتاب توحي بانتصار المناضلين « حتى ولو هزموا أو عذبوا او قتلوا » ... وبالامل في حياة افضل للجماهير الصينية . ونحن لو فحصنا رواية « الامل » بهذا المنظور الميتافيزيقي لايقنا بمدى دلالة هذا العنوان وعدم جدوى الاحداث اللاحقة على معركة « جوادلخرا » في تغيير مضمونه .

« **ان القوة الكبرى للثورة هي الامــــل** » يقول مناضلو (٨٨) الحرب الاسبانيــة ، وهــذا الشعور ، في الواقع ، هو الذي يلهم ثورتهم ويتيح لهم التغلب على مخاوفهم امام القدر ...

هذا الامل هو أمل الفلاحين الذين عاشوا في البؤس ويحلمون بالكرامة واحترام آدميتهم .

ولو فكر في ذلك « مانيان » وهو يحلق فوق قرى اسبانيا :

« كان يتذكر الاراضي البور ، التي لم يكن من حــق الفلاحــين المرضى مــن البؤس ان يستصلحوها ... ان الفلاحين الثائرين كانــوا يحاربون تحت امــرته ليرفعوا هــذه الجــدران الصغيرة ، وهــي الخطــوة الاولــى في ســبيل كرامتهم » . (٨٩)

كان الجميع يحارب في سبيل تصور معين للانسان واذا كان المثل الاعلى الثوري هو الذي يؤجج حماس الشعب فلانه كان يجسد لديهم « املا غامضا وبلا حدود » (٩٠) ويرضي الرغبات والمطامح العميقة الكامنة في كل فرد .

الا ان الكاتب ، في الوقت الذي كان يصف فيه قمة الالتزام الثوري ، كان يديــن الثنائيــة الناتجة عن الفعل : فالثورة ، كما رأينا ، كانت تصطدم بالحماس الذي دفع بالابطال الى اللحاق بها ، هذا الحماس الذي كان يجب الحد منه بجهد مضن في سبيل النظام .

وهكذا فان افضل مــا في الانســان ، اي تلقائيته الثورية ، هو الذي كان يدخل في صراع مع ضرورات النظام العسكري والسياسي ... وبهذه الصورة يشك في قدرة الثورة على حــل المسائل الميتافيزيقية للفرد . الامر الذي يرجع الى ان طبيعة المسائل السياسية وطبيعة المسائل الخلقية لا تنتميان الى نفس النسق كما يقول « باسكال » .

---

(٨٨) الامل ، ص/٤٤

(٨٩) الامل ص/١٩

(٩٠) الامل ص/١٩

ومن ثم عجز الثورة عن الارتفاع بمستوى الانسان من تلقاء ذاتها ... فلننصت الى « جرسيا » :

« اى دولة واى بناء اجتماعى لا يمكنه خلق نبالة الخلق او رفعة الروح ، ومعظم ما يمكن توقعه هو ظروف ملائمة . وهذا كثير ... »(٩١)

ويوضح « مالرو » فى خطابه عن « الميراث الثقافى » :

« ان الثورة لا تعطى للانسان الا امكانية كسب كرامته ، وعلى كل فرد ان يجعل من هذه الامكانية حقيقة ... » (٩٢)

عظمة الانسان لا تعتمد بلا شك الا على جهده الخاص .. ولكن الرجل الملتزم يجد فى الفعل ظروفا ملائمة لتجاوز وضعه ببذل افضل ما فى طاقته ، وهنا يكمن الامل الثورى ، فالبطل يلقى فى صراعه من اجل الكرامة والحرية .محنا وتجارب تناقض القيم التي يناضل من اجلها ولكن امله فى المستقبل الذى يعده يكفى لايجاد صلة بين التضحية المؤقتة بهذه القيم وبين العالم الجديد الذى يحلم به .

اذ انه حين ينخرط كلية فى فعل له معنى وهدف ، سوف يخرج من هذه التجربة وقد تغير جذريا ، ومن ثم تصبح الثورة ايضا لا قدرا شخصيا وهذا ما يلاحظه « مانويل » فى آخر الرواية حينما يقول :

« ان حياة اخرى بدأت بالنسبة له مع المعركة ... » (٩٣)

وانه لفى ضوء هذا المفهوم تكتسب الرواية وعنوانها معناه الكامل .

وانه لجدير بالذكر من جهة اخرى ان يكتب المؤلف ، بعد انتصار « جواد لخرا » بان الحرب قد بدأت (٩٤) ، مشيرا بذلك الى ان معارك اخرى قد لا تكون موفقة بالنسبة للجمهوريين ،

ولكن ... طالما ظل المجهود الثورى قائما كما يجب ان يقوم .. فان هذا المجهود سوف يؤكد للرجال « **الامكانية اللا محدودة لقدرهم** » .

• • •

---

(٩١) الامل ص/٣٢٨

(٩٢) راجع : L'Heritage cultural in Commune No. 37, 1936, p.9

(٩٣) الامل ص ٤٢٢/٠

(٩٤) الامل ص ٤٢٦/٠

خاتمة :

ان شعور الاخوة الانسانية ، الذى يبرزفى كثير من صفحات رواية **« القدر الانسـانـى »** ويغلب على معظم رواية **« زمن الاحتقار »** يلقىعلى رواية **« الامل »** اقوى تعبير له . الا ان قبول حقيقةهذا الشعور كواقع لا يجلبللانسان السلامالتام ، اذ انه يتحتم على الانسان ان يؤكد بـلا تردد علىالقيم المختارة ليطرد هواجس القلق...

ان الاحساس بالحياة الجماعية لا يكتسبالا قليلا قليلا ، لان الاخوة المتولدة عن النضـال المشترك كثيرا ما تصطدم بالتزامات وضروراتالفعل ذاته .

وليس هناك شك فى ان « مالرو » يؤكـدعلى ضرورة التنظيم كعنصر اساسى لكل جيش ، غير ان روايته تمجد ايضا قبول النظـام ، هـذاالنظام الذى يفرضه الانسان على نفسه حتى ولو كان احيانا قاسيا او لا انسانيا ، اذ أن الانسانالذى برهن على حريته بالنضال حتى ضد نفسه، جدير من ثم بأن يرفض الخضـوع للأقـدار . ومثال « مانويل » يرينا ان الانسان الذى تخلص من حتميات الوجود يمكنه بسهولة أن « يكتشفسرا مقدسا وبسيطا » ،

الا وهو سر الحياة . (٩٥)

* * *

(٩٥) اللامذكرات ص ٣٢١/٠

عزه محمّد هيكل

اندريه مالرو
قدر الانسان

ثورة فى الأدب

ينفصل القرن العشرون عن الاسلوب التقليدى للقصة المصطنعة تأليفا ، والتى تتتابع فيها الاحداث على وجه متسق ومنطقي ، بحيث اصبح تناول الرواية التحليلية والرواية الاخلاقية بالطريقة المعتادة موضوع قضية مطروحة ؛ويظهر من ثم خط جديد للرواية لايقوم على الشمول الكامل ، وانما يرتكز على الغموض والابهام . ويقول الناقد البيرس :

« ان رواية لفلوبير او لزولا كانت تحكى . ولكنك تعايش وتحيا **قدر الانسان** » (١)

وبينما كان بلزاك وفلوبير وزولا يوضحون ويشرحون التطور النفسى لشخوص رواياتهم .. فقد كانوا يعرفون مسبقا نهاياتها . امـا فى اعمال مالرو فكل الشروح والتفسيرات ضمنية .

---

(١) R.âM. Albérès, **Histoir du roman moderne.** Editions Albin Michel,1 1962. p. 130.
André Gide, **Journal** 10 Avril 1933.

ولا نعلم عنهــا شيئا اكثــر مما يــرى الابطــال ويشعرون به ويفكرون فيه ، ولا يتدخل الكاتب فى السرد ابدا لمجرد التوضيح والبيان .

وفى **قدر الانسان** لا تبــدو الشخــوص فى وضوح ، وانما تتشكل تدريجيا ثم تتحلل وتتكون من جديد محتفظة دائما بغموضها ، تماما كمــا يحدث فى الحياة بالنسبــة للاشخــاص الذيــن نلقاهم ولا يسعنا التعرف عليهم حقيقة . فالامر لا يتعلق بتقديم شخصيــات نلمس فى النهايــة صورة منطقية وواضحة لهم ، وانما نجد فيهم تعقيدا غير قابل للتحديد ، وعالما متغيرا بالنسبة لكل شخصية وغير متكامل .

وفى **قدر الانسان** الذى اعتبر بالاجماع اشهر روايــات مالرو ، وقــد ظهــرت فى عــام ١٩٣٣ وحصلت على جائزة جونكور ، يقوم الموضــوع على تكاثف فى الاحداث وتركيزها فى وقت ضيق وقد اشار الى ذلك **اندريه جيد** فى عبارة شهيــرة :

« هذا الكتاب الذى اطلعــت عليه خــلال نشره مسلسلا فى احدى المجلات ، بدا لى شديد الكثافة ويوقف ثراؤه الاستمرار فى تلاوته ، وهو الى حد ما غير مفهوم ازاء وفرة تعقيداته . وقد لاح لى بعد قراءته كاملا ، انه ظاهــر الوضــوح ومتسق فى عدم انتظامه وعلى درجة كبيرة من الذكاء ورغم ذلك ــ اعنى القــول رغم الذكاء ــ فهو عميق التداخل فى الحياة ومشوب بقلق غير محتمل » (٢)

ولأن الرواية مجــزأة الى عــدة مشاهــد تتعاقب بلا اتصال او تفسير بحيث تفتقــر الــى اية رابطة واضحة فى السرد بين مشهد وآخــر ، فيما عدا بعض البيانات المتعلقة بالتاريخ والساعة التى تعين القارىء على الفهم ، وتدل ــ بالعكس على اهمال متعمد للربط بين الاحداث . ولو نقلنا هــذه البيــانات يمكن تلمس ما يبدو انه خطة الكتاب .

الجزء الاول : ٢١ مارس عام ١٩٢٧ : بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، فى الواحدة صباحــا ، فى الرابعة صباحا ، فى الرابعة والنصف صباحا .

الجزء الثانى : ٢٢ مارس ، الساعة الحادية عشرة صباحا ، **الساعة الواحدة بعد الظهر الخ ..**

وبعد ذلك وفجأة فى **الجزء الثالث** ، فى ٢٩ مارس ، والاجزاء الرابعة والخامســة والسـادسة ، فى ١١ ابريل . وينقلنا الجزء السابع الى باريس فى يوليو وتقع الخاتمة فى كوبيه .

وهكذا بدلا مــن الاستطــراد التقليــدى للسرد ، فان فصول الرواية تستمر وتتتابع مع تغاير الشخوص وفى مختلف الاماكن . ونمر بلا اى تمهيد من حكاية الى أخرى . **ويؤكد النقاد انه كان لاعمال مالرو سبق المبادرة فى « خلق المفهوم الثورى للادب** . ولم تعد الرواية للاستهلاك

(٢) ظهر قدر الانسان لاول مرة مسلسلا فى مجلة لانوفيل ريفى فرانسيز فى اوائل ١٩٣٣ ثم ظهرت الرواية فى كتاب بعد ذلك مباشرة .

الصرف وانما هي تحقق تعاونـا فى الانتـاج بين الكاتب والجمهور الذى يدعى للمساهمة بجهود بناءة لاقامة العمل الادبى . » (٣)

وقد لمس مالرو بذاته عدم الاستمـرار فى معادلة وجيزة مؤداها : انه يمكن فهم كل فـن من الفنون فهما ضمنيا لا تصريحا . (٤)

وغالبا ما قورنت طريقـة مالرو بمشهـد سينمائي واضح (٥) تمثل فيه الرواية بمجموعة من اللوحات ويوحى تتابعهـا وتباينها بالواقـع والثراء .

ويتردد الكاتب باستمـرار بين مشاهـد الانفعال ومشاهد الفكر وبين التحقيق الصحفـى والفلسفة . وينتقل الانسان فجـأة من حالـة الثورة الى حالة التمعـن والتفكير . فبعـد ان ارتكب تشين جريمة قتل اخذ يتساءل عن معنى ما اقدم عليه ازاء قيمة حياة الانسـان . كما ان الحوار بين كيو ومـاى الذى انصرف الى قيمـة الحب قد انقطع بفتة بتدخل كلابيك ومعه مستند لسرقة عتاد واسلحة على ظهر باخرة . وكذلك فانه بمجرد تركنا جيزور الذي يستلهم معنى الحياة والالتجاء الى المخدر وشعوره نحو ابنه ، نجد انفسنا فجأة امام ثوار يهاجمون سفينة .

● ● ●

التوازى بين الحياة والرواية

بينما نجد ان **الطريق الملكى والغزاة** يضعان على المسرح بطلين او ثلاثة ابطال فان **قدر الانسان** وفقا لما ينم عنه عنوانه ، يحيا عالما واقعيا على قيد الحياة وهو عالم الصين فى عام ١٩٢٧ . وتـدور الاحداث اساسا فى شنفهاى بين جماعات الثوار التى تعد للثورة . والحكاية هنـا معقدة جـدا الى حد القول بان هناك حكايـات بقـدر عـدد الابطـال .

وتختلف الثورة الصينية وتتباين تبعا لآراء الابطال وحسب ما يتصل الامر بتشين او كيو او جيزور او فيرال او هيمير ليتش او كلابيك . . ويؤكد مالرو : « ان الاطار غير اساسي (. . .) ولكنه ايضا غير عارض . واعتقد انه يوجد فى وقـت ما اماكـن قليلة تتوافـر فيها ظـروف للبطولة . . » (٦)

---

(٣) Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur," **Esprit** octobre 1948.

(٤) Malreux, cite par Henri Dumazeau, **La Condition humaine de Malraux.** Paris, Hatier (collection "Profi d'une oauvre"), 1970. p. 68.

(٥) كان ايزنشتاين سيصور سينمائيا رواية قدر الانسان بموسيقي شوستا كوفيتش ولكن حالت دكتاتورية ستالين دون تحقيق ذلك المشروع . ولم يتم ايضا المشروع الذى اعدته هانسويين فى عام ١٩٧٠ . وفى فرنسا فى عام ١٩٥٤ قام تيرى مونيية ومارسيل تاسا تكور باعداد الرواية مسرحيا وكتب مالرو الفصل الاخير منها .

(٦) Lettre de Malraux a Géten Picon (1934) reproduite en fac-simile sur la page de garde de **Malraux par Lui-mêmo** de G; Picon, Editions du Seuil.

والسمــة الاوليــة لروايــات مالرو هــي معاصرتها . ويستغرق الكاتب فى المعارك المعاصرة ويحاول ان ييسر للقارىء معايشتهــا . ولقــد كانت مؤلفاته حتى عام ١٩٤٥ قريبة تماما من الاحداث ، الى حد ان بعض النقاد لم يروا فيها الا تحقيقا صــحفيا امينا للاحداث المعاصرة .

والصحيح انه اذا كان مالرو قــد كتــب « **الغزاة** » و « **قدر الانسان** » فان ذلك يرجع الى انه فى عام ١٩٢٥ ذهب الى الصين التى كانت فى اوج الحرب الاهلية . وهناك ، ــ ولبعــض الوقت ــ يبدوا انه باشر منصــب قائم مقــام قوميسير الكو منتانج المكلف باعمال الدعاية لدى بورودينى ممثل الاتحاد السوفيتــى فى اللجنــة المركزية للحزب الشيوعى الصينى .

ولا جدال فى ان اعمال مالرو هى نتاج لتجاربه ولقاءاته . وفى هذا المجال فان « سيرة حياته » تميز بين الصور الادبية غير الشخصية لمؤلفــات مالرو الاولى عن اثاره اللاحقة . **ومنذ عام ١٩٢٦ (اغراء الغرب)** اصبحت مؤلفات مالرو « مذكرات خيالية » (٧) لمغامراته الخاصة . وتذكر احــدى شخصياته :

« كيف تريد فهم الشىء عن غير طريــق الذكريات » (٨)

والواقع ان اغلب ابطاله من المغامريــن او السياسيين وهم يتماثلون تماما مع (خالقهم) فى الاحــداث والصرعات الحقيقيــة فى كانتون (**الغزاة عام** ١٩٢٨) ، وفى شنغهاى (**قدر الانسان** عــام ١٩٣٣) ، وفى المانيا (**زمن الاحتقــار** عام ١٩٣٥) ، وفى اسبانيا (**الامل** عام ١٩٣٧) ، وفى فرنسا (**الصراع مع الملاك** عام ١٩٤٣)

ولطالما اخذ على مالرو ، وعلــى الاخــص بالنسبه **لقدر الانسان** « القتال الوحشى والتذوق الدمــوى والتعذيــب والميــل الــى البطولــة السقيمة . » (٩)

وقام رد اندريه على ماذهب اليه النقــاد وفى سطور واضحــة :

« انا لم اختر هذه الوحشية لاننى تلاقيت معها . وكل انسان يستخلص من حياته ، واننى أطالب بهذه وبتلك » . (١٠)

وفضلا عن التفاصيل المتعلقة بتاريخ حياة مالرو فان ما يميز روايته على وجه خاص هــو التاريخ الذى يتداخل فى السرد . فقد اشترك فى بطولة الرواية تشانج ــ كاى ــ تشيك الذى كان

---

(٧) Georges Mounin, „Les Chemins de Malraux'', Les Lettres Françaises, 7 juin 1946.

(٨) André Malraux, **La Condition humaine**, Paris, Gallimard 1933. Edition consultée : Gallimard (collection Folio), 1946. p. 176.

(٩) Robert Brasillach "Le goût malsain de l'héroisme", **L'Action française**, 10 août 1933.

(١٠) André Melraux, „Réponse à Robert Brasillach''. Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans les **Oeuvres complètes de Robert Brasillach**, club de I' Honnête, homme, Tome VII.

وقتذاك على راس القسم المعتدل للكومينتانج ،وبورودين الذى كان فى ذاك التاريخ المستشار الروسى للحكومه الصينية . ولعب كيو دورشواين لاى .

ولا جدال فى ان الحياة الخاصة للبطل وموته من خيال المؤلف . ولقد الهمت مالرو زوجته الاولى كلارا جولد شميدت مشهدالاعتراف بالخيانة . واستطاع مالرو ان يضع نصب عينيه اندريه جيد عندما ابتدع شخصيةجيزور ، واندريه برتيلو عندما خلق شخصية فيرال . واخيرا فقد صور الكاتب اصل كلابيك فى ((**اللامذكرات**)) على وجه دون شخصية الرواية .

وبالنسبة لعدد كبير من المؤلفين وعلى الاخص مالرو فان العمل الأدبي ليس الا انعكاسا وصدى للحياه : ويسعنا أن نؤكد ان العكس صحيح ايضا ، وغالبا ماحدث ذلك ، ويؤكد مالرو نفسه :

« ان العالم اخذ يتشابه مع مؤلفاتى . »(١١)

وفى واقع الامر فان **قدر الانسان** ظلت على مدى اربعين عاما رواية احداث ملتهبة . العالم الثالث والثورة والحرب والشيوعية والنزاع الصينى السوفيتى وموضوع الحرية ، كل ذلك الشغل الشاغل دائما ، وفى الدرجة الاولى ؛لاهتماماتنا . وفى هذا الكتاب الذى قام على التنبؤ تكون بعض ما قدر المؤلف خطوطا للمستقبل . ومنذ عام ١٩٣٣ كان مالرو يعلن « ان قدر الصين بين يدى الحزب الشيوعى » ، (١٢) ولقد استيقظ « ثلاثمائة مليون من الصينيين منطلقين من سبات استمر ثلاثين قرناوسوف لن يستولى عليهم النوم من جديد » (١٣)

وكان الكاتب قد تنبأ منذ سنوات سابقةبالتناقضات بين الحزب الشيوعى الصينى والشيوعية الدولية . واعلن ايضا ان قدر الغرب ربما يتوقف عى ذلك الحزب .

• • •

عالم الرجال

ذهب بعض النقاد الى حد انكار عنوان رواية مالرو **قدر الانسان** واعتبروا انه ممعن فى شططه .

ويؤكد الناقد السوفيتى ايليا اهرنبورجان ما يعنى مالرو ليس هم الصينيون ولا مدينة شنغهاى وانما ماحل باربعة او خمسة رجال فى هذه المدينة فى ربيع عام ١٩٢٧ . ويضيف

---

(١١) A. Malraux, cité par H. Dumazeau, op.cit., p. 24.

(١٢) قدر الانسان

(١٣) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

اهرنبورج ان رواية مالرو ليست مؤلفا عن الثورة وانما هى « صورة راديو جرافية للكاتب مجزاة على عدة ابطال » (١٤) .

ويؤكد ايضا ادموند جالو فى مقال انطوى على الكثير من التقريظ والثناء :

« ان **قدر الانسان** هو قدر معين لنموذج من الناس وخاص بالسيد اندريه مالرو ، ونجده فى كل اعماله ، ويسعنا ان نطلق عليه اسم المغامر المفكر » (١٥)

ولو ان الموضوع الظاهر **لقدر الانسان** فى حقيقته هو الثورة الصينية ، فان المسألة العميقة فى تصوير الحالة المأسوية للانسان فى مواجهة قدره : غموض الوجود ، والشعور العميق بالوحدة ، والتبعية للغير ، وسيطرة فكرة الموت . . . ويرد تماما الكتاب بعد ذلك على عنوانه ، بأنه يقدم انسانية معقدة خالية وعلى قيد الحياة .

ومع ذلك فثمة تحفظات يتعين ابداؤها فى شأن العالم الخاص لمالرو . فهو يرسم عالما من الرجال اساسا ، حيث تحتل المرأة مكانا ضيقا . وتقول ماى بحق :

« كيو ، ما هذه الافكار الخاصة بالرجال »(١٦)

وفى الواقع فان تلك افكار ومسائل من ايحاء الرجال ، وتشكل جوهر اعمال اندريه مالرو .

ولقد كان عالم الرجال من مميزات روايات ستاندال . وبالرغم من تدخل العاطفة الرومانتيكية ، قدم موريس باريس وهنرى دى مونتلران صورة لنشاط الرجال . وكان ارنست بسيكارى رائدا لعالم الفعل ، وجاء بعده لورانس فى بلاد العرب وارنست يونجر فى الحرب والمغامرة ، وسانت اجزيبيرى وهو من رواد الطيارين .

ومحاكاة لكل هؤلاء السابقين استخدم مالرو الحركة كنقطة انطلاق للبحث عن قانون اخلاقى وعن معنى للحياة . وعالمه الانسانى « محدود بالفعل والذكاء الرجالى » (١٧)

ويركز جايتان بيكون على غياب الطفل وندرة وارتباك الشخصيات النسائية فى رواية مالرو . والواقع فكثيرا ما نرى ان ليس لابطال مالرو نساء أو أطفال . ففى **قدر الانسان** يشكو هيمير ليتش من وجود زوجة وابن عليل يتعين عليه حمايتهما . وهذه العلاقات الاسرية تحول دونه « والسعادة

---

(١٤) Ilya Ehrenbourg "La condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans **Vus par un écrivain d'U.R.S.S.** Gallimard, 1934.

(١٥) Edmond Jaloux. „Unc puissance extraordinairc", **Les Nouvelles littéraires,** 16 décembre 1933.

(١٦) **قدر الانسان** ص ٤٦

(١٧) G. Picon, **Malraux par lui-même** p. 49.

فى ان تكون حواء وتمنعه من المساهمة فى الحركةالثورية . كما ان وفاة ذويه ستحقق الخـلاص بالنسبة له .

ويكشف كاتوف ايضا فى ذاته هناءة خبيثة« لا نساء ولا اطفال» (١٨) للحيلولةدونهوالحرية.

وبينما لا يضع مالرو على المسرح فى **الطريقالملكى** وفى **الغزاة** الا رجالا بلا اطفال وعملا بلانساء (فيما خلا ساره ومدام كلاين والداعرات) ، ففى**قدر الانســان** لا نجد الا اثنيين ماى وفاليرى . ومع ذلك فان وجودهما يتصل ويرتبط بزميـلكل منهما كيو وفيرال . وتبعا لما اشار اليه هنرى ديمازو : « انها حالةوحيدةفىروايةمالرو : » (١٩)كيو يحب ماى ، وهى تحبه . ولكنه كانسان فى الدرجة العليا لا يسمح لكل من الجنسين بالحريةفى التصرف فى جسده ، وهو مبـدا مطلـوب فى الاوساط الثورية فى ذلك العصر . ويبين له منذلك انه ذكر فيه روح التملك والغيرة كالآخرين .

اما عن شخصية فاليري وكذلك المحظيات‌اللاتى تظهرن فى الرواية ، فانهن يوضحن الاهمية التي يعلقها مالرو على العشق الجسدى،والتمييزالاساسى بين ذلك الاحســاس وبين الحــب . وليست فاليري بالنسبة لفيرال الا الجنس الآخر.ويكرر الكاتب فى اكثر من موضع ان التعارض بين الجنسين يكمن فى العلاقات .

« بذل من المراة وتملك من الرجل » (٢٠)

« لم تكن المراة الا احد قطبي متعة الرجلالشخصية » (٢١)

ولا يرى فيرال فى فاليري الا تبعية وخضوعاواذلالا . ووفقا لقوله « ان الرغبة فى التعرف الى امراة هى وسيلة لتملكها او الانتقام منها . » (٢٢)

ويبدى ايضا تشين احتقارا شديدا للجنسالمؤنث ويفخر « بانه ليس من النساء » (٢٣)

وعلى ذلك فان التفرقة واضحة بين كل منالجنسين . ورغم ذلك فان مالرو يعرف نساء ويحبهن . وهو قد تزوج ثلاث مرات من سيداتمرموقات ، ولكنه كما يقول « ان المرأة بالنسبة لى كائن مختلف ــ وانا اتحدث عن الفارق وليسعن المستوى ــ ولا استطيع ان اتصور شخصية نسائية . » (٢٤)

---

(١٨) قدر الانسان ص ١٥٢ .

(١٩) H. Dumazeau op. cit., b. 28.

(٢٠) قدر الانسان ص ١٠٣ .

(٢١) قدر الانسان ص ١٠٥ .

(٢٢) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٢٣) قدر الانسان ص ٥٤ .

(٢٤) Malraux à d'Astierde la Vigerie, L'Evênement, août 1967, p. 60.

ولو أن ماى فى **قدر الانسان** قد وجدت الخلاص من العشق الجسدى وتعدت حالة المرأة المملوكة والمحتقرة ، فانما يرجع ذلك الى مشاركتها زوجها فى صراع الثورة . وهذه المرأة « المسترجلة » (٢٥) تتناقض فى وضوح مع زوجة هيميرليتش والعاملة الصغيرة لكاتوف . ولم تكن بحاجة الى حماية المذكور . «هل عشت كامرأة محمية ؟ (٢٦) ذلك هو السؤال الذى طرحته على كيو . انها مساوية للرجل ، واتحاد الزوجين يقوى ويشتد بالصراع الرجالى .

● ● ●

العنصر الباسكالى : بؤس الرجل بدون اله .

تكمن القوة والجمال فى **قدر الانسان** فى تطور الرواية على مراحل متعددة فى ذات الوقت. فمن جهة تمر بالناحية السياسية مما يجعلنا نفهم كيف اعتبر ذلك الكتاب الممتاز وقبل كل شىء رواية ثورية ، ومن جهة اخرى ندرك الانسانية العميقة للمناقشات . ففى كل لحظة ، وعند اقصى عنف للابطال ، فانهم يتساءلون فى لهفة عن مأساة قدرهم .

والذى يعطى العمل وحدة عميقة هو ذلك المجال المعنوى ، الذى يجعل للشخوص قيمتها . ومن خلال جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز ،يسعنا ان نلمس وحدة الرواية اذ اليه يتجه كل الاشخاص ليناقشوا معنى وجودهم . ولقد ابدى تشين حاجته ليراه بعد ارتكابه جريمته .

ويتحدث اليه كيو عن قلقه ، ويبحث فيرال عن صحبة جيزور معجبا « بثقافته الفائقة » و « وضع ذكائه دائما فى خدمة المتحدثين ». وكان يبدو لكلابيك ان « جيزور كان الرجل الوحيد الذى فهمه » ، واما عن الفيلسوف العجوز ذاته فكان يرى فى نفسه ما يرى فيه اولئك الذين كانوا يأتون اليه .

ويقارن جوزيف هوفمان بين دور جيزور ودور المنشدين فى المأساة القديمة لانه هو المكلف باستخلاص معاني الافعال واقوال كل الابطال .

« هذا الشخص يبين على وجه يستبعد كل غموض اين يمكن البحث عن الوحدة العميقة والتعريف **بقدر الانسان** . » (٢٧)

وهكذا ووفقا لشهادة مالرو نفسه فان العنصر الاساسي فى **قدر الانسان** ليس هو « الاطار » وانما « العنصر الاساسى الباسكالى »(٢٨) لان مأساة مالرو معنوية على الاخص . وكتابه يصور طبقا لما ذكر باسكال (مأساة الرجل بدون اله) . ويشير مالرو فى اكثر من موضع

---

(٢٥) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(٢٦) قدر الانسان ص ١٧٢ .

(٢٧) Joseph Hoffmann, L'Humanisme de Malraux, librairic Klincksiek, 1963. p. 157.

(٢٨) A. Malraux, Letterеà Gaêtan Picon, 1934.

الى اثر باسكال على انتاجه . وفى الصفحات الاخيرة من « **اشجار الجوز فى الالتنبرج** » يتحدث عن النص الباسكالى الشهير :

« نتصور عددا كبيرا من الرجال مكبلين بالاغلال ومحكوما عليهم جميعا بالموت ، وكان بعضهم يذبح امام الآخرين كل يوم ومن يبقى منهم يرى قدره فى مصير المماثلين له ... انها صورة قدر الانسان » (٢٩)

ويذكرنا ذلك المثال بمشهد اساسى فى **قدر الانسان** يشكله المسجونون فى ساحة السجن ؛ ومثلما هو الحال مع باسكال ، فان عبث العالم والقلق فى قدر الانسان والانشغال الدائم بالموت كل ذلك يكون الاسس فى اعمال مالرو .

وتتساءل كل شخوص الرواية عن معنى الحياة . ولقد اعتنق تشين ـ الذى تلقى بداءة التعاليم المسيحية ـ الماركسية تحت تأثير جيزور . ولكن الميول السياسية ، عندما حلت محل العاطفة الدينية ، تركت فيه فراغا كبيرا . وتساءل الشاب فى قلق .

« ما جدوى الروح اذا لم يكن هناك رب أو مسيح » (٣٠) .

ويقارن جيزور مفكرا فى معنى الحياة بين القلق المؤلم لتشين والايمان البطولى لكيو . فبينما الاول يائس لان الحياة بلا معنى فان العمل السياسى لكيو وبالعكس « يجعل للوحدة معنى (...) وكان لحياته معنى »

وبالنسبة لهيميرلتش فان العمل الثورى هو « الشىء الوحيد الذى له معنى فى حياته الراهنة » ويفكر فيرال شأنه فى ذلك شأن كل اشخاص الرواية ، وحتى الرسام العجوز كاما يتأمل فى معنى الحياة والموت . ويذهب الفيلسوف جيزور ، وهو هنا يروى عن مالرو ، الى :

« انه من النادر ان يستطيع رجل تحمل (....) قدره الانساني » (٣١)

وفى محاولة للتغلغل فى سر قدر الانسان يظهر مالرو كافة صور القدر ، اى كل ما نتحمله : الوحدة ، والعبث ، والقلق والموت ... هذه كلها مسائل هامة لقدر الانسان وهي ترعب كل الشخوص وتوجد فى كل صفحات الرواية .

ويستعيد مالرو فى ذلك الكتاب صورة الانسانية المحكوم عليها ، وكما قدمها من قبل فى **الغزاة والطريق الملكى** ، وهى تمثل ذات الاسطورة القاسية والدموية عن الشقاء والفشل والقدر ، وتشفى كل شخصيات **قدر الانسان** من وحدة مؤلمة . والفرد منغلق على نفسه ، وعاجز عن الاتصال بالآخرين .

---

(٢٩) مالرو شجر الجوز فى الا لتنبرج .

(٣٠) قدر الانسان ص ٥٨ .

(٣١) قدر الانسان ص ١٩٣ .

ولم يكن تشين قبل ارتكابه جريمته يعلم ،كما لم يكن قادرا على التكهن ، بما ينتظره . فقد كان يتأهب لاقتراف فعل كفيره ، ربما كان علىدرجة اكبر من الاهمية ، ولكنه على اى حال يعتبر كاى فعل عادى ارتكبه حتى ذلك الوقت فقد كان يرى انه سيكون « بعد » هذه الجريمة شأنه كما كان « قبلها » ، وكما لو كان قد اتىبعمل عادى ، ولكن « المجهول » كان فى انتظاره . ولم يكن باستطاعة ذلك العمل ان يدخل ضمنالاعمال السابقة .

« لم يكن هو الخوف ، لقد كان امرا مهولاوقاسيا فى ذات الوقت ولم يعرف له مثيل منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا فىمكان بلا رجال ، ومسحوقا من البشاعه ومنظر الدماء » (٣٢)

كان هناك اذن « عالم الجريمة » الذى لميستطع ان يتقاسمه مع الآخرين وحتى عندما يجد زملاءه ، يظل تشين وحيدا » علـى وجـهغير عادى » ولما يتوجه الى جيزور ، سيـده ، آملا ان يجد عنده شيئا من الراحة لا يستطيعالفيلسوف العجوز ان يسدى اليه نفعا . ويأسف ذلك الاخير « لعزلة القاتل » . ولكن الذى لـميفهمه جيزور هو ان تشين ، الذى رأى من جديد شركاءه فى الجريمة ، « يبدو بعيدا تماما عنهم » ،ولكن ذلك الغموض يبدو فجاة كامر واضح لتشين الذى يقول لجيزور :

« انت لم تقتل احداً ابدا . اليس كذلك؟ »(٣٣) ولم تكن وحدة تشين بعد جريمته وانعزاله شيئا آخر غير وحدة كل رجل . وايا كان عمقالحب الذى يجيش بصدر جيزور لابنه كيو فان جيزور وحده امام ذلك الحب

« هذه الوحدة التامة وحتى الحب الذىكان يكنه لكيو لم يحرره » (٣٤)

وكما هو الحال مع تشين ، ولكن فى مجالآخر ، فان موت كيو بالنسـبة لجيـزور هـو « انفصـال » حقيقى ، ووقف تام ليس له ما بعده. ولم يكن يعلم الى اى « تحول » يمكن للموت ان يقهر الرجل . « لم يعد للحياة معنى او وجود »وبعد سطور من الرواية يكرر جيزور :

« ليس موت كيو الالم وحده او التغييروحده وانما هو تحول تام » (٣٥)

ان فيرال وحيد ومنغلق على « حياته الفردية ومنعزل ومنفرد » وليس هناك ما يمكنه من ان يقهر حواجز ذلك الضمير الذى لا يعرف الاذاته وجسده . وفى العلاقات بين فيرال وفاليري او من خلال زيارة العاهرة الصينيـة يصـطدمفيرال دائما بشخصه .

---

(٣٢) قدر الانسان ص ١٢ .

(٣٣) قدر الانسان ص ٥٣

(٣٤) قدر الانسان ص ٦١

(٣٥) قدر الانسان ص ٢٧٩ .

وخلافا لما يرى هنرى ديمازو الذى يؤكدانه يوجد عند كل الرجال فيما عدا كلابيك الالم والوحدة ، (٣٦) فقد لاحظنا فى تلك الشخصية ،وكذلك فى باقى ابطال الرواية ، الاحساس المحزن بالوحدة المعنوية . ولم يستطع كلابيك الذى نجحفى الافلات من كل ما يقيم عليه الرجال حياتهم كالحب والاسرة والعمل ان يتخلص من الخوف .

« كان الخوف يغمره ويشعره دائما بوحدتهالقاسية » (٣٨)

ويتساءل كيو فى لهفة « ولكن من اكونبالنسبة لحنجرتى ؟ »

وتظهر المسألة فى **قدر الانسان** فى الكشفالمفاجىء لسر ذواتنا ، ويدرك كيو مدى غربته . وتشغله هذه التجربة كثيرا ، ويظل يفكر فيهامرارا . وعندما يصرح لابيه عن متاعبه يرد عليه :

« لقد حدث ان وجدت نفسى فجأة امامرآه ، ولم اتعرف على نفسى » (٣٩)

وتستمر هذه التجربة الغريبة فى ذهن كيو ويتذكر مرة اخرى عندما يترك مايويدرك حينذاك سبب الوحدة المؤلمة للرجل : ولايمكن ابدا لاحدان يكون لغيره مثلما يكون لنفسه . وفى كل كائن « غريب » (٤٠)

(لفظ يقدره تماما البير كامى) وهو غيرمعلوم وغير قابل للتعرف عليه .

وترتيبا على ذلك فان التعبير عن الضميرمستحيل ، وليس للرجل اى طريق ليكن مفهوما ولا يعرف احد الآخر ابدا . وهذا هو الرأى الدائملمالرو . ويؤكد الكاتب ذاته بهامش نصى جايتان بيكون :

« كلمة معرفة التى تنطبق على الناستجعلنى احلم دائما . واعتقد اننا لا نعرف احدا » (٤١) .

• • •

والعالم الروائى لمالرو بدون اتصال . وليسالحوار المتعدد بالكتاب فى واقعه الا حديثا منفردا متتابعا حيث يتحدث كل شخص الى نفسه ومشاكل نفسه دون مراعاة للمتحدث الاخر الذى لايتاثر بحديث الغير .

---

(٣٦) H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

(٣٧) قدر الانسان ص ٢١٨ .

(٣٨) قدر الانسان ص ٤٩ .

(٣٩) قدر الانسان ص ٤١ .

(٤٠) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٤١) Malraux in G. Picon, Malraux par lui-même p. 48,

ويلاحظ كيو فى قلق ان « ماى بعيدة عن فهمه تماما » .

ويقرر جبزور فى اسى ان « احدا لم يعد يعرف الآخر » وعندما تنطبق لاول مرة العبارة التى كررها كثيرا « ليس هناك فهم لاحد » على ابنه ، يسيطر عليه بالغ الاحساسات المؤلمة ترهق كل شخوص **قدر الانسان** . ولم يستطع تشين طوال سطور الكتاب وحتى وفاته ان يبرأ من « القلق الاولى » الذى كان يلاحقه حتى فى احلامه .

ورغم ان مارو يتقارب مع باسكال فى الكثير من النواحى فانه يختلف عنه فى وضوح فى شأن الحلول المتعارضة التى يقترحها كل منهما عن مشكلة القلق . هنا تتدخل وجهات النظر المتعارضة بين هذين المفكرين الكبيرين ـ وفى الوقت الذى يتيسر فيه لبلسكال ان يجتاز قلقه لانه يؤمن بالله ، فان مالرو الذى يرفض العقيدة الدينية يبدو غامضا فى يأس عميق . ولا يستطيع جيزور بعد وفاة كيو ان يتغلب على آلامه وانما يأخذ يفكر فى « الحظ المزرى للآخرين بصلواتهم وزهورهم الجنائزية » وكما قال الفيلسوف العجوز : ان الناس كلهم يتألمون لأنهم يفكرون .

« وفى الواقع فان العقل لا يفكر فى الانسان الا فى الخلود ، وليس الشعور بالحياة الا القلق » (٤٢) .

ومن هنا يبدو القلق الفظيع لكيو « من ان يكون مجرد رجل » . وطبقا لنظرية «ارادة القوة» لنيتشه التى تقول برفع الرجل الى مرتبة السوبرمان (**هكذا قال زرادوسترا**) ، يؤكد مالرو ان كل شخص يحلم « بالافلات من قدر الانسان »، و « ان يكون اكثر من رجل فى عالم الرجال (...) وانها ارادة الالوهية : ان كل رجل يحلم بأن يكون الها » (٤٣)

ومن هنا يبدو عبث الوجود ، لانه من اللحظة التى يستشعر فيها الشخص القلق من انه الى موت عادى ـ « ذلك الشقاء فى ان يكون رجلا » ـ ويفهم حينذاك ان كل بحث يؤدى الى سراب . ومهما كانت ارادته فى الوصول الى اللا نهائى فان جهوده مقضى عليها بنهاية الفرد . ولو بدا قدر الانسان غير محتمل فمرجع ذلك ان مآل مشروعاته وذاته الى الموت .

والرجل لعبة القدر الذى كان يرى ان يسيطر عليه لانه عاجز امام الموت . ويعترف جيزور بانه :

« يمكن ان يخدع الشخص الحياة طويلا ولكنها تنتهى دائما بأن تجعل منا ما نحن عليه » (٤٤) .

وفى قدر الانسان فان الموت حاضر وماثل فى صفحات الرواية . ويستهل الكتاب بالجريمة التى ارتكبها تشين وينتهى باعدام الثوار . وكل شجون مالرو فى شغل بالموت . ويبدو ذلك

---

(٤٢) قدر الانسان ص ٢٨٢ .

(٤٣) قدر الانسان ص ١٩٤ .

(٤٤) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

الموضوع بعمق فى الرواية الى حد انه يظهر فى اسلوب الكاتب واستعاراته : فكيو فى ضيق « من شعور مجهول هدام كالزمن او الموت » .

وبعيدا عن ذلك فان المؤلف يكرر :

« الشىء الوحيد فى ذاته والذى كان قويـاً كالموت » كل تلك الصور الغنية بالفهم تعطى معنى للنص وتبرز اولوية ذلك الموضوع .

والفظيع فى الموت انه « يحول الحياة الـى قدر » . وبدءا من الموت ، لا يمكن تعويض اى شىء

وتلك الصيغة الشهيرة للامل يوضحها احدشخوص الرواية : « الشىء الرئيسى فى الموت انه يجعل ماسبقه غير قابل ابدا للعلاج : التعـذيب والاغتصاب الذى يتبعه الموت ، انه لامر فظيـع حقـا . » (٤٥)

والموت هو الذى لا رجعة فيـه . وعندمـا يضع نهاية للوجود بلاعودة فانه يعطى وجها للخلود لمن كان على قيد الحياة .

ولكن الموت لا يحل شيئا . فهو ليس حـلا للمأساة فى قدر الانسان ، وليس مفتاحا فى البحث عن قيمة الحياة ، كما انه ليس ردا على تسـاؤل الانسان .

ولو كانت حياة الرجل خالدة فهل تكون أكثر احتمالا ؟ لا ، يجيب جيزور ، لان الرجل يهفو الى القوة الكاملة لا الخلود . وما المـوت الا احد أوجه القـدر . وذلك الاخير هـو الذى يسحقنا :

هناك ايضا بجانب الموت الوحـدة والاذلال والالم والتعذيب ... وليس فقط الموت هو الذى يشقى كيو ولكنها ايضا الوحدة :

« من السهل ان يمـوت الانسـان عندمـا لا يموت وحده » (٤٦)

وقلق كل شخوص قدر الانسان ليس مبعثه الموت ، وانما فى ان يكون محدودا بالتبعية والانتماء

والذى يدعو جنود القطار المسلح الى الياس ، ليس هو الموت ، ولكنه الغيظ من عدم القـدرة على الدفاع عن النفس ، والشعور بالشلل والتكبيل بالقيود .

وربما نتقبل الموت مثلما فعل العجوز جيزور كما يصح حتى ان نبتغى الموت لذاتنا وليس لمن نحب ولا لاولادنا مثلا . ولقد كان جيزور متصلا بالرجال ومتعلقا بالحياة عن طريق كيو وبعد وفاة ابنه تملكه حزن شديد .

---

(٤٥) مالرو الامل ص ٢٢٦ .

(٤٦) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« لقد هوى الى ذاته ولم يعد للعالم من معنى » (٤٧)

وهكذا ، وتبعا لمالرو ، فان الرجل مقيـد فى عالم لا معنى له ولا يمكن الافلات منه الى الخلود ، وهو فاقد لكل سبب لمعنى وجوده . ولكن مالرو كرجل عملى لا يقع فى التشاؤم . فهو يعمل ويقيم عملا ايجابيا يصبو الى السيطرة على القدر . وكان يلوح لكيو ، كما هو الحال مع خالقه ، انه « اذا لم يتمكن من ان يهيمن على الموت فانه يواجه حالـة قاسية من الذعر »

ويرفض مالرو بشدة الخضـوع للموت ، وليست كـل مؤلفاتـه الا ارادة السيطرة علـى الانشغال بالموت والقـدر . ولقـد قال جايتـان بيكون :

« لا شك فى ان سارتر كان محقا فى قولة بان الرجل فى رأى مالرو وكذلك هيدجير هو كائن الى موت » . ويصحح مالرو فى الهامش :

« وبدلا من القول الى موت نقول ضـد الموت ؟ فان الظاهر قد يبدو متشابها . » (٤٨)

ونشير بداءة الى الحلـول الخاطئـة التى يعرضها جيزور . فالفيلسوف العجوز يرى انـه يتعين نسيان القلق بالمخدر او العشق الجسدى .

« يجب تخدير الانسان (هكذا يقول) : ذلك لبلد بلد الافيون والا سلام الحشيش وفى الغرب المراة . وربما يكون الحب على الاخص الطريق الذى يلجأ اليه الغرب للتحرر من قدره الانسانى .... » (٤٩)

ويوضح الكاتب عدم جدوى تلك الوسائل ، ولقد حللنا من خلال فيرال فشل العشق الجسدى الذى يعجز عن الانشغال بشىء آخر غير ذاته ، فهو ليس سوى رغبة فى اذلال المراة ، ليشعر ذاته بأن فيرال يعمل على امتلاك كائن آخر ، ويظل بعد ذلك منطويا على نفسه فى وحدته . والمخدر اداة اخرى للتهرب من الانشـغال بالموت ولكن ذلك السبيل للافلات من الواقع ليس الا وهما وليس هروبا حقيقيا . وعندما يلجأ جيزور الى المخدر ليتحرر من نفسه وينسى آلامه يقول : « ثمة عوالم للتأمل بفعل الافيون او بدونه حيث كل شىء بلا أية قيمة » (٥٠) .

وهناك وسيلة خاطئة اخرى هى الميسر الذى انقاد اليه كلابيك بالمخاطرة بحياته وعلى الاخص « بحياة آخر » يتمثل باحساسات قوية يعجز عن أن يجدها فى حياته المتواضـعة . ويدين الكاتب جبن تلك الوسيلة التى لا تعرض المقامر الى خطر حقيقى ، وليست بالتالى الا « انتحارا بلا موت » .

---

(٤٧) قدر الانسان ص ٢٦٤ .

(٤٨) G. Picon, Malraux par lui-même. p. 75,

(٤٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(٥٠) قدر الانسان ص ٥٠ .

وأوهام كلابيك طريق ايضـا لنفى وجوده .وحتى يتمكن من التدليل على تحمله الحياة يتعين عليه ان يتغيب عن حياته ويخوله كل شيء لذلك.الكحول والخيانة وتغيير الحالة المدنية ...

« كلا فلم يكن للرجال وجود طالما تكفى سترةللافلات من ذواتهم ، وللعثور على حياة اخرى فى عيون الآخرين » (٥١) .

فليس هناك اذن سلام متاح فى الهروب خارج قدره . ولا تتوانى عوالم فيرال وجيروز وكلابيك عن كشف فشلهم . وليس العشق الجسـديوالفسق الا « جنات مصطنعة » .

ومن جديد يفرض نفسـه هنا التقارب معباسكال . وذلك المجهود المستمر واليائس للافلات من ذاته هو الموضوع الاساسي للترفيه .

« الشـيء الوحيد الذى نجد فيه العزاء من بؤسنا هو الترفيه وهو ايضا مبعث تعاستنا لأنه هو الذى يمنعنا اساسا من التفكير فى انفسـناويجعلنا نذوى بلا ادنى شعور » (٥٢) .

ولا يتوقف مالرو عند تلك المرحلة اليائسة ،فهو يؤكد ان فى الامكان دائما وجود سلام « لو كان الرجل قادرا على اجتياز حياته بقدره وتعدىقدره فى الحرية بان يكون ذاته » .

وعكس ذلك الترفيه الذى لا يؤدى الى نتيجةما والحلول الخاطئة ، يعارض الكاتب قيما حقيقية وخالدة . ولكى يقهر اغراء اليأس لا تكفى ارادةالحياة ، لأن الحياة للحياة بلا اى معنى . ويوضح الكاتب ان الامر لا يتعلق بالحياة فقط .. وانمابالتغلب على كل مـا يرهق الرجل : الوحـدة والاذلال والهزيمة ....

ولكن الاحساس بالانسانية المقضى عليها لحتمية الفشـل ، بدلا من ان يجعل مالرو يرفض كل قيمة معنوية فقد دفعه الى الاعتراف بالبطولةوالكرم والاخاء والكرامة ....

● ● ●

ولا جدال فى ان تلك القيم الخالدة هي دعامةللدين وتجـد تعبيراتها الاخاذة فى عدة تجـارب دينية ، ولكن — وعلى سـبيل التحديد — فانأهمية وطرافة كتاب مالرو تمثل فى استعادة ذات القيم خارج كل دين واعطائها تفسـيرا وتبريراجديدا ، لأن الفضـائل المعنوية لا قيمة لهـا الا بتعاملها مع الاخلاص والعاطفة للانسـان الذىيعبر عنها . ولقد عبر الكاتب بنفسه بوضـوح ودقة عن الوحدة العميقة « واستمرار » مؤلفهوفكره . وهو يؤكد ان المسـألة الكامنة فى كل كتاباته تبدو فى التساؤل التالى :

---

(٥١) قدر الانسان ص ٢٤٨ .

(٥٢) Blaise Pascal, Pensées (1669), Opusculcs et lettres. Henri Plon éditeur, 1873, p. 190,

« كيف ننبه الرجل بأن بوسعه ان يقيم عظمته ، بدون دين ، على الفناء الذى يسحقه » (٥٣) .

ويحاول مالرو ، مثل نيتشه فيما مضى ، ان يجد خارج كل عقيدة دينية سبيلا لرجل لتجاوز ذاته واسترداد فكرة التقديس .

ويصور **قدر الانسان** تماما ذلك البحث عن المطلق ، والبحث فيما هو اعلى من الرجل أى فيما يدعوه للحياة ، الأمر الذى لا يختلف عما يدعوه للموت .

لذلك يجعل مالرو ابطاله يواجهون دائما الموت . ولكن اذا لم يوجد هناك الخلود فلماذا يكون الرجل متأهبا للمخاطرة بحياته ؟ ويجيب بطل **قدر الانسان** على ذلك السؤال الاساسي : « ما قيمة الحياة لمن لا يقبل الموت من اجلها » (٥٤) وحالة تشين خاصة . فهو يبدو لنا للوهلة الاولى كبطل يغامر بحياته لقضية الثورة . وتبينت لنا فيما بعد البواعث التى دفعته ليقتل : انه ماخوذ بجريمة القتل . ويصبح الارهاب بالنسبة له امرا جذابا يفتنه . ويحاول مع ذلك التخلص من ذلك القدر المأسوى بمحاولة « الموت فى ارفع مراتبه » وتلك الشخصية المعقدة « روح طموحه واضحة الى حد ما ومنفصلة بعض الشيء عن الرجال او مريضة » تحاول أن ترفع من شأن عمله وتعتزم ان تضحى بحياتها فى سبيل قضية الثورة . لأن لو كان قدرها هو الموت فيتعين السيطرة عليه ـ لانتفاء الخلود الذى لا يؤمن به تشين وخالقه ـ والتأكد من مدة غير فترة الوجود الفردى . ويمثل انتصار تشين فى أن يموت بمرأى وشهادة بي الذى يقول له :

« انت الذى تكتب ، سوف تقوم بالتفسير »

وليست شخوص مالرو بمغامرين عاديين ، فهم يريدون دائما ان يلقوا الموت فى بطولة تتماثل مع حياتهم . ولم يكن لكيو الا حلا واحدا وهو فى سجنه وقد علم بالحكم باعدامه : ابتغاء الموت بدلا من تحمله : لأن « الموت أمر سلبى ، ولكن قتل النفس عمل ايجابى » ويبتلع البطل قرصا من السيانور الذى يحتفظ به كل مجاهد فى جيب حزامه .

وبعد ان اعطى كاتوف السيانور بكرم الى اثنين من زملائه الفزعين ، يواجه بشجاعة فائقة الموت الفظيع الذى يفرضه عليه القائمون بتعذيبه ! ، وتقوم بطولة تلك الشخصية المثيرة على الرغبة فى الموت بدلا من انتظار السقوط والاذلال .

وتذكرنا تلك البطولة غير العادية ، والى حد معين ، ببطولة كيو الذى لا يسمح برؤية مجنون يجلده حارس السجن فى وحشية ويحول قسوة ذلك الاخير : الى شخصه . وبالنسبة لكيو مثلما هو الحال بكاتوف ، فان المبدأ واحد : ابتغاء الموت لا الاذلال .

---

(٥٣) A. Malraux, Lettre à A. Hoog, citée par J. Hoffmann op. cit., p. 369,

(٥٤) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

ونتتقل الآن الى موضوع رئيسي فى كتاب مالرووهو : كرامة الانسان .

• • •

تاكيد كرامة الانسان

لتقديم افضل تعبير عن ارادة الكرامة ، اقتضىالأمر ان يبدأ مالرو بتصوير الامتهان فى احط درجاته الذى يفرضه رجل على آخر . ومبرراتالاذلال فى **قدر الانسان** متعددة . ولا يذكر البؤس ابدا لذاته . فالكاتب يعمل على أن يبين آثاره علىالوجود الانسانى . فهو لا يؤدى الى الآلام وحدها ، والانهيار الجسدى ، ولكن آثارها اعمقواخطر من ذلك : فهى تلحق بالكائن ذاته وتسلبه ماديا ومعنويا . ويقول الكاتب « هؤلاء الفزالونالذين يعملون ستة عشر ساعة يوميا منذ طفولتهم والشعب الجريح والمريض والجائع » (٥٥) .

ويبدو مالرو الذى كان فى عام ١٩٣٣ لا يزالفى عهده الشيوعى كأنه يتعامل مع موضوع من وحى كارل ماركس . ففى الصراع بين الطبقاتلا ينصرف بحث البروليتاريا الى تملك الاموال المحرومة منها وحدها وانما تحاول ايضا الحصولعلى استقلال يقلل من شأنها الحرمان منه .

ويقول ماركس فى **وثائق عام ١٨٤٤** :

« ان رفع الاجور (....) ليس الا سدادا لأجور أعلى للعبيد ولا يمهد للعامل مستقبله ولا كرامته الانسانية » (٥٦) .

والكرامة التى لا يوجد بدونها كيان انسانىحقا لازمة ايضا للرجال لزوم العلاقات المادية لهم . ولقدكانت فكرة الكرامة هنا غرضا اساسياللثروة ومطلبا للعديد من المفكرين الذين اهتموا بالمسائل الاجتماعية . ويؤكد روجيه مارتاندى جارد :

« يجب ان يعطى الفرد ليس فقط نصيبهالمادى فى ارباح العمل وانما ايضا ذلك النصيب من الحرية والراحة من العمل والرفاهية ، وبدونذلك لا يستطيع انيتشكل مع كرامته كرجل»(٥٧)

ويدين اراجون فى شدة النظام الرأسمالى الذىلا يترك للمحرومين الا « المـوت والألم والاذلال » (٥٨) .

وفى **الذباب** لسارتر ، يقول اوريستلايجيت بين ضربتين من السيف .

---

(٥٥) قدر الانسان ص ٢١

(٥٦) Karl Mar, **Xanuscrits de** 1844.

(٥٧) Roger Martin du Gard, **Oeuvres complêtes,** Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), 1955. Tome II, L'Eté 14 p. 371.

(٥٨) Louis Aragon, **Les Beaux Quartiers,** Deno'él et Steel, 1936, p. 319.

« من العدل ان تسحق ايها النذل القذر وان تقوض امبراطوريتك على اناس ارجوس ، ومن العدل اعطاؤهم الاحساس بكرامتهم » (٥٩) .

وكما هو الحال عند مالرو فاننا نبعد عن المذهب الماركسي للصراع بين الطبقات بينما تقدم رؤيته نقاطا مشتركة مع العديد من المفكرين اليساريين وحتى الشيوعيين المتطرفين منهم .

وعن مالرو فان الصراع بين الثوار هو صراع قبل كل شيء من أجل الكرامة وابعد مرمى من ان يكون قهرا للسلطة وانتقاما للضمير الذى طال المدى باذلاله والذى لا يسعه ان يتحمل اكثر مما احتمل من الهوان . ويحدد محاربو شنغهاى فى **قدر الانسان** « الذهاب الى غزو عيشهم وكرامتهم » (٦٠) .

وبالمقابلة مع لوحة بؤس واحتقار المجندين الشيوعيين فان الكاتب يقدم صورة لانحدار روسية بيضاء راقصة محترفة فى « القط الاسود » واستقلالا عن كل الآراء السياسية ينعى الكاتب على هذه المرأة افتقارها للكرامة شأنها فى ذلك شأن المقاتلين التعساء وتقول :

« كان لجدى الأكبر ارض طيبة .... ولقد رحلنا بسبب الشيوعيين ، اليس كذلك ؟ وحتى لا نكون مع الناس كلها وحتى نكون محترمات :

هنا نحن اثنتان على المائدة واربع فى الغرفة ....

ويجب دفع الايجار . محترمات .... » (٦١)

وكلما يستغرق هيميرليتش فى ذكرياته يعترف فى مرارة بأن حياته لم تكن الا استمرارا للذل والهوان .

« تلميذ خائب بالمدرسة : يتغيب يوما كل يومين ولتتمكن امه من ان تشتغل فى هدوء تجعله يقوم بأعمالها . والمصنع : يدوى . روح شريرة فى وحدته العسكرية ، ودائما فى السجن . والحرب . غازات سامة . لمن ولأجل ماذا ؟ البلدة ؟ انه لم يكن بلجيكيا ، لقد كان بائسا » (٦٢)

وكما هو الحال فى الصراع مع الشغل بالموت فان شخوص قدر الانسان تتبع طرقا مختلفة فى السلوك وغالبا ما تكون متعارضة ، ففى الصراع ضد الاذلال تلتزم كل شخصية بالطريق المخصص لها .

وكان رد الفعل عند كونيج قاسيا ومهينا . فقد خدم ابتداء فى سيبيريا فى الجيش الابيض ، وعندما قبض عليه الشيوعيون قاموا بتعذيبه ، واحدثوا ثقبا فى كل من كتفيه ، وبكى امامهم .

---

(٥٩) Jean Paul Sartre, Les Mouches, Gallimard, 1943, p. 106.

(٦٠) قدر الانسان ص ٧٩ .

(٦١) قدر الانسان ص ٣٠ .

(٦٢) قدر الانسان ص ١٥٣ .

ولن يستطيع ابدا ان ينسى تلك الاهانة . ومنذذلك الوقت لم ينضم الى كومنتانج الا ليثأر بقتل أكبر عدد ممكن من الشيوعيين .

ويعترف كلابيك بأن رد الفعل القوى والعاصفلدى كونيج امر مألوف لدى اولئك الذين لحقت بهم اهانات بالغة .

« لقد شاهد خرابا خلفته الحروب الاهلية فىالصين وسيبيريا بقدر يكفى ليعرف كم يدفع الامتهان الشديد الناس الى انكار العالم . وانالذى يسفك بعناد والمخدر والانهيار العصبي ، كل ذلك يغذى مثل تلك الوحدة » (٦٣) .

ولأن « الوحدة والتحقير التام » (٦٤) امرانملتحمان **بقدر الانسان** ، ويؤكد الكاتب فى أكثر من موضع ، الصلة الوثيقة بينهما .

ولقد كان فيرال فى حاجة الى احتقار الآخرينليؤكد بنفسه « انه كان يحس بتبعيته لكل قوى العالم . ولكن كانت هناك « فاليرى » التى لم يكنيتبعها » (٦٥) . ويقرر بعد ذلك ان يخضعها ويضغط عليها ويهينها . ولكنه ، وقد سخرتمنه فاليرى ، يحلمبمشاهد منالسلامةوالاغتصاب والتعذيب التى كان يريد اجبارها عليها .

ويبغى تملك أول غانية يقابلها بغرض التخلصمن الكبرياء الجنسى المرذول الذى كان يحطمه .

وعلى النقيض من الانفعالات السلبية الدنيئةالتى بدلا من أن تحرر الانسان فانها تهبط به وتستعيده أكثر فأكثر ، وقد عرض الكاتبأمثلة عديدة ايجابية مصورا ارادة العز والكرامة.

ولو ان هيميرليتش قد أسهم بعنف فى المعركةالثورية فقد كان ذلك لأن الأمر يتصل بالنسبة اليه بثورة الكبرياء الانسانية وباهانة يتعينمحوها . ويصرخ فى غضب عند الهجوم على العدو :

« كانوا سيقضون علينا طوال حياتنا ، ولكنذلك الشخص سيمحو تلك الاهانة » (٦٦) .

وعند نجاحه فى الافلات من اخماد شانج ـكاى ـ تشيك للثورة يعمل منذ ذلك الحين كعامل بمصنع للكهرباء . وبفضل ذلك العمل الجديديكتشف هيميرليتش اخيرا معنى لوجوده :

« انها أول مرة فى حياتى أعمل فيها وانا اعلملماذا دون ان انتظر الموت بفارغ الصبر . . » (٦٧)

ويكون العمل بالنسبة لمالرو جوهر الرجل،والفعلالذى يتطور به دائما . وذلك التوافق التام بين الحاجة الى العملَ وازدهار ما يؤديه موضوعاساسي لباسكال .

---

(٦٣) قدر الانسان ص ٢٢٧ .

(٦٤) قدر الانسان ص ٢٣٨ .

(٦٥) قدر الانسان ص ١٨١ .

(٦٦) قدر الانسان ص ٢٣٣ .

(٦٧) قدر الانسان ص ٢٧٧

Blaise Pascal.

« سعداء اولئك الذين يحبون تماما وبحرية مايجب عليهم ان يحبوا بالضرورة » (٦٨) .

وكم من المرات اشاد زولا بالعمل الذى يعتبربالنسبة اليه القانون الوحيد فى العالم :

« ليس لى الا عقيدة وقوة واحدة وهىالعمل » (٦٩) ويثنى شارل بيجى على « ذلك الاصل العامل » (٧٠) ، ويمتدح اراجون ايضا« عقيدة العمل » (٧١) .

ويرى مالرو فى الرجل كائنا اجتماعيا يتشكلبنشاطه . ويؤكد بطل **قدر الانسان** :

« ليس هناك كبرياء متاحا ولا حياة فعليةلرجل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا دون ان يعرف لماذا يعمل . لقد كان يجب ان يكون لذلكالعمل معنى ويصبح وطنا » (٧٢) .

وفى الوقت الذى تتكيف فيه الحيوانات تبعاللطبيعة ، فان الرجال يغيرونها ويتغيرون انفسهم . ولقد كتب كارل ماركس فى **راس المال** :

« ان العمل فعل يتم بين الرجل والطبيعة فىالدرجة الاولى » (٧٣) .

ذلك الفعل بين الرجل والطبيعة صوره مالرو مرات عديدة يتناول موضوع « القوى الانسانية » فى الصراع ضد الارض وذلك فى **قدر الانسان**وكذلك فى **اشجار جوز التنبرج** .

وطبقا للمفاهيم الماركسية يؤكد **بي** وهو الشيوعي الشاب فى **قدر الانسان** ان دور العامل الحديث يقوم اساسا على عمله . وبتخصيصحياة اكثر عملا دائما واكثر قوة واشعاعا فى خدمة الانسانية ، يشعر بدوره كخلاق .

« ان المدنية تتغير عندما يصبح فجاة لعنصرهاالاكثر ايلاما ـ اذلال الرقيق والعمل لدى العامل الحديث ـ قيمة وعندما لا يعود الأمر متعلقابالهروب من ذلك الاذلال ، وانما بانتظار امن لذاته ، والهرب من ذلك العمل حيث يجد فيهسبب وجوده » (٧٤) .

ورد الفعل ضد الاذلال شيء آخر عند المفكر . فان كيو وقد ادمته خيانة **ماى** يئن من الألم الذى الحق به أكبر اهانة (٥٧) . ولكنه يصل الىالتغلب على غيرته وان « يعثر من جديد على حبه لزوجته » .

---

(٦٨) Emile Zola, Discours prononcé le 18 mai 1893.

(٦٩) Chasles Péguy, **Oeuvres en prose** 1909 - 1914.

(٧٠) Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), p. 1109.

(٧١) Aragon, **Les Beaux Quartiers** p. 383.

(٧٢) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٧٣) Karl Marx, **Le Capital**, Paris, Editions sociales, Tome I, 1948. p. 180.

(٧٤) قدر الانسان ص ٢٧٧ .

(٧٥) قدر الانسان ص ٤٥ .

كيو من ابوين مختلفى الجنسية ولا يتبع اصلامعينا وهــو محتقر من البيض وعلى الاخص من النساء (٧٦) ، واعتناقه الشيوعية مسألة شرف فقط « ارادة الكبــرياء » (٧٧) . وليس الأمــر بالنسبة اليه تنظيم العــالم ولكن ان يكون نبيلاأو يموت (٧٨) . وهكذا يفسر كيو لكونيج انضمامه الى حزب الثوار :

« أرى أن الشيوعية ستوفر الممكن من الكبرياءلأولئك الذين احاربهم » (٧٩) .

ولقد كان انضمام المفكرين الى جانب العمال الموضوع الاساسي لكل الكتاب حول عام ١٩٣٣ . ووقععدد كبير منهم تحت اغراء الماركسيةوتقاربوا مــع الحــزب الشــــيوعى الفرنســـــي . لأسباب مختلفة وظروف متباينة . وابدى اناتول فرانس الحاصــل على جائزة نوبل فى الآداب فى عام ١٩٢١ تأييده للحزب الشـــيوعى الفرنسيواشاد بالمثالية الدولية والسلمية للشيوعية .

وقام المفكرون الشــبان الذين كانوا يديرونمجلة « كلارتيه » بتوجيهها نحو استنكار الحرب والثقافــة البورجوازية ، ودفــع الاحتجاج علىالقيم البورجوازية والرغبة فى الثورة الكاملة من هم اكثر من السرياليين الى الانضمام الى الحزبالشيوعى . ولقد كان تهديد الفاشية هو الذى شــجع الكثير من المفكرين للانخراط ضمن ذلكالحزب فى الوقت الذى كانوا يجهلون فيــه كل شيء عن الماركســـية . وفى الواقع فان تهديدالفاشية وفيما بعد نجاح الجبهــة الشـــعبية (عام ١٩٣٦) والحرب المدنية الاسبانية والمقاومةالفرنسية والصراع ضد الحرب فى الجزائر ... كل تلك الاحداث اسهمت فى اعطاء الحزب اهميةكبيرة لدى الاوســاط الفكرية . وتحت ضــغط الاحــداث التزم فى صــلابة اندريه جيد واندريهمالرو وجان بول ســارتر وجان جيــونو وجان جيهينــو ــ ونحن نذكر هنــا الكبــار ــ جانبالشيوعيين. واشتركوا فىأوجه الانشطة الضخمة فى ذلك الوقت وقدموا مراكزهم ونفوذهم الىالجانب الثورى كما وضــعوا احيانا اقلامهم فى خدمة الحزب الشيوعي الفرنسى . وتلك النخبةمن كبار الكتاب ، مع ميولهم للشيوعية ، كانوا على حذر ، ولم ينضموا رسميا للحزب الشيوعيالفرنسي . والكثيرون وعلى الاخص مالرو (فى عام ١٩٣٩) هجروا الحزب لقيام الخلاف علىخط سلوكه ومذاهبه الثقافية .

والجدير بالذكر هنا ان كتــاب مالرو الــذىيتناول مع ذلك الثورة الشيوعية فى الصــين لم يتبع أى حزب يمينى أو يسارى ، ولقد منعتروايته **الغزاة** من الدخول الى روسيا السوفيتية كما حدث ايضا فى ايطاليا الفاشية : ومن ثم فقدقامت دار النشر (جراسيه) بأعمال الدعاية لذلك الكتاب . ويمكن ان نطبق على **قدر الانسان** ذلكالرأى للويس جيليه الذى ابداه عن **الأمل** :

« اننا فى دهشة للغياب التام لمسائل الفائدةوالاجــور وبالاختصــــار لكل مــا فى الفكــر الماركسى » (٨٠) .

---

(٧٦) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٧٧) قدر الانسان ص ٢٢٥ .

(٧٨) Louis Gillet, Les Nouvelles Littéraires, 8 Janvier 1938.

(٧٩) قدر الانسان ص ٢٤٢ .

(٨٠) Louis Gillet, art. cit.

وشخصية تشين توضح تماما هذه الناحية . ولو كان ذلك الشاب قد ساهم فى العمل الثورى فان مرجع ذلك للعوامل الشخصية المحضة . واذا عمل على قتل شانج ـ كاى ـ تشيك فان ذلك القتل كان حتميا بالنسبة له وحده . وكذلك فان المعنى السياسي والاجتماعي لعمله يتوارى تماما . فهو لا يرى فى جريمته الا اداء لعمل بطولى وضرورى لسد فراغ أليم لروح متعطشة للمطلق . ويبدو ان تشين قد وجد فى لحظة وفاته ترضية كان يهفو اليها ، ومع ذلك نستشعر فشلا لا يسع انكاره : لقد دمر نفسه سدى . لأن عمله انصرف الى لا شيء ، وستظل وحدته بلا رجعة .

والاعمال الايجابية الوحيدة هى تلك التي قامت فيها الثورة بقهر الارهاب ، فتلك الاعمال التى تتمثل فى سلام الشعب الصينى تعلو على المثل الاعلى الذاتى .

وبالنسبة لبطل **قدر الانسان** كما هو الحال بالنسبة لمالرو فان اختياره السياسى مشروط فقط بالقيمة المعنوية التى يقدمها للعمل الثورى . والصراع فى جانب الثوار لا يعنى بالنسبة اليه الا « ان يهزم هنا كرامة ذويه »

وكل اعمال مالرو ليست الا شدوا مؤثرا لمجد الكرامة الانسانية :

« كان لحياة كيو معنى يعرفه : ان يعطى كلا من اولئك الرجال الذين افنتهم المجاعة فى ذلك الوقت وكأنها طاعون بطيء ملكية الكرامة » (٨١)

تلك الكلمة التى غالبا ما يخطها قلم الكاتب تتوالى تقريبا فى كل صحيفة من صفحات الرواية وفى استطاعتنا ان نتبين عبارات عديدة تكشف عن اولوية ذلك الموضوع . ويقول كيو للعمال :

« طالما المصير الى الموت فلنمت لكى نصبح رجالا » (٨٢) والمبدأ الاساسى لكيو هو الآتى :

« كل ما يجعل الانسان يقبل ان يموت من اجله يتجه فى غموض الى تدعيم ذلك القدر بجعله كرامة . » (٨٣)

وحتى يتضح استخلاص ثقة الرجل فى غيره ورغبته فى حياة افضل تعين على مالرو ان يظهر لنا بطريق التناقض سحق وتعاسة كل الذين تحملوا الاحتقار الانسانى . ذلك الهبوط الى الجحيم لازم لفهم افضل لاحتجاج اكبر لا يمكن اخماده من الثوار ضد الظالمين . وتلك البشاعة القبيحة للسجون وبؤس المسجونين ، وانحطاط الضحايا ، كل ذلك صوره مالرو بكفاءة فذة ، وفرض علينا تلك المشاهد التي تؤثر فى اعماقنا .

« ومع هذا ، وايا كانت الاداة التى نقلتها الينا ، فان الذعر كان موجودا ـ ليس هو الخوف ، ولكنه رعب الحيوان والرجال وحدهم تجاه الوحشية اللا انسانية » (٨٤)

---

(٨١) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٨٢) قدر الانسان ص ١٣٢ .

(٨٣) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(٨٤) قدر الانسان ص ٢٥٠ .

ويشعر كيو حتى « بالرغبة فى ان يتقيأ الاذلال الذىيحس به كل رجل امام رجل يتبعه »(٨٥)

● ● ●

اشخاص غير عاديين

طالما اخذ على مالرو الوجه غير العادى لشخوصه . وبلا شك فان ابطاله يبدون لنا كرجال يبحثون باستمرار عن تجاوز انفسهم ،وينجحون فى التفوق على ذواتهم بفضل ممارستهم الحرية ـ ويقول جان جيهينوعن **قدر الانسان :**

« كل الشخوص التى تظهر هنا غير عادية، وربما ندرك كيف يجب ان نعيش بدلا من كيف نعيش » (٨٦)

ويضيف جوزيف هوفمان :

« بقى ان نتساءل دائما ، اذا كان قدرهؤلاء الابطال امرا غير عادى بدلا من ان يكون مثاليا (٨٧)

وما يريد مالرو التعبير عنه فى اعماله هىالقيمة والعظمة الممكنة للرجل وارادته فى اقامة انسانية افضل . من هنا تحفلَ اعماله الفنيةبمشاهد البطولة والعديد من الامثلة عن الكرم والاخلاص والاخاء .... وكل المشاهد الكبيرةفى عمله هى كما قال جايتان بيكون « تمجيد للاخاء » بينما الاحساس بالعزلة الفردية احدىالمآسى الكبرى بالكتاب ، وانتصار كيو وكاتوف وهيميرليتش وبي وماى فى تضامنهم مع الشعبالبائس الصينى ويعكس العمل الوجودى والموت بلا جدوى لتشين يعارض الكاتب انتصار بطولةكيو :

« ان موت كيو وسط همهمة اخوية لمجموعةمن المقهورين حيث يعرف الكثيرون شهداءهم ، ومن خلال تلكالاسطورة الدموية يصنعون اساطيرذهبية » (٨٨)

وتظل المشاهد الشهيرةوهي اعطاء السيانور لرفاق النضال فى ساحة السجون اكبر رمز لانتصار الاخاء ، ويقابل مالرو عدم التلاقى بينالناس بتآلف كيو وماى بفضل تأكيد حبهما . وان قلق كيو يعود الى شعوره المؤلم بتجاهل ماى وهوشعور خففه قوله « انا لا اعرفها الا بقدر ما أحبها » .

وذلك التضامن اكثر تأثيرا عندما يدعموحدة الثوار . ومن خلال الانتماء الى ذات المثل الاعلى والاحساس المماثل يتلاقى كاتوفوهيميرليتش :

---

(٨٥) قدر الانسان ص ٢٣٦ .

(٨٦) JeantGuéhenno,t,,Le Tragique et le auotidien'' Europe, 15 Juin 1933.

(٨٧) J. Hoffmann, op. ci-., p. 373.

(٨٨) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« يجب ان تفهمني دون ان اقول شيئا . ليس هناك ما يقال » (٨٩)

وكل مؤلف مالرو يقوم على كتابة « اسطورة البروليتاريا » والثورة فرصة مواتية لتخلق للرجال اسبابا بطولية ليعيشوا ونظاما للقيم قادرا على تحويل الوجود وجعله اكثر نبلا . وموضوع الثورة هذا من اغنى اعمال مالرو اذ تلتقى فيه كل موضوعاته الاخرى ... وبالنسبة للثوار فى **قدر الانسان** فان الثورة هى الوسيلة الوحيدة لتحرير الرجل . ومن خلال المعركة يجابه الابطال مختلف اوجه القدر : العبث والقلق والخطر والموت ... وبالتالى يتعين عليهم اظهار فضائلهم الانسانية : الارادة والشجاعة وروح التضحية : مثل كيو وكاتوف اللذين يبذلان فى بساطة عطاء اكثر من حياتهما فى سبيل انتصار قضيتهما .

وتمثل الميزة الكبرى لكاتب **قدر الانسان** فى توفيقه المثير للاعجاب بين الفعل والفكر . فهناك مناقشات ذهنية ومعارك شرسة تتوالى على التعاقب . ولو كان الفعل فى **الغزاة والطريق الملكى** يبدو عند مالرو قوة فكرية محضة ، واحيانا مستلهما من نيتشه ، ففى **قدر الانسان** ، يصبح العمل البطولى المحض ، الذى يكاد يكون بلا مقابل ، اكثر انسانية . والامر لا يتصل بالعمل لمجرد العمل . وكل القيم المعنوية الرفيعة تحيى النص كله : ارادة وتضامن واخاء رجولى بين المحاربين الذين يتصارعون ويتألمون لتأكيد كرامتهم .

ولقد اخذ ايضا على مالرو حواره الطويل وآراء ابطاله الذين يتحدثون فيما بينهم عن معنى الثورة والقدر ، وكذلك مجموعة من الخطب المجردة للمفكرين الذين يتساءلون عن قيمة اهدافهم واعمالهم . ويؤكد هنرى دى مونترلان ، وهو مع ذلك معجب بذكاء وعمق كتاب مالرو :

« آخذ احيانا على تلك المحادثات انها تلمس الافتعال وجيشا من المفكرين كما فى روايات ما قبل الحرب حيث الشخوص وبلا استثناء ذات ذكاء » (٩٠)

ويأسف مونترلان لان مالرو لم يقدم فى كتابه الا انسانية رفيعة ، متجاهلا من هم دونها . فى حين اننا فى الحرب كما فى الحياة لا نختار الاشخاص الذين نعيش معهم وبالتالى نقابل حتما « المغفلين » او المرافقين الذين لا يشاركوننا حتما افكارنا .

ذلك التعليق من مونترلان يذكر بالملاحظة الشهيرة التى وجهها جيد الى مالرو :

« ليس هناك مغفلون فى مؤلفاتكم » ويرد مالرو :

« انا لا اكتب لاضايق نفسى . اما عن الاغبياء فالحياة تكفى » (٩١)

ومن ثم يجب علينا ان نعترف بان **قدر الانسان** ، طبقا لعنوانه ، يبحث فى عمق المسائل الاكبر أهمية والاعظم اثارة للقلق والتي تطرح على الرجل . ومع ذلك فان تلك الرواية لا تقدم لنا

---

(٨٩) **قدر الانسان** ص ١٧٨ .

(٩٠) Henry dc Montherlant **Carnets 1930 - 1944** (année 1938) Editions +Gallimard, 1957.

(٩١) Cité en margedu texte de G .Picon, **Malraux par Luc-même** p. 44.

نوعيات انسانية مختلفة كما هو الحال مع بلزاك وتولستوى او ديكنز مثلا . فكل شخصيات مالرو واحدة « الكل يتشابه بعاطفة فظيعة واحدة ويأس فظيع واحد » . (٩٢) واختياراتهم دائما واحدة وبذات المعنى : والكل يتصارع ضد سحق الرجل . ومن اليسير تفسير تلك « الرتابة الواضحة » (٩٣) فان شخوص مالرو ليسوا الاصورة لشخصية الكاتب ذاته . وما يتميز به ذلك الصنف من الابطال الذى ابتدعه مالرو هوالقدرة على العمل والثقافة ووضوح الرؤية وهي ليست صفات عميقة للكاتب ذاته .

وانها لعقلية مالرو التى نجدها فى شخصياته وفى احاديثهم . وتماثل هؤلاء الابطال وتشابههم فيما بينهم يرجع الى ان ملامحهم هى ذات ملامح خالقهم . فلهم ذات الذوق فى التفكير وفى العمل وهى الصفة الغالبة عند مالرو .

وكما ان شخوص الكاتب ليست الا انعكاسا لذاته ، فانه لا يرسم بالتالى الا شخوصا هو قادر على تقديرهم ، او تحس بمشاعر يسعه هو ان يحس بها . لان « مالرو يفهم اكثر مما يصور » . (٩٤) ومثل ذلك الاتجاه يمنع الكاتب من تكوين شخصيات يستنكرها او تكون غريبة عنه . وكما اوضح جايتان بيكون فى تحليله فان كلابيك وجيزورا و فيرال ، لو كانوا قد قدموا بعض المظاهر التي يرفضها الكاتب فان مالرو لم يصورهم بوضوح الا لانه احس بمشاعر مشتركة فى بعض الاوقات من وجوده : اوهام كلابيك والتهدئة بالافيون وتذوق العمل للقوة عند فيرال ــ اذ هناك دائما بين الكاتب وشخصياته الاتفاق الكامل بين الخالق وبين مخلوقاته : وهو التفاهم .

وذلك التفاهم ذاته يعتنقه مالرو ايضا تجاه معاصريه .

« لم يوقع ابدا الا على نقد يقوم على الاعجاب » (٩٥)

ولم يتحدث ابدا الا عن كتّاب يقدرهم :نيتشه ، لاكلو ، فولكنر ، جيد وبيرنانوس ....

ولما كان مالرو يرفض ان يصور شخوصا لا يستطيع فهمها فانه لم يصور ابدا الاعداء . ويتقاتل كل ثوار **قدر الانسان** فى شراسة ضد افكار مجردة وضد ظلال لم ترسم فى دقة . فليس لجنود تشانج ــ كاى ــ تشيك ولا لمعذبى كيو وكاتوف اى وجود خاص بهم . ولم يمثلوا فى الكتاب الا تبعا للابطال ، وليس لهم من دور الا اظهار قيمة الابطال .

وبالنسبة لفيرال التابع للجانب المعادى والذى يقاتل الثوار فان الكاتب يرسمه بحياد وموضوعية . ولمالرو الفضل فى ان يحكم بانصاف وتفهم على هذا الشخص الذى يدينه مع ذلك .

---

(٩٢) Robert Brasillach, art. cit.,

(٩٣) G. Picon, **Malraux par Lui-même** p. 49.

(٩٤) Ibid., p.35.

(٩٥) Ibid., p.30

وخلافا لما ذهب اليه الكتاب الملتزمون المعاصرون ، فان مالرو يرفض تحقير العدو او امتهانه . فى حين ان اراجون فى رواياته يتخذ موقفا منحازا فى ثبات ، ويقابل صورا هزلية بتمجيد شخوص مثالية . وبالعكس فان مالرو يبرز اعمال فيرال ويمنحه صفات معينة : الاستقامة ، ومعنى العمل ، وقوة الخلق . (٩٦) ولو كان الازدواج ((Le manicheisme)) للعالم الروائي لاراجون واضحا فان كل ابطال مالرو قد رسموا بطريقة اخاذة تبرر اعمالها ، لان لا احد ضد الازدواج اكثر من كاتب **قدر الانسان** . وهو يؤكد فى **الامل** :

« ان المفكر الكبير رجل يبحث عن تلمس الدقة ، والمرتبة والصفة والحقيقة الذاتية . وهو طبقا لتعريفه وجوهره ضد الازدواج . ـ ((antimanichéen)) . » (٩٧)

ويمنح مالرو فيرال ذات الذكاء اللامع الذى يختص به الثوار ... وعندما يدور الحوار بين فيرال وجيزور تكون اوجه النظر المخالفة والتى يتبادلانها صحيحة ايضا . واذا استطعنا ان نتثبت من ان المحادثات لن تؤدى ابدا الى حل تنتهى اليه فان كلا المتحادثين يظل عند موقفه فى النهاية . وتشبه كلود أدموند مانيى تلك المحادثات بمشاهد الفعل العنيفة والقوية .

« ان صلصلة الحوار عند اختلاف اوجه النظر تتلاقى كالسيوف » (٩٨)

وعندما يقول فيرال لجيزور :

الا ترى انه من الغباء المميز للجنس البشرى ان رجلا ليست امامه الا حياة واحدة يفقدها فى سبيل فكرة ؟ » (٩٩) هنا حقيقة لا يمكن انكارها . ويرد جيزور بحقيقة هى ايضا غير قابلة للانكار :

« من النادر ان يستطيع رجلا تحمل ماذا اقول ؟ قدره الانسانى .... » (١٠٠)

● ● ●

التركيب المزدوج للرواية

فن التناقض عند مالرو

كتب جان روسيه فى مقدمة كتابه **الشكل والمعنى** :

« ليس هناك من شكل نشعر به الا حيث يقوم اتفاق او علاقة او خط للقوى او صورة

---

(٩٦) قدر الانسان ص ٧٦ .

(٩٧) الامل ص ٢٧٩ .

(٩٨) Claude Edmonde Magny, art. cit.

(٩٩) قدر الانسان ص ١٩٣ .

(١٠٠) قدر الانسان ١٩٣ .

متكررة او صدى او شبكة للتجمع . ساسـمى تركيبات كل تلك الاشكال الدائمة والعلاقات تكشفا عن عالم عقلى وكل فنان يبتكرها وفقـا لحاجته . » (١٠١)

وانطلاقا من ذلك التعريف قمنا بدراسة التكوين الازدواجى **لقدر الانسان** الذى يفرض نفسه فى وضوح فى كتاب مالرو ويبدو كأنه فكرة دائمة . ولقد راعينا ايضا فى تحليلنا للنظام الذى قام لوسيان جولدمان بتطبيقه فى دراسته عن اعمال مالرو :

« ان دراسة كهذه تفترض فى الواقع (...) القاء الضوء على عدد من التركيبات ذات المعنى والقابلة لمراعاة الجانب الاكبر على الاقل مـن مضمون كتاباته وصفاته الشكلية » (١٠٢)

وثمة متوازيات فى **قدر الانسان**، ولقد سبق ان اشرنا الى ذلك التأرجح المستمر بين الفكر والفعل .

« طبعا ليس الامر مجرد اصطناع ، ويعلو مضمون الرواية على ان يكون سردا بحتا لان تصادم الاحداث الذى يثيره الكاتب هو الذى يعطـى الروايـة معناها . » (١٠٣)

ومن هنا تبدو الكثافة الشديدة للرواية غنية بالمتناقضات . وتسيطر على الكتاب المواجهة بين المتضادين الكبيرين وهما : الانسـان والقـدر . ويشكل ذلك التعارض القطبين الاساسيين للرواية . وتتوالى هذه الانقسامات من خلال قدر الانسان كله حيث تتواجد فى كل مجالاته . ويتكون مضمون الرواية من تمييز عميق بين الثورة والثورة المضادة . ولو اعتنقنا الفكرة المثالية للثـورة والجهـود فى سبيل تحرير المجموعات الصينية التى كرس لها ابطال مثل تشين وكيو وكاتوف كل جهدهم نجد ان كلابيك ، وعلى الاخص ، فيرال ، من الاعداء . وذلك الاخير راسمالى ومن رجال المال ، ومصالحه الكبيرة مهددة من الثورة .

ولقد سبق ان تناولنا فى مجال دراسـتنا التناقض بين الموضوعات المختلفة للروايـة . فالاحساس بعدم الاتصال والوحدة والانفصـال المطلق عن الآخرين يقابله ويعوضه الحب الـذى يكنه كيو لماى وعلى الاخص التعاون المقدس بين اخوة المعركة . وان التحقير والامتهان العميق اللذين يصمان يتجاوزهما ويقهرهما الصراع فى سبيل تأكيد الكرامة . وفوق ذلك ، وعلى النقيض نرى ، أن صورة الثورة على تحقير الانسان ذات اثر شديد . وان ايمان الثوار بعالم افضل يبدو اكثر قوة وعنفا .

وذلك التقسيم المزدوج الموجود على مستوى الموضوعات الرئيسية يظهر ايضا على مستوى آخر فى نفسية الشخوص . ويتعارض فى وضوح وهم كلابيك وطريق نفى الوجود والهبوط بالحقيقة الى العدم مع البحث عن المطلق الذى يتسلط على ابطال الرواية ومع بحثهم عن القيم الخالدة التى

---

(١٠١) Jean Rousset, **Forme et significations**, Essais sur les structures littéraires de Corneille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI - XII.

(١٠٢) Lucien Goldmann, **Pour une sociologie du roman**, Gallimard, (Collection Idées) 1964 p.61.

تعطى معنى لوجودهم . ونشير ايضا الى تضاربعالم كيو مع عالم فيرال . وتناقض افكار ذلك الاخير وآراء جيزور ، وتناقض الاهداف التيىرمى اليها الثوار مع اغراض الكومنتانج . وبين ذلك الازدواج ايضا داخل الثور . وان بساطةشخصية كيو هى عكس تعقيد شخصية تشين . ويلاحظ جيزور التعارض الاساسي بين هـذينالبطلين ويتأمل فى مصـير كل منهما ويقارن بينهما (١٠٣) .

ونشير ايضا الى موضوع من الموضوعاتبكتاب مالرو : التفرقة بين الشرق والغرب . ويصور مالرو ذلك التعارض من خلال قلق القساللوثرى ورعبه من المدنية التقليدية بالصين(١٠٤) وبالعكس فان عم تشين ـ وهو من اتباع كونفوشيوس يحذر ابن اخيه من تلقى العلم بالمدارس الارسالية وعلى الاخص فانه يحول دونابن اخيه واعتناق فكرة جهنم التى كان يرهبها . ويقابل مالرو بين قلق القس الشديد وسلام المفكرين الشرقيين .

وفى قدر الانسان فان جيزور الفيلسوفالفرنسى العجوز هو الذى يمثل ذلك الرمز الصينى . لان الكاتب يريد التركيز بذلك على انهفى الامكان من وراء مواجهة مدنيتين متصارعتين خلق الكثير فى الرجل .

وبالنسبة لجيزور فان الافيون هواذاةالتهرب من النفس والتعاون مع العالم جوهر الحكمة الشرقية :

« كان يرى الناس فى طيبة ، والعالم بكلماهو متاح ومستطاع » . (١٠٥)

ويتأكد باستمرار ذلك الانفصال الظاهربين الشرق والغرب فى رواية مالرو . والتفرقة صارخة فى الحب مثل ما فى غيره من الموضوعات. ويتعارض الخضوع التقليدى للمراة الشرقية مع ثورة فاليرى على فكرة سيطرة فيرال . « انالحب المعنوى الفعلى والمبيد » (١٠٦) الذى ربط بين ماى وكيو وحتى بعد موت ذلك الاخير كانغريبا تماما عن جيزور :

« لقد احب يابانية لانه يحب الحنان ولانالحب فى نظره لم يكن نزاعا وانما التامل بثقة فى وجه محبوب ، وتجسيدا للموسيقي الصافية ـوهو عذوبة مؤثرة » (١٠٧) .

ولان ذلك الانسجام الكامل بين الجنسينيحكم علاقات الرسام الياباني كاما وزوجته(١٠٨) فان مالرو الذى يبدو ، كما لو كان يشيدبالزوجين الشرقيين ، يعلم تماما ان هناك بعض المبالغات العكسية فى علاقاتهما . وتدين ماىعبودية المراة الصينية وتبلغ فى كل ليلة عن انتحار

---

(١٠٣) Claude - Edmonde Magny, art. acit.

(١٠٤) قدر الانسان ص ٥٩ .

(١٠٥) قدر الانسان ص ٦٠ .

(١٠٦) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(١٠٧) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(١٠٨) قدر الانسان ص ١٦٢ .

المحظيات ، ولقد انقذت فتاة مسكينة كانت قدحاولت الانتحار بشفرة فى هودج الزفاف ، وعندما علمت الام بان ابنتها لم تمت صاحت« مسكينة انت ايتها الصغيرة ! . ومع ذلك فقد كادت تتاح لها فرصة الموت .. » (١٠٩) وهوتعليق يغني عن اى مزيد من الشرح ويقدم لنا صورة وافية عن حالة المرأة فى ذاك الوقت .

ذلك التناقض بين الشرق والغرب ظاهرهفى جلاء فى مجال الاحاسيس . ويبدو مالرو بذلك رساما قادرا على تصوير الغربة . كما يمتازبرسم ملامح الصين التى عرفها جيدا .

ذلك الروائى ذو حاسة الشم القوية مثلشارل بودلير ومارسيل بروست يميز بين الروائح الخاصة بآسيا واوروبا . ويفكر كيو فى الاراضىالمزروعة بنبات الناردين المحترق (١١٠) ويستنشق فى مدينة هان ـ كيو رائحة الكافورواريج البساتين (١١١) .

اما عن كلابيك الذى ارغم على ترك آسياوالذى يخشى العودة الى اوروبا فان أول ما ذكره بتلك القاره حاسة الشم :

« تنبعث رائحة الشجر والفحم المبتل منالحديقة . ذلك الاريج المر هي اوروبا » (١١٢).

ومع ذلك لا يجب ان يغرب عن البال ابداعند دراسة قدر الانسان ان الكاتب مهما كان ملتزما فى مناقشات مذهبية فهو يظل قبل كلَشيء فنانا كبيرا . ذلك الهاوى الفن يوضح على لسان الرسام اليابانى كاما الفرق بين فرديةالرسم الغربى وعالمية فن الشرق الاقصى .

« عندما ذهبت الى اوروبا شاهدتالمتاحف . وكلما صنع رساموكم التفاح وحتى الخطوط التى لا تمثل شيئا زاد تعبيرهم عن انفسهم .وبالنسبة لى فالعالم هو الاهم » (١١٣).

ويمنح مالرو جيزور « تذوقه النقى للفن .(١١٤) وعندما ينظر الفيلسوف العجوز الى تشين وانفه المسحوق « كالمنقار » (١١٥) يتذكر« صقرا مصريا من البرونز احتفظ كيو بصورته لحبه لتشين » (١١٦) .

واوجه المشابهة مع الاعمال الفنية متعددةفى الرواية :

---

(١٠٨) قدر الانسان ص ٤٢

(١١٠) قدر الانسان ص ١٢ .

(١١١) قدر الانسان ص ١٢٩ .

(١١٢) قدر الانسان ص ٢٠٢ .

(١١٣) قدر الانسان ص ١٦١ .

(١١٤) قدر الانسان ص ٦٠.

(١١٥) قدر الانسان ص ١٤ .

(١١٦) قدر الانسان ص ٥١ .

« ان الصين المسفوكة بالدماء مثل قرابين البرونز » . (١١٧) وكان لاحد ضباط الصف الصينيين « كل ملامح الوجه طولا والجسم مقوس قليلا الى الامام مثل تماثيل العاج التى تأخذ شكل انياب الفيل » (١١٨) . وتجعل خادمة شقراء صلبة كلابيك يفكر فى « لوحة من لوحات روبنس (....) ولكنها ليست تامة » (١١٩) .

وكذلك يعلن مالرو فى **قدر الانسان** فكرته الشهيرة عن الفن وهو عنده « **ضد القدر** » مثل البطولة وثورة التحرير والاخاء . ويؤكد فيمابعد انه الطريق الرفيع ليجاوز الرجل ذاته دون عنف وبالمناداة بالتعاون مع كل واحد فى ابتداع لانهائي .

وقد وُهب ذلك الفنان الكبير احساناعميقا بلعبة الاضواء ، ولاحظ جايتان بيكون نظرته المتفهمة للغة الالوان :

« لكل من كتبه لون ونور . فهناك لون **للغزاة** وهو غير ذلك الذى فى **الطريق الملكى** . ويترك لك **قدر الانسان** ذكرى متعارضة من الظلال والانوار ويجعلنا نشبهه بلوحة « فظائع الحرب » لجويا ، اكثر من اية رواية اخرى . **والامل** كتاب داكن واخضر غامق احيانا واحمر دموى احيانا اخرى » . (١٢٠)

وفى الواقع فان مايصدم القارى قبل كل شىء هو التناقض الدائم بين الانوار القوية المبهرة للابصار وبين الظلال .

ومنذ المشهد الاول فى الرواية يرسم الكاتب « جسدا اقل وضوحا من الخيال » (١٢١) وكنور وحيد « مستطيل كبير من الاضاءة الكهربائية الباهتة » (١٢٢) .

ولكن بعد تقديم تلك البيانات يعود اليها الكاتب عدة مرات فى ذات الفصل مصرا فى كل مرة على التناقض بين النور والظلام .

وحتى بالنسبة للتعبير عن المشاعر فان الكاتب يلجأ الى المقارنات المستعارة من مجال الاضاءة : « تلك الليلة المسحوقة بالقلق لم تكن الا نورا » (١٢٣) .

وبعد جريمة القتل تتغير انارة الحجرة وتتسق الاضاءة الجديدة تماما مع الانقلاب العميق لتشين « فى النور الثابت والصاخب » (١٢٤) .

---

(١١٧) قدر الانسان ص ٥١ .
(١١٨) قدر الانسان ص ١٣٥ .
(١١٩) قدر الانسان ص ٢٠٨ .
(١٢٠) Ca'étan Picon, l'Usage de la lecture, Mercure de France 1960.
(١٢١) قدر الانسان ص ٩
(١٢٢) قدر الانسان ص ٩
(١٢٣) قدر الانسان ص ١٠
(١٢٤) قدر الانسان ص ص ١٢ .

وثمة مناظر اخرى اكثر دلالة : « مهزوزةمن قلقة كان الليل يغلى كدخان اسود هائل ملىء بالشرر » . (١٢٥) ويقدر مايهدأ تنفس تشين قليلا « يخمد الليل وتظهر النجوم من خلال تمزق السحب » (١٢٦) وتسع متابعة تلك الدراسة الى مالا نهاية .. ولكننا نقتصر على الاشارة الى امثلة هى فى نظرنا آيات على عبقرية التعارض .

وعندما يقدم لنا مالرو كيو لاول مرة من والدين مختلفى الجنسية ، من ام يابانية واب فرنسي ، يذكر الكاتب بفضل القاء الضوء على مميزات هذين الاصلين اللذين يشاركان وجه البطل :

« يؤرجح الباب المغلق المصلح (....) وعندما يمر المصباح فوق راس كيو يميز بوضوح فمه المشابة لما فى اللوحات اليابانية . وعندما يبتعد المصباح تتغير اماكن الظلال ، ويبدو وجه ذلك المولد وكأنه وجه اوروبى تقريبا ولما يكون تأرجح المصباح فى نطاق ضيق يلوح وجه كيو اقل اختلافا » . (١٢٧)

تلك اللوحة اخاذة الى حد انها تجعلنا نشعر بالدوار . ونشير مع ذلك الى وفرة الظلام . فاغلب المشاهد تقريبا تدور فى الظلام . ونتخيل وجود اشخاص اكثر مما نراهم :

« ذلك الصديق الذى يكاد يكون ظاهرا »(١٢٨) وجوه ظاهرة الى حد ما فى الظل ».(١٢٩) « لم يكن الظل يسمح برؤية تعبير الوجوه » .(١٣٠) وخيال تشين « كان ينفصل فى غموض ». (١٣١) واذا كان زميلاه بصعوبة قد شاهداه . ويضيف الكاتب جملة قصيرة اكثر دلالة من شرح اطول : « ومع ذلك كان يملأ الحجرة »(١٣٢)

ولقد كان المنظر دائما غير واضح كالشخصيات » : منازل غير واضحة » (١٣٣) . الانوار المبهمة بمدن الضباب » . (١٣٤) وكان الجو الملىء بالضباب شبه مستمر وبتكيف تماما مع الظروف » : كانت الشمس ذات اللون الاصفر والمليئة بالضباط تجعل وجوه تشين وزميليه باهتة » (١٣٥) بعد ان فشلوا فى مؤامرتهم بقتل تشانج ـ كاى ـ تشيك . وابعد من ذلك « كانت السماء رمادية اللون وكانت تهيمن هناك على ضوء رصاصي مثل ذلك الذى

---

(١٢٥) قدر الانسان ص ١٢ .
(١٢٦) قدر الانسان ص ١٢
(١٢٧) قدر الانسان ص ١٦ .
(١٢٨) قدر الانسان ص ١٢٩ .
(١٢٩) قدر الانسان ص ١٣٢ .
(١٣٠) قدر الانسان ص ١٣٣ .
(١٣١) قدر الانسان ص ١٥٧ .
(١٣٢) قدر الانسان ص ١٥٧ .
(١٣٣) قدر الانسان ص ١٤٩ .
(١٣٤) قدر الانسان ص ١٩٧ .
(١٣٥) قدر الانسان ص ١٥٠ .

يسبق الرعد » . (١٣٦) عبارة مزدوجة المعنى لان تشين فى تلك اللحظة على الاخص يتخذ قراره بارتكاب جريمة الانتحار .

وبعكس تلك الانارة الهادئة وغير الواضحة والحزينة دائما فان لقوة الاضاءة مؤدى معينا . وعندما يتأهب الثوار للهجوم على السفينة تشانج ـ تونج ، يخاطرون بالقبض عليهم من السفن الحربية للاعداء: «كانت اضواء الكشافات تتنقل بسرعة من السماء الى الميناء وتتلاقي كالسيوف » (١٣٧) .

ويقتضي الامر ايضا الاشارة الى اهمية الشمس التي ندر ظهورها فى الرواية . وتفسر الشمس انتصار الثوار ولكنه انتصار « مؤقت » لايستمر الا قليلا .

« الشارع ملىء بالشمس (...) وكان كيو ينظر الى الرصيف الذى يلمع تحت الشمس المؤقتة » (١٣٨) .

وفوق ذلك فان الانارة الاخيرة رئيسية :« كان جيزور يتأمل الخليج الملىء بالشمس »(١٣٩) . وكذلك فان تلك الرواية التى كانت مليئة بالضباب والظلام تنتهي على صورة مضيئة وتترك شعاعا من « الامل » .

ومثل الانارة فى رواية مالرو التى تظهر وتختفى فان تتابع الجلبة والسكون يقوم على تضاربهما وتناقضهما . والصفارات المتزايدة وآلات التنبيه وطلقات المدافع ودقات التليفون والاصوات البشرية الصادرة عن الالم ، كل ذلك يرن مثل صوت القدر وينفصل حتما فى خلفية صامتة .

ومن الصحيفة الاولى للرواية يبدو ذلك التعارض جليا : « تنطق آلات تنبية اربع او خمس مرات دفعة واحدة » . ثم « تسكن هذه الموجة من الضجيج » . (١٤٠) ويستمر المشهد فى صمت عجيب .

ويميز الرواية كلها ذلك التتابع الدائم للرتابة والازعاج ويعطيها نسقا متهدجا متقطعا . ويظهر التعارض اكثر جلاء عندما يأتي فى ذات العبارة :

« الصمت ـ الجماعة الصينية عادة من الاكثر بريقا ـ كان يعلن عن نهاية العالم » (١٤١)

---

(١٣٦) قدر الانسان ص ١٥٦ .

(١٣٧) قدر الانسان ص ٦٣ .

(١٣٨) قدر الانسان ص ١٠٨ .

(١٣٩) قدر الانسان ص ٢٨٤ .

(١٤٠) قدر الانسان ص ٩ .

(١٤١) قدر الانسان ص ٧٧ .

وكذلك « خلال الصمت كانت تسمع نغمات من الجيتار » (١٤٢) وحتى ينتهى ذلك الازدواج الذى يتسنى لنا متابعته طويلا نذكر التعارضات العديدة التى توجد على مستوى الاسلوب .

لان الازدواج الذى يميز الموضوع يؤثر على الشكل وينعكس تناقض الموضوعات على التكوين الازدواجي للرواية . ونشير الى الملاحظات المزدوجة العديدة التى تتكرر فى صفحات الرواية. « هجر وسكون » . (١٤٣) « الصمت ، فيما عدا الالم » . (١٤٤) ...

ولنذكر ايضا الكثير من التناقضات الثرية بالمعاني دائما : « كان (كيو) يموت بين اولئك الذين كان يريد ان يعيش معهم » . (١٤٥) وتقول ماى وهى امام جثمان زوجها : « حياتي » .... (١٤٦) .... ، « كانت هناك الوحدة اولا ، الوحدة الثابتة وراء كثرة الموتى » (١٤٧)، وكاتوف « كان يشعر بانه ملقى فى وحدة شديدة ومؤلمة ، مع ان ذويه كانوا حوله » ، (١٤٨) وعندما يكتب المؤلف « البعث ! » (١٤٩) فان ذلك يعنى : « سيانور » ...

● ● ●

خاتمة

فى ختام دراستنا عن **قدر الانسان** نخلص الى ان تلك الرواية ، كاعمال مالرو كلها ، « انسانية » فى اساسها . والرجل فيها الشخصية ذات الصدارة . وكل ما كتب يتجه الى الرد على ذلك السؤال الجوهرى :

« ايها الكاتب ، من عبث بى منذ سنوات عشر ان لم يكن هو الرجل » (١٥٠) .

وفى الواقع فان كل ماكتب مالرو يقوم عليه التعبير عن المأساة فى قدر الانسان وقدر عصرنا . ولكن هل وجد ذلك الروائى الذى احاط بمشاكل الرجل حلولا لها ؟

ويقابل النقد الوجودى رواية مالرو برواية جان ــ بول سارتر ويعمل على اظهار اتساق الفلسفة السارترية والتردد فى فلسفة مالرو . وطبقا لما قالت جان ديلوم ، بينما فكر سارتر « يتقدم من الصدفة التى هي أصل الوجود الى العمل التحريرى ، ومن اللامعنى الى المعنى

(١٤٢) قدر الانسان ص ١٦٣ .
(١٤٣) قدر الانسان ص ١٥ .
(١٤٤) قدر الانسان ص ٢٥٢ .
(١٤٥) قدر الانسان ص ٢٥٦ .
(١٤٦) قدر الانسان ص ٢٦٢ .
(١٤٧) قدر الانسان ص ٤٩ .
(١٤٨) قدر الانسان ص ٢٥٧ .
(١٤٩) قدر الانسان ص ٢٥٩ .
(١٥٠) مالرو شجر الجوز فى الالتنبرج .

والمؤدى ، ومن الوجود الى الجوهر فان فكر اندرية مالرو يسلك الطريق المضاد ، ـ من صوت العالم الى اصوات الصمت ، من العبث والوجود الى الشك فى الانسان » (١٥١) وتستطرد ج . ديلوم قائلة انه لايوجد عند مالرو « درجات للقدر » ، « ولا درجات للمواقف » . و (لا درجات للاعمال » . (١٥٢) وعالم النسيان لجيزور صحيح ايضا كالبحث عن الاجل لتشين وكلابيك يتكافأ مع كيو ، من اجل ذلك كله فان روايات مالرو « بدون حل موضوعى او اخلاقى » (١٥٣) لأن مؤلفها « لا يميز شيئا او شخصا » . ويشكو النقد الوجودى من عدم وجود رد على سؤال مالرو العقلى الا اذا كان هو قلق الرجل الخاضع للقدر .

وعلى اى حال يتعين علينا الاعتراف بأن وجه النظر الوجودى حاسم ومتطرف . حقا ان الكاتب ، كما اوضحنا من قبل ، لا مكان عنده للعدو ، وان ارادة القوة لدى فيرال تساوى حلم التأليه عند كيو ، ومع ذلك فان التمييز ملموس بين انتصار كيو ، وكاتوف ، وهيميرليتش ، وفشل تشين ، وفيرال وكلابيك ... لأن الابطال الايجابيين فى الرواية يحاولون السيطرة على قدر الانسان بدلا من تحمله . وذلك الجذب الدائم بين الانسان والقدر يدلل على الانسانية المأسوية عند مالرو . ويقول بيير دى بواد فر وبحق :

« لقد عرف مالرو ان يعبر عن الحتمية فى عصرنا ، ولكنه لم يقدم حلولا لهـا . وتظل انسانيته مفعمة باليأس اذا لم ينفتح نحو الحقائق الاكثر رفعة » (١٥٤) .

فمالرو يرفض البحث عن حقيقته فى الايمان بالله . وابطاله عاجزون عن ذلك الايمان فى عالم لايقدمه اليهم ، وهم مضطرون الى ان يجدوه فى انفسهم وحتى فى « الجانب الآلهي » فيهم . (١٥٥)

ومن ناحيتنا ننضم الى الدراسات التى تمت من وجهات النظر الدينية ، مثل دراسة جوزيف هوفمان ، وبيير دى بوادفر ، ونؤكد مع ذلك الاخير انه اذا لم يستطع مالرو ان يربط بين الرجل والخلود .. فان سبب ذلك رفضه وجود الله :

« يؤله مالرو الرجل والتاريخ ولكنه لايوفق بينهما . وللمواءمة بين الرجل وقدره ، يتعين الخضوع اليه اولا . ويعتبر مالرو القدر كحتمية عمياء بينما (المؤمن) يرى انه ايمان بالله : ذلك الايمان يجمع بين كل الناس ويقيم الاخاء ويمنيهم بسلام مشترك » . (١٥٦)

---

(١٥١) J. Delhomme, op. cit., p.245.

(١٥٢) Ibid., p.152.

(١٥٣) Ibid., pp.247 et 262.

(١٥٤) Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Editions universitaires (Classiques du XXe siècle),1952 p.119.

(١٥٥) J. Hoffmann, op. cit., pp.369, 370.

(١٥٦) P. de Boisdeffre, op. cit., pp. 113 - 119.

من وحي العلوم

عبد العزيز أمين

اردت بهذا المقال ان استعرض تفاعل الناس مع الطبيعة من اجل المعرفة ، وبخاصة فى المجالات العلميــة ، فامسـكت بقلمى لأدون مذكرات عما صادفنى فى حياتـي العلمية ، مستلهما الموضوع من معاناة الأمة العربية فى السنوات الأخيرة من تاريخها ، وما صادفها بعد ذلك من نصر بفضل توحيد كلمتها،وجهود الأفراد والجماعات ، تحـت رايات القيادات الرشـيدة المؤمنة بالانتصار ، ونحن فى أول طريقنا لاسـتعادة أمجادنا العلمية والأدبيـة والفنية . وذهب فكرى الى ملايين السنين التي مرت على الأرض منذ نشأتها الاولى الى أن ظهر عليها الانسان العاقل ، فتاملت الطريق الطويل الذى سلكه الانســان حتى بلغ كل ماتصبو اليه نفسه تقريبا ، كما تأملت ماصنعه الانسان في البيئة من زرع وحرث وتشييد وتعبيد وري وصيد ، ثم وجدته يستانس الحيوان ويسـخره لخدمته ويطوع الطبيعة حسب ارادته ، فرايت ان أبدأ بالكتابة عن علاقة الانسان بالأرض والمناخ ، ثم انتقل الى طريقه فى كشف المعرفة ، واهدافه ، وبعد ذلك اشير الى العلوم وتصنيفها،والعلماء وجهودهم، وشيئا غير طويل عن تاريخهم ومعاناتهم .

الانسان والأرض

ان الحضارة الانسانية هى ثمن التفاعل الطويل والمستمر بين البشر والبيئة ، مـن

يابسة وبحر وهواء وكائنات حية واجسام ميتة • والانسان يجمع خبراته بنفسه وبختزنها فى ذاكرته القادرة على امتصاص ماتستقبله من حقائق، ويعمل دائما على تحقيق ما يريد بالداب على العمل ، مستخدما فكره الواعى ، ومعتمدا على الصبر والأناة والأرادة والتصميم • ويعمل على تحسين احوال الارض حتى يعيش فى بيئة افضل دائما • ونحن نجد فى كوكبنا ، الارض ، مانحتاجه من مواد ، ومع ذلك فيه ايضا الصحارى المقفرة والمناطق الجليدية الواسعة ، ولذلك لم يكتف الانسان بالرقعة المنزرعة من الأرض بل أعاد النظر فى طبيعة الارض ، فأقام المشروعات الكبرى من اجل رفاهية الناس • وبين يدي كتاب طريف بعنوان « الانسان يصلح كوكبه » لمؤلفة السوفيتي أداباشيف • وقد ترجمته الى العربية دار التقدم بموسكو • ذكر فى مقدمته اشارة لما يجب على مختلف بلاد العالم في شتى الاوقات نحو الناس من اجل خيرهم • وكرس الكتاب موضوعه للمشاريع الرائعة التي تبدو اسطورية ، والتى يتوقع المؤلف ان يتم تنفيذها بجد العلماء والمهندسين ، مثل انشاء نفق تحت بحر قزوين لرى الصحارى بواسطة مياه جبال الثلج العائم، وتحويل الانهار الكبرى فى سيبيريا ، وتدفئة تلك الصحراء الجليدية الشاسعة فى الاسكا وكندا وسيبيريا الشرقية ، ومشاريع استخدام طاقة الرياح ، وتدفئة الاماكن الباردة بالدفء الطبيعى الكائن فى أعماق البحار • انها مشاريع واقعية تستند الى العلم والتكنولوجيا •

يدعى قدماء الكيميائيين انهم حضروا مادة زجاجية سحرية ابان القرون الوسطى يرى المرء من خلالها العالم كله فى آن واحد • وليت هذه المادة حقيقية وموجودة الآن لأرى الارض كلها وما عليها، او ليتنى استطيع ركوب متن الفضاء لأرى روعة الارض وغناها وتنوع غاباتها وأحراشها وما بها من بحيرات عذبة ، وسط الحقول النضرة أو الذهبية أو المتلألئة بأزاهير مختلفة ألوانها تسر الناظرين ، وأن أرى عشرات الألوف من القنوات والمجارى المائية ، التى تجوس خلال الارض ، وتملؤها حياة من نبات وحيوان •

ان الثروة الطبيعية ليست موزعة توزيعا متجانسا فى كوكبنا ، بل كثيرا ماتوجد مناطق غنية بالموارد الطبيعية فى صحراوات قفرات أو جبال وعرة أو تحت سطح مياه آسنة أو فى قاع المحيطات السحيقة العمق ، وعلى الانسان أن يكد ليحصل على هذه الموارد اذا احتاج اليها •

وعلى العلم ان يعرفنا اسرار هذه الطبيعة وقوانينها وتفاعل كل من المواد والبيئة وكيفيته وسبب حدوثه ان امكن • وان يستخدم الانسان العلم ليحقق الاهداف التى يرسمها كى يشبع احتياجاته • وهذا العمل هو الفن التطبيقى (التكنيك) •

اننا لن نرضى او نقنع ابدا بحالة العالم التى نعيشها ، بل علينا بذل انشطة جبارة لنحدث مايلزم من تغييرات مستمرة وتطورات صاعدة لتحسين وسائل المعيشة واساليبها •

ان السكين المعدنى الذى تستعمله اليوم مثلا لا يشبه اطلاقا آلة القطع التى استخدمها الانسان منذ أكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا يشبه خام الحديد الذى استخرج منه ، بل هو محصلة عمليات وانشطة انسانية طويلة وخبرات عملية اكتسبها آلاف الناس طوال آلاف السنين •

ان الثمرة التي نأكلها اليوم الغنية بما فيها من غذاء ورائحة وطعم لاتشبه الثمرة التي كانت تنمو في البرية ، بل هى نتيجة تطورات طويلة وبحوث مضنية عبر التاريخ • والثوب القطنى الذى نرتديه يختلف في مادته عن القطن الذى كان ينمو منذ آلاف السنين من حيث طول التيلة ، وخواص أخرى جديدة •

خشى الانسان القديم اخطار العواصف والرعود والبرق والامطار والتعرض للجوع والقحط والهلاك والزلازل ، ففكر في سر هذا الكون ، وعرف خالقه بما اوتى من عقل فآمن بربه ، وداب على تحصيل المعرفة ، وسار العلم مع الايمان جنبا الى جنب في تلازم عبر التاريخ .

الانسان والمناخ :

اننا ندرس علم الجيولوجيا ونعرف منه شيئا عن تركيب الارض . وندرس القوانين الطبيعية ونعلم انها غير قابلة للتعطيل ، فهى تعمل ونحن نستطيع توجيه قوى الطبيعة حسب ارادتنا ونطوعها لخدمتها . والارض والكواكب الثمانية الاخرى وتوابعها تدور حول الشمس وحول نفسها ، وترتبط معا بقوى جذب متبادل مكونة المجموعة الشمسية . وتقترب الارض تارة من الشمس ، وتبتعد عنها تارة اخرى ، وتحدث الفصول الاربعة ويتعاقب الليل والنهار . ويتغير الاشعاع الشمسي دوريا في كل منطقة بالارض على مدار العام ، فلكل منطقة نظام للطقس هو ما يسمي بالمناخ ، يتحدد بالموقع الجغرافي للمكان . ويتحدث المناخ عن نظام الطقس الطويل الامد . وتؤثر فيه عوامل جغرافية كالتضاريس وتيارات الهواء والبحر ، التى تحمل الدفء والرطوبة ، كما يؤثر الموقع بالنسبة الى البحر انبعدا او قربا ، وبالارتفاع عن مستواه . وتؤثر ايضا طبقة الرمال او الصخور او الجليد او مياه المحيطات الشاسعة .

ودرجة حرارة الجو في مكان معين قد لا تكون مناسبة لحياة الناس . وهنا ياتى دور العلم ليعدلها بان يغير طبيعة الغطاء السطحى للارض . انك قد تندهش اذا علمت ان الماء يعكس خمسة فى المائة فقط من اشعة الشمس بينما يعكس الثلج خمسة وثمانين فى المائة منها ، ويمتص الرمل سبعين في المائة من اشعة الشمس ويمتص العشب منها اربعة وسبعين فى المائة . ان الانسان يكيف البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ، كما يكيف الطبيعة كى تخدمه وتشبع حاجاته .

وكانت حيوانات هائلة من ذوات الدم البارد تعيش على الارض قبل ظهور الانسان بملايين السنين مثل الديناصور وغيره من الزواحف التي يبلغ طول انواع منها اربعة وعشرين مترا ، وتزن خمسين طنا ، وكان منها ما تحلق في الهواء باجنحة مكففة كالخفافيش ، وكانت درجة حرارتها غير ثابتة ، بل تتأثر بدرجة حرارة البيئة التي تحيط بها . كانت هذه الزواحف البائدة تجرى بالغابات ، وتطير في الهواء ، عند ما تسطع الشمس ، وتملا المكان بالدفء ، ثم تختفى وتبيت البيات الشتوى عندما تنخفض درجة الحرارة شتاء ، لكنها لم تستطع مقاومة البرد الشديد وتقلب المناخ ، ولم تصمد في معركة الحياة ، وتفوقت عليها الثدييات ذوات الدم ثابت درجة الحرارة (هومويوثرم) .

ان درجة حرارة جسم الانسان (٣٧° مئوية) هى المناسبة للتفاعلات الكيميائية الحيوية التى تحدث باجسامنا . ونحن قادرون على تنظيم التبادل الحرارى بين داخل اجسامنا وخارجها بطريقة تلقائية وغير ارادية (بين درجتى ٣٥° و ٣٨° مئوية) وعندما يكون متوسط درجة حرارة الهواء المحيط بنا حوالى ٢٥° مئوية . وكان هذا سبب استيطان الانسان والحيوانات الدافئة الدم بالاماكن الدافئة من العالم في شمال افريقيا وجزيرة العرب وايران والهند والصين واستراليا وفي مناطق عديدة من امريكا الجنوبية ، ثم انتقل الى مناطق اخرى اكثر برودة عندما عرف النار . وبنى البيوت وعرف الكساء ونظم حياته وكشف عيشه واهمية العمل للحصول على ما يقيم حياته ، فنمت معارفه ، وتراكمت خبراته وخبرات اسلافه ، وعرف الكثير من المواد النافعة كالمعادن والفحم ثم البترول ،

فلم يعد المناخ الرديء عقبة في طريق تقدم الشعوب . ان الشعوب التى ظلت متاخرة طوال سنى التدخل الخارجي قد نمت فجأة وسارت بخطوات سريعة في طريق التقدم بعدما حققت استقلالها . ومن اروع امثلته هذه الشعوب الصين واليابان ، ثم الهند ، واخيرا وليس آخرا بعض دول من الامة العربية التى حولت ارادتها ارضها الصحراوية الى جنان ومنشآت عمرانية ومصانع متطورة ، وارتفعت معدلات الانتاج ومستويات المعيشة بها في سنوات معدودات بفضل العلم والتعليم واساليب التخطيط والتنسيق والتعاون بين الجميع بوعى واخلاص وايمان . ونأمل في المزيد من الازدهار للامة العربية وغيرها من الشعوب النامية .

طريق العلم وهدفه

فكرت فيما يجب ان يتصف به من يود الاسهام في تقدم العالم وانماء ثروته الروحية ورفاهيته ليشعر انه قام بدوره الحضارى ، فوجدت ان اول ما يجب ان نعرفة تلك النجاحات التي حققها الاسلاف وما صاحب اعمالهم من معاناة . وقبل ان اقلب صفحات تاريخ العلوم واستعرض معاناة العلماء من قتل او اضطهاد ، او نقد جارح الى غير ذلك مما يملا صفحات تاريخ العلم ، وددت ان اشير الى ما يجب ان يتصف به الذى يريد الاشتغال بالعلم ، فوجدت الصفحة الهامة الاولى ضرورة قدرته على اختزان ما يتعلمه من المعارف في ذاكرته الممتازة ، ثم الارادة القوية الصامدة ، والقدرة الفائقة على الصمود ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات حتى يدرك اهدافه .

ان صمود « **توماس اديسون** » المخترع الامريكي فى عمله وهو يخترع المصباح المتوهج لمن اروع امثلة الصمود ، فقد جرب مئات المواد قبل ان يعثر على نوع الفتيل المناسب . ان امثال هؤلاء الرجال الصامدين يعملون بدافع تحقيق نجاح يخدم الجماهير ويرفع شانهم انفسهم . وهذه القوة الدافعة هى التى تجعلهم يستمرون في عملهم حتى يجنوا الثمار الطيبة . انهم لايذوقون طعم الراحة حتى تستفيد الملايين من مجهوداتهم . ويتعرض هؤلاء الى عاصفة من نقد المشككين الذين يقاومون كل جديد ، وعليهم ان يصمدوا ويكافحوا ويثبتوا صحة آرائهم او فائدة اختراعهم الجديد او نظرياتهم الجديدة .

ان العالم يسير في طريق التغيير المصاحب لما نستخدمه من مواد وطرق وآلات واساليب في حياتنا اليومية ، وعلينا ان نتكيف حسب هذا التطور والتغيير ، وان نتقبل ما يثبت نفعه ، ان الانسان يخشى بطبعه كل ما يجهل ، فنراه يتمسك باهداب القديم ، ولن يثق بالجديد حتى يألفه . ان العلماء والمخترعين يجب ان يكونوا مهرة في اقناع الناس وعدم التهور في مناوراتهم عند الدفاع عن مستحدثاتهم .

وقد عرفنا من العلماء المشارقة **أبا بكر الرازى** الطبيب الكيميائى ، وعالم البصريات **الحسن بن الهيثم** ، وواضع علم الجبر **الخوارزمى** ، ثم **جابر بن حيان** صانع زيت الزاج ، كما عرفنا من علماء الغرب **جاليليو ونيوتن ورذفورد ومدام كورى واينشتاين** وآلافاً غيرهم من الافذاذ . ويزخر التاريخ بالمعاناة والصبر والصمود والنصر . واخيرا تقدير الناس لأعمالهم فى حياتهم وأحيانا يأتي الأعتراف بفضلهم بعد وفاتهم بأعوام طويلة ، بعدما يصحو الناس ويروا نور الحق والمعرفة . ان **لفوازييه** الذى قطعت مقصلة الثورة الفرنسية راسه أقام له الفرنسيون تمثالا تخليدا لذكراه واعترافا بفضله فى وضع أساس الكيمياء الحديثة . **ويوسف بريستلى** القس الانجليزى الذى كشف الاكسيجين وصاحب الفضل فى كشف أكاسيد النتروجين لم ينجح فى الافلات من الاعدام . كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية . وكان القرن الثامن عشر ميدانا لجهاد كيميائيين

يعملون بالبوتقة والميزان والانبيق ، ويجمعون الحقائق ويقيمون فلسفة كيماوية عامة .

والاشـتغال بالعلـوم يعنى التكريس لــه والتعرض للعناء والالم أحيانا . ولكن الامـل يتحقق بعد ذلك . ومن منا يجهل فضل عالم مثل **لويس باستير** كاشف الميكروب الذى بدا حياته العلمية مدرسا ،وتقلب في المناصب العلمية حتى ارفعها ، وكذلك **بيير كورى** وزوجته **مدام كورى** فقد كشفا الراديوم والبولونيوم ، اما العالم **لفوازييه** فقد كشف نظريـة الاحتراق وهـدم النظريـة القديمـة المعروفـة باسـم الفلوجستون . ومن منا لم يسـمع أو يعرف فضل العالم الروسـي **مندليف** الـذى رتب العناصر الكيميائية ووضع النظام الدورى لها . عاش بعض هؤلاء حياة مليئة بالمتاعب ،والآلام والظلم والاضطهـاد احيانا ولكننـا نأسـف الآن لما قاسوه فى حياتهم ، ونعترف بأفضالهم ونخلد ذكراهم .

وكل يوم تظهر نظريات جديدة ومواد جديدة وطرق جديدة فى التكنيك العصرى ، فينشط الناس لنقدها والتشكك فيها والتوجس مـن نتائجها ، لكن الحق ينتصر دائما على الباطل ويكسب الافضل معركة النضال الذى يكلف صاحب النظرية الجديدة او الاختراع الجديد غير قليل من اعصابه وعصارة فكره ، ومع ذلك لا يبغى العالم من وراء كشفه العلمى جاها ولا مالا ، بل يعمل لاسعاد البشرية ويسعده ارضاء الناس .

وقد يتخبط الشاب اذا سئل عما يرغب ان يكون فى المستقبل ، وقد يستطيع بعضهم تحديد اهدافهم بشىء من الدقة . والطالب الذى لا يعرف هدفه يستذكر دروسه دون هدف سوى النجاح فى الامتحان، وقد يستذكر مادة صعبة فيما يرى مثل الكيمياء ، التى يدعى البعض انها سريعة التطاير من العقل كما تتطاير الكحول ، انهم مخطئون فيما يزعمون ، ولا يشعرون برغبة فى دراسة هذه المادة او تلك، ولا يدفعهم دافع قوى نحو المعرفة . وهؤلاء لن يصبحوا علماء حتى ولو حصلوا على درجات علمية عليا ، بل سوف يكونون متعلمين — اذا صح ان نصفهم بهذه الصفة — وسوف ينسون ما تعلموه بعد سنوات معدودات .

ان التقدم السريع فى العلم والتكنيك يوجه اغلب الشباب الى دراسة العلوم الطبيعيـة والتطبيقية، ولا يقبلون كثيرا على دراسة العلوم الانسانية ، حسب الاتجاه السائد في الحيـاة العصرية ، وفرص العمل ، لا حسب الميـول والرغبات الحقيقية .

واستطيع ايضاح طريق رسم السبيل لحياة علمية منذ دخول التلميذ بالمدرسة الثانوية وتقدمه نوعا ما بالدراسة فى الصف الاول منها، فانه يجد نفسه تجاه خليط من رغبات وميول، وتوجهه بعض اتجاهات سائدة، فتجده يتأرجح احيانا بين العلم والادب ، والواقع انه يشعر بالرغبة فى المعرفة ايا كان نوعها .

وحياتنا العصرية حافلة بانواع متباينة من الاجهزة والمخترعات والمعدات العلمية والآلات الميكانيكية والكهربية ، ونفاثات وسفن الفضاء، وعتاد حربى. والعلم ليس مجموعة من التكنيك الصناعى تختص به جماعة من الناس تعمل فى المختبرات ويرتدون المعاطف البيضاء ، وقـد اصفرت اناملهم من تأثير الاحماض ، وضعف بصرهم من كثرة القراءة ،والبحث ، ويهملون حياتهم الاسرية عادة او ينسون الحيـاة الاجتماعية . ان هؤلاء فى الواقع لا يتصفون بهذه الاوصاف الا فى خيال بعض مخرجى الافلام او المسرحيات ، والعلم ليس كذلك ، بل هو طريق وقوة ذاتية، لها معناها واسلوبها وآثارها الخاصة ، والثقافة الحديثة تكمن فى غمرة الآلات والصمامات والاسلاك والعدسات، وبين القوانين الرياضية والرسوم البيانية ، والاجهزة الزجاجية ، وبين حيوانات التجارب ومع فسائل سلالات نباتات وميكروبات ، الى غير ذلك مما يتناوله العلم والتكنيك فى العصر الحديث .

اننا نحصل على الثقافة من هذه المجموعات المتشابكة من المعارف ونحولها الى لغة سهلة الاستيعاب . وقد تأثرت لغة العصر بالعلوم الحديثة ونقرأ عناوين الصحف وبها مصطلحات لم تعرف من قبل في لغتنا اليومية مثل « كسر حاجز الصوت» او «اشعة الليزر» او «الطائرة الالكترونية » او « الحياة على المريخ » . ويجب ان يعرف المشتغل بالعلوم شيئا عن تاريخ العلم ليزوده بدعامة يبنى عليها لبنات التطور والتنمية العلمية . وقد يترك هذه العناوين فتدفعك الى انماء معلوماتك فى نوع معين من العلوم . ويقيم التاريخ العلمى جسدا يستطيع محب العلم الوقوف عليه ليرقب العالم وليدرك معنى الحياة العلمية .

ويشعر الشخص العادى بوحدة العلم والادب ، ويجمع ثقافته العامة من العلوم ومن الآداب . وتختلف وظيفة الفكر عن وظيفة الشعور ، ولكن تكمل احداهما الاخرى ، كذلك الادب يكمل العلم . والبشر لا ينقسمون الى مفكرين وشعراء مثلا . وُصِمَ العلم فيما مضى بالبعد عن الروحانية وقاومه رجال الدين، واعتبر فى القرن التاسع عشر عيبا ، فترفع عن تحصيله اهل الادب كى يحتلوا مكانة رفيعة فى المجتمع . واشتد الصراع بين العلم والادب فى عقول الشباب فى القرن الماضى . ولكن العقول الناضجة تسطيع استيعاب العلم او الادب على السواء . فالعوامل التي يتميز بها الشخص اللامع عن الخابى هى نفس عوامل الذكاء فى المهتم بالعلوم الانسانية او المهتم بالعلوم الطبيعية . وعندما يمارس الناس اعمالهم ينقسمون الى اهل علم واهل ادب . ويظن البعض انهم لا يطيقون فهم الموضوعات الرياضية او الميكانيكية او لا يدركون معانى الاشياء العددية ، والواقع أن كل عاقل يستطيع استيعاب هذه الامور اذا امعن الفكر ودرب العقل ، مثلما يستطيع استيعاب الموضوعات الادبية او الانسانية . وقد تجد الفرد مهتما بالعلوم الرياضية ثم يصادفه نوع من التعليم او مدرس معين يقتل فيه هذا الاهتمام .

وكذلك قد يكون مهتما بالآداب ثم يقابله تعليم من نوع اخر فيقضى على هذا الاهتمام . ان المسرحيات الخالدة لكبار الشعراء امثال شكسبير وجوته لا تزال تؤثر فى العلماء وتبعدهم ولو مؤقتا عن التفكير في العلم . وليس العلم حاسة خاصة او فكرا معينا بل هو معنى واسع . اما « العقل المتخصص » فاصطلاح جديد مثل كلمة علمى (Scientist) التى اخترعها الانسان حديثا .

وقد لا يقنع العلماء بما يعرفون، بل يعتبرون انفسهم افذاذا قادرين على الاتيان بالعجيب من المعرفة او الاختراع ، مثل كشف الالكترون والرادار واشعة الليزر واختراع اجهزة القياس الراديوى المستخدمة فى علم الفلك الحديث ، او اجهزة العلاج باشعة جاما التى تنبعث من الراديوم ، فالعلماء يغيرون احوال الناس واساليب حياتهم كما تتغير احوال الناس بتأثير الادب او السياسة او الرياضة . ان العلم والادب يقومان بتنظيف طريق الحياة من ادران الماضى ويفسحونه للسير فى موكب التقدم فى حياتنا العصرية الفياضة بالقيم الجديدة ، ولكن الناس يتوجسون من كل جديد ولا يؤمنون به الا بعد الاقتناع والممارسة .

ويستطيع محب قراءة الادب ان يستمتع بقراءة العلم ايضا ولكنه قد يجد فيها بعض الصعوبة لعدم استيعابه لغة العلم ، وما بها من ارقام ومعادلات ورسوم قد لا يفهمها ، او قد لا يحاول فهمها، ظنا منه انها غير ميسورة الفهم .

وهذا يجعلنى اعود بذاكرتى الى ايام الصبا عندما كنت واترابى نتردد على مكتبة البلدية باحدى مدن الاقاليم ، فكنت اقرأ بغير هدف فى كتب تتعلق بمقررات الدراسة اولا فى الجغرافيا وفى التاريخ ، ولكنى وجدت نفسى لا اعرف الا القليل من هذين العلمين ، وكان مدرس الجغرافيا بالصف الرابع الابتدائى يشرح درسا عن الهند ، فدفعنى الفضول الى

استعارة كتاب عن حياة الهنود ، كما جمعت بعض الصور عن الهندوعن اشياء اخرى لا تتعلق بالمنهج الدراسى . ولما كنت بالمدرسة الثانوية استهوتنى الاعيب كان يقوم بها احد التلاميذ الاكبر سنا، مستخدما بعض الاحماض والقلويات وبعض التفاعلات فولعت بالتقليد ، وفكرت فى اصل هذه المواد ، وقرأت عن الفيلسوف الذى فكر لاول مرة فى بنية المادة ووضع فكرة الذرة ، كما استهوتنى موضوعات اخرى تتعلق بالعلم كالتصوير الشمسى وصناعة الصابون المنزلى ، ثم تحول اهتمامى الى موضوعات . بعيدة البعد كله عن المقررات المدرسية .

قرات عن جاليليو وعن نيوتن وبيكن،وكانت لى جماعة من الاصدقاء المحبين للاطلاع ، وكثر اتصالنا وتبادلنا الافكار . وامتزجت مشاربنا وتفاعلت افكارنا وتركزت في بعض الافكار الجديدة . وكان منا من يعتقد ان العلم لا يعيد الناس اذا كان لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وكان منا من يؤمن بان العلم والادب معا يكونان اساس الحضارة والثقافة ، وانهما فى الواقع مقترنان — ولعله قرأ هذا الرأى فى كتاب — وكان ثالث يرى اننا نهذى عندما نتحدث بفائدة الادب ، ويقول ان الجائع لا يهتم بالفن او بالادب ، ولا بالنظريات العلمية التى يشبع بها جوعه ، ان العالم يسأل ويطلب اجابة شافية على اسئلته . كان احد زملائى الاكبر منى سنا كثير التساؤل . وكان يسألنا عن اهداف العلم اذا لم تكن ابداع اشياء تنفعنا . واجابه احدنا بقوله ان العلم يميط اللثام عن حقائق جديدة ، ويظهر الارتباطات بين مختلف الظواهر . وعلى الرغم من وضوح كلامه اردت ان يسوق لنا مثلا او امثلة لما يقول . وبدا يستشهد بكشف تكوين الماء من عنصرى الاكسيجين والهيدروجين ، وكشف الهواء ومعرفة انه يتكون من خليط غازى خمسه اكسيجين واربعة اخماسه نتروجين تقريبا ، ثم كشف عالم فى الكيمياء خواص النتروجين ، كما كشف خواص الاكسيجين،وعرفت اكاسيد النتروجين واخترعت الطرق الصناعية لتخليق النشادر ، وصناعة الاسمدة الكيماوية ، مثل نترات النشادر ، كما صنع حامض النتريك وانواعامن المفرقعات كالديناميت الذى يستخدم فى نسف الصخور وفتح الانفاق . هذه صور من كشوف ادت الى ظهور مواد جديدة نافعة ، فأساس العلم كشف حقائق جديدة وتوطيدها فى المجتمع . ورجل العلم القادر هو الذى تمكنه رؤية الآفاق البعيدة فى مجال بحثه ويعرف الارتباطات والعلاقات بين الظواهر .

وتشيد البحوث العلمية طبقات عليا من صرح العلم، فيزداد سموا . وتمكننا الحقائق الجديدة من كشف علاقات عامة وارتباطات متعددة بين الظواهر فتكشف القوانين الطبيعية العامة . واستطيع ان اورد مثلا من الكيمياء فقد ذكرت احدى دوائر المعارف فى القرن الماضى ان اليورانيوم معدن قليل الفائدة ثقيل الوزن ، ولم تزد كثيرا عن ذلك ولكنى تبينت بعد ذلك خواصه واكاسيده ومركباته ، ثم كشف الالكترون ، وعرفت بنية المادة واميط اللثام عن مكنونات نواة الذرة . واصبحت كيمياء وفيزياء اليورانيوم من أهم دعامات العلوم النووية والطاقة النووية . ان الفيزياء قد جمعت معلومات وافرة في علم الكهرباء عن التوصيل الكهربائى للمواد . وكشف احد العلماء امكان تقسيم المواد من حيث توصيلها الكهربائى الى طائفتين : مواد تزداد توصيلياتها الكهربية كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وطائفة اخرى تنقص توصيلياتها الكهربية بارتفاع درجة الحرارة . وبدراسة طبيعة هذه المواد تبين اختلاف كبير فى نمط البناء الوضعى للالكترونات فى ذرات كل من الطائفتين ، فالمعلومات تتراكم، كما تتراكم القوانين الطبيعية العامة حتى تصير اساسا لمفاهيم اوسع تربط الخواص الكهربية ببناء الذرة .

ويمكننا ان نجد مثلا آخر من القوانين العامة التى تحكم المجتمع الانسانى ، او قوانين تطور الحيوانات فى العالم ، ان هذه القوانين لا تكشف

الا ببذل الجهد واجراء البحوث ، اذكر اننا كنا نتجاذب اطراف الحديث ، وكان من بيننا الطالب والمهندس والطبيب والفلاح والعامل بأحد مصانع الحديد والصلب ، وكان اليوم عيدا ، وتطرق الحديث الى العلم والادب والزراعة والطب . وسأل احدنا عن امكان تحسين مواصفات الصلب وتخليصه من شوائب معينة . وسأل اخر اهذا النوع من العمل يدخل فى نطاق العلم ام الفن ؟ فرد عليه المهندس انه ينطوى على كشف حقائق علمية، وان تحسين جودة انتاج الصلب تدخل فى نطاق خاص من العلم هو العلم التطبيقى . اننا قد وسعنا مفهوم العلم وفرقنا بين نوعين من المشتغلين بالعلوم : عالم او مشتغل بالعلوم . فاذا وصفنا الشخص بانه عالم او بانه مشتغل بالعلوم فان هذا لا يعنى اكثر من ان لديه كمية من العلم يستخدمها فى البحث العلمى او الكشف عن المجهول . وتنقسم الانشطة العلمية الى ثلاثة اقسام : (١) **العلوم التطبيقية** (٢) **العلوم الانسانية** (٣) **العلوم الطبيعية** .

ويهدف اى بحث فى العلوم التطبيقية الى غاية عملية . فابتداع طريقة جديدة للتصنيع او مواد جديدة او وسائل اكثر سرعة فى تصنيع المنتجات او اوفر راحة او اسهل فى النقل او فريدة لخصوبة التربة او تخلق ادوية جديدة، كل هذه امثلة من اعمال علمية تطبيقية . ومن ثم فالفيزياء الهندسية والهندسة الميكانيكية والكيمياء الصناعية والزراعة والطب كلها علوم تطبيقية .

اما اتجاهات البحوث فى العلوم الطبيعية فواضحة ، وتقودها متطلباتنا او متطلبات الطبيعة . فاننا نجد ان الاحتياطى من الطاقة اخذ فى التناقص ويهددنا بالنفاذ، وهذا مايدفع الناس الى التطلع لايجاد موارد جديدة للطاقة. وفعلا تظهر الآن بوادر الطاقة النووية . وكذلك نظرا لتزايد سكان العالم ، تزايد احتياجنا للصوف وأصبح لايكفى متطلباتنا ، فعمل العلماء بجد واستنبطوا بدائل الصوف. وظهرت الالياف الصناعية الجيدة والرخيصة، فاحتلت بالتدريج مكانا مرموقا فى الاقتصاد العالمى بدل الصوف الطبيعى وغيره من الألياف الطبيعية ، كالقطن والكتان والحرير أيضا . فالانسان يعيش فى دنيا الموارد ويبذل قصارى جهده ليستبدل المواد الطبيعية بأخرى تخليقية ، ويطوعها وفق ارادته وحاجاته . ان العلوم الطبيعية تستطيع كشف المعلومات اللازمة لايجاد الحلول لمشاكل الانسان . واذا تساءلنا عن كيفية سلوك الاشياء مسلكا معينا ، كذلك اذا سألنا عن النظام الوضعى للاحداث فى عالم الاشياء والترابط بينها وعن ترتيب الكون المحيط بنا فان العلوم الطبيعية لديها الاجابة على هذه الاسئلة وهدفها النهائى معرفة أسرار الطبيعة وفهمها .

وليس تقسيم العلوم الى طبيعية وتطبيقية تقسيما جامدا ، فالفيزيائيون الذين يدرسون قوانين انتشار الجسيمات، والكيميائيون الذين يدرسون تحطيم الروابط الكيميائية بين الذرات وعلماء الاحياء الذين يستخدمون الميكرسكوب الالكتروني لمعرفة دقائق مكونات الخلية الحية للاوليات كلهم يجدّون فى ميدان كبير واحد هو العلم . أما الفيزيائى الذى يضع التصميم لمفاعل نووى، والكيميائى الذى يحسّن خصائص انواع اللدائن ، وعالم الوراثة الذى يعمل لتحسين سلالة من الأبقار وافرة الادرار للحليب ، فهؤلاء ينتمون الى قسم آخر من العلماء هم العلماء التطبيقيون. ومع ذلك فمن سمات العصر الحديث اذابة الفواصل المفتعلة بين أبواب العلوم التطبيقية ، واصبحت التفاعلات الكيميائية والعمليات الحيوية والظواهر غير الحية كلها تدرس بنفس الطرق ، وتبدأ من نفس الأوليات النظرية العامة .

بين العلم البحت والتطبيقى

واعود الى عهد الصبا عندما كنت اشعر برغبة في دراسة العلوم ، ولكنى لم احدد الفرع الدقيق الذى افضل التخصص فيه . وبدات أفكر فى نوعين من الدوافع . بدات بالسلبية

التي تقصيني عن فروع معينة من المعرفة . وكانت فكرة التخصص في التكنولوجيا قد انهارت امامي منذ البداية ، فلم تكن بلادي قد بلغت مركزا ملحوظا في العلوم التكنولوجية ، فكان لزاما على من يود دراستها السفر الى اوروبا . وكنت اشعر بميل الى البحث الجاد عن المعرفة ، واستخدم التحليل المنطقى للمشاكل التى تصادفني . واستهوتنى دراسة العلوم وانا بالمدرسة الثانوية متأثرا باستاذ معين ، وتخصصت فى الكيمياء ، وتحولت الى التطبيق العلمى عندما التحقت بهيئة التدريب بكلية الهندسة، فاتجهت فى بحوثى الى استنباط طرق جديدة وسهلة لتحليل المعادن ومخاليط الاملاح والسبائك، ولما اتيحت لى فرص السفر الى الخارج التقيت بكثيرين من علماء الغرب . وانى لا ازال اذكر أحد العلماء الفرنسيين ممن اشتهروا بالتنظيم العلمى ، وكان أحد تلاميذه يبحث أشباه الموصلات الكهربية فتوصل الى كشف ادى الى وضع خطة لاجراء تجارب تلزمها اجهزة غالية . وكان الاستاذ يشكو من اقتناع المسئولين باهمية هذا البحث فلم يوافقوا على تزويده بالمال اللازم . واذكر ايضا من تاريخ العلوم ان أحد الباحثين اراد قبيل الحرب العالمية الثانية أن يجرى بحثا على نواة الذرة . وكان البحث يستلزم استخدام أجهزة ومعدات غالية فلم يحظ بموافقة المسئولين على تمويله. وقالوا أن النتائج قد لاتساوى المبالغ الباهظة المطلوبة. ونعلم الآن ما يجرى فى الدول المتقدمة المسماة ((النادى النووى)) من بحوث فى الذرة والطاقة النووية من أجل السلام ، ومن أجل التسابق في احراز أسلحة نووية حديثة .

ان العلم البحت يخدم ايضا الصناعة والتكنولوجيا كما يخدم الدفاع الوطني . والبحوث البحتة تقودنا الى البحوث التطبيقية. ان الفرن اللافح الذى ينتج الحديد الزهر بمعدل نصف مليون طن فى العام ، يتكلف نفس التكاليف مثل معجل سرعة الجسيمات النووية المسمى ((**سيكلوترون**)) **والذى يبلغ نفس حجم** الفرن العالى ، ومع ذلك فلا يتجاوز انتاجه الا القليل جدا من الذرات المنشطرة (جزء من مائة الف من المليجرام) فى السنوات الأولى من بحوث الطاقة النووية .

وكان استعمال الكهرباء فى الماضى قاصرا على المصباح المتوهج ، الذى اخترعه اديسون ، والتلغراف والجرس والتليفون والقنبلة الزمنية ، اما اليوم فقد امتدت أيدى العلوم التطبيقية الى الكهرباء ، وفتحت آفاقا جديدة فى هذا العلم .

ان السير مع تاريخ العلوم واخبار العلماء ليبين روائع التراث فى التطور الحضارى . ويكفي أن أذكر أسماء علماء مثل **كوبرنيكوس وكبلر وجاليلو ونيوتن ثم هرشل واينشتاين** وهم من اعاظم رواد اسرار الكون . نقد **كوبرنيكوس** نظرية العالم الاغريقى بطليموس عن الأرض التي ظن أنها مركز العالم . بعد أن ثبتت فى الاذهان منذ عشرات القرون ، وطلع على العالم بنظريته الجديدة التي تشير الى أن الشمس هى التى فى مركز المجموعة الشمسية، والأرض أحد الكواكب التى تدور حول هذا المركز . وجاء ((**كبلر**)) فحدد شكل أفلاك الكواكب . ورصد جاليليو الكواكب بالتلسكوب ووضع المبادىء الاولى للبحث العلمى . وجاء **اسحاق نيوتن** فأذهلنا بقوانين الحركة التى كشفها . ووضع قانون الجاذبية العامة . اما هرشل فبين أن المجموعة الشمسية جزء من مجرة هائلة بها ملايين الشموس . ووضع اينشتاين النظرية النسبية . كان هؤلاء رواد العلم وطلائع الفكر الحديث من القرن الخامس عشر الى العشرين . وعاش في نفس الزمن علماء آخرون اهتموا بفروع اخرى من العلم ، فمثلا نجد في الكيمياء **تريفيان وباراسيلسوس** وقد عاشا في القرن الخامس عشر، وتبعهم **يشَرّ** الذى عاش في القرن السابع عشر ، وكانوا رواد الكيمياء القديمة في اوروبا التى تبحث في صناعة الذهب واكسير الحياة الدواء الشافى لجميع الامراض . وكان القس الانجليزى **بريستلى** كاشف الاكسيجين اول رواد الكيمياء الحديثة

وعاصره **لفوابيه** الفرنسي كاشف نظرية الاحتراق وهادم نظرية الفلوجستون . وجاء كثيرون من بعدهم من علماء الكيمياء وعلى راس قائمتهم **جون دالتن** صاحب النظرية الذرية ثم الفيلسوف السويدى **برزيليوس** واضع الرموز الكيميائية الحديثة في شكل حروف الهجاء بدلا من الرموز القديمة التى كانت في شكل رسوم غير مفهومة . قضى برزيليوس على استخدام الرموز القديمة مثلما قضى لفوازييه على نظرية الاحتراق القديمة « الفلوجستون » . وظهر في القرن التاسع عشر **افوجادرو** صاحب الفرض المشهور باسمه في دراسة الغازات ومبتكر المصطلح « جزيئات » ، ثم اعقبه « **فوهلر** » ، اول من حضر مركبا عضويا من مادة غير حية ، وجاء من بعدهم العالم الكيميائى الروسى **مندليف** الملقب بـ « نبى الكيمياء » لانه وضع النظام الدورى لترتيب العناصر وواضع جدول مندليف . وفسر « **ارهينيوس** » مسلك المحاليل الموصلة للتيار الكهربائي بالنظرية التى وضعها المسماة « النظرية الايونية » . ويختتم القرن الماضى الانتصارات العلمية الكبرى ببزوغ فجر العلوم النووية ، وكشف البولونيوم ثم الراديوم والنشاط الاشعاعى ، بفضل المدرسة الفرنسية في السوربون على ايدى « **بيير كورى ومدام كورى** ثم **هنرى بيكول** ثم كشف الالكترون في انجلترا على ايدى مدرسة طومسون **ورذرفورد** ، ثم **موصلي ولنجميور** ، وكلهم من بناة العلوم النووية . ويظهر من بعدهم فى القرن العشرين علماء كثيرون اسهموا في كشف اسرار نواة الذرة ، والانشطار النووى ، ومن بينهم « **لورانس** » صاحب المدفعية النووية الجديدة ، التى تحاصر نواة الذرة وتدك حصنها المنيع ، ثم **اينشتاين وماكس بلانك** اصحاب النظريات الجديدة فى النسبية والكم .

والمعتاد ان تظهر اهمية النظريات الجديدة والكشوف الجديدة بعد سنين عندما تنتقل من دور الكشف الى دور التطبيق . فنجد مثلا العالم الانجليزى **ميشل فراداى** واضع قانون التأثير الكهرومغناطيسى سنة ١٨٣١ ، ووضع ايضا قوانين التحليل الكهربائي ، ولكن لم تظهر اهمية هذه الانتصارات العلمية الا بعد ما اخترعت الآلات الكهربية ، واستخدمت بعد عشرات السنين من كشف فراداى لقوانينه . وكذلك كشفت الاشعة السينية واثبت « **هان وشتراسمان** » امكانية اقتحام نواة الذرة لما لاحظا ان النيوترونات البطيئة تشطر نوايات ذرات الهليوم ، وظلت هذه الافكار خامدة حتى تحقق التفجير النووى ، بعد سنوات عديدة ، فى ايطاليا بمعرفة « **انريكو فرمى وليزامايتنر** ».

كانت هذه البحوث الثمار الطيبة لجهود العلماء الذين عرفوا طريقهم وهدفهم ، وكانت الحقائق التي كشفوها كامنة بين طيات غموض الطبيعة حتى نضجت المعرفة ، وتراكمت في مجالات العلوم البحتة اولا ، ثم وجدت هذه الاشياء التي ظلت مجهولة عيونا بصيرة وعقولا واعية لماحة ، فتمكنت من ادراك هذه الحقائق والتقاطها من وسط الجهالة العميق ، ونظفتها من الادران وهذبتها ثم صقلتها ، حتى تمكنت من اظهارها للعالم ووضعها فى خدمة المجتمع بالتطبيق العامى .

مع التطبيق من الحديد والصلب الى الذرة :

يدفعنا الفضول الى البحث لفهم اسرار الطبيعة ، ونحن نكشف المعرفة ونختزن الخبرات ونطبقها فى التنبؤ بالاحداث المقبلة . وتتقدم العلوم في كل فروعها فى طرق متوازية ومتصلة بفروع جانبية في جبهة متماسكة قوية ، تكافح الجهل وتوسع التقدم الحضارى ، وتفيض على طرق حياتنا بنور الهدى . والحق ان تقدم العلوم واجب من واجبات الدول ، لانها غذاء العقول ونورها ، وثروة وذخيرة ودعامة قوية تشيد الصروح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتحمى الديار ، وتعزز وتكرم الشعوب . فعلى كل دولة تخصيص الاموال للانفاق على العلم والبحث النظرى والتطبيقى .

ان رغبة كل امة في النهوض يلزمها بالاهتمام بالعلم والبحث العلمى ، وتتصل الثروات

التكنولوجية بالكشف العلمى . وعلى الرغم من بلوغ بعض مجالات التكنولوجيا مراكز عاليـة قبل العلم البحث ، ومعرفة الكيمياء الحديثة والفيزياء الحديثة بزمن طويل ، فان بناةالاهرام القدماء ، وصانعى الزجاج ، وصاهرىالمعادن، ومن شقوا عباب البحر في سفن من البردى ، ومن جابوا الفيافى دون مساهمة مـن العلـم البحث،كانوا على دراية ببعض العلوم الطبيعية فى شكل بدائي وغير مرتب . ويقول البعض ان صناعــة الزجاج وصناعة الصلب لم تعتمــدا على القوانين الطبيعية عندما كانتا فيمهديهما . ويقولون ايضا ان « **جيمس وات** » المختــرع الانجليزى لم يكن يعرف قوانـين الديناميكـا الحراريـة ، بـل اعتمـدت هـذه البحـوث والاختراعات الحديثة احيانا على التجربة فـي المواد الطبيعية النافعة ، دون استخدامالتحليل الكيميائي لها ، او دراسة قوانين . وقد ساير اهل الصنعة الاحتياجات والمشاكـل التـى دفعتهم للعمل ، وعملوا على حلها دون الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية . ومع ذلـك ، لمـا تدخلت العلوم في الصناعة تحققت مكاسـب مادية كثيرة ، وتغلغلت افكار العلميـين فـي التطبيق المستخلص من العلم ، حتى لم يبـق شيء من العلم دون استغلال . فقـد تطـور التطبيق العلمى في السنوات الاخيرة بمعدلات كبيرة .

ولم يسر تقدم صناعة الحديـد والصلـب بهذه المعدلات المذهلة الا منذ السنوات الاولى من الخمسينيات من القرن التاسع عشر،بعدما احتاج الانسان الى صلب قاس ، فابتكر عملية انتاج الصلب القاسى ، واستمرت محاولات الاخصائيـين مـن المهندسـين والكيمائيـين والفيزيائيين لا نقاص وزن الصلب وانقاصوزن الانشاءات والاقلال من نسب الشوائب الضارة والمدمرة لخواص الصلب الجيد . اننا بالصلب الجيد الذى يطابق مواصفات معينة نستطيع انقاص عشرة او عشرين فى المائة من اجـراء الآلة من حيث الحجم . وقد ابتكـر العلمـاء النظريون افكارا جديدة عن صلابة الاشابات (السبائك) ودرسوا تأثير الشوائب وتغيرهـا للاشكال البلورية واضعافها الروابـط بـين الذرات . فهذه الشوائب وجد انها تنتشر في بلورة الاشابة عندما يتعرض للاجهادات ، وان البلورة تفقد خواصها عندما تتكاثر فيها المواقع المشوهة بها وعند تعرضها لقوى صغيرة . ان العلم والتكنولوجيا قدتعاونا في نشر مصورات بيانية لانتشار اماكن العيوب في البلورات . وقد ابتكرت الطرق لتحديد اماكن العيـوب ومشاهده انتشارها فى البلورة المفردة . تابع علماء الفيزياء وعلماء الفلزات هذه البحـوث لايجاد حل مشكلة زيادة الصلابة للصلـب . والمعروف ان الكميات الصغيرة من الكربون في الحديد الطرى تحولهالى صلبشديد الصلادة . كما وجد أن ذرات الكربون صغيرة الحجمتمنع ما يسمى **التشويه الموضعى** في بلورة الصلب . وان هذه خاصيه لا تنفرد بها سبائك الصلب الكربونى ، بل تشملايضا عناصر اخرى توجد في الصلب . فيمكن استبدال الكربون بها فى صناعة الصلب .

انتشرت هذه الافكار العلمية والتجـارب العلمية وانتقلت من المعامل الى بيـوت علـم الفلزات (الميتالورجى) والى مصانع الحديد والصلب على مدى حقبة واحدة من الزمن . ان الفكرة العلمية تنتقل الى التطبيق العملى فى مـدة تتراوح بين سنة وعشرات السـنين حسب الظروف .

ومن الدوافع القوية للبحث العلمى البحث ، وحدة الحريـة والحاجـة الموجهة . وهـذا يتضح فىقصة الطاقة النووية التي بدأت ببحث علمي نظري منـذ عهـد الاغـريق لما ذكـر **ديموقريطس** ان المادة تتكون من دقائق صغيرة لاتقبل التجزئة سماها ذرات Atoms . فهو واضع اللبنة الاولى للنظرية الذرية ، ثم تبعه علماء كثيرون الى أن جاء **دالتون** ثم **رذرفورد** . وضع الاول النظرية الذرية الحديثة ، وكشف الثاني الالكترون ، ثم عرفت أسـرار النواة ومكوناتها ، فانتقل البحث العلمى الحرالـى

البحث من اجل استخدام الطاقة النووية فى اغراض حربية . وبعدما تحقق هدف الولايات المتحدة ، والنصر بعد القاء قنبلة هيروشيما الذرية ، وما تبعها على نجازاكى اتجهت بحوث الطاقة النووية الى الاغراض السلمية ايضا .

وعرف البروتون ثم النيوترون وابتكرت المدفعية الذرية . وكانت جماعة **انريكوفومى** تبحث فى روما امكان شطر نواة الذرة ، واستخدموا فى سنة ١٩٣٥ مدفعا نوويا يطلق قذائف نووية هي نيوترونات تنبعث من الغاز المشع المسمى « **رادون** » وهو يشبه الراديوم فى كونه يشع جسيمات ألفية (نواة الهليوم) موجبة الشحنة . اطلق جماعة فرمى قذائف مدفعهم النووى على مسحوق فلزخفيف هو البريليوم ـ الذى يشبه نوعا ما الألومنيوم ـ فكانت القذائف تصيب نواة البريليوم بمعدل ضعيف للغاية بلغ الواحد فى المائة الف ، وعندئذ تتحد القذيفة بالنواة وهو تفاعل نووى ينتج عنه ذرة كربون وينطلق نيوترون . كانت الجماعة تعرف حقا أن الذرة تحتوى النواة فى الوسط وأن أغلبها الساحق فراغ (٩٩٩ ٩٩٩ ٩٩٩ و ٩٩ في المائة من حجمها) وتتركز مادة الذرة فى نواتها . ومن ثم فكثافة النواة قيمة اسطورية (٢٤٠ × ١٢١٠ جراما للسنتميتر المكعب) . وكان نواة الذرة حصن منيع يكاد يستحيل اقتحامه . ولكن **فريمى** ورفاقه اقتحموه وشطروا النواة . وقامت بحوث عديدة فى الطاقة النووية بعد ذلك . حاول « **ادون ماكميلان** » سنة ١٩٤٠ فى بركيلى بكاليفورنيا قياس المسافة بين أجزاء الانشطار النووى لليورانيوم ، فاخذ كتيبا من ورق لف لفائف التبغ ووضع على اعلاه طبقة رقيقة من ثاني اكسيد اليورانيوم ، على الورقة الرقيقة الأولى وترك الاوراق الاخرى كما هي ، كى تكون حائلا يمنع انتشار كسرات تحطيم النواة الذى سوف يصيب ذرات اليورانيوم . ووضع الكتيب وغطاءه اليورانيومى فى هدف السيكتلوترون (معجل السرعة للجسيمات) معرضا الهدف لقذائف النيوترونات . وبعد ذلك فصل أوراق الكتيب ، وقاس نشاطها الاشعاعى ورقة ورقة ، ووجد ضالته المنشودة . وجد ومعه صديقة « ايلسون » ان احدى نتائج الانشطار مادة مجهولة ، وكانت بالورقة الأولى ، تختلف تماما عن كل ما توقعاه ، فقد كانت عنصرا جديدا لم يعرف اطلاقا فى الطبيعة وسمى « **نبتونيوم** » وهو عنصر ابتدع ابتداعا ، فكان أول عنصر صنعه الانسان ، ووضع بعد اليورانيوم فى جدول منداليف . ثم انتج العنصر التالى وسمى «بلوتونيوم» الذى كشفه **سيبورج سنة ١٩٤٠** وكان معه فريق من الزملاء **أرثروال وجوزيف كيندى وماكميلان** ، عندما قذفوا هدفا من اليورانيوم بالنيوترونات فى سيكلون . وكان وزن ماانتج من البلوتونيوم في هذه التجربة الأولى من الضآلة بحيث لم يتجاوز الجزئين من مليين جزء من الجرام . ولايمكن ان يرى بعين مجردة . وكانت مشكلة جديدة . فكيف يستطيعون وزنها واذابتها وخلطها ، وهى فى نقطة من سائل؟ **ان هذه المشكلة تطبيقية تولدت من الاصل العلمى البحث من اجل تحقيق هدف هو البحث عن أسرار الطبيعة .**

وشحذ العلماء القرائح بحثا عن امكان تخليق عناصر اخرى أثقل من البلوتونيوم يصنعها الانسان بواسطة هذه التفاعلات النووية المستحدثة، فابتكر **بريس كننجهام ولويز فونر** طرق دراسة كيمياء البلوتونيوم، فصنعا أجهزة وأدوات لمعالجة ومناولة الكميات الضئيلة جدا من المواد ، التى يقل وزنها عن واحد من مائة مليون من الجرام . وصنعا انابيب شعرية ، تقيس حجوما صغيرة جدا من السوائل ، تبلغ جزءا من مائة الف جزء من اللتر . وادت هذه الكشوف والمبتكرات الى ظهور **علم الكيمياء الدقيقة** Microchemistry وقد استفيد منها فى علوم اخرى مثل الكيمياء الحيوية والكيمياء التحليلية الدقيقة وبحوث الهرمونات وبحوث الوراثة ومعرفة خواص المبيدات الحشرية وتأثيرها فى الخلية الحية ، وارتباط هذه التفاعلات بمرض السرطان .

وقد ادى هذا التطور العلمي الواسع المدى الــى اختراع الميزان فوق الدقيق للكميــات الضئيلة من مركبات البلوتونيوم ، مثل الميزان فوق الدقيق الــذى ابتكره الاستاذ المصرى المرحوم الدكتور حامد البدرى وصنعه فــى ايرلنده ، ثم فى الولايات المتحدة وهو الميزان المسمى فوق دقيق(Ultramicro — balance) الذىيـزن مركبات البلوتونيوم بدقـة بلغت ١×١٠ـ٨من الجرام . ونشر بحثه وطريقة صنع ميزاته فى المجلات المتخصصة .

لما كانت غرب اوروبا ترزح تحت سيطرة الفاشية فى سنة ١٩٤٢ ، والحرب العالمية قد بلغت الذروة ، والنازية تستعد لغزو انجلترا، وكانت غواصات اليابان تهاجم سفن الولايات المتحدة بالمحيط الهادى ، كان اليوانيوم يجلب من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا النازية فى سرية تامة . وكان الماء الثقيل ينتج باقصى طاقة . وكان في الولايات المتحدة فريق منعلماء الفيزياء يقومون بتصميم قنبلة نووية . وقد انقضى على عملهم عامان كاملان . وكانت السرية تشمل بحوث البلوتونيوم ايضـا . واقيم مصنع فى هانفورد بواشنطن لفصلالبلوتونيوم علىاساس انتاجى كبير اعتمادا على البحوث الاصيلة التى اجريت على المستوىفوق الدقيق Ultramicro بطرق الكيمياء فوق الدقيقة . كان هــذا البلوتونيوم اساس انتاج القنابل النووية . وكانت هذه التجربة التى مرت بها البشرية مثلا من امثلة الارتباط بين العلم والتطبيق . وهو سلاح ذو حدين ، فاما ان يسعد البشرية او يقودها الى الدمار .

ولعلنا نفكر فى نتائج كارثة هيروشيما، ونحد مــن استخدام الاسلحـة النووية او نمنـع استعمالها ، ونوقف استخدامها ونقصره على اغراض السلام .

● ● ●

علاقات تنظيمية :

يتوقف من يعمل فى مجال علمي او فىالبحث العلمى قليلا عن عمله المعتاد ليتأمل ولو مرة كل اسبوع فيما قام به من عمل وما سـوف يعمله فى الفترة القادمة ، وما سوف يقرره هو وزملاؤه بشأن طرق المشاهدة والتجريب وما يجب ابتكاره من اجهزة قياس . ويضع الباحث التصميم لجهازه الجديد ويبعث به الى ورشة مركز البحوث لتنفذ بناءه ، ويقتضى العمل فى البحث العلمى بعض التغيير من ان الى آخر . ورئيس المعمل هو الـذى يحدد الوقت المناسب ليتخذ قرار التغيير ويقرر نوعه . ففى الابحاث الكيميائية ، يقرر الرئيس متى يغير طرق الفحص ، من قياسات بصرية او كهربية الى قياسات راديوسبكتروسكوبية. ويحصل الباحث على نتائج قياسات ويوقعها بالرسم البيانى فى خطوط او منحنيات توضح النتائج بسهولة وسرعة ، وتشير الى اتجاه التفاعلات ، وتوحى بضرورة المراجعة احيانا للطرق المستخدمة او استخدام مواد جديدة.

والبحث **يحتاج الى اموال . وعلى مديـر المركز تدبير المال والقوة العاملة وتربيةالاجيال، التى تستطيع الاشراف على الاعمال الفنيـة والادارية ، وعليه ايضاالمحافظة على استتباب النظام فى خط موحد متناسق** منحيث الاقسام والافراد بالوحدة الواحدة ، **وكذلك حسـن الاتصال والتعاون بين خلايا البحث ووحداته بالمركز وبالمنشآت المعنية والمتصلة بالمركز .**
ويجب ان يعلم الباحثون ان الوحداتالصغرى ليست دويلات مستقلة ، بل اجزاء او اعضاء في جسم كبير هو مركز البحوث على المستوى القومى . وقد يكون عدد افراد الفريق فـى الوحدة صغيراً او قد يعمل الباحث بمفرده ، ومع ذلك يجب ان يوطد ارتباطه بشكل ما بوحدات البحوث الاخرى .

وتتمايز الوحدة عادة بنوع او تخصص فريد ودقيق . ويلتزم بالسير فى هذا التخصص

عدة سنوات بين الخمس والعشر سنين . اما اذا استمر العمل بها دون ما تمايز واضح لمدة عشر سنوات فان هذا يدل على كونها متوسطة الكفاءة وقليلة القيمة . ويمكن ان توصم بعدم استحقاق تسميتها وحدة فى مركز بحوث كبير، بل يمكن ان تحول الى خدمة بعض الاغراض الجانبية او المساعدات لوحدات اخرى، وبذلك تبسط وحدة اخرى سلطانها عليها وتستغلها.

وبديهي ان **قائد الفريق يصدر قرارات بالخطة والخطوط العريضة التى يسير بمقتضاها الباحثون فى دراساتهم . وهو الذى يحدد اساليبهم بالمعاونة** مع لجنة او جماعة صغيرة العدد من الباحثين القدماء بالمركز . وقد لا يدل اسم وحدة البحث دلالة واضحة على نوع البحث الذى يجرى بها ، بل يدل فقط على المجال العام له . ويجب ان تختلف وحدات البحث فى خططها ومناهجها حتى ولو كانت تحمل نفس الاسم ، كما يجب ان تختلف ايضا فى اساليبها وفى اتجاهاتها نحو التجارب العملية . فقد تكرس معامل جهودها فى انشاء اجهزة معقدة التركيب وابتكار طرق قياس دقيقة ، بينما تفضل معامل اخرى شراء الاجهزة ، وتبذل جهدها في تشغيل الاجهزة ، وتفسير النتائج التى تحصل عليها بواسطة هذه الاجهزة . وقد تختص معامل اخرى بمعالجة مشاكل واسعة التشعب ، فيلزمها مختلف انواع الاجهزة والمعدات ، بينما تركز معامل اخرى الجهد فى بحث تفاصيل مشكلة معينة .

وهناك عوامل هامة تشكل اسلوب الخطة والمتابعة فى البحث العلمي . ومن بين هذه العوامل المزاج الشخصى لقائد البحث وعقليته وانطباعاته بالنسبة للتطور العلمى العام ومدى تأثره بالتقدم فى العلوم المتصلة بمجال بحوثه ، وتأثره باهتمامات الهيئات والمنشآت الصناعية فى البلاد ابان الفترة الزمنية التى تجرى فيها البحوث . ويعتبر دور القائد حاسما فى وضع الخطط ، اما دور الدولة فهو المراقبة والتحكم، وتوزيع مخصصات مالية على مختلف مجالات العلوم حسب ما وضع فى الخطة العامة من اولويات . ولا يستطيع رئيس المعمل او رئيس مركز البحوث رسم الخطط التفصيلية كما يفعل مدير المصنع الذى يستطيع تقدير انتاجه الشهرى والسنوى فى الميزانية التقديرية التى يلتزم بتنفيذها . فقد يطلب من كل معمل تقديم خطته السنوية . ولكن كيف يستطيعون بيان ما سوف يحصلون عليه من نتائج ؟ ليس من الصعب ان نحدد ما يعتزم القيام به من القياسات وما نحتاجه من الاجهزة والمعدات وما نود اجراءه من تجارب ، لكن الصعب تحقيق ما عزمنا القيام به ، فالبحث قد تتراكم به اعمال نمطية مثل قياس درجة حرارة غاز او كثافة سائل او نقطة انصهار جامد . وقد يستطيع الباحث تقدير ما يحتاجه من الزمن لتصوير صورة بالاشعة السينية او لرسم طيف خطى لمادة ، او لاجراء عملية حسابية . ولكن من الصعب ان نقدر عدد الاسابيع التى قد يستغرقها العمل في بناء جهاز وفق رسم معين . **ان البحث الاصيل دائم التغيير والتطور، اما البحث الذى يعتمد على اعمال نمطية فليس بحثا . ولامعنى للبحث العلمي الا اذا كان يكشف سرا غامضا من اسرار الطبيعة** . والعمل التجريبى الناجح هو ما يستخدم فيه اقل ما يمكن من الاجهزة ويظهر اعظم ما يمكن من النتائج. والبحث الذي يبدو لنا لاول وهلة بسيطا وسهلا قد يتحول اثناء التجريب الى درجة عالية التعقيد. وبالعكس قد تبدو المشكلة صعبة ومعقدة ثم تحل بغاية البساطة والسهولة . انك تجد العلاقة بين الطاقة والضوء قد شغلت اذهان كثير من العلماء حتى حلها اينشتاين بالمعادلة البسيطة : (ط = ك × س٢) .

(الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء)

القراءة والبحوث :

يقول كثيرون انه يجب على الباحث تتبع كل ما ينشر من المؤلفات العلمية والمقالات المتعلقة بالموضوع الذى يبحثه . ولكن يخالف

بعض العلماء هذا الرای . ویقولون ان کثرة الاطلاع امر غیر حکیم وان قراءة اعمال السابقین تضیق زاویة رؤیة الباحث فی مجال ما ذکر فی اعمالهم فلا یتفتق الذهن عن (شطحات) جدیدة ، ولا تظهر طفرات علمیة اصیلة . ویحبذ آخرون القراءة الکثیرة فی المجالات العلمیة العامة المتعلقة ببحث المبتدیء . والغریب ان کثیرا من مشاهیر العلماء والمخترعین لم یدرسوا دراسة نظامیة فی نوع تخصصهم الدقیق ومع ذلک احرزوا انتصارات رفیعة القدر . ومن امثال هؤلاء ((**لویس باستیر**)) الذی اثبت خطأ نظریة التولد الذاتی واجری تجارب التخمر الکحولی ، وکشف التعقیم المسمی ((**البسترة**)) وحل مشکلة انتشار مرض دودة القز ، ومرض کولیرا الدواجن ، وکشف التعقیم ضد الجمرة وداء الکلب . وهو مع ذلک کیمیائی لم یدرس البکتریولوجیا ولا الطب . ویقول « بسمار » مکتشف طریقة لانتاج الصلب رخیص التکلفة ما نصه ((**کانت لی میزة کبیرة علی الآخرین ممن عالجوا هذه المشکلة ــ اذ لم تتحکم فی فکری افکار ثابتة مستمدة من خبرات معینة ومقررة منذ زمن طویل ، بل لم اتعرض لضرر تلک المعتقدات السائدة بان لیس فی الامکان ابدع مما کان**)) .

وکان **کلودبرنار** مؤسس الطب التجریبی یعتقد ان ما نعرفه هو الذی یعوقنا ولیس ما نجهله . ویقول ((**بیرون**)) لأکون مبتکرا حقا یجب ان اکثر التفکیر واقرأ قلیلا . ولکن هذا مستحیل اذ یجب ان یقرأ الانسان قبل ان یتعلم التفکیر » . اما **برنارد شو فیقول** : « القراءة تعطی العقل » .

لیست هذه الآراء قوانین عامة ، لان القراءة من ضروریات التعلیم وزیادة الحصیلة العلمیة . وهی التی تعرفنا اسالیب السابقین . وعلینا التأمل فی اعمالهم ونقدها وعدم التمسک بالنظریات والافکار القدیمة . یقول « فرنسیس بیکن » « اقرأ ، لا لتعارض وتفند ، ولا لتؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفکر » .

وکذلک اختلفت بعض الآراء عن الاتجاه العام ، بان معرفة اللغات الاجنبیة ضروریة للباحث فی العلوم . وعالم الکیمیاء اعتقد ان معرفته الانجلیزیة والالمانیة من اهم الضروریات . ولکن اعرف من العلماء « فیلهم او ستفالد » الالمانی الذی کان یؤمن بضرورة الاحجام عن دراسة اللغة الاجنبیة لکنه کان یقصد اللاتینیة لا اللغات الحدیثة . اما ((**هربرت سبنسر**)) الفیلسوف الانجلیزی المادی فکان یعتقد ان تعلم اللغات یزید احترامنا للمرجع ویعوق نمو ملکة الحکم المستقل . واؤکد ان البحث فی العصر الحدیث یستلزم اتقان لغة اجنبیة واحدة علی الاقل .

واعتقد ان من الطرق الحسنة فی البحث التدرج فی مراحل معینة مبتدئا بالقراءة فی المراجع عن ما کتبه السابقون عن الموضوع ، ثم تتبع آراء السابقین بنظریة فاحصة ناقدة ، ویلیها خطوة جمع حقائق میدانیة ــ اذا کانت الدراسة میدانیة ــ او حقائق فی الموضوعات المتعلقة بالعلوم الطبیعیة . وبعد ذلک تأتی مرحلة اجراء التجارب الاولیة واختبارات الفروض اختبارا عملیا ، وبعدما نحصل علی معلومات نعمل علی تنظیمها وترتیبها وایجاد علاقات بینها ، ثم نربط هذه العلاقات بعضها ونحدد موضوع البحث . ونحاول التساؤل والاجابة الذکیة بواسطة الفکر والفروض واثبات الفرض بالتجریب المخطط ، ثم اختیار اکثر الفروض رجاحة .

هل نعتمد علی الصدفة فی البحث ؟

یتعرض الباحث لعوامل نفسیة کثیرة فهو یلاحظ ویفکر ویفرض فروضا معینة ویحاول اثباتها بالتجربة . وهو یتصور ویستخدم خیاله المبدع فیصمم ویضع النظریات ، ثم یستنبط منها قوانین عامة . وهو یتأثر بدوافع نفسیة کالفضول . وکثیرا ما یعتمد علی

معلوماته فى علم تخصصه،وعلى التفكير والتأمل العميق وما تلعبه الصدفة فى بحثه .

ان تاريخ العلوم حافل ببحوث لعبت الصدفة فيها ادوارا هامة . وسأذكر بعض الامثلة على اثر الصدفة فى تسيير دفة بحوث هامة .

توقف باستير أياما عن البحث فى كوليرا الدواجن لما قام باجازة. ولما عاد وجد مستنبتات البكتريا التى كان يربيها قداصيبت بالعقم . وحاول انعاشها ولو جزئيا بحساء ، ثم حقنها فى دواجن . ولشد ما أدهشة عدم تأثير الدواجن بالحقن بالميكروب. وكاد يهمل هذه المستنبتات المستضعفة ، ولكن برقت فكرة فى ذهنة ، نفذها على الفور . لقح الدواجن **ذاتها** بمستنبتات البكتريا غير المستضعفة ، فقاومت الدواجن التلقيح البكتيري الجديد . وادت هذه المصادفة الى كشف ((**التحصين بالتلقيح**)) بجراثيم بعد استضعافها .

وكان ((**كريستيان جرام**)) الطبيب الدانمركى، يستخدم صبغة بنفسجية يعقبها معالجة باليود ، لكى يصبغ نوى خلايا تبطن قنوات دقيقة فى الكلية وتلونها باللون البنفسجى ، اما بقية الخلية فكانت تصبغ بلون بنى . ووجد جرام أن الكحول يزيل اللون بسرعة بعد المعالجة وأن بعض أنواع من البكتريا تحتفظ بلون ازرق قاتم ، بسبب تفاعل اليود مع الصبغة بطريقة لم تكن فى حسبان احد ، لأنها كانت تتفاعل مع مادة توجد فى أنواع معينة من البكتريا دون الاخرى . وكان ذلك بمحض الصدفة ، فاستنبط صبغة للبكتريا وكشف أيضا اختبارا بسيطا عظيم الفائدة يعرفنا انواع البكتريا . وعلى أساس هذا الكشف صنفت البكتيريا الى بكتيريا جرامية ايجابية Gram Positive وأخرى جرامية سلبية Gram Negative

ولعبت الصدفة ادوارا اخرى فى كشف **رونتجن** للاشعة السينية ، وكشف **فليمنج** عقار البنسلين المضاد الحيوى .

والواجب على الباحث اليقظة والاهتمام بكل مايلاحظة . وليس الأمر مجرد حظ ، كما قد نتوهم ، فالحظ ا والصدفة ليست قوة غيبية تؤثر فى مجرى الاحداث ، بل الحظ كلمة اخترعها الانسان ليبرر فشله . والقدرة على الانتباه واليقظة وادراك الانحرافات عن المسالك الطبيعية ، والانتفاع بما شاهدناه من انحراف هى أسرار العقول الناضجة التى تستفيد من الاحداث العارضة . وقد تدهشك ملاحظات بسيطة ادت الى كشوف مشهورة ، والذكى من يظهر مغزى ما كشفه ويربطه بالمعلومات الأخرى ويستخدمه فى استخلاص معلومات جديدة . أن الصدفة نادرة الحدوث . ولا يجب أن نعتمد عليها وحدها فى البحث ، فهي لاتواتينا بصورة دائمة واضحة الدلالة ، بل علينا ان نعمل بجد ومثابرة ، والا نقصر عملنا على اجراء تجارب تقليدية نمطية وأدوات تقليدية ، بل علينا أن نبتكر الطرق الجديدة والاجهزة الجديدة المناسبة لعملنا المتطور .

حساسية الملاحظة :

وكثيرا مايحتاج الباحث الى ملاحظة الاحداث الفريدة بما أوتى من حكمة وقدرة حساسة على الملاحظة ويقظة وتنبه لكل مايحيط به من أشياء محتملة أو غير متوقعة الحدوث ، وعليه تفسير الاحداث وادراك اهميتها والاستفادة من التجارب الناجحة والفاشلة أيضا . لم يكن ((**وليم هارفى**)) أول من عرف وظيفة القلب كمضخة للدم . ولا ((**ادوارد جنار**)) أول من طعّم بلقاح جدرى البشر ليحصن الناس من مرض الجدرى . ولم يكن **دارون** أول من وضع فكرة التطور . ولا **كولومبوس** أول أوروبي رحل الى العالم الجديد . ولم يكن **باستير** أول من وضع نظرية الجرثومة للامراض ، بل كلهم مطورون لأفكار قديمة ، وقد فرضوها علينا بقوة الاقناع والايمان بصحتها فى وقت احجم الناس فيه عن قبول الفكر الجديد . ودافع هؤلاء عن نظرياتهم حتى تقبلها الناس ، لكن من سبقوهم من العلماء لم يدافعوا عن الافكار الاصيلة فطواها النسيان ، كما طواهم .

وتتمثل الارادة الذهنية فى البحث العلمى فى الفرض الـذى يضعـه الباحث ، لانه يفتح أبواب التجارب التي تقودنا الى كل جديد من مشاهدات تزيح الستار عن المجهول ، وتوضح الحقائق المستورة . **ويجب علينا عدم الافراط بالتعلق باهداف الفرض رغم ما يناقضه مـن مشاهدات ، والا نحاول تفسير المشـاهدات تفسيرا غير مقنع حتى تتمشى مع الفرض .** ويجب علينا الا نحكم على النتائج احكاما غير موضوعية ، بل أن نعدل الفرض ليتلاءم مـع المشاهدات ، ثم نرسم خطة تجارب جديدة لمحاولـة اثبات الفرض الجديد او المعدل أو المتطور . ويجب علينا التزام الحياد فى البحث والابتعاد عن أى تعصب فكرى أو تمسك بافكار ونظريات القدماء مهما بلغ شانهم ورسوخهم في العلـم .

ويتعرض الباحث لخطر الالتزام بحمايـة فرضه من النقد والهجوم ، لأن ذلك يؤثر فيه تأثيرا عاطفيا يوقعه فى أخطاء فى التفسير والحكم دون وعى . وكذلك قـد يعرضه لأخطـاء فى المشاهدة. ويجب عدم التقيد بالفرض الخاطىء او الباطل ، والا نفسر المشاهدات بالتلفيق أو التصحيح ، كى يطابق التفسـير تلك الفكرة الخاطئة أو الزائفـة . فهـذه الافكار عرقلت مسيرة العلم مئات السنين ، مثل فكرة احتواء كل المعادن على عنصر الزئبق ، ومثل نظرية العناصر الاربعة ونظرية الفلوجستون ، واكسير الحياة وحجر الفلاسفة .

التفكير العلمي :

اننا عندما نفكر تفكيرا واعيا ندرك اولا وجود صعوبة او مشكلة فتشعر بالقلق النفسى الذى يدفعنا الـى محاولة حلهـا . وهكذا ينشـط العقل ، ويمحص فكرة تنبثق فى الذهن لحلها. وقد يقبل العقل هـذه الفكرة او يرفضها . ويعاود الكرة بافتراض او اقتراح فكرة جديد وهكذا حتى يتوصل الى حل سليم للمشكلة .

وقد يكون التفكير واعيا ومنظما أو حـرا طليقا في مختلف الاتجاهات بغير ضابط . وقد يكون التفكير المنظم فعالا أو عديم الفعالية . فالمرء الذى يفكر ولا ينقد فكرته عندما تطرا على ذهنه نقدا كافيا لا فعالية لفكره . وقد يتسرع فى النقد والحكم ويتعرض للخطـأ . وينتاب المفكر اثناء نقد فكرته بعض الشك ، ولذلـك يجب أن يمعن التأمل والتفكير حتى يستطيع استخلاص النتيجة .

وقد يتعجل المفكر الحكم بعدما يفقد الصبر. والقلق النفسى هو الذى ينتابنا ونحن نشعر بالشك فى الحكم . ومع ذلك فهذا الشك هو الذى يدفعنا الـى التمحيص والاستقصاء . فكلما أمعنا الفكر ازداد احتمال وضوح علاقات جديدة ، تربط نواحي متعددة في موضوعات البحث فتظهر الافكار المبتكرة ، وبخاصة اذا كانت حصيلتنا وخبراتنـا وافرة ، وذكرياتنا متنوعة .

ان التفكير الواعى الموجه هام فى البحث العلمى . وهذا ماينادى به الفيلسوف الامريكى **((جون ديوى))** . ولكن مـن الفلاسفة أمثال هاردنج (صاحبة كتاب قانون الفكر الخلاق) (سنـة ١٨٩٨ ــ ١٩٦١) أن كـل المفكرين الخلاقين حالمون . وقالت عن الاستفراق فى الاحلام أنه يمكن الارادة من تركيز الذهن سلبيا على الموضوع بحيث يتابع تعاقب الافكار عند ظهورها ولا يوقفها الا عندما تكون غير مثمرة ، وتتفرغ عادة على سجيتها حتى تتمخض عن بعض النتائج النافعة .

ولا غرو فقد ذكر العالم الالمانى **ماكس بلانك** أن الخطة الخيالية التى يحاول المرء بناء النظام عليها لاتنفك ان تنهار ، وعندئذ يتحتم عليـه تجربة غيرها . وبمثل هذا التصور والايمان بالنجاح نصل الـى مالاغنى عنه . اما العقل وحده فلا مكان له هنا .

اما «جيمس كلارك مكسويل» صاحب نظرية المجال المغناطيسى فكان من عاداته رسم صور

ذهنية لحل المشاكل . وبنفس هذه الطريقة اهتدى « كيكولى » الى بنية جزىء البنزين من من صورة ذهنية لثعابين وجد أن احدها يمسك ذيله بفمه . ومنها ابتكر الفكرة أن جزىء البنزين على شكل حلقة . فدارت صورة الثعبان فى مخيلته . ولما استيقظ من استغراقه ومضت فكرة الشكل البنائى لجزىء البنزين وميض البرق ، ولا يوجد غير الحدس الذى يساعد الشعور بوجود نظام ماوراء الظواهر . ان انتقال **نيوتن** من التفكير فى سقوط التفاحة الى الارض الى التفكير فى سقوط القمر كان فى الواقع من الاخيلة الوثابة التى قادت الى كشفه قانون الجاذبية ، وكذلك وضع **دالتن** النظرية الذرية دون تجريب ، بل بالخيال المبدع . وكان خيال السير **همفردى ديفى** غزيرا مما ادى الى كثرة كشوفه العلمية . وصاب الخيال **فاراداى** فى اعماله الفلسفية . فالخيال يحفزنا للمزيد من العمل والتجديد ، ويبين لنا ما تظهره الجهود الجديدة من النتائج . فالاحداث والافكار في حد ذاتها لاحياة فيها ، ولا يبعث الروح فيها غير الخيال . ويندر ان تحل المشاكل بالخيال وحده ، وهو مصدر الهام قوى ، لكنه قد يكون خطرا على احكامنا واستنتاجاتنا اذا لم تخضعه لقيود ونظام . فهو دائما فى حاجة الى نقد وتقويم . ويجب الا نكبح جماح الخيال ، لانه ينقلنا من الواقع الى التجول فى غياهب وظلمات المجهول بفكرنا ، حتى نلمح وميضا خافتا لمعلومات غير واضحة المعالم ، فاذا ما اخرجناها الى نور الحقيقة وفحصناها فى ضوء مالدينا من خبرات نستزيد وضوحا ، اذا لم تكن سوى سراب خادع . فقد يتخذ الخيال اشكالا تخيب الآمال .

ويدفعنا الفضول الى كشف العالم . ولا حد لفضول العلماء ، فهم يندفعون دوما نحو البحث عن الكيف . ويستمرون فى بحوثهم منتقلين من نصر الى نصر أعلى شأنا ، مفسحين مجال الرؤية فتتفتح اذهانهم ، ويخرجون الافكار والنظريات الجديدة .

ويحتاج الذهن الى استمرار تنبيهه كى يكون صاحبه من المفكرين او الباحثين عن المعرفة ، وقد يكون ذلك عن تبادل الرأى . وقد تمتزج الآراء والافكار والمعلومات فتظهر فكرة جديدة بين اكثر من شخص . لم يكن فى الامكان استنتاجها بفكر شخص بمفرده . ويكشف النقاش عيوب العيوب والاخطاء ، وينعش وينبه الفكر ، ويحررنا من التفكير المقيد . ويعودنا النقد المخلص البناء والثقة والاحترام بين الزملاء .

خطة البحث :

كان احد الأساتذة يستعد للقيام باجازته السنوية عندما كان يضع لمساته الاخيرة فى بحث يقوم به احد طلاب الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة فى علم الفيزياء الجزيئية ، فاخذ يعطيه آخر تعليماته لاجراء تجارب توضح كيفية نقصان سرعة عملية جزيئية في بلورة جامد ما . وكانت هذه البلورات تأخذ فى الانحلال . وكان على الطالب أن يقيس معدل تناقص سير العملية الجزيئية وسافر الاستاذ وبقى طالب البحث بمفرده مع قياساته . ولما عاد الاستاذ اطلع على الرسم البياني للنتائج التى حصل عليها طالب البحث . وراعه انه وجد المنحنيات البيانية تتخذ اتجاها يخالف ماكان يتوقعه ، لانها لم تشر الى نقصان معدل سير العملية ، بل الى تزايده أولا ثم تناقصه ، وكأن البلورات تعتاد العملية الجزيئية أولا ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحلال . وقد ادى هذا الكشف الى وضع خطة جديدة للبحث وكشف ظاهرة جديدة اعتبرت اضافة هامة فى فيزياء الجزئيات ، وحصل طالب البحث على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز .

ان خطة البحث فى العلوم الاساسية لاتثبت على حال بل تتعرض دائما للتعديل والتغيير . وكلما ابتعد الباحث عن الخطة الاصلية اتت نتائجه بنظريات لها أصالتها ووزنها فى العلم . والعجيب ان تطلب الهيئات الادارية فى بعض

مراكز البحوث من رؤساء الوحدات تحريـر استمارات نمطية تمهيدا لرسم الخطة السنوية العامة للمركز، وتطلب تحديد بيانات يستحيل ان يتكهن بها رئيـس الوحدة ، مثل عـدد الصفحات المزمع طبعها ، أو عدد الساعات التي يستغرقها البحث ، أو عناوين البحوث والنتائج المنتظرة . ان هذا أمر مستحيل حتى لو كان البحث نظريا . فقد يقوم العالم بعمل نظرى وهو فى بيته او بمكتبه ، ولا شأن للخطة بترتيب وقت الباحث . وقد يتمكن المركز من تحديد عدد صفحات كتاب علمى دراسى ، وليس من الحكمة التحديد في البحوث بهذا الشكل . ان الاكاديميات العلمية تنشر تقاريرا عن الابحاث الرئيسية التى تظهر فعلا ، وتقبل نشـر مقالات لاتتجاوز صفحاتها عددا معينا وبها نتائج قد تكون استغرقت السنين مـن الجهد البدنى والعقلى . وكم من بحث متوسط القيمة لايسـاوى قراءته ! وكم من رسـالة ضخمة يتصفحها الاستاذ فقط ولا يقرأهـا بعناية لأنها لاتستحق القراءة ! .

وينصح محررو المجلات العلميـة بالايجاز فى كتابة المقالات فلا يكتب بها غير المهم بايجاز واضح . حتى لاتضيع المعلومات الجديـدة الهامة فى زحام الحشو الاجوف .

وتجرى البحوث فى المعاهد وفى الكليـات العملية تحت اشراف أساتذة لديهم الحرية العلمية فى اختيار الموضوع ، ولو أن الافضل ان تعطى فرصة الاختيار لطالب البحث .

والواقع أن الغرض الرئيسي مـن بحوث الطلاب بالدراسات العليا هو التدريب على اجراء البحوث واستخلاص النتائج، والتدريب على التفكير العلمى . وعلى الاستاذ القيـادة والتوجيه والمعاونة والتدريب والمساعدة فى وضع خطة عامة للمعهد او الكلية . ويتأثر المخططون بمتطلبات العصر وهـم يفكرون فى اختيار موضـوع بحث للمبتدئين . وتتأثر حرية الاختيار بمؤثرات نفسية ومادية تحت الطالب وهو على مفترق طريق حل المشاكل التى تصادفه في العلوم الطبيعية . انك تجد مثـلا اتسـاعا هائـلا وتعميقـا فى بحـوث الالكترونيات وفى فيزياء الجسيمات الاولية في السنـوات الاخيرة . ونجـد ان البحـوث ليست من أجل كشف اسرار الطبيعة فحسب، بل أصبحت تهدف الى غايات محددة. فبحوث كيمياء الجزيئات العملاقة لم تكن لتبلغ الشأن العظيم الذى حظيت به ، اذا لم تهدف الـى غاية معينة هى تخليق اللدائن ، التى تستخدم كبدائل لمواد تقليدية ، مثل المعادن والاليـاف الصناعية . فقـد زاد الاهتمام باللـدائن منذ الاربعينيات من هذا القرن ، وزاد البحث فى بنية الجزيئـات العمالقة وعمليـة التكثيف الجزيئى والبلمرة . وتمكن العلماء من الاجابة على أسئلة واستفسارات هامة عن بنية اللدائن وخواصها والقونين التى تحكم تخليقها وبناءها.

ويرغب الباحث فى اشعار المجتمع بأهميته ونفعـه لغيره . وان يحس باسهامه فى حـل مشاكل البلاد واخيرا وليس آخرا المشاكل العالمية . فهذا الشعور الطيب يجعل الرؤساء فى معاهد البحث يهتمون بتمويل معاملهم بالمال الوافر ليحصلوا على كل ما يمكنهم من بلوغ هذه الاهداف النبيلة .

الانتماء للعلـم :

يتأثر الباحث بكفرة معينة تشده الى العلم وتحفزه للعمل والبحث الدقيق، ليسهم اسهاما كبيرا فى تقدم العلوم ويرفع مكانة صاحبه . ان علمـاء الفيزياء النوويـة والكيميـاء النوويـة مثلا قد علت مكانتهم لانهم مهدوا لنا طريـق البحث فى علوم اخرى عديدة خلقت علـوم البيولوجيا النووية وكشفت أسـرار العمليات الحيوية فى اجسام الحيوان والنبات .

وقلمـا يرغب الباحـث فى العلوم الطبيعية التحول عنها الى العلوم التطبيقية. فهو كالفنان أو كالشاعر اذا طالبته بأن يسلك مسلكا لايناسب

ميوله رفض بكل اباء . ولمهنة العالم الطبيعي قوة تدفعه وكأنها السحر ، تسرى فى جسد صاحبها فلا يجد لنفسه خلاصا منها ، بل يشعر برغبة جامحة فى الكشف عن المجهول تملأ صاحبها رضاء وانشراحا .

ان جب المشرفين على البحوث العلمية قد يدفعهم الى اللجوء للتمويل عن طريق التعاقد مع دور الصناعة للعمل على حل مشاكل صناعية معينة ، ويستطيعون دعم معاملهم بالاموال التي تنفقها البيوت الصناعية راضية . ويستطيعون الى جانب البحوث الصناعية ايجاد الفرص المتاحة لاقتناء احسن المعدات والاجهزة والحصول على كل المساعدات التى تمكنهم من السير فى بحوثهم بالعلوم الاساسية ايضا .

الاتصالات العلمية :

ولابد من اتصال العلماء ببعضهم لتبادل الافكار ، وهذا الاتصال يغذى البحث وينمى التفكير المنظم ويقوى النقد البناء ، وتعتبر الاجتماعات الدورية في مراكز البحوث والمعاهد وكذلك اللقاءات العلمية وما بها من حوار ومناقشات كالنسيج الضام لمختلف خلايا الجسم الحي فى كيان العلم . اما الباحث المنفرد او الذى يعمل مع افراد قليلى العدد فلاتتسع افكاره ، وعليه الاتصال بآخرين من المهتمين بالعلوم . ويتأثر الباحث الذى يعمل منفردا بخط فكرى واحد ، قد يستر مجال رؤيته للاشياء الهامة بستار كثيف من الجمود الفكرى فيسلك دروبا تضلله ، وتبعده عن بلوغ اى نتيجة مرجوة ، او قد توصله الى شيء سبق أن كشف وكأنه يدور فى بحثه فى حلقة مفرغة او يسير فى طريق مسدود .

وقد يكون الاتصال العلمى بواسطة قراءة الكتب والمجلات المتخصصة ، ولو أن هذا لايغنينا عن الاتصال الشخصي ، فالمراجع لا تنشر الا المحاولات الناجحة فى البحوث والكشوف الجديدة . ونستمع عادة الى متحدثين والى ضيوف من مختلف البلدان فى حلقات البحث عندما يقرأون تقارير عن النتائج التي قام باستنتاجها الزملاء . ويتوقع المتحدث نقدا ، ويسمع نصحا . فقد يغير هذا النقد او النصح اتجاهه ، فيخطو البحث خطوات واسعة وسريعة الى الامام .

وبعد ما تتاح الفرصة للباحث لتقديم اكثر من تقرير في حلقات المناقشة دون التعرض لهجوم او تهكم ، أو ان يوصف بحثه بعدم الاهمية او التفاهة ، فانه يعتز بقدرته ويملاه الرضا والاعتزاز بالنفس فيستمر فى عمله العلمي بكل اطمئنان وثقة .

ونحن ، المستمعين ، ندون ملاحظات عن كل جديد مما نسمعه فى هذه اللقاءات فتنعكس هذه على اهتماماتنا ، وتوحى الينا باحتمالات جديدة فى التطبيق العلمى . والحق اني أشفق على الباحث المبتدىء وهو يجمع المعلومات المنشورة عن موضوع اختاره للبحث ، ويتابع كل ما نشر أولا باول ، وهذا كثير للغاية . كان علماء القرن الماضى يتابعون المنشور عن موضوعات بحوثهم بسهولة فى المراجع العالمية التي كانت محدودة العدد . فكانوا يكرسون سويعات من وقتهم كل شهر للقراءة فى أمهات المجلات العلمية ، وفى تقارير الجمعيات المتخصصة وكان للعالم فرصة طويلة ينتظرها حتى يأتي موعد العدد الجديد من المجلة العلمية . ان تلك الايام قد ولت . والآن اتسعت مجالات البحث وتعددت المجلات العلمية . وقد أصبح عدد الباحثين أو العلميين الآن يقدر بالملايين فى العالم . وسوف يزدادون الى مئات الملايين في القرن الثلاثين . وتدون جيوش العلماء نتائج اعمالهم في مجلات علمية يبلغ عددها الآن قرابة الخمسين الفا . وليست صناعة نشر العلم متمركزة ، بل تعالج المجلات المختلفة نفس الموضوعات أحيانا فى مختلف الدول . وتتداخل الموضوعات فى أكثر من مجلة . وقد يكون لنفس الموضوع أكثر من عنوان مناسب . فمثلا يمكن ان ينشر مقال بعنوان : « دراسات عن طيف

الاشعة تحت الحمراء لبلورات الهيموجلوبين» . ان مقالا بهذا العنوان تقبل نشره عدة مجـلات علمية منها ما يختص بفيزياء الجوامد أو الفيزياء النظرية او التجريبية او علـم البصريـات او الاطياف أو التصويـر البلـورى او الكيميـاء العضوية او الحيوية او الفيزيـاء الحيويـة . اليس هذا كثيرا ؟ وكيف نستطيع متابعة مثـل هذا الموضوع فى مختلف المجـلات وفى مختلف بلاد العالم المتحضر .

ان الطريق الوحيـد للتغلب علـى هـذه الصعوبة هو اللجوء الـى قراءة الملخصـات فى مجلات مختصة بذلك ، فتدلنا على الموضـوع والمؤلف ومكان النشر وتاريخه . وتصدر هـذه المجلات دوريا وبها آلاف العناوين والخلاصات . وعلى الباحث ان يدون ما يتراءى له من أسماء الموضوعات والمؤلفين وأماكن النشر ، اذا كانت تهمه ، كى يرجع اليها بالتفصيل عند الحاجة .

وتعقد أحيانا حلقات للمناقشة العلمية ـ كل شهر أو كل ثلاثة شهور ـ فيما ينشر مـن بحوث خلال الفترة . وتساعد هذه المناقشات الباحثين فى أعمالهم وتعودهم على تقاليد المناقشة وآدابها . وتوجههم الى طريقة تلخيص اعمـال الغير ، وتدربهم على الكتابة العلمية . والمتحدث في هذه الحلقات لا يتعرض للحرج او الارتباك لانه غير مسئول عن ما يعرضه من نتائج وافكار ، فالمسئول هو صاحب البحث نفسه وهو عادة غريب عن حلقة المناقشة .

وتزداد متابعة البحوث المنشورة صعوبة من عام الى آخـر بسبب التقـدم السريع فى العلوم . ومن الصعب متابعـة كـل البحـوث بمختلف اللغات ، ومن ثم يهتم أغلب الباحثين بنشر بحوثهم الاصلية باللغة الانجليزيـة لكثرة انتشارها بين رجال العلم فى العصر الحديث .

وتقبل المجلات المتخصصة فى بلاد غير ناطقـة بالانجليزية نشر البحوث فيها بالانجليزية .

ويتطلـع العلمـاء الـى اسـتخدام آلات الكترونية لتزويدهم بالمعلومات . ويتوقعـون ان المستقبل سوف يجعلك تضغط علـى زر ، وتوجه سؤالك للجهاز الالكتروني فى ميكروفون صغير ، فيخبرك الجهاز بكل المعلومات التـى يدخرها عن موضـوع سؤالك ، ويكتب علـى آلة كاتبة كل ما تريده مـن اسـماء المقـالات والمؤلفين وأسماء المجلات وأرقام الصفحـات والتواريخ الى آخر هذه البيانات التى يهتم بها الباحث .

وتقوم المؤتمرات بتنسيق البحوث وتساعد على وضع خططها . وتقوم هيئات علمية بالاعداد والتنسيق لاعمال المؤتمرات ، وتحـدد مواعيد واماكن انعقادها . وتشكل لجنة للنظام لتقـرر المكان والزمان ولترسل الدعوات للمختصـين من الافـراد والحكومـات والهيئات ، وتطلب تقديم ملخصات للابحاث التي ستعرض بالمؤتمر وتقرأ البحوث العامة أمام ما يسمى بالجمعية العمومية للمؤتمر ، ثم يفضل انعقاد جلسـات فرعية متخصصة بالفروع المختلفة من العلـم . ويفضل ان يكون المؤتمر فى مكان يحب الاعضاء زيارته ، حتى يقبلوا على الحضور ، فيضمن له النجاح . ويسعد الاعضاء بلقاء زملاء لهم من مختلف دول العالـم ويناقشونهـم بقاعـات الاجتماعات وبلقاءات غير رسمية خارج الردهات أو بالحديقـة المجـاورة ، أو أثناء الرحـلات الخارجية ، التي يزور فيها الاعضاء بعض معالم المنطقة كالمتاحف ، والمنشآت الكبرى . ويكتفى اغلب الاعضاء بقراءة التقارير العامة ويفضلون الجلوس فى الردهات والتحدث مع الزملاء بدون جدول اعمـال وبحريـة كاملة عن موضوعات المؤتمر وعن غيرها من الاتجاهات الفكريـة

المعاصرة ، ويتبادلون الآراء والافكار والنقد . وبعد عودتهم الى اوطانهم يتراسلون ويتبادلون التهانى بالاعياد ويتبادلون الرسائل العلمية المنشورة .

الوالدان والتوجيه العلمي

نعرف كلنا علم الوارثة الذى وضع قانونه الاول **جريجورى مندل** . ونعرف كيف عالج هذا العلم انتقال الصفات الوراثية من الوالدين الى الابناء والاحفاد . ويتحدث العلماء المحدثون عن علم جديد من العلوم البيولوجية يسمى علم الوارثة الجزيئي . اى انه علم يبحث فى التركيب الجزيئي لحامض النوويك ومشتقاته الكيميائية ،ومن بينها الحامض النووى الدياكسى ريبوزى المسمى بالحروف الاولى من اسمه باللاتينية (د ن أ) DNA ، والحامض النووى الريبوزى المسمى بالحروف ر ن أ (RNA) فقد تعمقت بحوث كيمياء نواة الخلية الحية ؛ حتى تناولت سر شفرة الوراثة،وتتطلع العلماء الى يوم نستطيع فيه فحص الخلية الحية بالميكرسكوب الالكترونى وغيره من اجهزة سوف تخترع ، فنرى التفاصيل المتناهية الدقة بداخل الكروموسومات (حاملة الصفات الوراثية) فنقرأ بها صفات ابناء المستقبل من بنية الجزيئات العملاقة التى بالخلية ،ونستنتج ماسوف يشب عليه ابناؤنا من صفات وميول وقدرات وراثية حتى نستطيع تحديد نوع التعليم المناسب لهم . ولكن هيهات ان يتحقق هذا الحلم البديع ، فالشخص بعدما يتم تشكيله قد يسلك مخالفا لصفاته المكتسبة وراثيا . ونحن نعلم ان التعليم والتهذيب يغيران طبائع البشر . انك تستطيع ان تدرب حيوانا على السير على رجليه الخلفيتين فقط ، او ان تدريب لاعب السرك على السير على يديه ، راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى ، ولكن هذا السلوك يخالف طبيعة الحيوان او طبيعة لاعب السرك . ولا اعتقد ان احدهما يستمتع كثيرا بهذا المسلك الشاذ . ولكنه قد يسلك مسلكا يميل اليه من تلقاء نفسه ، فاذا اردنا تحديد افضل عمل يناسب شابا فعلينا مراقبة تصرفاته ومسلكه ، وهناك بعض الاختبارات السلوكية التى نتعرف بها على الميول الطبيعية ، ونسمع من ام من الامهات ان ابنها سوف يكون عالما لانه كثير الانكباب على الكتب . ان هذا رأى سطحى ، فالقراءة لا تعنى الكثير بالنسبة لتكوين الشخصية . وقد تقول ام اخرى ان ولدها اجتماعى ، يحب الناس ، ولا يطيق الوحدة ، بل دائم الاختلاط باقرانه فقد يكون هذا المسلك نقطة بداية تنم عن ميوله الطبيعية . وقد تكون قوة الملاحظة غير واضحة في طفل ولكن تظهر فيه الصفة الهامة بوضوح اذا ترك وحده ليفكر ويتأمل ، فاذا احب هذا الطفل التأمل فقد يصلح لان يكون عالما . ويجب ان نتيح الفرصة له ليستمتع بالالعاب الرياضية والاشتراك في المباريات واللهو البرىء الى جانب العمل حتى يستطيع ان يكون من اهل العلوم التطبيقية ، كأن يكون طيارا او مهندسا . اما الذى يظل منفردا مع كتابه ، او مع جهاز لاسلكى قديم ، او ماشابهه من اجهزة ، ويستمتع بهذه الوحدة فيجب ان يشجع على هذا الانفراد بالكتاب او بالجهاز ، حتى يتدرب على التفكير الحر ، فعالم الجيل القادم يجب ان يكون حر التفكير ، محبا لمعرفة حقائق الاشياء ، ومستقصيا للتفاصيل . ان فضول الطفل يدفعه الى التساؤل عن اشياء كثيرة ، ولكنه عندما يتدرب على التعامل والتفاعل مع البيئة تنقص تساؤلاته بالتدريج . اما اذا لاحظنا استمرار فضوله وازدياده فان هذه علامة طيبة يجب تشجيع انمائها بالاجابة على اسئلته ومنحه فرص التفكير . واذا لم يستطع الوالدان الرد عليه باجابه صحيحة فانه سيبحث عن الاجابة

الصحيحة بنفسه لدى الجيران او الاصدقاء او في كتاب ، فاذا لم يجد الكتاب المناسب ، فانه يبدأ التأمل وتصور اجابة يفترضها ، ثم يحاول التحقق من صحتها بالفحص ويطرق من ابتكاره . ان التأمل والفضول سمتان من سمات محب العلوم ، ودعامتان لمن يود ان يكون عالما .

وبعد التأكد من ان الصغير يصلح ان يكون عالما ، ياتي دور التعرف على المجال العلمي الذى يناسبه . وقد لانجد اختبارا يمكن ان يجرى لنعرف منه اى نوع او فرع من العلوم انسب له . ايصبح رياضيا او فيزيائيا او كيميائيا او مؤرخا ؟ ان اختيار مهنة التخصص تجيء عادة بمحض الصدفة . ومع ذلك ينقسم الافراد حسب ميولهم الطبيعية الى اقسام مختلفه . فاذا كان الشاب يهتم باقدار الناس والعلاقات الانسانية او بمركز الانسان فى المجتمع او بالحياة الروحية للافراد المخالطين له فى المجتمع ، فان هذا يشير الى حسن استعداده لان يدرس العلوم الانسانية ، اما اذا كان يهتم بطرق صناعة الاشياء ، وكيفية استعمالها فان هذا يزكيه للسير فى اتجاه دراسة العلوم التطبيقية ، اما اذا كان يهتم بالطبيعة ذاتها فان ذلك يؤهله للدراسات الاكاديمية ، وان يختص في العلوم الطبيعية كالفيزياء او الكيمياء او الفلك او الجيولوجيا .

وقد يشك الوالدان في مقدرة ابنهم عندما يبدأ مهنة معينة ، لان مقدرته متوسطة ، ولكنه شديد الرغبة في دراسة العلوم . والواجب فى هذه الحالة عدم مقاومة رغبته ، بل علينا ان نبذل قصارى جهدنا لنحببه للعلم ، فسوف تظهر القدرة نفسها متاخرة قليلا حتى لو كانت متوسطة او اقل من المتوسطة . لان تكريس المرء لعمله وحبه له ، وقوة ارادته وصموده فى اتجاهه العلمى سوف تؤدى ، ولا ريب ، الى بلوغ الغاية ، والوصول الى مكانة مومرقة في العلم . ان مثل هذا الشخص الذى يبدا متوسط القدرة ، ثم يكرس الجهد ويصمم سوف ينتج ويبدع وسوف تكون متعته بالابداع العلمى اكبر مئات المرات من مساهمته الفعلية فى العلم .

ويجب ان يلاحظ الوالدان صفه اخرى فى ولدهم ، فيجب ان يكون محبا للتفكير المنطقى الواضح ، وان يكون قوى الذاكرة . وهاتان صفتان قد لاتظهران بجلاء اثناء الدراسة اذا كانت المدرسة ضعيفة .

ويكون الطريق العلمى للفتى والفتاة مامون العواقب اذا نشأ الفتى في اسرة اكاديمية وكان اصدقاؤه من اوساط تقارب وسطه ، واهواؤهم ومشاربهم متشابهة . ان العصر الحديث يتعطش الى الاستزادة من دراسة العلوم ، والى الشباب الراغب فى الدراسات العليا ، ومستقبل هؤلاء تحدده الجامعات ومراكز البحوث . والمهم في تشكيل هؤلاء قوة الاساتذة بالكلمة والمثال والعمل ، فالمحاضر الضعيف او الخالى البال من العلم قد ينفر الطالب عن العلم ، ويأتى المعلم بعد البيت في العلوم الطبيعية ومعرفة رغباتهم ومواهبهم ، ويمكن اظهارها في المقابلة الشخصية بين الطالب والاستاذ ، وكذلك باختبارات نفسية والتدقيق الشديد لمعرفة جهد المرشح ومثابرته .

• • •

ولا تخلو حياة من يكرس نفسه للعلم من الآلام والآمال والطموح . وقد يعمل باحث فى نفس الموضوع الذى تعمل انت فيه ويحصل على نتائج أكثر دقة من نتائجك وينشرها قبل

ان تقوم انت بنشر أبحاثك . وهذا يضيع قيمة عملك وجهدك . وهذا مايعانيه كثيرون ممن يتلكأون في النشر ، اما لتشككهم في أعمالهم أكثر مما ينبغي أو لعدم قدرتهم على صياغة نتائج أعمالهم في شكل قابل للنشر . ان هذا الضياع الذي يشعر به من فاتته فرصة النشر يصيب صاحبه بالحسرة ، لكن الصامد هو الذي يتحمل الصدمة ويثابر ويعاود البحث حتى ينجح في كشف جديد . وعندئذ لايمكن وصف ماينالـه من السرور والانشراح والرضاء عندما يظهر بحثه الجديد بصفحات احدى المجلات العلمية واسمه تحت عنوان الموضوع ، يشير الى قدرته العلمية ، وكأنه ينادى صاحبه ، ويهتف له مشيدا بجهده الذى كرسه ، وفكرة المستنير الذى أدى الى هذه النتائج المنشورة . ومع ذلك ، قد لا يشعر بـه زملاؤه ، بل وقد لايقدرون جهده ، وربما لايلاحظون مانشر اطلاقا ... وتمر سنوات قليلة . ويظهر اسم صاحب هذا البحث بالمراجع العلمية . ثم تتكاثر الاشادة بنتائج البحث ، فيحس صاحبها بالاعتزاز ، لان الناس يقرأون اعماله ، ويستفيدون منها ، والانسانية تستفيد من عمله . عندئذ يحس الباحث باسهامه في تقوية جبهة العلم وبالسعادة كل السعادة التى تغمر كل مشاعره .

● ● ●

مع تاريخ العلوم

يتحدث علم الجنين عن مبدأ استعادة جنين انسان تاريخ تطوره Recapitulation عبر ملايين السنين موضحا التطور من نطفة فعلقة ، الى أن يبلغ طور الانسان سيد الكائنات جميعا . وطبيعي أن أحاول فأقارن تطور الفكر منذ أيام الاغريق القدماء الى عصرنا الحديث بتطور المعرفة في طفل معاصر . فانك تجد بين فلاسفة اليونان، أرسطو وديموقريطس ، ونجد التفكير البسيط الواضح في فلسفة ديموقريطس يقارب في روحه فكرنا المعاصر . لكن لارسطو انموذجا آخر في الفكر ، كانت الثقة في المعنى الداخلي للكلمات التي يقوم على أساسها تفكيره ، كما تميز عقلية بريئة لطفل . وكانت فيزياء أرسطو لاتتجاوز في نظرنا كونها قراءات قديمة . ويمكن استعمال افكار ديموقريطس ، الى حد ما ، عن بناء المادة وكأنها عرض جديد لأساس العلم .

وقد احتضنت المسيحية تعاليم ارسطو غير مرتبة ، واستخدمت المنطق والبرهان في العلوم الدينية التى ظلت متمسكة بالمذهب القومى ــ الذى وضعه الايطالى توماس اكونياس ــ ممثلا اساسا دينيا لدى الروم الكاثوليك . واحيا الناس الفكر اليونانى القديم وطبقوه في مجالات لاتمت بصلة للدين .

وجاء عصر النهضة في اوروبا وحول الفكر من الأمور الدينية الى دنيوية تتعلق بالانسان وسميت الدراسات الفكرية « بالانسانيات » وانطلقت روح البحث في القرن الثالث عشر واصطدمت الآراء الجديدة بالمعتقدات القديمة ، وكسب الفكر الجديد المعركة رويدا رويدا محمولا على اجنحة الفكر المستنير الى القرن السابع عشر فالثامن عشر ، بعد ازدهار الافكار الجديدة . وكان علم الفلك من العلوم القليلة التي لم تهمل ابان عهود الظلم والظلام ، وربما كان هذا بسبب حاجة رجال الكنيسة الى علم الفلك في التقويم وتحديد مواقيت الاعياد ، أو لاعتقادهم في رؤية الطالع . ولما فجر القرن الخامس عشر بنور العلم والاختراع واخترعت آلة الطباعة ، وترجمت التوراة وطبعت ، وترجم برباخ Purbach كتب بطليموس في سنة

١٤٥٠ ، وتمكن الراهب البولندى كوبرنيكوس من دراسة الكواكب ، هاله ما رآه فى المريخ من التقلب الكبير فىحالات اشراقه بأوقاتمختلفة. ولم يأنس لما كتبه بطليموس عن النظام الفلكى الذى يقـول أن الأرض مركـز الكـون ، وأن الشمس والكواكب تدور حولها . واحس بعدم توافـق قـول فيثاغوراس وارسترخس مـع ماشهده شخصيا فزعم أن الشمس هى التى فى مركز الكون وليست الارض ، وأن الكواكب ومن بينها الأرض تدور حول الشمس . اهمل الناس نفس هذا الزعم،الذىزعمه فيثاغوراس وارسترخس من قبل ، لأنهم كانوا متمسكين بآراء بطليموس حتى جـاء كوبرنيكوس وايـد زعمهما . وكان نفوذ الكنيسة قويا جدا . وكانت عقيدتها تقتضى أن تكون الأرض موطن البشر ومركز الكون وأن تكون ساكنة . وحاول كوبرنيكوس طبع كتابه ونشره ، لكنه خشى المصادرة وخاف من العقاب . وكيف لا يخاف وقد كان أسقفا متدينا ورعا ، وعالما يعرف معنى الحرية ، فرفع كتابة الى البابا . وكتب في مقدمته .. « أرفع بحثى هذا فى موضوع أقدمه الى قداستكم ثم الى اعلام الرياضيين ليحكموا عليه ... »

وتزعزعت بديهيات اقليدس فىالقرن التاسع عشر على أثر تحديات علماء الرياضة كمـا أثرتة اعمالهم فى الفكر العلمى عندما ابتكروا « هندسة لا اقليدية » مفترضين فروضـا جديدة ، فأصبحت العلوم الحديثة تصـدر العالم بشكل عقلانى . وثار جاليليو لورتـه (سنة ١٥٦٤ ــ ١٦٤٢) على الفلسفة القديمة. واسـس علم الفيزياء الجـديد على اساس التجريب . ولكنه لم يقم يقينا بتجـارب عملية ، الا انه وصف التجارب الممكنة . واستخدم الطريقة العلمية التى نستخدمها فى العصر الحديث ، التى تعتمد على مشاهـدة الظواهر وتفسيرها بوصفها اولا . واهمـل جاليليو سبب حدوث هذا النوع من الحركة او ذاك ، وكان ما يعنيه هو التساؤل عن كيفية حدوثها ، فالمشكلة ليست فى تفسير الحركة ، بل فى وصفها . وكان يبدأ بالمشاهدة ثم يستنتج منها التعميم او البديهيات ، بدلا من طريقة القدماء الذين كانـوا يبدأون مـن عموميات مفترضة . وكان يعتبـــر المشاهدة العملية الاساس لكسب المعرفة ، وقال الا قيام لتعميم الا بتكرار الفحص للاحداث ، واعادة فحص النتائج بتجارب اخرى من انواع جديدة . وأن التعميم لن يكتمل الا اذا صلح فى كل الظروف ودعمته ملايين المشاهدات دون استثناء . فلو حدث تناقض واحد بين هذه الملايين فان ذلك يستدعى تعديل الاستنتاج . فالشـك يصاحب كل نظرية بقدر معين ولو بنسبة ضئيلة ، ولا يقين تام مهما بلغت اعداد التجارب من الكثرة .

وقد اصبح مبدأ عدم التأكد(Uncertainty) حجر الزاوية فى الفسلفة الحديثة ، التى لا تدعى الصدق الكامل ولا الشك التام ، بل ان منتهى الصدق يخلو من المعنى ، اذ لا توجد ثمة طريقة تجرى المشاهدات فيها باعداد كافية لبلوغ الصدق المؤكد حتى يصبح في منتهاه .

وعلى الرغم من اعتماد العلوم ــ الفلسفة الطبيعية الجديدة ــ على المشاهدة والاستنتاج فهى فى الواقع فلسفة ، وتمنح الجامعات درجة الدكتـوراة فى الفلسفة فى مختلف العلـــوم كالرياضيات والكيميـاء والفيزياء والفلــك والاحياء . ويتسم هذا العصر بمبدأ التعاون والاتصال بين العلماء. ولم يكن التعاون واضحا فى فلسفات القرون الوسطى بل اعتمد كيميائيو

تلك القرون على التضليل احيانا فى كتاباتهم فى الكيمياء القديمة ليحتفظوا لانفسهم باسرارها.

وظهرت جماعات وجمعيات علمية فىالقرن السابع عشر في اوروبا واهمها (الجمعيةالملكية) بلندن التى بدات بجامعة من المولعين بالطرق العلمية التى اقام جاليليو اساسها وكان اعضاؤها علماء قد سبقوا عصرهم ، فلم يحفل بهم معاصروهم فى اول الامر ، حتى ظهر الفيلسوف الانجليزى السير اسحق نيوتن (سنة ١٦٤٢ ــ ١٧٢٧) وابدع اعمالا اصيلة غيرت مفاهيم الناس وثبتت وعيهم العلمى . فقد اعلن قوانينالحركة المعروفة باسمه وكشف قانون الجاذبية العالمية . فاخذ الناس بمبدأ الاعتماد على التجربة والمشاهدة والتحليل . ونبذوا اثبات النظريات بالجدال والنقاش المعتمد على الالفاظ ، وتطورت العلومالتجريبية وتداخلت وتشابكت ونمت على مر الاعوامحتى اصبح العلماء يؤمنون بالتخصص الدقيقالذى فرض نفسه على العلم الحديث . واستخدمت المعادلات الرياضية فى حساب حركة الكواكب ومواعيد ظهورهاواماكنها . وكان فى مقدمة هذه البحوث حسابات ((**اربان ليفربيه**)) . وقد كانت حركة الكواكب قد حسبت واتفقت مع المشاهدات الفلكية ووصلت الكواكب فى مواعيدها المحسوبة بالدقة الا **يورانوس** الذى لم يخضع لهذه الحسابات ، بل حاد ايضا عن قوانين نيوتن . واعتقد ان هذا الحيود غير معقول ، وكانت الثقة كاملة فى تلك القوانين ، بعد ان اكدتها التجارب العديدة . وكانت الطبيعة لا تزال تخفى سرا من اسرارها .

وفكر **لفربيه** ، وقال باحتمال وجود كوكب مجهول ، يسير فى فلك ابعد من يورانوس ، ولم تدخل جاذبية هذا الكوكب فى الحساب . وربما كانت من الصفر بحيث لا تؤثر فىالكواكب الأبعد منه عن يورانوس ، واعتبر انه يقع الى جوار يورانوس ، ويؤخر وصوله في الميعاد . واذا صح هذا الفرض لنشأت مشكلة عكسية، ولامكن حساب بُعْد يورانيوس عن مساره الموصوف بالمعادلات التفاضلية . فهو ينحرف نحو اليسار عند نقط بعينها ، ونحو اليمين عن نقط اخرى . وحسب ليفريبه مسار الكوكب المزعوم . وعين وقت ظهوره ، ومكانه فى السماء . وفعلا كشف فى الزمان والمكان المحددين ــ فى سبتمبر سنة ١٨٤٦ وانضم **نبتون** الى المجموعة الشمسية . وكانت هذه الواقعة من انصع صفحات التنبؤ العلمى بالمستقبل . واثرت هذه الواقعة فى نفوس العلماء فى جيل ليفربيه . وكان طبيعى اجراء بعض التعديل فى قوانين الحركة التى وضعها نيوتن ، واعتقدوا بوجود ظواهر خفية فى مجالات اخرى من الفيزياء كالبصريات تحتاج من يميط عنها اللثام . ومع ذلك ظن بعض الفيزيائيين ان علم الفيزياء قد اكتمل ولم يعد به مجال للبحث عن اى جديد .

ووضع الفيلسوف الفرنسى ديكارت مفهوم « الاثير » الذى يقول ان الطبيعة لا تحتوى اى فراغ بل يتغلغل الاثير في كل شيء وينتشر بكل الارجاء . ونوقشت نظرية الاثير وافترض العلماء وجود انواع معينة من الاثير . بمختلف الظواهر ، فمثلا اثير كهربى وآخر ضوئي . وهذا فرض يناقض القوى الكهرومغناطيسية اللحظية الانتشار .

وتعاصر الفيلسوفان نيوتن وديكارت وجاء معهم **روبرت بويل** (سنة ١٦٢٧ ــ ١٦٩١) المعروف بقانونه المشهور الذى يعالج مسلك الغازات من حيث الضغط والحجم . وعالج

بويل الكيمياء من ناحية فلسفية ووضع كتابه ((الكيميائي المتشكك)) The Sceptical Chymist اوضح فيه خطأ مدرسة المشائين ، التي كانت تعتمد على فلسفة ارسطو ، والتي حكمت الفكر في اوروبا طوال القرون الوسطى . وظلت تؤثر فيه حتى القرن السابع عشر ، وكذلك خطأ مدرسة ثيوفراتوس التي انشأها هذا العالم القديم في القرن السادس عشر وهو المسمى باســـم الشهرة ((**براسلسوس**)) . ونادى بويل بالاعتماد على الممارسة والتجربة .

وظهر في القرن الثامن عشر القس الانجليزي **يوسف بريستلي** (سنة ١٧٣٣ ــ ١٨٠٤) كما ظهر العالم الفرنسي لفوازييه (سنة ١٧٤٣ ــ ١٧٩٤) قبيل اندلاع الثورة الفرنسية . عاشا وسط احداث جسام . دافع بريستلي عــن الثورة الفرنسية ، وهاجم الخطباء والكتـــاب الذين عارضوه في انجلترا فاقتحم الجمهور داره ، ومزقوا كتبه وحطموا ادواته ودمروها . وهـــو العالم العبقري مكتشف الاكسيجين واكاسيد الازوت وصاحب البحوث القيمة في كيمياء الفازات . وكاشف ماء الصودا ومحضر كلوريد الهيدروجين من ملح الطعام وزيت الزاج . اما **لفوازييه** فقد عاش في باريس بين الجماهير الهائجة . وكان يجري تجارب بالوزن والقياس والمشاهدة والاستنتاج فكشف **نظرية الاحتراق** وهـدم **نظـرية الفلوجستون** . فر بريستلي من انجلترا ، اما لفوازييه فقد لاحقه الحاسدون واوقعوا به ، وحوكم محاكمـــة سريعة واطاحت المقصلة براسه ، وكان اعدامه من افظع ما قامت به الثورة الفرنسية .

ولما هدم لفوازييه نظرية الفلوجستين واقام مكانها نظرية الاحتراق ، نفخ في العلم روحـــا جديدة . وما كاد ينتهي القرن الثامن عشر حتى انجب مولودا جديدا اضيف الى تاريخ العلوم . هو السير **همفري ديفي** (سنة ١٧٧٨) الذي صار استاذ الكيمياء بالمعهد الملكي بلندن في مطلع القرن التاسع عشر . عاش ديفي في اسرة رقيقة الحال . ولكنه كد وكافح لاعاشة اسرته . وتعلم الصيدلة والجراحـــة لـــدى صيدلاني عمل لديه وعكف على الدرس والتدقيق والاستفادة . ولخص كتبا كثـــيرة ، ودرس الكيمياء والفيزياء ودرس ابحاث نيوتن . وقرأ كتاب «اصول الكيمياء» الذي وضعه لفوازييه . وفحص ما به من علم بالتجربة وبحث الحرارة والضوء والاشتعال والاكسجين والخـــواص المخدرة لاكسيد النتروز . وحلل الماء بالكهرباء واثبت ان الماء يتكون من الاكسجين والهيدروجين وكشف الفلزات القلوية ، فهو كاشف البوتاسيوم بالتحليل الكهربي ، كما كشف عناصر اخرى بنفس الطريقة ، مثل الاسترنشيوم والباريوم والكالسيوم والمغنسيوم . واثبت ان الكلور احد العناصر بعدما كان يعتقد انه احد مركبات الاكسيجين . ودرس خواص اليود ، وتعاون مع فراداي في اسالة الفازات ، وكان **فراداي** (سنة ١٧٩١ ــ ١٨٦٧) ابنا لحداد متنقـــل وعاش في فقر مدقع ابان الضائقة الاقتصادية الشديدة التي حلت بانجلترا . ولم يتعلـــم بالمدرسة بل كان يقضي اوقاته لاهيا بالبيت او الشارع . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يساعد احد بائعي الكتب ، وتوصيـــل الصحف للمشتركين . وتعلم تجليد الكتب . قرأ الكثير منها واستمع الى محاضرات عامة عن الفلسفة الطبيعية . رحل الى اوروبا بعدما الحق بالمعهد البريطاني معاونا وامينا للسير همفري ديفي . وتصادق مع اعضاء الجمعية الفلسفية . وسافر مع ديفي في رحلة الـــى اوروبا (سنة ١٨١٣ ــ ١٨١٥) وعرف علماء كثيرين واطلع على ابحاثهم في الكهرباء مثـــل

الفرنسى **امبير** والانجليزى **ولستون** فدرس الكهرباء وكتب فيها كتابه « تاريخ البحوث الكهرومغناطيسية وتقدمها » واعلن نظريته عن المجال الكهرومغناطيسى معتمدا على اساس متين من الايمان بالاثير . ولكن ما هو الاثير فى اعتقاد القدماء ؟ ربما كان سائلا خاصا ذا حركة دوامية ، او مائعا ساكنا تنبض به كرات اكثر منه كثافة . وكان من الضرورى افتراض خواص للاثير كخواص الجوامد لتفسير الضوء لانه ينتقل على شكل امواج عرضية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت البحوث الدقيقة التى قام بها كلاوزيوس Clausius **وبولتزمان** Boltzman **وجيبس** Gibbs موضحة قوانين علم الميكانيكا ونظرية الاحتمال على مسلك تجمعات كبيرة من الجزئيات ، وبخاصة الغازات . ولم يكن فى ذلك الوقت ثمة امل فى دراسة العالم الدقيق للاجسام التى لا يراها الميكرسكوب . وادى هذا النقص الى عدم التعرض لبحوث الجسيمات وبنية المادة ، فقد ظلت هذه الموضوعات فى راى القدماء من صميم الفلسفة . او من ابحاث الميتافيزياء ، وانها خارجة عن مجال العلوم الطبيعية . وكان المعتقد ان الجسيمات تتحرك حسب قوانين نيوتن . وظنوا ان كل مسائل الفيزياء تحل بالمعادلات .

تقول احدى دوائر المعارف التى نشرت بالقرن التاسع عشر كلمات قليلة عن قوانين الديناميكا الحرارية وطرق قياس الحرارة . وكانت الحرارة معتبرة من طبائع الحركة ، وشجعت الفكرة القديمة ، التى تقول ان علم الفيزياء قد اكتمل ، علماء اواخر القرن الماضى الى ان يقول احدهم لتلميذه ماكس بلانك ناصحا اياه بعدم التخصص فى الفيزياء ، لان كل شيء قد عرف عنها ، لكن ماكس بلانك اصر على تعلم الفيزياء ونشر بحوثه المعروفة عن ما سمى « كمات الاشعاع » Radiation Quanta التى اصبحت اساس الفيزياء الحديثة ، وحتى **اللورد كلفن الفيزيائى** الانجليزى الموهوب شبه علم الفيزياء بعمارة كاملة بديعة . وقال **ان سماء الفيزياء لم يبق بها سوى غيوم قليلة ستنقشع سريعا وتترك السماء صافية فى القرن العشرين** .

وكانت غيوم سماء الفيزياء فى زعمهم ثبات سرعة الضوء وهى حقيقة كشفها بالتجربة مايكلسون Michelson ثم ظهرت **النظرية النسبية** من بين حجب الغيوم المزعومة . اما الكشف الهام الاخر فهو العلاقة بين طاقة الاشعاع وطول موجته ، وهى نظرية تتنبأ بان المنحنى الدال على هذه العلاقة يستمر في اتجاهه صاعدا ، فكلما نقص طول الموجة زادت طاقة الاشعاع الى ان تصل فى النهاية الى ما سمى « **الكارثة فوق البنفسجية** » . ولكن الرسم البيانى العملى دل على خط منحنى ذى سنام ، فبعد بلوغ طاقة الاشعاع نهاية قصوى من الارتفاع تأخذ فى التناقص بنقص طول الموجة . وقد انتجت هذه الظواهر « فيزياء الكم » وهى العلم الذى ينسب الى واضعه العالم الالمانى **ماكس بلانك** الذى نصح بالا يتخصص فى الفيزياء .

ان هذا درس من تاريخ العلوم يحذرنا من التعرض الى الثقة الكاملة فى العلم المعروف عندما يدعى انه بلغ الكمال ومنتهى الصحة . ويجدر بنا ان نراعى ما ظهر فى القرن الحالى .

الفكر الجديد مع النظرية النسبية :

لم تدم المفاهيم العلمية التى شيدها العلم فى القرن التاسع عشر طويلا ، بل تداعت عندما اعلن اينشتاين نظرية النسبية سنة ١٩٠٥

وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . نظرية نشرها في عشرات الصفحات ربط بها العلاقـة بين بديهيتين محطما المفاهيم التى كانت سائدة، واضعا اساس الفيزياء الحديثة ومعتمدا على المنطق الرياضى والتعمق والدقة فى كل ما افترضه . واجمع اهل الفكر المستنير على ان اينشتاين عبقرى من اعلى مرتبة وانه صاحب خيال وثاب ، تمكن به من قلب النظرية الكونية القديمة راسا على عقب . فهو القائل فى احدى البديهيتين « اذا كان مشاهدان يتحركان حركة مستقيمة ومنتظمة كل بالنسبة للآخر فانهما فى حالتين تامتى التطابق » . وهذا يعنى عدم وجود طريقة تعين اى منهما يتحرك وايهما ساكن . ولا معنى لان نسأل « ايهما فى حركة حقيقية ؟ » فالحركة نسبية ولا وجود لشىء يسمى حركة مطلقة .

وقد عرف مثل هذا المبدأ منذ ايام جاليليو فى علم الحركة وهو ينص على امكان التمييز بين السكون من الحركة المستقيمة المنتظمة . وهذا ما يتفق مع العقل . فاذا جلست فى سفينة او فى طائرة ، واغمضت عينيك يكـاد يستحيل عليك ان تميز بين السكون والحركة المنتظمة .

اما البديهية الثانية فهى حالة اخرى . يعرف العلماء ان سرعة الضوء ثابتة بالنسبة لمختلف المشاهدين مهما اختلفت سرعاتهم ، ومع ذلك فهم يعتبرونها حقيقة تجريبية غريبة تحتاج الى المزيد من البحث . ولكن اينشتاين رفع هذه الحقيقة العجيبة الى مرتبة البديهية . وفعلا كان **نيكلسون ومورلى** قد كشفا هـذه الظاهرة منذ سنة ١٨٨٧ . وكرس الباحثون جهودهم للمقارنة بين سرعتى انتشار الضوء من الشرق الى الغرب ، ومن الشمـال الى الجنوب . وهذا يشبه المقارنة بيـن نتائج قياسات في مختبرين احدهما يتحرك مع كوكب الارض بينما لا دور للآخر بالحركة اليومية التى تسبب تعاقب الليل والنهار . وكشفت التجربة ان سرعة الضوء فى الحالتين واحدة . وصعب هذه النتيجة مسلك الاثير وهو عديم اللون ـ فيما يفترضون ـ والذى قيل انه ينشر الضوء . وحاول كثيرون تصديق تجربة مايكيلسـون باستخدام فيزياء القرن الماضى دون جدوى حتى سنة ١٩٠٥ لما حل اينشتاين هذه المشكلة برفع الحقيقة المفسرة الى مرتبة مبدأ او مفهوم اساسى ، يتقبله الناس كحقيقة واقعة . وبجمع البديهيتين معا يتكون مبدأ النسبية .

والجميل ان ما يصدق على سرعة الضـوء يصـدق ايضـا على مظاهـر مختلفـة للكهرومغناطيسية . وقد اعلن اينشتاين بناء على هـذا التطور الـذى جدده فى الفيزيـاء **الا وجود لتجربة فيزيائية تستطيع ان تميز مجموعة عن اى مجموعة اخرى من المجموعات اللانهائيـة العدد التى تتحرك بانتظـام وعلى اسـتقامة واحـدة . فكل هـذه المجموعات متساوية تماما .**

وهنا قد نتساءل « الى ماذا تقودنا هاتان البديهيتان ؟ » ربما يدرس طـلاب الجامعات بعد الف سنة هذه النتائج على اسس تجريبية . بعد ان صعب على معاصرى اينشـتاين قبول فكـرة كون الزمن نسـبى وليس مطلقا ، بل يتوقف على حركة المشاهد . والحدث الواحد يقع بسرعات مختلفة اذا ما شـوهد من نقط مختلفة . وقد يبدو ذلك غريبا وغير طبيعى ويناقض المعقول . فقد وجـد ان الزمن كمية نسبية . وهذا يعنى ان للحدث الواحد ازمان مختلفة اذا شوهد من نقط مختلفة . وواضح ان هذه النتيجة للنظرية النسـبية تخطىء العقل . وقد يكون من الحكمة للمزيد من ايضاح النسبية ان نسأل اى مدينة اقرب من الاخرى ، باريس ام الاسـكندرية ؟ فبالنسـبة لقاطن

القاهرة الاسكندرية هى الأقرب ، أما بالنسبة لمن يعيش فى لندن فباريس هى الأقرب . ولكن بالنسبة لساكن المريخ ــ ان وجد به سكان ــ فالمدينتان على بعدين متساويين تقريبا .

وقد نسأل ايضا « وما الزمن ؟ » اننا جميعا نعرف الزمن .. انه ما نقيسه بالساعات . هذا أفضل ما نجيب به على السؤال . فالمعتاد اننا نحمل ساعاتنا معنا ونقيس بها زمننا الخاص بكل سهولة مثلما نقيس بها زمن الآخرين . ولكن هذا هراء ، ان الزمن واحد أليس كذلك ؟ وارد بقولى لا ، انه مختلف ، فالمسافران لكل منهما ساعته واذا أراد احدهما أن يضبط الوقت عنده ، فلا بد من أن يرسل كل منهما اشارة الى الآخر . يشاهد احدهما الزمن لحدوث شيء ما حسب ساعته ، بينما يرسل الآخر ــ المتحرك ــ اشارات تقول أن ساعته تبين الوقت عند بدء الحدث وعند نهايته . ويمكننا ان نستنتج ان الفترة بين الحدثين بقياس المشاهد الاول هى الاطول . وانك عندئذ تتحدث عن الساعات بينما يتحدث عالم النسبية عن الزمن . وما هو الزمن ؟ وقد اجبنا بأنه ما يقاس بالساعات . وقد يبدو لك ان فى الامر خطأ . وقد لا يقبل عقلك هذا الكلام . فالكفاح ضد المعقول أمر عسير ، ولكن الأعسر منه أن نجادل مع شخص يضرب بالتفكير المنطقى عرض الحائط ، من أجل التمسك « بحقائق يرى انها مقبولة » . والأمر لا يحتاج الى الاشارة الى ان آلاف العلماء هللوا للنظرية النسبية وفرحوا بظهورها ، لأنها طورت الفكر العلمى ، وجعلتهم يمعنون الفكر فيها . ولم يجدوا بها نقصا أو ضعفا أو عوجا . وقد أثرت هذه النظرية تأثيرا ثوريا فى العلم الحديث، وتعمقت فى المفاهيم التى تتعلق بزيادة كتلة الجسم كلما زادت سرعته . وكذلك فى مفهوم تكافؤ الكتلة والطاقة .

وأثبتت النسبية سهولة تأكيد زيادة الكتلة بطريقة علمية على الالكترونات . وأصبحت معادلة أينشتاين هامة جدا فى معالجة التحولات النووية وتفاعلاتها . ومن أحدث الاخبارات التي حققت مباشرة زيادة الزمن فى حالة جسيم يتحرك فى ظروف المعمل . ويعتبر العلماء اليوم هذه التجارب تحقيقا للنظرية النسبية . وقد اصبحت مقبولة دون تحفظات وصارت أساسا للعمل اليومي فى البحوث النووية . والرياضة الحديثة .

وللنظرية النسبية مغزى أعمق وابعد بكثير من كونها قانوناً جديداً من قوانين الطبيعة ، فقد جاءت بتغيير تدريجى فى سلوكية الباحثين فى العلوم الطبيعية ، بأن جعلتهم فى غاية الوعى للنتائج العقلانية . وعلمتهم النظرية النسبية ضرورة بحث الموضوع من كل جانب . وقد وعوا ما يستخدمونه من الالفاظ ، وعرفوا الالفاظ الجوفاء الخالية من المعنى . واحسوا بالحاجة الى ازالة جميع آثار الجو الارسطوى من العلوم . وعلمتنا النسبية أهمية السؤال عن كيفية قياس الاشياء ، والعلاقة بين الكميات القابلة للقياس ، باستخدام المعاملات المرتبطة بها . فاذا كانت طريقة قياس كمية ما معلومة ، أو كانت طريقة حسابها معروفة ، فان هذا يكفى ، لأن الطبيعة شيء موضوعى يوجد فى الكون ، ولا يتوقف على البحاث . وكل ما قام به المشاهدون للطبيعة أنهم افترضوا كميات طبيعية وادخلوها فى الفكر ليسهل وصف المشاهدات . وتحاول الكتب التخلص تدريجيا من التعاريف العلمية الجوفاء ، والكلمات المترابطة الخالية من المعنى ، وادت النظرية النسبية الى تعميق فهم دور النظرية فى العلوم الطبيعية . ويقول العلماء ان النظرية تفسر وتوضح طبيعة ظاهرة معينة وتصورها وتكشف عملها . ولكننا اليوم نقول ان وظيفة النظرية التنبؤ بالظواهر . وقد أعطتنا النظرية النسبية انموذجا ميكانيكيا لتحتل المكان الذى تربعت

عليه نظرية « الأثير » وقد دفنته على الرغم من عظمته القديمة وقيمته التى مكنت علماء القرن الماضى من التنبؤ بكثير من الظواهر قبـل أن يستطيع الناس مشاهدتها . ومع ذلك ليست النظرية النسبية وحـدها التى أقامت صرح الفكر العلمى المعاصر ، فقد عاصرتها كشوف أخرى فى عـالم الذرة وقامت بأدوار كبيرة فى بناء العلم الحديث والتطور الحضـارى الذى نعيشه اليوم .

•••

وأخيرا . . . اننا نعيش الآن عصر التكنولوجيا المتطورة وقد أخذ العلم والتكنولوجيا يسيران معا فى كل ميادين الانشطة الانسانية . ونشاهد الآن ظهور مخترعات كثيرة فى الحيـاة اليومية والاعمال الصـناعية تسـتخدم الالكترونيات وعلوم الفضـــاء . وقـد تطورت النظـريات الرياضـــية بعد ظهور نظريـة الكم والنظرية النسبية وكشف اشعة الليزر واستخدامها فى المواصلات اللاسلكيـة والحـاسبات اللازارية والتخليق الكيميـائى والتصـوير وتحديـد المسافات وتوجيه سفن الفضاء . فظهرت علوم الليزر بعد العلوم النووية واستخدمت فى فحص نظريـة النســبية وفى قياس حـركة الغازات ودراســات الجـو والسرعات . وتتقدم علوم الليـــزر الآن بخطى سريعة للتعــرف علـى الحضارات فى الكواكب الاخرى ولتطوير سفن الفضاء . وربما لا يمر وقت طويل حتى يصبح فى الامكان السفر الى بعض الكواكب فى رحلات منظمة لقضاء عطلات سنوية .

وان غدا لناظره قريب .



المراجـــع

(١) فؤاد صروف : « أساطين العلم الحديث » المطبعةالعصرية . دار المقتطف . القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) احمد زكى : « بواتق وانابيق » قصة الكيمياء« ترجمة عربية » للمؤلف برنارد جافى ، مكتبة النهضةالمصرية ــ القاهرة .

(٣) زكريا فهمى : « فن البحث العلمى » ترجمة عربيةللمؤلف و . ا ب بفردج ، الالف كتاب ، باشراف وزارة التعليم العالى . القاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٤) اداباشيف : « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم. موسكو .

(٥) A. Kitaigorodsky ; I Am a Physicist MIR, Moscow, 1971.

(٦) Isaac Asimov ; The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences ; Pocket Books, Inc. New York, 1964.

(٧) Ritchie Calder ; Science in our Lives ; New American Library, 1962.

(٨) Jacob Bronowski, The Common Sense of Science ; Penguin Books. London, 1960.

(٩) A. P. Rossiter ; The Qrowth of Science ; Penguin Books, London.

(١٠) Elaine Knorre ; A Visit to Transurania, MIR Publishers, Moscow, 1974.



جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

د . حلمي مرزوق

كثر الكاتبون فى شوقى حيا وميتا ، وكأنما العبقرية لاحساب لها فى موازينهم ، فتعاقبوا على الخفض به الى مراتب العامة فى التزلف وطلب الجاه .

وداب العبقرية أن تزهد بأصحابها فيما يتماجد به آحاد الناس .

ولا نريد بذلك أن نعلو بالرجل على خصال البشر ، وانما نريد القول انها خصال متجاوزة ـ ولا بد ـ فى المواهب الشاخصة بأصحابها الى مراتب الخلود،وليس وراء الخلود صارف يصترف العظماء عن كثير من مواضعات العرف وقيم الحياة .

وشوقى من أولئك النفر الذين عاشوا للشعر ، لا يشغلهم عنه شاغل ولا يعدلون به مجدا ، ولا بجاهه جاها مهما كبر فى أعين الناس .

قلمى وان جهل الغبى مكانه
أبقى على التاريخ من ماضيك

والخطاب هنا لدار الخلافة العثمانية ، يكابرها بمجده الادبي،ويعلو بشعره فوق جميع ما أنفق السلاطين فى الفتح ، ويلمز أولئك النقاد وقد زين لهم الغباء هذا الطعن عليه بالتملق والكذب ، والعباقرة لا يكذبون الناس، لانهم أزهد الناس فيما عند الناس ، **يقول للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :**

زهدت الذي في راحتيك وشاقني
جوائز عند الله مبتغيات

ومن كان مثلي (أحمد) الوقت لم تجز
عليه ، ولو من مثلك الصدقات

وهذا التشامخ او التأبي نقرؤه في المدح الذي يؤاخذونه به ، ويحاسبونه عليه ، ولا اظن أحدا يطيب نفسا بمدح فيه هذا القول ، فما بالك بخصال العنجهية المأثورة في الاتراك او الخلفاء العثمانيين .

وقد نستطيع القول ان هوى الرجل أو عثمانيته ، لا يدخل في المعايير الادبية التي عليها مدار المدح والذم ، وانصار الفن للفن اول من ينكرون هذا الطعن برمته ، لانهم شاخصون أبدا الى طرائق التعبير ، ثم لا يعنيهم ما وراء ذلك الموضوع المستحب أو التملق المذموم .

الا أننا نلتقي وهؤلاء النقاد على تشخيص هوى الرجل ولا بد ، وبيان مواقفه من الامة وقضاياها في السياسة وشئون الاجتماع ، فكل ذلك ــ عندنا ــ من صميم الشاعر ، ومن عناصر الرجل التي تجتمع عليها اطراف شخصه المفترى عليه .

لقد شاعت دعاواهم في تملق العثمانيين واستغرقت الاسماع حتى لا مكان فيها لخير يقال ، والعثمانيون عندهم ــ بعد ــ شر أصاب التاريخ ، وسوء أزرى بالخلافة ، فاجتمعت على الرجل سوأتان : سواة التزلف ، وسوء المتزلف اليه ، وكأن شوقي خسر الاولى والآخرة ، فلا هو أمسك عن المدح فأرضى الناس ، ولا هو أنصفته السلاطين كما انصف سيف الدولة المتنبي في أسماع الناس والتاريخ .

وقد أكد ادعاء السوء على العثمانيين هذا الظلم المتصل في حياة المسلمين ، وقد جاءهم **نابليون** ــ وأوروبا من ورائه ــ بحضارة تقوم منها الديموقراطية أو الحرية السياسية مقام الاساس من البناء .

وقد رد **رفاعه الطهطاوي** للناس هذه النظم الديموقراطية يومذاك الى امر واحد هو العدل والانصاف ، « فما يسمونه الحرية ــ كما يقول ــ هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، لأن معنى الحكم بالحرية هو اقامة التساوي في الاحكام والقوانين » . (١)

والناس يومذاك أحاط بهم الظلم والاستبداد ، فكانوا آذانا مصغية للذم ، ورقابا مشرئبة لكل انتقاد .

الا أن هذا الظلم أو الاستبداد كان من سيء العصر وعيبا من عيوب عامة الأمة الاسلامية ، وليس من الانصاف أن نعلق أوزار العصر برمته في أعناق الترك أو العثمانيين دون العرب والمسلمين ، مهما كان اليهم الأمر دون هؤلاء وأولئك ، فقبيح ان نشركهم الفعل ونفردهم بالعجب وكلنا في الهم شرق » .

على أن شوقي لم يغفل ــ قط ــ هذا الظلم ولا اغضى عنه ، الا أن الفارق عنده هو الفارق بين حرب الظلم وحرب الخلافة برمتها ، وهو الفارق بين الثورة بالتخلف ، والثورة بعامة الحضارة الاسلامية ونظمها في الحياة .

والنقاد لا يذكرونه بهذا الوجه الثائر ، ولكن يأخذونه ــ دائما ــ بالمدح الذي قال ، وشوقي في مدحه وذمه كان يمدح بحق ويذم بحق ، ديدن الفضلاء وأصحاب المواهب والرسالات :

فامدح على الحق الرجال ولمهمو . .

---

(١) ــ تخليص الابريز لرفاعه الطهطاوي .

مقامك فوق ما زعموا ولكن
رأيت الحق فوقك والمقام

والناس منذ رفاعه على أن «الديموقراطية» أنفى للظلم ، وعاصم من الطغيان ، فكانوا حربا على الاستبداد أو الديكتاتورية وحكم الفرد ، وكلهم شاخص باللوم والتثريب ، الى السلاطين العثمانيين والخديويين المصريين ، وكان شوقى على رأس القوم ، لا تعرض الفرصة الا حمل وصدق :

شر الحكومة ان تساس بواحد ... (٢)
قل للخلافة قول باك شمسها

بالامس لما آذنت بدلوك
يرميك بالامس الزمان وتارة
بالفرد واستبداده يرميك (٣)

ولا اظن هذا قول متزلف لسلطان أو مداهن لخديوى ، وشوقى ليس نكرة — بعد — فيمضى قوله غير محسوس به ، أو محسوب عليه ، والمتربصون بالرجل كثر ، فى عصر يأخذ بالظنة ، ولا يغفر التعريض ، ولا نريد أن نستطرد فنروى للناس القتل والمؤامرات تحاك على ذلك العهد فى تركيا ويصلاها الناقمون فى أطراف البلاد .

ولا يقال هذا تعريض الخائف ، يدس البيت فى تضاعيف الشعر ، فتخطئه العيون والاسماع — لا يقال ذلك ، لان الرجل من مذهب الشعر العربي ، لا يفرغ القول فى باب بخصوصه على النمط المعهود اليوم ، فالذم ذم والمدح مدح والرثاء رثاء ، وانما هو المداولة بين الأغراض جميعا ، ثم لا تعدم فيها راى الشاعر ومواقفه من الحياة والأحياء .

ثم ان هذه الابيات من الابيات الاعيان ، على سنة قوله المأثور .

زمان الفرد يا فرعون ولى ...

وبيت القصيد افعل فى نفوس الناس من القصائد الطوال ، لانه أعلق بالأفئدة وأجرى على الألسنة ، فكانت العرب تكابر بالابيات الشوارد ، والامثال السوائر لهذه المآرب والخصال .

وتسقط (ادرنة) فى اليونان ، غلب عليها البلغار فى مطلع القرن (١٩١٢ م) ، فيجزع شوقى أشد الجزع ، لانه رأى فيها نكبة الاندلس ، وجرحا كجرحها :

جرحان تمضى الأمتان عليهما
هذا يسيل وذاك لا يلتام

فالاندلس أول الممالك الاسلامية يسقط عنها لواء الاسلام فى غرب أوروبا ، وأدرنة آخر الممالك على عهد شوقى تسقط فى شرقها ، وليس وراء ذلك الم يؤلم وجدان المسلم ، ويصيب كبرياء التاريخ :

كانت من الغرب البقية فانقضت
فعلى بنى عثمان فيه سلام

لقد انقلب بها وبغيرها الهلال الاسلامى الذى احاط بأوروبا من طرفيها فى العصور الوسطى ، الى هلال أوروبى — فى العصر الحديث — يحيط بطرفى دار الخلافة وممالك المسلمين ، قول توينبى ، وهذا أشد ما أحنق شوقى على الخلافة العثمانية :

والدهر لا يألو الممالك منذرا
فاذا غفلن فما عليه ملام

---

(٢) — ج ١ ص ١٦٩ من الشوقيات

(٣) — ج ١ ص ١٦٨ من الشوقيات

ثم لا يلبث أن يعنف بهم وبآرائهم وعامة سياستهم ،ويثور على اتكالهم وتخاذلهم ،وهو من وراء ذلك ساخط أشد السخط بما تلبسوا به من الغرور والاستنامة الى المجد القديم :

زعموك همًا للخلافة ناصبا
وهل الممالك راحة ومنام

لو آثروا الاصلاح كنت لعرشهم
ركنا على هام النجوم يقام

صور العمى شتى ، واقبحها اذا
نظرت بغير عيونهن الهام

فيم التخاذل بينكم ووراءكم
أمم تضاع حقوقها وتضام

ودعوا التفاخر بالتراث وان غلا
فالمجد كسب والزمان عصام

ان الغرور اذا تملك أمة
كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

لا يعدلن الملك فى شهواتكم
عرض من الدنيا بدا وحطام

ومناصب فى غير موضعها كما
حلت محل القدرة الاصنام

وليس وراء ذلك ذم أو هجاء يقال .

يقول الدكتور هيكل : « وقد بلغ من حب شوقى للترك أن كان يعتبرهم مجموعة من الفضائل لا تشوبها نقيضة » .

ولا أظن هذه الابيات المقذعة تشايع الدكتور فيما ذهب اليه ، وأغلب الظن انها تنقض دعواه التى فتح بها أبواب التنقص من الرجل، وسوغ بها تهمة التعصب الاعمى للترك فى نفوس عامة النقاد .

الحرية الليبرالية أو الديموقراطية الغربية

وقد آمن الناس يومذاك أن الدستور والبرلمان عاصمان ـ ولا بد ـ من هذه المظالم والاستبداد ، فاغرقوا فى طلبهما لانهم آمنوا كما آمنت الثورة الفرنسية أو أوروبا البرجوازية بأن الاصلاح السياسى هو راس الاصلاح ، فهم شاخصون ـ أبدا ـ الى الحكم الدستورى أو البرلمانى ، فالدستور قيد على أهواء الحاكم وسلطان الفرد ، والبرلمان نمط من أنماط الشورى فى حضارة الاسلام ، **وكان الكواكبى** فيما بين رفاعة وجيل شوقى مثلا للغلاة الثائرين على الدولة العثمانية ، يريد خلافة عربية على هذا النمط الجديد من الحكم يقول :

« ان سبب الفتور (فى الامة الاسلامية) هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت **نيابية ديموقراطية** تماما فصارت بعدالراشدين بسببتمادى المحاربات الداخلية ـ **ملكية مقيدة** بقواعد الشرع الاساسية **ثم صارت اشبه بالمطلقة** » .

والناس منذ رفاعة ماخوذون بالدستور الفرنسى وما شرعه من المساواة فى حقوق السياسة وأعباء الاقتصاد ، وقد ترجم رفاعة هذا الدستور ، واختص مواد هذين الامرين بالشرح والتعليق يقول :

« أما قوله فى المادة الاولى : سائر الفرنسيس مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لا يختلفون فى اجراء الاحكام ... حتى ان الدعوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره » .

وهذه المساواة بين الحاكم والمحكوم أو الشريف والوضيع لم تكن معهودة على عهد رفاعة ولا على عهد شوقى ، وكلاهما يعلم كما نعلم أن المساواة قائمة فى الحضارة الاسلامية **واصل من اصول الاسلام ، فكانت**

أوروبا بذلك كالمنبهة للشرق وعامة المسلمين ، يقول رفاعة :

« فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لهـا تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم، وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم فى اجـراء الاحكام » (٤) .

ويعقب على ذلك بأن هذه القضية كـادت تكون من « **جوامع الكلم** » عند الفرنسـيين يريد أنها مبدأ متبع لا جدال فيه ولا خلاف عليه .

والمادة الثانية تنص على تقرير المساواة فى الاضطلاع بالضرائب أو الخزينة وبيت المال ، فيأخذ رفاعةَ العجبُ فيقول :

« ويمكن أن يقال ان (الفرد) ونحوها او كانت مرتبة فى بلاد الاسـلام كما هى فى تلك البـلاد لطابت النفس ... ومدة اقامتى فى باريس لم أسـمع أحدا يشـكو من المكوس والفرد والجبايات أبدا » (٥) .

وداءُ الشرق ـ لا شك ـ كامن فى اصطناع هذا التمايز والمفاضلة بين آحاد الناس ، فآمن المصلحون أن الدستور هو الدواء ، لأنه « الحكم التي ترضى حكومته » او الحجة المكتوبة يلتقى فيها الحاكم والمحكوم على شرع سواء .

وتأتى المادة الخامسة عشرة بمبدأ الشورى ومجلس النواب أو « ديوان رسل العمالات » كما يترجمه رفاعة ، وهذا الديوان أو المجلس هـم وكلاء الرعية والمحامون عنها ، حتى لا يظلمها ملك أو سلطان ، يقول رفاعة :

« وحيثما كانت رسل العمالات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة بلسانها ـ كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها » .

وذلك هو حكم الشعب نفسه بنفسه كما نقول اليوم ، لا مجال فيه لظالم أو مستبد ، لأن النـاس هـم الذين تداولوا بنوابهم أمور أنفسـهم ، وليس وراء ذلـك مانـع للظلم والاسـتبداد ، وعلى كل حال **فالرعية مانعة للظلم عن نفسها بنفسها** » (٦) .

أمران ـ اذن ـ داب النـاس عليهما منذ مطلع هذا العصر الحديث : الدستور والبرلمان، أو هما أمر يجمعهما مصطلح الحرية السياسية، وكلاهما فى قصاراه قيدٌ يمسك السلطة ان تجـور على النـاس وأن تتحيف حقوقهـم المشروعة ، أو ان شئت يمسـك الحاكم ان يؤذى النـاس فى أرزاقهم وعامـة حياتهم ، والطغيان داء العصر يومذاك ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف ، وما أصاب المسلمين من التأخر والجمود .

وتلك كانت جدوى هذه النظم « الليبرالية » أو التحررية ، فالعدل والانصاف أقصى غاياتها فى أذهان الناس يومذاك ، على غير الشـائع المفهوم منها منذ ظهور النزعة « الرومانتيكية » فى مصر ، ذلك بأن الرمانتيكيين اخذوا من هذه النظم بالحرية الشخصية حرباً على مواضعات الناس فى المشاعر او الخيال والوجدان ، وآمن المثقفون بها حرباً على العرف والتصرف وقواعد السلوك ... أما السابقون فقد شغلتهم الحرية السيـاسـية فغلبت على مـا عداها من النظم « الليبرالية » لملابساتٍ لظلم وظروف الطغيان، فتنادوا بالدستور واشـتد الأتراك بقوادهم ليطلبوه بالسيف، فأمر به السلطان عبدالحميد،

---

(٤) ـ التخليص ص ١٤٨ .

(٥) ـ التخليص ص ١٤٩ .

(٦) المرجع السابق ص ١٥١ .

وكان قد أمسكه بعد أن وعد به ، فكتب شوقي يقول :

بشرى البرية قاصيها ودانيها
حاط الخلافة بالدستور حاميها

أما ترى الملك فى عرس وفى فرح
بدولة الراى والشورى واهليها (٧)

ولا يقال شوقى تبع ، هلّل وكبرّ لدستور صدر فى تركيا ، لاننا نقول : هو أول داع فى هذه القصيدة لدستور لم يكن قد صدر فى مصر يومذاك :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حياك من يبعث الموتى ويحييها

ما بين آمالك اللائى ظفرت بها
وبين (مصر) معان أنت تدريها (٨)

والآمال هنا هى الدستور .

على أن الأمر ليس أمر سبق فى القول أو تأخير به ، وانما المعول على منطق الرجل فى القضية ، وايمانه بالفكرة حلاً لازما لقضية الحرية السياسية ، فانتصر الرجل للدستور كما فهمه الناس يومذاك ، وانتصر له على مذهبه هو فى فقه الحضارة الغربية وحضارة الاسلام والمسلمين ، يقول :

وانما هى شورى الله جاء بها
كتابه الحق يعليها ويغليها (٩)

فقصارى الديموقراطية أو النظم البرلمانية عند شوقى أنها نمط من انماط الشورى فى الحضارة الاسلامية ، نزل بها القرآن فكان الرسول والخلفاء يستشيرون ويشار عليهم ، ولم تعرف أية حضارة ما عرفه المسلمون من « أهل الحل والعقد » أو « أولى الأمر » أو « أهل الذكر » وما شابه ذلك من المصطلحات التى تدل على المشورة وطلب الرأى من عامة الناس لا خاصة القواد والأمراء :

بنيت على الشورى كصالح حكمهم
وعلى حياة الراى واستقلاله (١٠)

انى أرى الشورى التى اعتصموا بها
هى حبل ربك أو زمام نبيه (١١)

ولا يقال ما جدوى ذاك ، لأنا نقول ذلك هو منهج الصراع الحضارى منذ رفاعة ، فالمسلمون لم يقبلوا ــ قط ــ من هذه الحضارة الغربية الا ما لم يخالف « الشريعة والسنة » على حد تعبير رفاعة ، ولا يختلف اثنان على جمود الفكر يومذاك ، فكان الكتاب والأدباء مطالبين باحياء الأصول الاسلامية واقتباس ما يتفق معها من حضارة الغرب ، وخرط القتاد دون تسويغ هذه وتلك فى نفوس العامة ، والناس فى عصر قريب العهد ــ يومذاك ــ بثورة الانكشارية على السلطان سليم لأنه فرض الملابس الفرنجية فى الجيش ، فما بالك بما هو اعسر منالا فى أمور النظم وشئون الحكم . لقد اضطلع شوقى بهذا العبء ، فكان يستعين على أهواء الحكام وجهل السلاطين بأصول الاسلام ، ويستهويهم بالخلفاء الراشدين ،

---

(٧) ــ الشوقيات ج ١ ص ٢٨٦ .
(٨) ــ المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .
(٩) المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٧ .
(١٠) المرجع السابق ص ١٦٨
(١١) المرجع السابق ص ٢٨٨

فيداول القول بينهم وبين هؤلاء ، ليستثير فيهم نخوة التشبه وحماسة الاقتداء :

فكأنك الفاروق فى كرسيه (١٢)

خلافة الله جر الذيل حاضرها (١٣)

جددت عهد الراشدين بسيرة (١٤)

والناس يزعمون ــ بعد ــ أنه المادح المتزلف ، ويضربون عرض الحائط بما وراء المدح من هذه الأعماق .

لقد انفق شوقى من عبقريته ومن بالغ ذكائه فى قضية الدستور ما لم يستطعه شاعر او كاتب أو أديب ، وحسبك اختلاف الأجناس والأديان فى الدولة العثمانية حائلا يحول دون المساواة التى هى صلب الدساتير الليبرالية .

ولا أظن رجلا غير شوقى يستطيع أن ينفذ الى لب القضية ــ وتهمة الكفر مشرعة يومذاك ــ فيسوغها فى النفوس على هذا النحو الذى لا يقدر عليه الا العارفون بحقوق أهل الكتاب « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، والا الواقفون على **اسرار البر او مبدا الاحسان فى الاسلام** « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » ، وعلى هذا الأساس يقول شوقى :

الدين لله من شاء الاله هدى
لكل نفس هوًى فى الدين داعيها

ما كان مختلف الأديان داعية
الى اختلاف البرايا أو تعاديها

الكتب والرسل والأديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لواعيها

محبة الله أصل فى مراشدها
وخشية الله أس فى مبانيها

وكل خير يلقى فى أوامرها
وكل شر يوقى فى نواهيها

تسامح النفس معنى من مروءتها
بل المروءة فى أسمى معانيها

تخلق الصفح تسعد فى الحياة به
فالنفس يسعدها خلق ويشقيها

ثم يخص نفسه بالحديث ، والحديث هنا داخل فى صلب القضية ، لأن شوقى يطلعك على دخيلة نفسه ، أو يفكر لك بصوت مسموع كما يقولون ، يريد للناس جميعا أن يكونوا على حذوه ومثاله فى رياضة النفس على الاحسان :

الله يعلم ما نفسى بجاهلة
من أهل خلتها ممن يعاديها

لئن غدوت الى **الاحسان** اصرفها
فان ذلك اجرى من معاليها

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرماً منها لشانيها (١٥)

ومؤدى هذا القول أن الاسلام لا يضيق باختلاف الاديان « ولوشاء الله لجعل الناس أمة واحدة » ، ولئن اختلف المجتهدون فى أهل

(١٢) الرجع السابق ص ١٦٩
(١٣) الرجع السابق ص ١٧٠
(١٤) ص ١٦٩
(١٥) جـ ١ ص ٢٨٩/٢٩٠ من الشوقيات

الذمة ، فان التسامح أو مبدأ الاحسان فيه ــ عند شوقي ــ سعة مشروعة لأخوة الوطن ان انعدمت أخوة الدين .

فانتصار شوقي ــ اذن ــ للدستور ليس انتصار تهليل وتكبير ، وانما هو انتصار العارف بمواضع الشبه ومظان الخلاف ، البصير بمواطن العظمة في الاسلام ، وهذا المدخل الى القضية من أبواب « الاحسان » لا أقول جديدا في أبواب الاجتهاد ، وانما هو احياء بصير للفكر الاسلامي وحضارة المسلمين سبق اليه رفاعة الطهطاوي فلم يقف بالاخوة الاسلامية موقف التناقض من الاخوة الوطنية، فكل ذلك يجمعه ويحض عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، « وكونوا عباد الله اخوانا » يقول رفاعة : « ثم ان **اخوة العبودية** التي هي **التساوي في الانسانية** عامة في حقوق أهل المملكة بعضهم على بعض ، التي هي **حقوق العباد** » ، يريد بذلك ان العباد على اختلاف عقائدهم اخوان في العبودية ، والناس على اختلاف مذاهبهم اخوان في الانسانية ، فالعبودية والانسانية عنده سواء فالناس جميعا خلق الله ، يتساوون من حيث هم عباد الله وخلقه ، ولهم حقوق على بعضهم البعض من هذه الجهة ، وتلك هي **الحقوق الطبيعية** التي طالما أشار اليها رفاعة في تخليص الابريز والتي كانت تسميها الثورة الفرنسية على عهده باسم « **حقوق الانسان والمواطن** »

« وهناك **حقوق العبودية الخاصة** التي هي **الاخوة الاسلامية**، ــ كما يقول ــ وهي اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض ، كرد السلام وابتدائه ، وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الايمان ، فهذه هي التي اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله : المسلم اخو المسلم، يعني أخوة دينية لأنهما يجمعهما دين واحد ، وهي أعظم من **الاخوة الحقيقية** ، وقد قال الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » ثم يقول رفاعة : « **ولا مانع ان يعمم في مكارم الاخلاق** » ، يريد أن تعم هذه الاخوة في أهل الوطن الواحد على اختلاف عقائدهم من باب حقوق الجار، وأهل المحلة الواحدة كلهم جيران أو من باب مكارم الاخلاق كما سبق القول .

وهكذا تلتقي **مكارم الاخلاق** عند رفاعة مع **مبدأ الاحسان عند** شوقي وكلاهما أصل واحد في الاسلام ولا فرق ، ونقول هنا ما قلناه في كتابنا « جوانب من قضايا الامة العربية » :

« وحسب العقيدة الصالحة أن تنتصف لغيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضل والامتنان » .

وحسب الأديان الأخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يحتكمون اليه ، وحقا معلوما يتقاضونه مهما استبدت الأهواء ، واستحكم التعصب في نفوس المسلمين .

وحسب البشرية ان تقوم فيها اخوة في شئون المجتمع ومطالب الحياة ، عندما تمتنع أخوة الدين ، ووحدة المذاهب والمعتقدات .

مبدأ الشورى أو روح الديموقراطية

على أن شوقي لم ينخدع ــ قط ــ بالديموقراطية « الليبرالية » ، التي اغرق فيها الناس ما اغرقوا ، وتنادوا ما تنادوا باشكالها الدستورية والبرلمانية، وهو شاخص ــ أبدا ــ الى جوهر الحرية أو روح الشورى ولبابها ، وها نحن اؤلاء نقرأ الكتاب ــ اليوم ــ من أم الدساتير والبرلمانات ، فيكشفون لنا عن مثالب الديموقراطية الغربية ، لانها اخلفت الظن في نفي التسلط وتقرير الحقوق ، وحسبنا في هذا الصدد هارولد لاسكي فيلسوف حزب العمال من زمن قريب . (١٦)

(١٦) Laski, Grammers of Politics

وها نحن أولاء نرى الدساتير تشرع ، والبرلمانات تقام ، والاستبداد آخذ ــ بعد ــ بتلابيب الناس ، يقوم فيها بالواحد فيعنو له النواب وتذل له الجماعة :

واذا سبا الفرد المسلط مجلسا
الفيت احرار الرجال عبيدا (١٧)

ويقوم فيها بالجماعة فتعنو لهم الامة وتستذل الشعوب :

وقام مقام الفرد فى كل أمة
على الحكم جمٌ يستبدُ غفير (١٨)

ولا اظن وراء ذلك نفاذا الى مثالب هذه النظم ، أو ما يسميه علماء السياسة باسم « الدكتاتورية البرلمانية » .

على أن الاستبداد لا يذهب المستبد فيه ــ عند شوقى ــ بجميع اللوم والتثريب ، وانما السبيل على الذين يستذلون له ، وينزلون على ظلمه وطغيانه ، فالشعوب تخلق جلاديها كما يقال اليوم ، وأهل الحل والعقد ــ عند شوقى ــ هم داء الامة بالتملق ، وهم سبة الحياة بالاستخذاء :

كم سبحوا لله فى الروا
ح ، والهوك لدى البكور

ورايتهم لك سجدا
كسجود موسى فى الحضور

خفضوا الرؤوس ووتروا
بالذل اقواس الظهور (١٩)

والذين تستهويهم الثورة وخصال العنف ، لا يعدمونها فى الرجل ، فشوقى لم يشتد ــ قط ــ شدته فى قضية الشورى أو الدستور ، فعنف **بالسلطان عبد الحميد** حين شاد الناس فى الدستور ، وحين حجبه عن الامة ليستبد بالامر ، فناصر **عليه أنور باشا** وصحبه :

صبروا لدولتك السنين
وما صبرت سوى شهور

أوذيت من دستورهم
وحننت للحكم العسير

وغضبت كالمنصور أو
هارون فى خالى العصور

ضنوا بضائع حقهم
وضننت بالدنيا الغرور

هلا احتفظت به احتفا
ظ ، مرحب فرح قرير

هو حلية الملك الرشيـ
ـد وعصمة الملك الضرير (٢٠)

وقوله « وخالى العصور » هنا من باب الذم والتحقير لا التماجد والافتخار ، **فرأى شوقى فى هارون الرشيد رايه فى معاوية وعامة الخلفاء من بعده** ، صارت بهم الخلافة ملكا عضودا « على سنة الفرس والرومان ، فتزحزحوا بها عن سمت البيعة والانتخاب الى سنة التعيين والتوريث :

---

(١٧) جـ ١ ص ١١٢ من الديوان

(١٨) جـ ٣ ص ٨٢ من الديوا

(١٩ جـ١ ص ١٤٥ منالديوان وقوله فيالحضور اى فى حضرةالله تعالى فى الوادى المقدس طوى

(٢٠) جـ ١ ص ١٢٣/١٢٢ من الديوان

ان الذين توارثوك على الهوى
بعد (ابن هند) طالما ظلموك

لم يلبسوا برد النبي وانما
لبسوا طقوس الروم اذ لبسوك

وقصارى القول أن شوقي ثار ـ أشد الثورة بالظلم والظالمين ، لا فرق بين حاكم أو محكوم ، وشوقي لا يخطىء مواضع الظلم ، يكون في السلطان ، ويكون في أولي الامر ، كما يكون في الرعية وعامة الناس سواء بسواء . وهو في جميع ذلك حرب عليه أينما كان لا يحاشي أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

والذين يسقطون شوقي من الثورة بالظلم انما يسقطونه من سياق العصر ، فالعصر الحديث كله ثورة متصلة ، وصراع حضاري منذ عهد « نابليون » الى يوم الناس هذا ، والادب الحديث في مصر وعامة العالم العربي يضطرب بهذه الثورة ولا يزال ، كما ذهب اليه هيكل (٢١) ، وشوقي بلا جدال « لسان مصر الناطق » كما شهد به **الرافعي** وكان الرافعي قبلا من حساده ومبغضيه (٢٢) .

والذين يريدون أن يسقطوا شوقي من سياق العصر الثائر يعجزون أن يبرروا لنا وللتاريخ الادبي خلود الرجل في المشاعر والاذهان ، والحافظة أكبر ناقد رغم أنف الناقدين . اللهم ، الا اذا فهمنا الثورة ضربا من المناوأة ولا غير،وشق عصا الطاعة فحسب، على سنة المخربين او المحترفين .

ونريد بهذا التفريق ان الثورة الفرنسية فيض شعبي كاللوحة الفنية او القصيدة الشعرية قامت على غير مثال سبق،فاستمدت روعتها من فيض الايمان بالمبادىء أو الصدق في المشاعر والوجدان ، ولم تسمع قط بعمل مكرور خلا من الطعن بالتقليد والاتهام بالمحاكاة.

ويوم تكون الثورة حرفة تصبح كالعمل الادبي المقصود ، يعمل فيها الوعي والتدبير فتلتوي بالناس الى قصد غير القصد وسبيل غير السبيل ، وثورة أتاتورك ماثلة يومذاك في الاذهان ، جمعت الناس على الحرية وقصد الاصلاح ، وانتهت بهم الى « القومية » أو « الوطنية» مبدأ لم يخطر ـ قط ـ على أذهان المسلمين يومذاك ، لانه يقصر الولاء على القوم أو الشعب ، فوقع في العنجهية القبلية أو « شعب الله المختار » ، لا يأبه الناس فيه « بالغير » الخارج على شاكلتهم في الجنس أو مفارقهم في الاوطان ، ولا كذلك المسلمون ، لانهم نشأوا على ولاء أعم ، جاز بهم الاسلام حدود « الدم » و « الاقليم » عصب « الدولة الحديثة » الى هذا الولاء الجامع بين الامم واطراف الممالك :

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم
في كل غدوة جمعة ورواح

جمعت على البر الحضور وطالما
جمعت عليه سرائر النزاح (٢٣)

وقديما قال الشاعر :

ابي الاسلام لا اب لي سواه
اذا هتفوا ببكر أو تميم

وهذا الولاء الاسلامي الجامع ، كابربه **« أرنولد توينبي »** الولاء القومي ، الذى سارع اليه **كمال أتاتورك** ، فالقومية عنده مرض من

---

(٢١) ثورة الادب .

(٢٢) وحي القلم .

(٢٣) جـ ١ ص ١١٥ من الديوان .

أمراض الحضارة الأوروبية ، لانها من عوائق « الولاء الانسانى » الاعم ابتلى بهـا الشرق واخذها على غير هدى أو بصيرة ، (٢٤) ولقد صدر شوقى عن مثل هذا السخط بالكماليين فكتب يقول :

شربوا على سر العـدو وغـردوا

كالبوم فوق جدارك المدكوك(٢٤مكرر)

فاذا أضفت هذا الى قوله :

هتكوا بأيديهم ملاءة فخرهم ...

ادركت كيف شربوا علـى سر العـدو ، وأنفذوا له ما أراد ، فقطعوا أوصال الخلافة أو الوحدة الجامعة للمسلمين بهـذا الفكـر القومى الطارىء على الفكر السياسى الاسلامى الموروث .

على أن الامر له وجهـه الدستورى عنـد شوقى ، اذا جاوزنـا العواطف أو المبـادىء الاسلامية ، فالكماليون طلاب الديموقراطية أو دعاة الرأى والشورى ، كانـوا أول مـن استبد بهذا الولاء الاسلامى الجامع ، ولو قد صح العزم واخلصوا للديموقراطية لاستشاروا الناس ونزلوا على رأيهم ، ولكنهم الغوا الخلافة على غير هوى النـاس ، أو رأى المسـلمين ، فكانت أول مثلبة دكتاتورية تتراءى للناس فى تطبيق الديموقراطية الغربية فى دار الاسلام فكتب شوقى يقول :

الفرد بالشورى وباسـم نديها

خلع الخليفه فى الظـلام شريـدا

خلعتـه دون المسـلمين عصـابة

لم يجعلوا للمسلمين وجودا (٢٥)

وخلاصة الامر أن شـوقى شاخص الـى الشورى الاسـلاميـة أو روح الديموقراطية لا ينخـدع عنها بالنظـم وأشكال الحكـم ، فالاستبداد ــ عنده ــ يقوم والنظم الدستورية ــ بعد ــ قائمة ، والديموقراطية تقوم والفرد على راس الحكم ، فالعبرة ــ عند شوقى ــ بالانسان حاكما ومحكوما ، لان النظم لا تنهض بالامم وانما الامم هـى التى تنهض بالنظـم ، ونزوع شوقى الى الاخلاق ، اريد به الامة أو تهذيب آحاد الناس ، وذلك غاية الاديب ، أو تلك هى رسالته التي أراد أن يضطلع بها فى شعره كما قال فى مقدمته بحق ، لان الامة أو المجتمع ما هما الا اجتماع الآحاد بعضهم الى بعض على سنة الفكر الاجتماعـى فى القـرن التاسع عشر يومذاك ، وفى تهذيب الفرد تهذيب الجماعة حقيقة .

يقول رفاعة رافـع الطهطاوى : اعلـم أن (الفرنساوية) متفرقة الرأى فرقتين وهمـا الملكية والحرية ، والمراد بالملكية أتبـاع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الامر لولى الامر من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء ، والاخرى تميل الى الحرية بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة ، ولا شك أن الرأيين متباينان ...

فالفرقة الاولى اعانة الملك ، والاخــرى اضعافه واعانة الرعية ، ولاحاجة للملك أصلا ... وهذا هو حكم الجمهورية » .

ومؤدى هذا القول أن النظم السياسية أو نظم الحكم ثلاثة أنماط ، ملكية مطلقة ، وأخرى مقيدة أو دستورية قيدها الدستور ، والنظام الثالث هو النظام الجمهورى ، الامر فيه للمبايعة أو الانتخاب ، يقول رفاعة :

---

(٢٤) Toynbee; Civilization on Trial (٢٤ مكرر) ــ ج ١ ص ٢٠٠ من الديوان .

(٢٥) ج ١ ص من الشوقيات .

« وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها » (٢٦)

وشوقى من راى رفاعة لانه راى الاسلام غير منازع ولقد قامت الخلافة بواحد يجتهد مختارا على سنة النظم الجمهورية فى الاختيار برأيه ، وقامت بهيستشير ويشار عليه ،وقامت به معينا او معهودا اليه ، وقامت به مبايعا والانتخاب .

وقد امتدح شوقى الخلفاء والحكام بجميع ذلك ، فالخليفة لا ينبغي أن يضار بالخلافة فيسقط عنه حق الاجتهاد ، لان الاجتهاد حق للناس خلفاء وغير خلفاء :

الـراى راى أمـير المـؤمنـين اذا
حارت رجـال وضلت فى مراميهـا

وانما هـى شورى اللـه جاء بهـا
كتابه الحـق يعليها ويغليهـا (٢٧)

ولا يأخذ الناس الراى هنا مأخذ الدكتاتورية لان الاسلام لادكتاتورية فيهفالحاكم المسلممقيد بالاسلام ومحكوم به أبدا ، او هكذا ينبغى له ، يقول رفاعة :

« والافرنج يعدون الحكومات الاسلامية من قبيل مطلقات التصرف ، والحال انها مقيـدة أكثر من قوانينهم » . (٢٨)

والدستور فى قصاراه قيد يغل يد الحاكم ، أو عاصم من الاختلاف فى تأويل الحقـوق ، يصطلح عليها المسلمون فيلتقى الحاكم واياهم على النزول عليها والاخذ بها .

ولقد آثر شوقى القيد الدستورى، فالخلفاء عنده رجلان ، رجل رشيد لا يضيق بالدستور ولا يضيق به الدستور ،وخليفة غر ،فالدستور عاصم له من الشطط والاستبداد :

هو حليـة الملك الرشيد ، وعصمـة الملك الفريـر .

على أن فريقا منالناس والكواكبىعلىرأسهم اشتطوا فى الامر فأبوا الفرد حاكما ولو عمر بن الخطاب ، (٢٩) ولا يعنى ذلك ان شوقى كان دونهم ثورة بالفرد :

ان الزمـــــان واهلــــــه
فرغوا من الفرد اللعين (٣٠)

الانصاف ــ اذن ــ أن ننسب الرجل الـى أدب الخطاب لا الى التزلف ومداهنة السلاطين أو الحكام فى مصر والآستانة ، وهذاخلق يتخلق به صاحب الذكاء ، وشوقى كان فوار الذكاء كما يقول مطران (٣١) ، لان الذكـاء يصـل بصاحبه الى غاياته البعيدة دون أن يخرم حرفا واحدا من آداب المجاملة والحديث ، وبهـذه الخلة كان يمدح ويتمدح :

شديـد صلـب فى الحـق حتـى
يقول الحق لينـا واتداعا (٣٢)

---

(٢٦) التخليص ص ٢٥٢ .
(٢٧) جـ ١ ص ٢٨٧ من الديوان .
(٢٨) أصول الفكر العربى الحديث عند الطهطاوى ص ٥)نقلا عن الوقائع الرسمية ع ٦٢٣ .
(٢٩) أم القرى ص ١٤١ .
(٣٠) جـ ٢ ص ١٢١ من الشوقيات .
(٣١) الشوقيات المجهولة جـ ١ ص
(٣٢) جـ ٣ ص ٩٨ من الشوقيات .

فلسفته فى مدح العثمانيين

على أن العثمانيين كانوا بالقياس الى شوقى تاريخا وحضارة ، ولم يكونوا قط حاضرا يعلو على الاتهام أو النقد والتجريح .

أما العثمانيون آحادا وخلفاء ، فما منهم الا ونشأ على الآداب الاسلامية فى لغة القرآن فضلا عن لغته التركية ، والاغلب منهم كان يحفظ القرآن ويتخذ الاساتذة والمعلمين من الفقهاء وكبار العلماء ، وما اصطلاح « العثمانيين » الا شاهد على أنهم أرادوا نسبا تسقط فيه القومية التركية أو العنجهية الطورانية ، لتظل الخلافة خالصة للمسلمين .

واذا جاوزنا هذا الفضل الى فضل الفتح والجهاد ، فحسبهم فتح القسطنطينية عاصمة الرومان او الدولة البيزنطية ، وكانت خطرا اتصل حبله منذ أبى تمام والمتنبي والمعتصم وسيف الدولة ، وقد تأبت من قبل هذا وذاك على معاوية بن أبى سفيان .

وهذا الفتح فى موازين الحضارة أخطر منه فى تاريخ الحروب ، لان الحضارة الرومانية انتقلت برمتها الى روما ، ودخلت القسطنطينية برمتها فى الحضارة الاسلامية أو دار الاسلام ، وليس ذلك بيسير .

وجاء سليمان القانوني فامتدت بدار الاسلام الى أسوار فينا فى القرن السابع عشر ، ودخلت أوروبا الشرقية باغلب دولها فى حوزة دار الاسلام أو خلافة المسلمين ثلاث تارات من العثمانيين ، وليس قليلا فى التاريخ أن تنتظم أوروبا الى غرب آسيا الى شمال أفريقيا ،حتى بلغت الامبراطورية العثمانية حدا لم تبلغه امبراطورية قبلها ، فكانت فخرا لا يسقط من حساب المادحين والقادحين على السواء ، يقول الشيخ محمد عبده : « أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى . . . حدود الصين ، أقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذى لا يغالب ، كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها (ملوك) الصين ، وترتعد فرائص أعظم ملوك أوروبا . »

ومن ملوكهم فى قرونهم الوسطى مثل محمد الغزنوى ، وملكشاه السلجوقى وصلاح الدين الايوبى ، وكان منهم فى المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفى الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثمانى .

أولئك رجال قضوا ولم يطو الزمان ذكرهم ، ولم يمح أثرهم (٣٣) .

ومن قبل اشاد رفاعة الطهطاوى بالسلطان سليمان الثانى واعتد عصره « أعظم الاعصار » فقد بلغ بالدولة العثمانية « أوج الفخار » فافتتح الفتوحات العظيمة واعلى كلمة الله » (٣٤) .

والعثمانيون ، فوق هذا وذاك ، لا يصدون سيدا عن السيادة ، ولا يحول اختلاف الجنس والوطن دون الصدارة وولاية الامور ، حكم الاسلام أو شريعته النازلون عليها فى التصرف والسلوك ، فيطلع علينا العصر الحديث وداود باشا على العراق ، وخير الدين واليا على تونس ، وعلى بك الكبير فى مصر ، وكل هؤلاء عبيد ملك اليمين ، وقد استجلب الاوروبيون اليهم العبيد فى أمريكا صنيع الاتراك المتهمين ، فلم نسمع عنهم الا الاضطهاد ، انزلوهم من المجتمع أحط المراتب ، وختموا على اتضاعهم بالعرق المصطنع ، وهم صناع التقدم ، وشركاء الاوروبيين فى أسباب الحضارة على نحو من انحاء المشاركة يفرضه الانصاف .

---

(٣٣) ج ٢ ص ٢٧٧ من تاريخ الاستاذ الامام .

(٣٤) الاعمال الكاملة لرفاعة ج ١ ص ٤١٦ نشر وتحقيق محمد عمارة .

كان العثمانيون ـ اذن ـ بالقياس الى شوقي تاريخا وحضارة ، أو ان شئت كانوا مجدا اسلاميا ، وبطولة متصلة في تاريخ المسلمين :

قد ظنني اللاحي نطقت عن الهوى
وركبته متن الجهل اذ أطريك

لم ينقذ الاسلام أو يرفع له
راسا سوى النفر الالى رفعوك (٣٥)

ومن هنا لم ينظر شوقي ـ قط ـ الى السلاطين العثمانيين الا وهو شاخص الى مآثر آبائهم الاولين منذ محمد الفاتح الى سليمان القانوني الى غيرهما من أبطال الفتوح والحضارة الاسلامية :

سما بك يا عبد الحميد أبوة
ثلاثون حضار الجلالة غيب (٣٦)

حنيفية أو قد عزها وأعزها
ثلاثون ملكا فاتحون غزاة (٣٧)

يابن الخواقين الثلاثين الألى ... (٣٨)

عشرون خاقانا نموك وعشرة ... (٣٩)

هؤلاء الماضون ـ اذن ـ هم مفتاح المدح عند شوقي ، وهم مادته التي صدر عنها في التغني بالسلاطين ، فهم جيل من اجيال الحضارة الاسلامية، والحلقة الوثقى في تاريخ المسلمين :

المظهرين لنور بدر بعدما
خيف المحاق عليه والاظلام (٤٠)

يقول **الدكتور لويس عوض** : « فمنذ اللحظة الاولى (من دخول الفرنسيين) أحس الجبرتي انه ازاء حضارة جديدة أرقى من حضارة الترك والمماليك ، لا في مقوماتها المادية فحسب ، ولكن في كثير من قيمتها الاجتماعية ونظمها السياسية . (٤١)

ويخطىء الذين يزعمون هذا الزعم ، فالترك والمماليك ليسوا حضارة قائمة براسها ، لأن المماليك ظاهرة اسلامية ، أو نظام حربي أفضى اليه اجتهاد المجتهدين على عهد صلاح الدين ، والمجتهد المخطىء له أجر .

والمماليك فوق ذلك آحاد مختلفون فيما بينهم ، لا ينتهون الى وطن واحد أو قوم بخصوصه فينسبهم الناسبون الى حضارة تحمد أو تذم .

والاتراك هم الآخرون يفتقرون الى ألف باء الكتابة ، فهم يكتبون بالحروف العربية ثم اللاتينية من بعد ، فكيف تستقيم لهم حضارة، فيقال حضارة الترك أو المماليك ؟

وهم أنفسهم قد نبذوا « طورانيتهم » وتسموا بالعثمانيين وهم الغالبون يومذاك على أمرهم في الاسلام ، شأنهم في ذلك شأن التتار، غلبوا على دار الاسلام وغلبهم الاسلام في ميدان الحضارة والعقيدة جميعا .

---

(٣٥) جـ ١ ص ٦٥ من الشوقيات .

(٣٦) جـ ١ ص ٤٢ من الشوقيات .

(٣٧) جـ ١ ص ٩٥ من الشوقيات .

(٣٨) جـ ١ ص ١٧٠ من الشوقيات .

(٣٩) جـ ١ ص ٢٢٨ من الشوقيات .

(٤٠) جـ ١ ص ١٦٥ من الشوقيات .

(٤١) تاريخ الفكر المصري جـ ٢ ص ٢٠ .

والرومان لا يختلفون موقفا عن التتار والاتراك، انتصروا على اليونان بالسيف، وانتصر عليهم اليونان فى الحضارة وشئون الفكر، والرومان أحق أن تكون لهم حضارة برأسها من التتار والاتراك، ولكنها دائما وابدا مرجوعة الى الحضارة اليونانية .

لم يكن شوقى — اذن — من رأى استاذنا الدكتور لويس عوض، ولا كان الجبرتى منه على التحقيق، فالاسلام ولاء جامع يتجاوز بالمسلم ما عداه من ولاء الدم والاقليم، فالحضارة الاسلامية علم على الميراث المشترك بين الأمم الاسلامية على اختلافها فى اللون والجنس واللغة والاقليم، يقول الشيخ محمد عبده : « هذا ما ارشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الىالآن، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس، وانما ينظرون الى جامعة الدين .

لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى، والفارسي يقبل سيادة العربى، والهندى يذعن لسيادة الأفغانى، ولا اشمئزاز عند احد منهم ولا انقباض، وان المسلم فى تبدل حكوماته، ولا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل، ما دام صاحب الحكم حافظا لشأن الشريعة ذاهبا مذاهبها » (٤٢) .

والغرب فوق هذا وذلك الب على العثمانيين متربص بشعوب الخلافة الاسلامية وكلهم شاخص الى هذا « الرجل المريض » يتحاجزون دونه، أصدقاؤه والأعداء لا أبقاء عليه وانما اغتناما للظروف المواتية التي تكثر فيها الغنيمة ويقل فيها احتمال الحرب والخلاف، فمثلهم والدولة العثمانية كمثل قول الشاعر :

يفرقهم بغض ويجمعهم حقد

وموقعة أبى قير البحرية شاهد على ذلك بما كتبه « نلسون » فى يومياته أو مذكراته (٤٣) بأسهم بينهم شديد، وهم — بعد — جميع على الدولة العثمانية على سنة التحدى الحضارى فى عرف آرنولد توينبى، ويرجع توينبى بوادر هذا التحدى الى ارتداد العثمانيين عن فيينا فى القرن السابع عشر، وقد بلغ أقصاه حوالى مطلع هذا القرن العشرين، وقد أدرك شوقى هذا القصد المبين من قبل أن يقول به توينبى فكتب قصيدة فى مسجد أيا صوفيا تفضح هذا العداء الكامن أو الحقد الذى لا هوادة فيه :

لن يترك الروم عباداتهم
أو ينزل الترك عن السؤدد

ويريد الشاعر بعبادتهم مواطن العبادة وأماكنها من باب حذف المضاف، ويريد بهذه المواطن أو الأماكن عامة البلاد التى غلب عليها الترك، ونزعوا عنها الحضارة الرومانية ليقيموا مكانها حضارة الاسلام والمسلمين :

فيا لثار بيننا بعده
أقام لم يقرب ولم يبعد

باق كثار القدس من قبله
لا تنتهى منه ولا يبتدى

فلا يغرنك سكون الملا
فالشر حول الصارم المغمد

لن يترك الروم عباداتهم
أو ينزل الترك عن السؤدد

---

(٤٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٢٢٥/٢٢٦ .

(٤٣) The Life of Nelson.

هــذا لهم بيت على بيتهــم
ما اشبه المســجد بالمسجد

فان يعــادوا فى مفاتيحــه
فيا ليــوم للورى اســـود

ولا اظن وراء ذلك تصويرا لامر الشرق وقد احيط به ، وها نحن اولاء لا نزال ياخذنا الشر صريحا وغير صريح ، والقوم لا يجهزون على عدو ، وانما يتركوه بين بين ، والبين بين دائما فى حيص بيص ، فهو متوجس ابدا ، لا هــو المنتصر فيفرح بالنصر ولا البالغ الهزيمة فييأس من النصر ، واليأس احدى الراحتين .

فالشر حول الصارم المغمد
اقام لم يقرب ولم يبعد
لا تنتهى منه ولا يبتدى

والأمر مناط يومذاك بحاضر مضــعوف ، والأوروبيون ومن لف لفهم من العرب والمسلمين يحملون أوضار كل ذلك على الاسلام وخلافة المسلمين ، لا يعنيهم ما يعنينا من مجد الماضى وعظمة التاريخ ، فالتاريخ تاريخ ، له ما مضى وعليه ما انقضى كما قيل يومذاك ، وانما العبرة بالحاضر فهم ياخذون الاسلام والمسلمين بما يزخر به الواقــع من الظلم ومظاهــر التخلف والجمود .

فكان على شوقى ان يختط خطــة رفاعة وعبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده ، فيحارب فى جبهات ثلاث صنيع طه حسين والعقاد ، فيصد عنا الغزو الفكرى وينقض تهم الغرب ، ويحمل على الظلم الموروث ومظاهر للتلخف والجمود ، وهو من وراء ذلك شاخص ابدا الى ماضى الحضارة الاســلامية يكابر بها ، ويستحيى فى الناس قيمها ، يحفزهم على الاستمساك بأصرتها ، والخلافة الاسلامية — بعد — حضارة متصلة فى تاريخ المسلمين :

حسب اتى طول الليالى دونه ....

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم ....

جمعت على البر الحضور ....

لم يكن شوقى — يغافل — اذن — عن سيء العصر ولا عن تخلف المسلمين ، لكنه لم يكفر قط بحضارة الاسلام ولا بقدرة المسلمين علــى القوة والنهوض :

شعوبك فى شرق البلاد وغربها
كأصحاب كهف فى عميق سبات

بايمانهــم نوران ذكـــر وســـنة
فما بالهم فى حالــك الظلمــات

وذلك ماضى مجدهم وفخارهم
فمــا ضرهــم لــو يعلمــون الآتــى

والفارق بين شــوقى وهؤلاء الناقمين كما اسلفنا هو الفارق بين الثورة بالظلم وعقابيل التخلف وبين الثــورة بعامة الخلافــة ونظم الاسلام والمســلمين ، أو هو الفارق بين ثورة الشفيق بأهله المؤمن بجدوى حضارته ، فمدحه تحريض على الفضل وسخطه عتاب على المثالب والعيوب ، وأصول الحضارة الاسلامية — آخر الأمر — هى محك الرضى ومعيــار الســخط والعتاب .



عالم القيم او المدنية الفاضلة عند شوقى :

هنــاك منهج فى البحث ذو شــقين ســلكه ((كولنجوود)) فى تعريف الفن وماهيته ، الشق الأول منه : تخليص الفن من المدخول عليه ، ورده على قائليه ، وهذا ما كان منا فى امر شوقى .

وهذا التعريف « بالسلب » كما يسمونه تكمن جدواه فى تقريب الأذهان من غاية الصواب ، لأنه يميط عن طريقها الأخطاء الشائعة ، أو أذى الخلط وآفة الادعاء .

واذا خلصت الأذهان من زائف القول ، وتهيأت للحق ، ونشطت لاستقبال الصواب ، جاءها الشق الثانى ، أو التعريف بالايجاب ، ليقيم على أطلال الخطأ صرح العالم الانسانى أو الرؤية الأخلاقية ، او الشخصية الادبية ، أو الأبعاد الحضارية لفكر الرجل ، وعامة مشاعره ووجدانه .

فشوقى لا تقف عبقريته عند دفع التهم ، وانما هو عالم من القيم أو الحضارة مستتم الاطراف ، لن تجد فيه منفذا مشروعا لما ادعوه عليه من البهتان :

يقولون يرثى الراحلين فويحهم
أأملته عند الراحلين الجوازيا

أبوا حسداً أن اجعل الحي اسوة
لهم ، ومثالا قد يصادف حاذيا

فلما رثيت الميت اقضى حقوقه
وجدت حسوداً للرفات وشانيا

فالرجل فى مدحه ، وفى رثائه ، وفى عامة شعره شاخص أبدا الى القيم الانسانية العليا ، يشتقها من وقائع حياة العظماء واحداث التاريخ ، يستوى فى ذلك الأحياء منهم والأموات، والمصريون وغير المصريين، والنصارى والمسلمون ، فيكتب عن موسى وعيسى ومحمد ، وعن بغداد وروما وباريس والآستانة وليبيا وبيروت ودمشق ، وعن صلاح الدين ونابليون، وعن حافظ والمنفلوطى وشكسبير وتولستوى وهوجو ، وعن مصطفى كامل وبطرس غالى ، وعمر المختار وادهم باشا وسعد زغلول .

ذلك بأنه آمن أن الناس هم الأحداث ، وهم صناع التاريخ ، ولم يفهم قط أن الأحداث والتاريخ هما الغالبان على أمرهما فى التطور بالناس الى ما يريده أنصار الحتمية التاريخية على سنة هيبوليت تين أو الماركسيين ، فشوقى يؤمن مع « كارلايل » أن التاريخ عربة يجرها الجياد من الرجال كما يقولون ، ولم يخطر له — قط — أن التاريخ يمضى بالناس حيث يشاء على سنة هيجل فى السعى الى المطلق من الأفكار ، ولا على سنة الماركسيين فى الصراع الناشب — حتما — بين الطبقات .

وكل هؤلاء المذاهب التاريخية يسلب الانسان عظمته فى معترك الحياة ، ويسخر من جدواه فى سير الاحداث ، ولا يثبتون له بعض شأنه الا بالتمحل والتخريج فى « الجدلية » أو فلسفة الصراع عند الماركسيين .

وشوقى يربأ بالانسان أن يكون ريشة فى مهب التاريخ ، تمضى الأحداث الى غاياتها ، وهو بعد مسلوب الارادة لا قصد له يقصده ، ولا غاية يتغياها عن عزم وتدبير .

والناقمون على شوقى لا يصبرون على هذا المنهج فى جدوى الفضائل وآحاد الناس فى الاصلاح وسير التاريخ ، لأنهم غارقون فى المذاهب التاريخية ، وفلسفتها فى التعويل على الظروف والملابسات ، وجاءت المادية الجدلية ومذاهبها فى الحتمية أو الجبر التاريخى ، فوقفت للناس بالجهد البشرى أو الفضائل وخصال الأفراد عند حب الخير و « الطوباوية » التى تحمد أصحابها ، ثم لا طائل من ورائها فى اصلاح المجتمع وشئون الناس ، لأن المعول عندها فى النظم وفلسفة المجتمع ، لا فى الخلق وخصال الناس ، فالناس تفسد بفساد المجتمع وتصلح بصلاحه ، والصلاح مقصور على المجتمع اللاطبقى الذى يزعمون انهم بالغوه غدا أو بعد غد فتحسن الخصال ، وتفضل اخلاق الناس دون جهد يبذل ، أو تدبير مقصود .

أما المجتمع البرجوازى القائم فأصل الشر وجرثومة الفساد ، والخلاص منه أو الثورة به خلاص من الشرور والآثام .

وهذا القول يُسقط عن آحاد الناس مؤونة الجهد فى تهذيب النفس ، والاضطلاع بعبء الفضل ومسئولية الخلق او خصال الاستعلاء .

ولا كذلك شوقى :

والنفس من خيرها فى خير عافية ...

فانما الأمم الاخلاق ما بقيت ...

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا ...

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه ...

وما السلاح لقوم كل عدتهم

حتى يكونوا من الأخلاق فى أهب

واذا ما أصاب بنيان قوم

وهى خلق فانه وهى أس

فالأخلاق عند شوقى عليها مدار التقدم فى حياة الافراد كما فى حياة الامم والجماعات ، فالأمم عنده قوامها الفرد وآحاد الناس ، تصلح بصلاحهم وتفسد بفسادهم ، وهو قول لا يسقط من الحقيقة ، وان سقط فى موازين الماركسية ، اللهم الا اذا قالوا بالجدل بين الفرد والجماعة ، وهو جدل ينظرون فيه آخر الأمر الى جهد الفرد فى الثورة او دفع عجلة التاريخ الى المجتمع الفاضل الذى ينعدم فيه التمايز والطبقات .

والانسان مهما طال بهم الجدل ، وتملقوه بصفات البطولة هو ـ عندهم آخر الأمر ـ وسيلة لا غاية ، والأمر عند شوقى على الضد والخلاف ، لأن شوقى يكابر بالانسان وجدواه فى الفضل ، وجدوى الفضل والأخلاق فى الحضارة ومدارج الرقى .

وهذا هو مفتاح الرجل ، أو مفتاح فكره ووجدانه ، أو هذا هو مفتاح العالم الأدبى أو الصرح الحضارى ، او ما شابه ذلك من المصطلحات التى تفضى الى « الرؤية » الأدبية بلغة العصر .

وقد أصاب الذين وصفوا شوقى بأنه شاعر الأخلاق ، الا أن هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه بحال ، لأن الاخلاق اختلطت فى الأذهان بالاصطلاح المدرسى الذى يقف بها عند القواعد المقررة فى العرف أو ضوابط السلوك ، وما يزيده بالأخلاق عند شوقى أمر وراء ذلك بكثير ، فالعباقرة لا ينشدون الكمال القائم فى أذهان الناس بضوابطه وحدوده ، وانما ينشدون « نوافل الكمال » حيث الفضل وخصال السمو والعظمة .

ولو اقتصر أمر شوقى على هذه الاخلاق التى يتوهمها الناس لما استحق هذا المجد والخلود ، لأن عبقريته لا تعدو ـ عندئذ ـ نظم ما ينبغى أن يكون ، على سنة أبى العتاهية أو صالح بن عبد القدوس .

وفرق شاسع بين نظم الأخلاق ، وشعر الأخلاق ، فشعر الأخلاق شاخص أبدا الى ما وراء الكمال من عظمة النفس ، وسمو الشاعر والوجدان :

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرما منها لشانيها (٤٤)

فأرادوا لينظروا دمع فرعون وفرعون دمعه
العنقاء (٤٥)

متدرع صبر الكرام على الأذى
ان الكرام مشاغل السفهاء (٤٦)

وأرانا التاريخ فرعون يمشى
ولم يحل دون شره كبرياء (٤٧)

انما يقدر الكرام كريم
.... (٤٨)

---

(٤٤) جـ ١ ص ٢٩٠ .
(٤٥) جـ ١ ص ٢٣ .
(٤٦) جـ ٣ ص ٦ .
(٤٧) جـ ١ ص ٢٠ .
(٤٨) جـ ١ ص ١٨٨ .

ويثشـــك فيه فـلا يكلف نفســـه
غير الترفع والوقـار نضـــالا (٤٩)

اغضـيت ضـنا بعرضى أن الم به
وقد يروق العمى للحر والصمم (٥٠)

واذا ملكـت النفس قمـت ببرهـا
ولو أن ما ملكت يـداك الشـاء (٥١)

واذا بنيـت فخـير زوج عشـرة
واذا ابتنيـت فدونـك الآبـاء (٥٢)

قـوم وقـار الـدين فى أخلاقهـم

• • •

وقـد نسـتطيع أن نجمع هذه العظمة أو الخصال فى المصطلحات الاسلامية التى جرى بها التواتر أو جاء بها القرآن، وفصلتها السنة فى كثـير من الحديث، ولعـل « البـر » أو « الاحسان » أحفلها بهذه المعانى، أو تلـك الغايات، « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » .

« نبى البر بينة طريقا »
« والبر عندك ذمة وفريضة »

وقد يزعم الزاعمون — وهم مخطئون — ان هذه المعاني مضت فى الادب العربى، **والمتنبـى** سبق اليها فى حكمه ومأثوراته، وأصح من هذا الزعم أنهـا مضت فى الآداب الاسلاميـة، أو حضارة المسلمين — وشوقى بلا شك هو الجانب الانسانى من هذه الحضارة، وأعنى به جانب « الاحسان » أو ماقدمنا من مصطلح « نوافـل الكمال »، فالسيئة جزاء السيئة كمال ولاشك، وأما العضو ففوق الكمال أو هو كمال آخـر لايفى بمعناه الا مصطلح « الاحسان » .

« أن الاديب مسامح ومدارى »

خلقت كأننـى عيسـى حـرام
علـى قلبى الضغينـة والشمـات

وهذا هو الفارق بـين المتنبـى وشوقى أو الفارق بين الكمال ونوافل الكمال، أو الفارق بـين واقـع التصرف واصطـراع النـاس فى السلوك، وبين التأمل وآداب السلوك أو النزعة الانسانية التى تتسم بهاحكمة شوقى، فالمتنبى فى أقرب أبياته من الكمال ونوافله لا يعدو ان يقـول :

تـرفـق أيهـا المولـى عليهـم
فـان الرفـق بالجانـى عتـاب

فلا يجعل الترفق بهم خالصا لوجه « البر والاحسان » « وانما يجعله عتابا أو عقابا ان شئت . »

ج — الا ان فريقا من نقاد شوقى لا صبر لهم على اطلاق القول، ويضيقون بالعموم الذى لا اختيار فيـه ولا مفاضلـة، لان الاختيـار والمفاضلة يقتضيان التخصيص المنبىء عن الشاعر وخاصة مذهبه فى الامور، وذلـك ادل علـى موقف الرجل، وعلى شخصه أو عامة فكـرة ووجدانـه .

ونسوق الى هؤلاء موقف الرجل من موسى

كان شوقى كما يزعمون لانصرف عنه، وهو غير مضطر اليه، ولكنها عبقرية الرجل ونفاذه فى الصعب، وشخصيته القادرة على المشكل من الامور :

ظـن فرعـون ان موسى له واف
وعنـد الكـرام يرجى الجـزاء

لم يكـن فى حسـبانه يوم ربى
أن سـيأتى ضـد الجزاء الجـزاء

نقضى اللـه أن يعـق ولله تفى
لا لغـــيره الأنبيــــاء

ومؤدى هذا القول أن المبادىء العليا تعصف بالمبادىء الدنيا، لانها أوفى وأصلح للبشرية على سنة « الانتخاب الطبيعى » أو البقاء للاصلح عند دارون وعامة التطوريين :

(٤٩) جـ ١ ص ٢١٣ .
(٥٠) جـ ١ ص ٢١٣ .
(٥١) جـ ١ ص ٣٦ .
(٥٢) جـ ٢ ص ٨٤ .

فما على المرء فى الاخلاق من حرج
اذا رعى صلـة فى اللـه أو رحمـا

وليس وراء ذلك اصرار على ما قدمنا من نواقل الكمال أو معانى البر والاحسان ، ورحم الله **على بن أبى طالب** حين رق لاحد الخارجين عليه فى وقعة الجمل وقال : « قتله بره بوالديه »

ونستتم أطراف هذا العالم الادبى أو هذه الرؤية الفنية لنمط آخر مـن انماط الكمال ونوافله أو أنماط الجمال الفنى فى معناه ومبناه جميعـا :

وردنك كوثـرا وسفـرن حـورا
وهـل بالحـور ان أسـفرن بـأس

فقـل للجانحـين الـى حجـاب
أتحجـب عـن صنـيع الله نفس

اذا لـم يستـر الادب الغوانـى
فلا يغنى الحريـر ولا الدمقـس

تأمـل هـل تـرى الا جـلالا
تحـس النفس منـه مـا يحـس

كـأن الخـود « مريم » فى سفـور
ورائيهـا حـوارى وقـس

تهيبهـا الرجـال فـلا ضمـير
يهـم بهـا ولا عـين تحـس

وليس وراء ذلك قداسة أو جلال يحملك علـى السمو والاحتشام ، ولا يعدله عندى الا قوله فى آثار الفراعنة ، وروعة انس الوجود :

فاخفض الطرف واخلع النعل واخشع
لا تحـاول مـن آيـة الدهـر غضـا

فانت هنـا كما انـت هناك فى حضرة **الجمـال والجلال** ، هذا **عبقرية الفن والانسان** ، وذاك عبقرية **الطبيعة والحياة** .

هذا قل من كثر ، أو قليل من كثير نخلص منه الى أن الاخـلاق عند شوقى هـى **القيـم الانسانية الكبرى** التي اريد بها **« الاحسان »** فى حضارة الاسلام والمسلمين ، **وهى امـر وراء القواعد والقوانين ، او وراء الحدود والتشريع** كالتصوف سواء بسواء ، فانت تستوفى امـر العبادة بالصلاة المكتوبة ، ثم تأتـى النوافـل لا يزال العبد يتقرب بها الى الله حتى يصبح يده التى يبطش بها ، وعينه **التى يبصر بها** ، وتلك رتبة عالية فى عرف **المتصوفة أو المتصوفين**

وكلا الامرين داخل فى رتبة الفضائل أو نوافل الكمال ، لان الاحسان فى مضمار الخلق والسلوك كالتصوف فى العبـادة ليس أحدهمـا فرضـا مفروضا على الناس ، فالفضائل فيها معنـى الزيادة لغة واصطلاحـا ، والزيـادة لا يشق الشارع على الناس بالتكليف بها ، وانما تؤتـى تطوعا واختيارا ، « فمن تطوع خيرا فهو خير لـه » .

فهى لا تستمد سندهـا مـن **التشريـع أو** القانون ، وانما تستمده من رتبتها فى السمو ، لانها غاية فى ذاتها يسعى اليها أهلها ، ويستمسك بها الفضلاء من الناس ، وتلك هى مرتبة **الاخلاق بلا الزام** كما يقول « جويو » والتى آمنت بهـا الحضارة الاوربية ، وتبشر بها الشيوعية اذا بلغ الناس **المجتمع اللاطبقى فى تقديرهم** ، **فلا** حكومة أيان ذاك ولا سلطان ، وانما هى الفضائل التى يتكلفها الناس تكلفا فى **المجتمع البرجوازى** أو الرأسمالى تصبح خلقا متاحا لكل أحد .

ولا كذلك الحال عند شوقى ، فالحياة هى الحياة ، مضت عليها آلاف السنين ، وهـى بحالهـا :

أناس كمـا تدرى ودنيـا بحالهـا
وشـعب رخـي تـارة وعسـير

وأحـوال خلـق غابـر متجـدد
تشابـه فيـه أول واخـير

الحـال باقيـة كمـا صورتهـا
مـن عهـد آدم مابهـا تغيـير

وذلك بأن شوقى يؤمن بالدنيا دار ابتـلاء واختيار ، وهو رأى الاسلام ، ولا معنى للابتلاء والاختبار اذا استقامت الحياة بالناس ، وجرت الطبائع فيها على سنن الفضائل ولا غير ، فتلك مرتبة « الجنان » الله ينزع الله منها سخائم النفوس فتنزع النفوس الـى الكمال « ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا » .

عرض الكتب



ربـــة البـيـت

آن أوكلي * *

عرض وتحليل الدكتورة علية حسن حسين

يهتم هـذا الكتـاب بابراز الخصائص المميزة لدور «ربة البيت» فى المجتمع الصناعى الحديث .

ويدور المضمون الأساسي للكتاب حـول نظرة المجتمع للمرأة بوصفها ربة بيت لا بوصفها زوجة أو أما . ويهدف الكتاب الى بيان دور ربة البيت ، وتطور هذا المفهوم ، كما يلقى الضوء على السمات والملامح التى تميـز ربة البيت .

وتهتم الكاتبة بتتبع دور المراة عبر الزمن معتمدة فى ذلك على تحليل نتائج البحوث التى اجرتها بنفسها لعدد من الحالات التى قـامت بدراستها ، وكان الطابع الأنثوى غالبا على ذلك التحليل . وقد عارضت القيم التقليدية

(*) Ann Oakley, House wife, Allen Lane,London, 1974

(**) آن اوكلى ، باحثة فى كلية بدفورد بلندن ، ولدت فى لندن عام ١٩٤٤ وتلقت علومها فى كلية سومرفيل باكسفورد، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عن موضوع« اتجاهات المراة نحو العمل المنزلى » ، وفى عـام ١٩٧٢ اصدرت كتابا بعنوان : « الجنس والذكورة والانوثة،والمجتمع Sex, Gender and Society . وفى عام ١٩٧٤ أصدرت كتاب « ربة البيت » الذى تتناوله بالعرض والتحليل والنقد الدكتورة عليه حسين ، كما اصدرت آن أوكلى فى نفس العام كتاب « سوسيولوجيا العمل المنزلى » الذى تقدم له ايضا ،الدكتورة سامية حسن الساعاتى عرضا تحليليا وتقييما نقديا له . (التحرير)

التى تقصر العمل على الذكور دون الاناث ، والتى تؤكد ان دور المراة ينحصر داخل المنزل فقط .

واتجاه الكاتبة الى الاهتمام بهذا النمط من النساء يرجع الى قصور السوسيولوجيين فى الاهتمام به . ويتضمن الكتاب تسعة فصول تتناول الموضوعات التالية :

اولا : المقصود بربة البيت واهم ما يميزها :

ان ربة البيت هي المراة التى تعمل فى البيت ولا تتقاضى اجرا عما تقوم به من أعمال، واذا حاولنا تحديد المقصود بهذا المصطلح من الناحية اللغوية فانه يشير الى كلمتين : بيت ــ زوجة . وهذا يعنى أن الدور الذى تقوم به ربة البيت هو دور عائلى وانثوى معا ، كما يعتبر أيضا دورا خاصا داخل المنزل . وربة البيت هي المسئولة عن معظم الواجبات المنزلية ، كما تقوم أيضا بكافة الاعمال المنزلية سواء ساعدها أحد أو لم يساعدها .. وهي بهذا المعنى ليست خادمة ، وانما امراة تباشر شئون منزلها ، كما أنها سيدة البيت وزوجة رب العائلة . وقد لا تكون ربة البيت متزوجة، فالزواج ليس شرطا لكي تصبح ربة بيت .

ولربة البيت سمات وملامح تميزها نخص منها ما شاع ويبرز فى المجتمع الصناعى الحديث . فربة البيت من المسميات التى يقصد بها المراة دون غيرها ، وتعنى هذه التسمية عدم استقلالها الاقتصادى ، ويعبر مضمونها عن الدور الاساسى الذى تضطلع به ويحدد مدلوله دائرة عملها ، ويبين منزلتها الاجتماعية كامراة غير عاملة . ومن الضرورى الا يفوتنا ، ونحن نتحدث عن ربة البيت ، أن نشير الى علاقة دورها بالناحية الاقتصادية. فهذا الدور وان لم يمثل نشاطا اقتصاديا منتجا بصورة مباشرة الا انه يرتبط به ارتباطا وثيقا ، ويتمثل هذا الارتباط فى جوانب ثلاثة:

الاول : قيامها بخدمة أفراد الاسرة وتهيئة الظروف المناسبة لهم يمكنهم من القيام بأدوارهم الاقتصادية المنتجة وان لم تقم بدور مباشر فى عملية الانتاج .

الثانى : كما أن قيامها بدور المستهلك الرئيسى فى الاسرة يؤكد كذلك ارتباط هذا الدور بالحياة الاقتصادية . فعملية الشراء من السوق ، أحد انشطتها الرئيسية ، تزيد من حجم المبيعات فتنشط عملية التسويق مما يؤدى الى دفع عجلة الانتاج باطراد .

الثالث : ان عمل المراة كربة بيت لا يدخل ضمن مفهوم العمل الحديث، فهى تؤدى العمل المنزلى الخاص بالاسرة والمتعلق بتدبير الحياة العائلية الخاصة . وهذا العمل لا يعد من الاعمال أو الخدمات العامة التى يتحتم ان تتقاضى عليها أجرا معينا ، كما انها غير ملزمة بعدد من الساعات يحدد لها ، وليس هناك قانون يلزمها بهذا العمل ويفرضه عليها .

وعلى هذا يصبح عمل المراة كربة بيت خارجا عن مفهوم العمل الحديث الذى يؤدى نظير الكسب المادى أو الأجر المحدد .

ولكن هل يعنى ذلك أن عمل ربة البيت يتباعد بصورته هذه عن الحياة الاقتصادية وينفصم عنها انفصاما تاما ؟

ان طبيعة هذا العمل والصورة التى يتم عليها والحدود التى يدور فى اطارها ، وان لم تبرز ارتباطا ظاهرا ومباشرا بالحياة الاقتصادية ، الا انها لا تعنى الانفصام عنها . والنظرة الدقيقة المتفيرة لهذا الدور تؤكد مدى ارتباطه بالحياة الاقتصادية وتعي أهميته فى دفع حركة الانتاج دفعا مستمرا بتهيئة الظروف المستقرة للمنتجين من اعضاء الاسرة .

ثانيا : دور المراة فى مجتمع ما قبل الصناعة :

لقد اختلف دور ربة البيت فى المجتمع التقليدى عنه فى المجتمع الحديث ، ومنشأ هذا

الاختلاف انما يرجع الى الاهتمام بالصناعة ، واقتضى اتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع الاهتمام بعمليات الانتاج على نطاق واسع غير محدود يتحقق فى مؤسسات صناعية كبرى .

وهذا يعنى ان العمليات الانتاجية لم تعد تتم داخل المنزل وفى اطار العائلة كما كان يحدث فى المجتمع التقليدى ، فالعائلة فى المجتمع التقليدى كانت تمثل وحدة الانتاج ، وكان العمل وبناء العائلة يمثلان جزأين من كل ثقافى متكامل ، فالعمل اذن لم يكن منفصلا عن حياة العائلة ، ولم يكن هناك تقسيم واضح للعمل بين الجنسين داخل محيط الاسرة ، ولكن الكل يعمل من اجل استمرارها ووجودها . ورغم ان مبدأ تقسيم العمل بين الجنسين تبعا لطبيعة كل جنس كان معروفا ، الا ان الادوار فى المجتمعات التقليدية كانت تحدد بالنظر الى المنزلة الاجتماعية لكل جنس من الجنسين . ولم يكن ذلك المبدأ المعروف يمارس حتى فى المجتمعات التي عرفته على أساس قاعدة ثابتة تحدد عملا للمراة وعملا آخر للرجل . فالبناء الاقتصادى والاجتماعى للمجتمعات التقليدية لم يكن يتيح وجود مثل هذا التمييز الدقيق فى تقسيم العمل .

وان ادراكنا لمفهوم الدور الذى كانت تنهض به ربة البيت فى المجتمعات التقليدية يوضح مدى التلاحم بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية ، ويؤكد انهما يمثلان معا كلا متكاملا .

وهذه صورة مخالفة للصورة السائدة فى المجتمع الصناعى الذى كان التمييز فيه بين الحياة العائلية والحياة العملية واضحا بينا .

فالتنمية الاقتصادية التي حدثت على مستوى العالم كان لها اثر واضح فى تمييز أدوار العائلة وتحديد العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادى مما اسفر عنه التميز الواضح بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية .

وبعد ذلك العرض الذى يكشف عن مدى الاختلاف بين مفهوم دور المراة فى المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث نتحدث عن السمات التي يتميز بها دور ربة البيت فى المجتمع الغربي خاصة فى الفترة ما بين القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

أ ــ العمل : كان عمل المراة فى بريطانيا منحصرا فى الزراعة والنسيج حيث كانتا الحرفتين الاساسيتين لافراد ذلك المجتمع فى تلك الفترة .

وحين عملت المراة كمزارعة كانت تقوم بانتاج احتياجات المجتمع من الطعام ومنتجات الالبان ، وكانت تتقاضى أجرا يقل عن أجر الرجل ، رغم أن جهدها فى هذا المجال يفوق الجهد الذى يبذله الرجل . وهذا الدور يعتبر جزءا من دورها الذى كانت تنهض به داخل المنزل فى المجتمع البريطاني التقليدى . ولم يكن عملها بالنسيج يختلف عن عملها فى الزراعة حيث كان يتم أيضا فى اطار العائلة باعتبارها وحدة العمل المنتج .

والى جانب تلك الاعمال قامت المراة بالعمل فى التجارة ، وخاصة تجارة الصوف التى لم تكن تقل أهمية عن الاعمال السابقة ، فالمراة المتزوجة كانت تقوم بغزل ونسج الصوف والكتان لفرضين : الأول تغطية الاحتياجات المنزلية المطلوبة من هذه السلعة . اما الفرض الثانى فهو المساهمة فى زيادة دخل العائلة .

ولم تقتصر الاعمال التي قامت بها المراة على ذلك ولكنها تجاوزتها الى اعمال اخرى كصناعة الخبز والبيرة ، وفضلا عن مساعدة زوجها فى عمله وتحمل القيام بأعبائه بعد وفاته ، ومارست العمل ايضا فى مجالات اخرى مثل التجارة القطاعى ، وادارة المحلات التجارية ، وكان البعض منهن يعملن باعة متجولات للحصول على الدخل اللازم لحياتهن .

ب ـ كان النمط السائد هو العائلة الممتدة ، وكان الزواج يتم عن طريقها ولم يكن الزواج يعفى المراة من الاعباء الاقتصادية ، فهي لا تعتمد على الزوج اقتصاديا بل تعتمد على دخلها من العمل الذى تمارسه فى الزراعة والنسيج والتجارة ، وكانت تتحمل كذلك مسئولية الانفاق على أطفالها ، ويساهم الزوج فى ذلك ان كان دخله كافيا . فالمراة فى هذه الفترة كانت تحرص على التوفيق بين استمرار الحياة العائلية ورعاية الاطفال ، أما فيما يتعلق بالشئون المنزلية فانها كانت مسئولية مشتركة بين الزوجين .

ومن هنا نلمس مدى الاختلاف بين دور ربة البيت فى القرن السابع عشر ودورها فى القرن العشرين .

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا المجال انه رغم اعتراف القانون العام بخضوع المراة للرجل فى المجتمع الانجليزى الا ان ذلك لم يؤثر على العلاقات الاجتماعية ، حيث كان النبلاء وحدهم الخاضعون لهذا القانون العام ، فى حين كانت العادات والتقاليد تحكم العلاقات القائمة بين المزارعين والحرفيين ، مما يؤكد مساواة المراة بالرجل واستقلالها الاقتصادى عنه .

ج ـ المنزلة الاجتماعية للمراة فى المجتمع الانجليزى التقليدى :

ان استقلال المراة الاقتصادى فى المجتمع الانجليزى التقليدى خلال القرن السابع عشر قد اتخذ أشكالا مختلفة :

فالمراة التي تعمل بالتجارة وكانت تحصل على كافة الحقوق وتنهض بشتى المسؤليات التى كانت للرجل الذى يعمل فى نفس الظروف ، ولها أن تلجأ الى القانون فى جميع الحالات للحصول على حقوقها ، ولها أن تشارك مشاركة تامة فى أعمال الزوج وشئونه .

وقد تبين ان هناك أسماء لنساء متزوجات مقيدات بسجلات التبادل التجارى ، وقامت الزوجة بادارة أعمال زوجها كوكيلة لأعماله ، فضلا عن الدفاع عن العائلة والمحافظة على الممتلكات فى حالة غياب الزوج .

وكانت التقاليد النقابية فى هذا المجتمع تبيح انتقال تجارة الزوج وامتيازاته الى الزوجة بعد وفاته .

وبعد ان ادركنا الدور الذى كانت تنهض به المراة فى المجتمع البريطانى التقليدى يتأكد لنا أن المراة كانت تقوم بدور العامل المنتج داخل المنزل وخارجه ، ولم يكن هناك ثمة تمييز فى قوانين العمل بين الجنسين ، ولم تمنع المراة من ممارسة أى عمل لكونها امراة . وليس من بين ذلك كله ما يشير الى التفرقة بين العمل المنزلى والعمل الانتاجى والنظر اليهما كمهنتين منفصلتين .

فهما يمثلان كلا متكاملا ، ويكمل كل منهما الآخر . وهذه صورة مخالفة لما حدث بعد التغيرات الاقتصادية التى نجمت عن الثورة الصناعية . فقد طرات تغيرات واسعة لمفهوم الدور الذى تنهض به المراة ولطبيعة عملها كمركز للحياة العائلية .

ثالثا ـ المراة والتصنيع :

ان دور ربة البيت فى المجتمع الحديث يختلف عن الصورة التى كان عليها فى المجتمع التقليدى ، فاتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع والاهتمام بالصناعة اقتضى تغييرا واضحا فى مفهوم هذا الدور ، ولم يقتصر الامر على تطور مفهوم دور ربة البيت بل تعداه الى دور الرجل .

وهذا التحول أو التغير يتضح فى انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية وقد أدى ذلك الى أن أصبح دور ربة البيت محصورا فى النهوض بالاعمال المنزلية التى تفرضها

الحياة العائلية دون الانخراط فى الاعمال الانتاجية التى تتم خارج المنزل ، والتى تكون مقابل أجر نقدى ، فلم تعد المراة تشارك فى عمل انتاجى من أجل العمل ذاته او من اجل الاستهلاك .

أما بالنسبة لدور الرجل فالمجتمع الحديث أفسح له العديد من المجالات ، فاتسعت دائرة عمل الرجل ومجالاته وأنشطته وعلاقاته فى حين ضاقت دائرة عمل المراة واتجهت نشاطاتها الى المنزل اكثر من اى مجال آخر .

وكان هذا التحول فى دور الرجل ملائما لذلك التطور الذى حدث فى المجتمع الحديث، الذى كان اتجاهه الى التصنيع سببا فى انفصال العمل الانتاجى عن الحياة العائلية والانتقال بالعمل الانتاجى بعيدا عن المنزل الى مؤسسات صناعية كبرى يؤدى فيها العمل نظير اجر نقدى .

والمجتمع الصناعى الذى يهتم بالمشروعات الاقتصادية والمشروعات الصناعية الحديثة يتميز بوجود هيئات متخصصة تقوم بالانشطة الاقتصادية تختفى أمامها العائلة كوحدة اقتصادية انتاجية .

واستبعاد العائلة عن النشاط الاقتصادى لم يستلزم تغييرا فى الانتاج فحسب ، بل انه استلزم أيضا تمييزا للأدوار داخل العائلة ، فربة البيت أصبحت غير عاملة وعليه فهى تعتمد اقتصاديا على الرجل الذى اختص بالعمل المنتج يتقاضى عنه اجرا نقديا ويتحمل العبء الاقتصادى للعائلة .

ويمكن تقسيم المراحل التى مر بها دور المراة منذ بداية مرحلة التصنيع الى ما يأتى :

المرحلة الاولى وهي ما بين عام ١٧٥٠ حتى عام ١٨٤١ .

والمرحلة الثانية وهي مابين عام ١٨٤١ حتى عام ١٩١٢ .

والمرحلة الثالثة تمثل الفترة مابين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٠ .

أما المرحلة الاولى : ١٧٥٠ - ١٨٤١

فهي تتميز بظهور المصنع وحلوله محل العائلة كمكان للانتاج ، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل المراة عن ممارسة الاعمال الانتاجية التى كانت تنهض بها فى المجتمع التقليدى ، ولم يكن للصناعة أثر فى تغيير الاعمال الانتاجية التى كانت تقوم بها من قبل ، وانما ظهر أثرها واضحا فى زيادة الانتاج وما تبع ذلك من زيادة فى حجم العمل وعدد ساعاته . فقد زاد انتاج النسيج المنزلى بزيادة حجم العمل الانتاجى الذى تقوم به ربة البيت رغم ميكنة هذه الصناعة . ولم يكن ذلك فى انتاج النسيج فقط بل تعداه الى انتاج القطن .

وفى عام ١٧٨٠ التحق بمصانع انتاج القطن كثير من عمال اليومية والتحقت معهم المراة وصاحب ذلك انخفاض فى الأجور . ولا يعنى التحاق المراة للعمل بمصانع انتاج القطن الاستمرار فى مثل هذه الاعمال اذ اعتزلت الكثيرات من المتزوجات العمل فى المصنع فى أوائل القرن التاسع عشر .

فالزوجة الأم واجهتها مشكلة رعاية أطفالها أثناء انشغالها بالعمل فى المصنع ، مما أدى الى اعتزالها ، وكان ذلك سببا فى انخفاض نسبة النساء العاملات فى هذا القرن أى القرن التاسع عشر .

أما النساء المتزوجات وليس لديهن أطفال فقد استمر عملهن فى المصنع وكان ذلك مسايرة للاعتقاد السائد من ان المراة يجب ان تعمل وتعول نفسها ، فكان استمرارها محاولة منها للاعتماد على نفسها ، ولذا كان للعمل فى

المصنع دور فعال فى تحسين ظروف المـراة من الطبقة العاملة بوجه خاص .

ومن هنا ندرك ما كان للثورة الصناعية من اثر واضح على كل النســاء العــاملات ، وخاصة المتزوجات اللاتى ليس لديهن أولاد ، وما كان له من دور فى تحسين ظروف المراةمن الطبقة العاملة .

وقد اشارت احصاءات عام ١٨٤١ فى كل من انجلترا ويلز الى الاعمال الاساسية التى كانت تنهض بها المراة ، وأوضحت مجــالات نشـاطاتها وهي تدور حول الخدمات المنـزلية وصناعة القطن ، والزراعة وحيــاكة الملابس وكيها ، كما انها مارست مهنة التدريس أيضا ، هذا الى جانب الاعمال الاخرى التى نهضــت بها .

والخدمات المنزلية والزراعية والتدريس كلها اعمال تمثل الادوار التقليدية التى اختصت بها المراة فى المجتمع التقليدى .

اما العمل فى المصنع فقــد كان مفضلا حيث يستغرق وقتا اقل ، والأجر المتقاضى عنه يماثل الاجر الذى يحصل عليه الرجــل . ولذا كان هذا العــمل من أكثر الاعمال التى اجتذبت النساء يليه الخدمات المنزلية ويأتى بعدهما العمل الزراعى .

اما بالنسبة لبعض الحرف والاعمــال الاخرى التى كانت المراة تزاولها وحدها فقد انخفضت نسبة العاملات فيها ، هذا الى جانب ما احدثه انتقال العمل من المنزل الى المصنع من مشـاركة المراة للرجل فى عمله .

كما أن النمــو الاقتصــادى السريع فى الثروة أدى الى الاقلال من فرص العمل أمام المراة فى مجالات الاعمال الحرة فيما عدا تجارة القطاعى .

ومن تلك التغيرات التى حدثت فى مجالات العمل التى طرقتها المراة العمل فى الجراحة وطب الاسنان والعيون وكان للتخصص والنمو العلمى أثره فى استمرار عمل المراة فى هذه المهن وكانت الداية اكثر الناس تأثرا بتلك التغيرات التى طرات على عمل المراة .

المرحلة الثانية : الفترة مابين ١٨٤١ ــ ١٩١٤

فى هذه الفترة برزت فى المجتمع الانجليزى حركات اصلاح شملت مختلف المجالات . وقد تضمنت هذه الحركة تشريعات تخص النساء العاملات وتخص الاطفال كذلك .

ففى عام ١٨٤٢ صدر أول تشريع يحدد الظروف التى تعمل فيها المراة ويحدد كذلك مجالات العمل التى تلتحق بها ، وينص على تحديد ساعات معينة للعمل .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان المراة قد حصلت على امتيازات اخرى بمقتضى التشريع الذى صدر عام ١٨٩١ حيث نص على منع تشغيل النساء اثناء فترة الحمل وقرر منحهن اجازة لمدة أربعة أسابيع قبل الوضــع وأربعة أخرى بعد الوضع .

وفى عام ١٨٩٥ صدر تشريع يقضى بمنع تشغيل النساء والاطفال ساعات عمل اضافية. ولهذه التشريعات أثر واضح فى تحــديد

المفهوم الحديث لدور ربة البيت ، كما ظهر أثرها فى انخفاض نسبة النســاء المتــزوجات العاملات، وساد الاعتقاد بان مكان المراة البيت، ودورها ينحصر فى التزامها بالعمل المنــزلى فقط ، وخاصة بعد انتقال الرجل الى العمل فى المصنع وابتعاده عن المنزل ، الى جانب ما فرض من قيود على تشغيل النساء والاطفال.

ويضاف الى ذلك تلك المنافسة الشديدة التى واجهتها المراة العاملة فى الانتاج الصناعى من الرجال ، والتى دفعتها الى التقيد بالعمل المنزلى الذى تؤديه دون أجر يتقاضى عنــه ،

خاصة وأن الرجل قد أصبح صاحب الدخل الاساسى فى العائلة او الأسرة .

وبزيادة عدد ربات البيـوت ، ونتيجة لزيادة الدخل منذ عام ١٨٧٠ زاد الطلب عـلى الخدم الى الحد الذى دعا الى ظهور مشـكلة نقص الخدم فى عام ١٩٠٠ .

وظهور هـذه المشكلة يدل على مـدى احتياج ربات البيوت الى الخدم ، ويبرز ذلك التحول فى دور ربة البيت الذى أصبح دورا اشرافيا ، فربة البيت تقوم بدور المشرفة على العمل المنزلى وهو نفس دور ربةالبيت العاملة فى القرن العشرين ، فهى الى جانب كونها ربة بيت فهي أيضا عاملة منتجة .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر تحـولت المراة ربة البيت من مجال العمل فى الصنـاعة الى مجال الخدمات حيث التحقت بالعمل فى الصناعات الغذائية ومؤسسات غسـل وكي الملابس ومختلف الأنشطة التى كانت تؤدى من قبل فى المنزل . كما ازداد النساء اللائىالتحقن بالاعمال الكتابية والصناعات الخفيفة . وقد احتلت ادارة شئون المنـزل المـرتبة الاولى بالنسبة للمراة المتزوجة، بينما احتلت الاعمال الأخرى المرتبة الثانية .

المرحلة الثالثة : وتمثل الفترة من ١٩١٤ ـ ١٩٥٠

تتميز هذه الفترة بنمو الاتجاه نحو ربط دور ربة البيت بدورها كعاملة منتجة خاصة بعد الحرب العالمية الأولى . فقد ارتفعتنسبة النساء العاملات وزاد الطـلب على العـمل ، والتحقت المراة بمجالات عملجديدة فىالادارات الحكومية ، كما التحق كثير من النساء بالعمل فى الهندسة الصناعيةوانتاج الاسلحةوالذخيرة وقيادة السيارات . ثم انخفضت النسبة مرة أخرى ولكن كانت العودة الى المنزل طوعيـة . ولم تختلف الصورة أثناء الحرب العالميةالثانية عما حدث بعد الحرب العالميـة الأولى حيث زادت نسبة النساء العاملات فى الصناعة الى الضعف نتيجة لظروف الحرب .

وخلاصة القول ان التصنيع كان له دور فى حدوث بعض التغيرات التى يمكن اجمالها فيما يلى :

ـ ابتعاد الرجل عن الحياة الروتينية المنزلية بالانتقال للعمل فى المصنع وتركالعمل فى المنزل .

ـ تحمل الرجل لأعباء المعيشة واعتماد المراة عليه فى ذلك .

ـ انفصال العمل المنزلى ورعاية الاطفال عن الاعمال الاخرى .

ـ التصنيع أدى الى تقييد ربة البيت وربطها بالمنزل ، وهذا قيد نفسى اكثر منـه فسيولوجى .

وكان يمكن لربة البيت أن تترك المنـزل لتمارس عملا تتقاضى عنه أجرا نقديا ولكنهـا مع ذلك تظل مرتبطة بدورها كربة بيت حيث انه الدور الاساسى لكل النساء على الرغم من انه قد يعوقها عن توسـيع دائرة نشـاطها الخارجى .

رابعا ـ وضع المراة فى الوقت الحاضر :

ان التمييز بين المراة والرجل امر مالوف ويرجع هذا التمييز الى أساسين :

الاول : المراة تهتم بشئون المنزل ،وهذا الاهتمام يحدد وضعهاداخل الاسرةوخارجها.

الثانى : المراة بوصفها ربة بيت يؤكد وجود التناقض بين القيم الثقافية الموجهـة لدورها فى المجتمع .

ولتوضيح الاساس الاول الذى يعتمد عليه فى التمييز بين المراة والرجل يمكن أن تتبع دور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الاسرة وخارجها فى الوقت الحاضر .

اولا : داخل الاسرة :

حين نتحدث عن دور المراة داخل الاسرة نعنى بذلك دورها فى المنزل أو البيت ولا نعنى به مكان العمل .

فالمراة فى الاسرة هي التى تحمل الاطفال وترعاهم وتتولى تربيتهم ، وهي فى المنزل ربة البيت .

ووظيفة العائلة أو الاسرة ـ فى مختلف المجتمعات ـ توجيه السلوك الشخصى ، فالشخصية لا تولد ولكنها تتكون عن طريق التنشئة الاجتماعية ، والمراة هي التى تنهض بهذه العملية ، وعلى ذلك يقع عليها عبء تكوين الشخصية الانسانية .

وتكوين افراد المجتمع الذى تتولاه الاسرة يتم عن طريقين :

الاول : **تنشئة الاطفال اجتماعيا** ، والثانى : **صب الشخصيات الناضجة فى قوالب اجتماعية** . فهى تهيىء الافراد للقيام بأدوار الزوجة ، الام ، ربة البيت ، الزوج ، الأب .

وتكوين أفراد المجتمع لا يعد وظيفة جديدة للاسرة ولكنها أصبحت ذات أهمية كبيرة فى الاسرة الحديثة ، حيث ان الاسرة الحديثة قد فقدت الكثير من الوظائف التى كانت تقوم بها العائلة فى المجتمع التقليدى ، أى مجتمع ما قبل التصنيع .

ان محور بناء الاسرة الحديثة هو التمايز بين الجنسين ، فلم يعد دور المراة ودور الرجل فيها سواء أو شيئا واحدا ، فالمراة لها دورها الذى يختلف عن دور الرجل ، والزواج لا يحقق المساواة بينهما .

والتمايز بين دور الرجل بوصفه ذكرا ودور المراة بوصفها أنثى فى الأسرة الحديثة ليس تمايزا بسيطا ، فالترتيب الذى تسير عليه الاسرة من ذكر اصطلاح الزوج سابقا على الزوجة يوضح بناء متدرجا ، ولا يختلف هذا الترتيب فيكون للانثى أن تسبق الذكر الا حين يذكر الوالدان ، فيقال الأم ثم الأب وذلك لأن المراة هي التى تقوم بتربية الاطفال ورعايتهم فى الاسرة .

وقد كان للتنمية الاجتماعية فى هذا القرن دور فى زيادة أهمية الجنسين فى الاسرة ، واهتمام المراة بالشئون المنزلية فهو ما تختص هي به دون الرجل .

وقد أدى التصنيع الى ظهور الاسرة النووية ، تلك التى تقوم بتوفير كافة الاحتياجات المعيشية وزيادة الدخل . والتحسن فى ظروف المعيشة وفى ظروف الاسرة كان له أثر فى زيادة الاعباء المنزلية وظهور متطلبات جديدة ، مما زاد من أهمية العمل المنزلى .

واذا كان العمل المنزلى قد تأثر بظروف التصنيع فقد تأثر أيضا دور المراة ونعنى الزوجة الأم .

وقد ركزت التنمية على امرين أساسيين تعتمد عليهما الزوجة الأم فى تربية الطفل ورعايته .

الامر الاول : ضرورة تزويد المراة بالمعلومات اللازمة عن تربية الطفل ورعايته ، فنجاح المراة فى دور الامومة يتوقف على ذلك .

والامر الثانى : وجود الأم بجانب الطفل ، حيث أن الطفل فى حاجة الى استمرار وجود الأم بجانبه أكثر من حاجته الى الأب . فالأم

تهتم بتربية الاطفال ورعايتهم ، والأب يقوم بتوفير وسائل المعيشة لهم .

ومن كل ما سبق نرى ان الأسرة كنظام اجتماعى يميز بين دور الجنسين ، والمراة فى الأسرة الحديثة التى تتالف من رجل وامراة تكون فى المحل الاول زوجة وأم لطفل تقع عليهما كل الاعباء المنزلية ، مهما كانت الاعمال التى تقوم بها خارج المنزل مهندسة كانت أم طبيبة، فالمراة فى الأسرة خالقة المنزل ،وراعية ومركز حياة الأسرة كلها .

ثانيا : وبعد أن أوضحنا دور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الاسرة فى الوقت الحاضر نعرض للحديث عن دورها كراعية للشئون المنزلية خارج الاسرة ايضا .

ويتضح هذا الدور فى أهمية الاسرة فى توفير الحياة الاجتماعية والعاطفية لاعضائها ليكونوا أفرادا منتجين فى المجتمع الحديث .

لقد كان لانتشار التعليم والعمل خارج المنزل دور فى وضوح التمييز بين الجنسين ، والمحك فى ذلك اهتمام المراة بالشئون المنزلية.

وهذا ما تؤكده الاحصاءات الخاصة بالقوى العاملة من المساواة بين الجنسين والتشابه بين الوظائف والاعمال التى يقوم بها الرجال والنساء ، الا أن تلك المساواة وهمية ولا أساس لها فى الواقع الفعلى .

وقد ازدادت فى هذا القرن نسبة الاناث اللائى يعملن خارج المنزل ويتضح ذلك فى بريطانيا خلال الفترة ١٩٥٠-١٩٦٠ . ويرجع ذلك الى قدرة المراة المتزوجة على الجمع بين الحياة الأسرية والعمل ، والى أنها قادرة على أن تكون ربة بيت وعاملة ، وعلى العكس نجد ثباتا فى نسبة العاملات من الزوجات الأمهات.

وهذه الزيادة فى نسبة العاملات من الإناث لا تشير الى حدوث تغيرات فى التمييز التقليدى بين الرجل والمراة ، فهذا التمييز لا يزال قائما والمراة لا تزال ترتبط بأعمال معينة ، فهي تعمل فى مهنة التدريس وكذلك التمريض والسكرتارية والاعمال الكتابية والبيع فى المحلات والعمل فى المصنع ، هذه كلها مجالات مارست المراة العمل فيها الى جانب نهوضها بالعمل المنزلى .

وفى انجلترا وويلز بلغت نسبة العاملات فى هذه المهن ٥٢ ٪ عام ١٩٧٠ ، وكذلك تركز عمل النساء فى هذه المهن فى كل من الولايات المتحدة والمانيا وايطاليا والنرويج والسويد .

ومع هذا الاقبال على المهن على انها اكثر ارتباطا بالرجل ، ومن التحق بهذه المهن من النساء قد تخصص فى نواح متعلقة بالمراة. فالمحامية تهتم بقضايا الزواج والطلاق ،وتهتم الطبيبة بأمراض النساء والولادة وطب الاطفال، ولم يكن للتعليم وزيادة التخصص تأثير قوى على اختيار المراة للمهن التى تعمل فيها .

وتوضح نتائج المسح القومى الذى اجرى فى بريطانيا أن نسبة ربات البيوت اللائى لا يعملن خارج المنزل ١ - ٢ أما اللائى لهن اطفال ويعملن فتمثل ١ - ٣ ، وتشير تلك النتائج كذلك الى زيادة نسبة الأمهات اللائى يخرجن للعمل عندما يبلغ أطفالهن سن ٥-١٥ سنة وتقل النسبة كلما صغر سن الاطفال عن ذلك .

ومن متابعتنا لدور المراة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها فى الوقت الحاضر نخلص الى أن التعارض بين وضع الرجل والمراة ليس ناتجا من الدور البيولوجى الذى تقوم به المراة فى الحمل والولادة وانما ينتج عن الدور الثقافى فى التربية .

فالأمومة مثلها مثل رعاية الشئون المنزلية من الادوار التى تختص بها المراة وتتميز بها عن الرجل . ومما يوضح ذلك

النظر الى اهتمامات المراة وتركيزها على اختيار المهن التى تتعلق أساسا بالشئون المنزلية والتى تربطها بالدور الانثوى . وهذه الاهتمامات من جانب المراة يزيد الاختلافات بين الجنسين ، بل ويجعل من تلك الاهتمامات ملامح ثابتة نسبيا تختص بوضع المراة وربما تكون من عوائق تحقيق المساواة المهنية بين الجنسين .

وبعد ان انتهينا من الحديث عن الاساس الاول الذى يرجع اليه التمييز القائم بين الرجل والمراة في المجتمع فى الوقت الحاضر ننتقل الى الحديث عن الاساس الثانى الذى يرجع اليه هذا التميز وهو ما يتعلق بتناقض القيم الثقافية الموجهة لدور المراة فى المجتمع. وهذا التناقض يبرز من خلال الادوار التى تقوم بها المراة داخل وخارج المنزل . فالمراة عضو من اعضاء المجتمع يختصها بأدوار تنهض بها . والمجتمع اذ يحدد لها الدور الانثوى التقليدى كربة بيت يحدد بذلك منزلتها الاجتماعية كزوجة وأم .

والمجتمع ، مع ذلك ، يدرك أن المراة كائن حي له قوى ذاتية لا يختلف فى ذلك عن غيره من الكائنات الانسانية ، فلا ثمة تمييز بينها وبين كل الكائنات الانسانية فى ذلك ، وهذا يحتم ان تتساوى مع غيرها فى الحقوق والواجبات .

ومن هنا يظهر التناقض فى تلك القيم الموجهة لدور المراة . فالمجتمع اذ يربطها بذلك الدور الانثوى يعود فيقر لها بالمساواة مع غيرها فى الحقوق والواجبات بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية .

ومن ذلك ان المراة تتساوى مع غيرها فى التعليم وفى القواعد القانونية الظاهرة ، وهي تحقق ذاتها على أساس مقدرتها ومواهبها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى حياتها فى ارتباطها بزوجها واطفالها وتحقق ذاتها بطريقة غير مباشرة تتمثل فى رعايتهم الرعاية التامة .

ومنذ ارتبط المفهوم التقليدى للانوثة بدور ربة البيت والزوجة والأم والمراة تواجه صراعا بين دورها فى المنزل ومسئوليتها فى رعاية شئون الأسرة ودورها فى المجتمع بوصفها كائنا حيا له قوى ذاتية تتيح له المساواة بغيرها دون تمييز .

ولذا فان الصراع الذى يواجه المراة الان انما هو صراع بين الادوار المتغيرة للجنسين . والدور القائم على أساس الجنس يكون قائما على أساس بيولوجى يحدد سمات معينة للشخصية ، واستجابات سلوكية تتلاءم والشخص ذاته .

فالناحية البيولوجية تفرض أن يكون اعضاء المجتمع ذكورا واناثا ، والمجتمع الصناعى الحديث قد أوجد فرصا للمساواة بين الذكر والأنثى ، ولكن فى نفس الوقت اختفى التمييز بين الذكور والاناث بوصفهم جميعا اعضاء في المجتمع ، ومع ذلك يعود المجتمع ليحدد لكل منهما مجالات للعمل ويخص النساء برعاية الاطفال وتدبير شئون المنزل ، بل ورعاية الرجال ايضا .

فهذا الصراع الذى يواجه المراة حديثا يفرض عليها أن تختار بين سلوك الأنثى التقليدى وسلوك الذكر . فالرجل قد حصل على حقوق كثيرة كحق التعلم وحق التصويت، كما أن له الحق فى الحصول على وظائف معينة.

ولما كان المجتمع الذى اعترف للمراة بحق المساواة بالرجل هو نفس المجتمع الذى أعطى للرجل النصيب الاكبر من الحقوق فانه على الرغم من كل مانالته المراة من حقوق ، وخاصة حق التعلم ، فالحقيقة الهامة التي تتضح من ذلك هي أن المجتمع قد خص المراة بدور يعتبر أكثر الادوار أهمية ، الا وهو

الاهتمام بالاسرة ورعاية شئون المنزل ، وهذا يدل على أن التمييز بين الجنسين لا يزال قائما فى مختلف المجتمعات خاصة فى مجالى التعليم والعمل .

وتوضح نتائج احدى الدراسات التى أجريت فى احدى جامعات بريطانيا عن مجالات العمل والاسرة ، أن من الاسباب التى تجعل المراة تحجم عن العمل فى مجالات عمل الذكور النظر الى هذه الاعمال على انها ليست أعمالا انثوية ، والمراة تخاف ان توصف بأنها غير أنثى اذا ما التحقت بهذه الاعمال .

وهذا نفسه ما حدث فى الولايات المتحدة حيث كان تعليل المراة لانخفاض نسبة المشتغلات بالمهن الهندسية ، فالسبب الرئيسي هو خوف المرأة من أن توصف بأنها غير انثى . هذا بالاضافة الى أن الوالدين لا يشجعان بناتها على التدريب فى مثل هذه الاعمال .

وخلاصة القول ان التركيز على المساواة بين الجنسين ليس الا خداعا للنفس ، اذ أنه من غير الممكن ان تتساوى المراة بالرجل فى الحياة العامة أو خارج المنزل فى الوقت الذى لا تتساوى فيه بالرجل داخل الاسرة ، ورغم خروج المراة للعمل والاشتغال ببعض المهن ، ورغم حصولها على حق التعليم العالى والتدريب فى مختلف المجالات ، وما أتيح لها الآن من فرص تؤهلها للدخول فى المجالات السياسية والمهنية الا أن هذا كله ليس الا مجرد خيال بالنسبة لغالبية النساء فى مجتمعنا .

خامسا ـ ربات البيوت ودورهن فى الوقت الحاضر :

لا شك أن كل فرد فى المجتمع يدرك من ربة البيت ، ويعرف ماهية هذا المدلول ، ولكننا نريد توضيح ماهية هذا المدلول فى المجتمع الحديث .

ان ربة البيت الحديثة تتمتع بشخصية متميزة ، وهذا التمييز انما يأتى من تعدد مجالات أنشطتها ، وكثرة الادوار التى تنهض بها .

فهي تقوم بدورها الانثوى كربة للبيت، وزوجة وأم ، وهي فى نفس الوقت تقوم بدورها كعاملة تمارس مهنة معينة فى اطار المجتمع الذى تعيش فيه ، ولذا كان لها كل خصائص الادوار الاخرى للعمل الا خاصية واحدة تتمثل فى عدم حصولها على أجر نقدى نظير ما تقوم به من أعمال منزلية .

وفى ضوء ذلك اختلفت الآراء فى تحديد وضع المراة . يرى البعض أن الاهتمام بالشئون المنزلية ورعاية الاسرة ليس الا نوعا من العبودية والاستغلال للمراة .

بينما يرى آخرون ان دور ربة البيت ليس الا اختيارا حرا لمهنة تعتبر مجالا للابداع الفردى والمهارة الخلاقة .

وهناك فريق آخر يرى أن ربة البيت انسانة مظلومة ، فى حين يرى غيرهم ان ربة البيت انسانة حرة لا تخضع لروتين العمل والقيود التى تفرضها نظم العمل الصناعى .

وهكذا ندرك ماكان من اختلاف فى الرأى حول وضع ربة البيت ومدى استجابتها للعمل المنزلى .

ويجدر فى هذا المجال أن نعرض لرأى ربة البيت ذاتها لنتعرف على نظرتها لذلك العمل ومدى تقويمها لوضعها وتصورها للمسئوليات التى تنهض بها ، وذلك من خلال الدراسة الميدانية التى تصل بنا الى الرأى الأصوب .

ومن واقع بعض المقابلات التى قامت بها المؤلفة ، ومن خلال الحالات التى درستها يتبين :

ان ربة البيت نفسها ترى أن أعظم شيء فى العمل المنزلى هو عدم خضوعه لقيود العمل ومواعيده . فالعمل المنزلى يتيح لها حرية الحركة ، ولا يلزمها بالتقيد بمواعيد معينة .

كما تؤكد تلك الدراسة مدى ارتباط العمل المنزلى بالمرأة دون الرجل ، وعدم رغبة المرأة فى مشاركة الرجل لها فى الاعمال المنزلية .

وهذا انما يعمق الاعتقاد السائد عن وجود اختلافات طبيعية بين الجنسين ، ويؤدى بدوره الى التاكيد على ان لكل من الجنسين دورا فى المجتمع يختلف عن دور الآخر ، فالذكر له دوره الذى يختلف عنه دور الأنثى . هذا الى جانب العوامل البنائية الاجتماعية التى تشكل ضغطا كبيرا على المرأة لتتدرج سيكولوجيا مع العمل المنزلى .

فالقيام بدور ربة البيت لا شك يتطلب نوعا من التدريب الذى يجب أن تهيأ له الأنثى فى فترة مبكرة من حياتها وتلك التهيئة وهذا الاعداد يعتبر جزءا من تنشئتها الاجتماعية .

ومما يؤكد أهمية هذا التدريب ، بل وأهمية ممارسته فى فترة مبكرة واعتباره جزءا من التنشئة الاجتماعية ما يلاحظ على ربات البيوت من قضاء وقت طويل فى العمل المنزلى لا يختلفن فى ذلك عن أمهاتهن ، على الرغم من توفر الادوات التكنولوجية الحديثة التى تسهم فى انجاز العمل المنزلى بصورة أسرع ، والتى تسهم كذلك فى الاقلال من الجهد الذى يبذل فيه .

ولا شك أن طريقة أداء العمل المنزلى والمستوى الذى يتم انجازه عليه تختلف باختلاف من ينهض به ، ولكن أسلوب العمل ينتقل أساسا من الأم الى الابنة ، وهذا كله يتحدد من خلال التنشئة الاجتماعية لربة البيت .

وللعمل المنزلى اتجاهان مختلفان :

الاول : ان تأدية ربة البيت للعمل المنزلى يمثل جزءا من تصورها لذاتها .

الثانى : يفصل دور ربة البيت عن دور الأم ودور الزوجة .

والاتجاه الاول يمثل الاتجاه التقليدى الذى يسود بين ربات بيوت الطبقة العاملة ، ويرجع ذلك الى طول فترة التعلم وسن ترك المدرسة .

والعمل المنزلى يعتبر موضوعا شخصيا لغالبية النساء ، والرضا بقبوله أو عدم الرضا قد يكون بصورة غير مباشرة .

والمقابلات التى تمت لمجموعة من ربات البيوت . لموضوع البحث الذى قامت المؤلفة باجرائه تشير الى رضا غالبية ربات البيوت عن عملهن ، بل انها تشير الى أكثر من ذلك ، فهن يعطين العمل المنزلى أولوية على الاعمال الأخرى التى يقمن بها .

وكان تركيز المؤلفة على حالات أربع ، درستها دراسة مركزة ، تناولت فيها : الحياة الزوجية ، المسكن ، الأثاث ، التعليم ، المساواة ، الزواج المبكر ، العمل بالاجر قبل وبعده والوظائف ذات المهارة المنخفضة . وتطرقت فيها الى اثر البيئة الاجتماعية فى تكوين الاتجاهات نحو العمل المنزلى ورعاية الطفل .

وقد اسفرت نتائج تلك الدراسة التاريخية عن أن العمل المنزلى يؤكد ذاتية ربة البيت ، كما أوضحت مدى الاهتمام الذى حظى به العمل المنزلى ، فكثير من ربات البيوت قد أقدمن على ترك الاعمال التى عملن بها قبل الزواج ، وخاصة بعد انجاب الاطفال ، كما اثبتت تلك الدراسة أن غالبية ربات البيوت يؤدين العمل المنزلى كما كانت تؤديه أمهاتهن .

سادسا ـ مكانة المراة :

ان تحديد مكانة المراة ، وقصر دور ربة البيت عليها وتخصيص هـذا الدور بها الى الحد الذى أصبح معه احدى الميزات التى تختص بها المراة دون الرجل ـ لم يكن النسق الصناعى وحده هو الذى أدى اليه ، بل ان هناك قوى أخرى قد تدخلت فى ذلك .

ومن هذه القوى مجموعة الاساطير التى تتحـدث عن وضـع المـراة فى المجتمـع ، والايديولوجية التى تتعلق بدور الجنسين وخاصة دور الأنثى ، وقصر اهتمامها عـلى الشئون المنزلية .

وقد ظهرت اسطورتان تحددان مكانة المراة سنعرض للحديث عنهما لنتبين ما كان لهما من أثر فى تحديد تلك المكانة .

والاسطورة الاولى اذ تحدد مكانة المراة تعالج ذلك فى ضوء تقسيم العمل على أساس الجنس . اما الثانية فهي تحدد هذه المكانة على أساس الأمومة .

وتقوم الأسطورة الاولى أساسـا على قصر دور المراة على الاهتمام بالشئون المنزلية والعائلية باعتبار انه الدور الطبيعى فى كل المجتمعات وعلى المراة أن توضح هذا الدور للمجتمع الذى تعيش فيه .

وفى ضوء تقسيم العمل حاول بعـض العلماء مناقشة طبيعة دور المراة . ومنهـم علماء الانثرولولجيا ، والسيكولوجى .

وعلوم الانثروبولجيا ، والأثيولوجيا ، والسيكولوجى تعتبر من المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس ، والتى تحدد مكانة المـراة على هذا الاساس . ولما كان علم الأثيولوجيـا يهتـم بالدراسة البيولوجية للسلوك الاجتماعى (١) فقد حاول الأثيولوجيون من العلماء تفسـير اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس . فارتباط دور ربة البيت فى نظرهم بالمراة دون الرجل له جذور بيولوجية ، بل انهم يربطون كذلك تقسيم العمل فى المجتمعات الصنـاعية بين الذكر والأنثى بتقسيم العمل فى المجتمعات التقليدية فى الماضى والحاضر .

واذا كانت نظرة الاثيولوجى ترجع الى الطبيعة وتقـوم على الافتراض فان نظـرة الانثروبولوجى قد جاءت على عكس ذلك ، فهي تعتمد على معلومات معينـة مسـتمدة من دراسات للمجتمعات التقليدية وكان (ميردوك) واحـدا مـن الانثروبولوجيين الذيـن أقاموا الدليل على ذلك .

فالرجل يتمتع بقوة جسمية يتميز بهـا عن المراة ، وهذه القوة تمكنه من القيام بأكثر الأعمال مشـقة ، فى حـين تحتـم الطبيعة الفسيولوجية للمراة قيامهـا بالأعمـال التى تتطلب جهدا اقل كجمع الطعام واعداده ، وصناعة الملابس والنسيج .

وقد لوحظ أزدياد التخصص والتعاون بين الجنسين فى كل المجتمعات الانسانية على هذا الأساس البيولوجى .

واكتسب الرجل فى ضـوء ذلك بعض الميزات ، فالمراة عليها أن تقوم برعايته ، فهي توفر له الطعام ، وتهيىء الظروف المنـزلية المناسبة لراحته ، الى جانب ما تبذله من حب وحنان وعطف لتحقيق الرعاية العاطفية . ان الرجل لم يكتسب هذه الصفات فحسب ، انه اعتبرها حقا مكتسبا دائما ، وعلى المـراة أن تنهض به وقد منح هذا الحق استنادا

(١) الاثيولوجيا : علم يدرس العلاقة بين الانسان والبيئة بمعنى آخر للعلاقة بين البيئة والشخصية . وهذا العلم يدرس الخصائص الثقافية التى تميز جماعة عن جماعة اخرى فكل مجتمع له شخصية اجتماعية مميزة .

الى الأساس الذى يرتكز عليه فى تقسيم العمل الا وهو الجنس .

والملاحظ أن الأثيولوجيا لم تختلف عن الانتروبولوجيا فى مناقشتها لموضوع دور ربة البيت ، وقصر هذا الدور على المراة ، واختصاصها دون الرجل بالنهوض به ، بل ان كلاهما يعتبر ذلك نمطا سائدا فى البناء الاجتماعى لكل المجتمعات الانسانية .

وهذا الراى يواجه معارضة ، اذ ان تقسيم العمل لا يتم على أساس الجنس فقط، وانما تمثل الاعتبارات الثقافية أساسا آخر فى هذا التقسيم ، فالدور الفسيولوجى الذى تنهض به المراة ،والذى يتمثل فى الحمل والولادة والرضاعة وتربية الاطفال ،ليس وحده الذى يحدد التقسيم بين الجنسين فى المجتمع ، بل ان للقيم والمعتقدات السائدة عن الذكورة والأنوثة دورا آخر فى هذا التقسيم .

لقد ارتبط دور المراة فى معظم الثقافات بل وفى كل انحاء العالم بالدور الانتاجى وخاصة فى فترة ما قبل التصنيع .

وارتباطها بهذا الدور الانتاجى كان يبعدها الى حد كبير عن العمل المنزلى ويستنفذ حيويتها ، ولكنه مع ذلك لم يتعارض مع دورها الذى تنهض به فى رعاية الاطفال .

وكان يساعدها على اداء هذا الدور والد زوجها أو جماعة الاقارب ، كما ان اكبر الأطفال سنا يشارك فى المساعدة أيضا .

والمراة لم يقتصر دورها على العمل الانتاجى وحده بل كان لها دور فى الحروب فقد شاركت فيها قديما وحديثا ، فهذه الملايين من النساء شاركت فى مختلف الاعمال فى الحرب العالمية الثانية ، ونهضت بالعمل فى الاعمال العسكرية بمختلف أنواعها ، وقامت بالمشاركة فى أعمال البناء والزراعة وان ذلك ليدل على أن المراة نهضت بأعمال كثيرة خاصة بالذكور فى كثير من المجتمعات .

وكل ذلك انما يهدم اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس من اساسها ،حيث قامت المراة فى مختلف المجتمعات بالاعمال التى تتطلب جهدا كبيرا .

ففى مجال الزراعة ، قامت المراة البريطانية بالعمل الذى تطلب جهدا كبيرا فى هذا المجال . هذا فى القرن الماضى ، ولاتزال تمارس مثل هذه الاعمال فى انحاء العالم خاصة فى افريقيا ، فها هي تعمل بالزراعة بل وتعتبرها عملا نسائيا .

وتشير كثير من الدراسات الانثروبولوجية الى قيام المراة بأعمال شاقة مثل أعمال البناء والتشييد والنقل ، كما تشير الى أنها عملت فى بعض المجتمعات بالتجارة ، وتحملت فى سبيل ذلك الكثير من المشاق .

ومع اختلاف الثقافات فى نظرتها تجاه الاعمال التى يقوم بها كل من الجنسين فان هناك اتفاقا على أن رعاية الطفل تعتبر عملا طبيعيا بالنسبة لكل النساء وخاصة فى المجتمعات الصغيرة حيث تحمل المراة الطفل أكثر الاوقات ، كما تقوم بأعمال أخرى تبذل فيها جهدا كبيرا .

ان اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس والتى تمثل الحقيقة الواقعة بالفعل، قد سادت الثقافات الغربية الحديثة ، وقد ادت تلك الاسطورة الى التعميم بأن عمل كل من الرجل والمراة يمثل نمطا واحدا فى كل الثقافات ، بل انها تؤكد كذلك انهذا التعميم قائم على أساس بيولوجى ، مع وجود كثير من الأمثلة التى تكشف عن خطأ هذا التعميم .

كما أن القول بأن دور ربة البيت ليس قائما فى كل مجتمع ، وان وجوده يتوقف على نوع معين من المجتمعات قول غير صحيح ، حيث أن تعدد الثقافات لا يرجع الى القوى البيولوجية وحدها وانما يرجع الى قدرة الانسان على الخلق والابداع .

بقي أن نتحدث عن المصدر السيكولوجي الذى يعد أحد المصادر العلميـة التى قامت عليها أسطورة تقسيم العـمل على أسـاس الجنس . فالسيكولوجيون يؤكدون على الدور التقليدى للجنسين ويعتبرون ذلك أسـاسا لاستمرار النظام الاجتماعى وبقائه .

فالمصدر السيكولوجي اذن يعتمد على الاتجـاه الوظيـفى بتـركيزه على أهميـة الادوار التقليدية للجنسين .

فالمصـدر السـيكولوجى كالمصدر الانثربولوجى والاثيولوجي للاسـطورة يؤكد الافتراض القائل بأن وضع المراة فى المجتمـع يتحدد بالضرورة بيولوجيـا وعلى أساسـه يتحدد مكان المراة فى بيولوجيا العائلة انطلاقا من ضرورة وجود من يقوم برعاية الاطفـال فى الاسرة . والام هي التى تنهض بهذا الدور، ودورها هنا دور إجتماعى حيث انها تنهـض بهذه الرعاية من الحمل والولادة ، وهي تهتم كذلك بشئون المنزل بل ورعاية الزوج نفسه فى الوقت الذى يكون فيه الرجل حرا منطلقا فى كثير من المجالات بينما تكون المراة مقيـدة بالارتباط بالمنزل .

وذلك كله يتطلب تبريرا آخـر غـير التبرير البيولوجى ، والتحليل السيكولوجي لبناء العائلة يشير الى تاكيد القيم التقليدية لدور الجنسين ، ويفرق بين الدور المساعد أو المساند والدور التعبيرى ، ويعتبر دور المراة دورا تعبيريا ، وأساس ذلك الاعتبـار ما تقوم به المراة تجاه العائلة من تقديم الحب والحنان والاستقرار لها ككل ، وما تقـوم به من تدعيم للعلاقات بين افرادها . اما الدور المساند فان والد الزوج هو الذى يختص به.

ان السيكولوجى يؤكد أن دور الجنسين اساس لبقاء المجتمع فى صورته الحالية ، فدور المراة ــ كعاملة دون أجـر ومربية وراعيـة للاطفال وقائمة على خدمة الرجـل توفر له حاجـاته الاسرية والعـاطفية ــ استـثمار اقتصادي .

ان استمرار النسق الاجتماعى فى الوجود، واستمرار العائلة كذلك أمر حتمى ، واستمرار هذا النسق يقتضى تقسيما للعمل يقوم على اساس الجنس كما يقتضى تمييزا للادوار فى العائلة ، وهذا يحتم أن تكون المراة ربة البيت، ولما كان دور ربة البيت دورا عائليـا فان اسطورة تقسيم العمل على اسـاس الجنس تحمى النظام الاسرى وتؤكد شرعيته .

ومن ذلك نرى أن اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس هي أساس اسطورة العائلة لكل مصدر من المصادر العلمية السيكولوجى والانثروبولوجى ، والاثيولوجى .

هذا ما يتعلق بالاسطورة الاولى التى تحدد مكانة المراة على ضوء تقسيم العمل على اساس الجنس .

أما بالنسبة للاسطورة الثانية فانهـا تحدد تلك المكانة على أساس الأمومة .

والامومة هي دور ثابت فى كل زمـان ومكان ، لا يطرأ عليه تغيير أو تبديل فى حين يتغير دور ربة البيت ، بل ويتغير كذلك دور الزوجة .

وهذا الثبات الذى يتميز به دور الامومة تؤكده حاجات أساسية ثلاث :

الاولى : ان الاطفال دوما فى حاجة الى أمهاتهم .

الثانية : وان الامهات ايضا فى حاجة الى اطفالهن .

الثالثة : ان الامومة هي العمل الاكبـر الذي تقوم عليه حياة المراة .

وهذه الحاجات الثلاث ، يكمل بعضها البعض ، وهي حقائق معروفة فى كل الثقافات وتحليل اسطورة الامومة يؤكد ذلك .

وهذه الحقائق تتضح فى عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تركز التنشئة الاجتماعيـة

الاهتمام في المرحلة الاولى على اعداد الانثى لدور الامومة كدور لكل الاناث . وان ابتعدت بعض النساء في الوقت الحاضر عن هذا الدور نتيجة لما طرأ على المناشط الانثوية من تغيرات . فالمرأة تعهد الى غيرها مسئولية تربية الاطفال لكي تتفرغ للاعمال الاخرى ، ومع ذلك يصعب على المرأة ان تهتم بعدم حبها للاطفال أو بعدم رغبتها في رعايتهم .

ان الكثير من نتائج بحوث علم النفس تؤكد حاجة الاطفال الى امهاتهم . ويمكن تقويم الامومة على اساس ما يمنح من العطف والحنان حيث يمكن للطفل ان يحصل عليهما ممن يقوم برعايته ، فالامر يتعدى ذلك بالنسبة لرابطة الامومة التى تمثل ارتباطا روحيا بين الطفل والأم . وهذا الارتباط الروحى بين الطفل والأم يؤكد ان اى رعاية يتلقاها الطفل من اى انسان آخر خلاف امه لا تساوى مطلقا رعاية الأم . ولذا يتحتم على الأم ان تكون بجوار الطفل خاصة فى مرحلة الطفولة .

ولا تختلف الامهات العاملات عن غيرهن من النساء فى كل العصور والثقافات ، فهن يشاركن فى مناشط الحياة الاقتصادية الانتاجية فى المجتمع ، ويقمن فى نفس الوقت برعاية الاطفال ، وانما يكون الاختلاف في نوعية الرعاية التى يحصل عليها الطفل ، واتجاهات الأم نحو العمل ، حيث ان تلك الاتجاهات هي التى تحدد نوع الرعاية التى يتلقاها الطفل وليس العمل ذاته هو الذى يحددها .

ولذا يكون الاعتقاد السائد بأن عمل المرأة يتعارض مع وجود الاطفال اعتقادا لايزال غير صحيح . وما زال النقاش حول دور المرأة العاملة ومشاكلها قائما ، ولم ينته بعد ، وليس معنى ذلك انعدام المشاكل بالنسبة للأم غير العاملة ، فان لها مشاكلها التى تصرفها عن رعاية الاطفال ، واعباؤها المنزلية قد تحول بينها وبين امكانية توفير الاحتياجات المطلوبة لهم ، فخروج المرأة للعمل الذى يتحقق من ورائه الكسب المادى ليس وحده الذى يخلق المشاكل التى تعوق المرأة عن رعاية الاطفال وتوفير حاجاتهم . والحاجات العاطفية لايمكن لأحد غير الأم اشباعها سواء كانت تعمل خارج المنزل أم يقتصر ذلك على الاعمال المنزلية أو أى أعمال أخرى تشغل المرأة .

وحيث أن الأم ترتبط ارتباطا وثيقا بالطفل ، خاصة فى مرحلة الطفولة الاولى ، فعليها ان تصلح اخطاءها وتعدل سلوكها ليكون سلوكا مثاليا لما لذلك من تأثير فى حياة الطفل. فالاخطاء التى قد تقع فيها الأم تتغلغل فى حياة الطفل ، وعلى الرغم من ازدياد مشاكل الأمومة فى المجتمع الحديث الا انه يمكن التغلب عليها وحلها .

ومما سبق يتضح أن كلا الاسطورتين ، اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس واسطورة الأمومة ، يمثلان عاملا من العوامل الاساسية التى تؤكد ربط المرأة بالعمل المنزلى ، بل يشير مضمونها أيضا الى ظلم المرأة واضطهادها .

اوردت المؤلفة فى ختام كتابها فصلا يعرض لكيفية تحرر المرأة من الاعمال المنزلية التى تستفرق الكثير من وقتها ، والتى تكلفها جهدا كبيرا ، بل وتستنفد المزيد من طاقتها .

واساس اهتمام المؤلفة بهذا الأمر ماتراه من أن تحرر الأمة كلها رهن بتحرر المرأة ، وهي تعرض لذلك طرائق ثلاثا وضعها لينين ورآها سبيلا لتحرير المرأة من هذا العبء الذى يثقل كاهلها .

الطريقة الاولى : تتمثل فى الغاء دور ربة البيت .

الطريقة الثانية : تتمثل فى الغاء العائلة

اما الثالثة : فهي تتمثل في الغاء تقسيم العمل على أساس الجنس .

وفيما يخص الطريقة الاولى التى تستشهد بها المؤلفة اعتبارها واحدة من

الطرائق المؤدية الى تحرير المراة ، والتى تتمثل فى الغاء دور ربة البيت ، فانها تعنى التركيز على نوع العمل الذى تقوم به المراة .

ان متطلبات هذه الوظيفة تفرض على كل النساء بلا استثناء ، وعليه فهي لا تتطلب استعدادا خاصا للنهوض بها .

كما ان هذا العمل لا تكتنفه حوافز أو دوافع تشعر المراة مع وجودها بالرغبة فى الابداع أو حتى محاولة التقدم فى هذا العمل، وهي كذلك لا تشعر بمتعة ما فى تأديته ، ولا يمكنها ان تحقق ذاتها من خلاله .

وقد تكون المسئولية الملقاة على عاتق ربة البيت حافزا من حوافز هذا العمل ،ولكن العزلة التى تفرض عليها للنهوض بهذه المسئولية تحول دون تحقيق الرضا لها او التقدير ممن حولها .

وعلى الرغم من بذل الكثير من المحاولات لتحسين العمل المنزلى وتعديل الظروف المحيطة به لتسهيل مهمة ربة البيت ولتمكينها من الممارسة الخلاقة المبدعة المحققة لذاتها الا ان ذلك كله لا يؤدى الى تحررها .

ان محاولة الغاء دور ربة البيت امر يحتاج الى مناقشة تنتهي برفضه أو قبوله .

فهناك بعض الآراء التى تتفق على ان تهيئة الظروف المناسبة للنهوض بهذا العمل وتقدير أجر معين يمنح نظيره قد يؤدى الى اقبال المراة عليه ، بل قد يدفعها الى التقدم فيه . واصحاب هذه الآراء يرون ذلك اولى الخطوات لتحسين وضع المراة الاجتماعى .

وهناك آراء اخرى ترى ان الظروف كلها مهيأة لاسعاد المراة فى حدود الامكان وتتصدى للآراء السابقة التى ترى تقرير اجر يمنح لربة البيت ، وانما تعارض تلك الآراء نظرا لأنها سوف تضيف ظلما جديدا للمراة ، فالأجور حينئذ تكون بمثابة منحة وليست اجرا ، فالاجر يقدم فى هذه الحالة نظير قيام ربة البيت بتربية اطفالها ، وهذا لا يستقيم وما تقوم به الدولة من انواع الرعاية للطفولة والامومة ، وما يمنح من العلاوات الاجتماعية عند انجاب الاطفال . فهي وان قلت قيمتها النقدية تظل قيمتها الاجتماعية كبيرة وخاصة بالنسبة للأم .

ان سعادة المراة بالعمل المنزلى امر يحوطه الشك ، اذ أن التزامها بهذا العمل يفرض عليها أن تكون فى وضع التابع فى المجتمع ،والمجتمع كذلك ينكر اهمية العمل المنزلى لعمل منتج ، وكل ذلك يقف حائلا دون اى مطالب تهدف المراة من ورائها الى تحسين ظروف حياتها وتوفير اسباب الرضا لها .

وعلى الرغم من ذلك تشير كثير من نتائج البحوث الى ان المراة اكثر رضا من الرجل ، وهي كذلك اكثر قلقا ، وخاصة أولئك النساء اللاتى يعملن طول الوقت كربات بيوت .

ان أهمية العمل بالنسبة للرجل تفوق اهميته بالنسبة للمراة ، فالدور الأهم بالنسبة للمراة هو دور الزوجة والأم ،والاكثر من ذلك أهمية قبول المراة للوظائف التى تمثل قيمة بالنسبة للرجل .

وعلى ذلك فان المراة عليها أن ترفض الراى الذى يربطها بالعمل المنزلى وحده وهو الذى يرى ان المراة تعنى ربة البيت .

ولا شك أن الدعوة الى الغاء هذا الدور — دور ربة البيت — يتضمن الدعوة الى الغاء الاسرة ، فالاسرة رمز للعمل المنزلى ولاوجود لهذا العمل الا بوجودها .

اما فيما يختص بالطريقة التى تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المراة فهي تتمثل فى الغاء العائلة أو الاسرة ، واساس ذلك أن الاعمال المنزلية تمثل نوعا من الاستعباد

للمرأة ، كما أن هذه الاعمال لا تعدو أن تكون مجالا تعليميا تجريديا لا تستفيد منه المرأة.

وتعتبر الاسرة رمزا للعمل المنزلى ، حيث ترتكز هذه الاعمال اساسا علىوجودها والنهوض بهذه الاعمال لا يخرج عن كونه عملية تعليمية الزامية بالنسبة للمرأة ، فالمرأة تغرس فى بناتها هذا الدور الثابت منذ الصغر ويتم ذلك من خلال توحد الام بابنتها على عكس علاقة الاب بالابن .

وهذه العلاقة تنشأ قبل ميلاد الطفل ، فالطفل جزء من امه وتظل الانثى بعد الميلاد جزءا من الام .

وارتباط الطفل بالأم على هذا النحو يؤدى الى اكتسابه كل مايريد ان يتعلمه من الام ، والاسرة ممثلة فى ربة البيت تمثل موقفا تجريبيا يمكن للاطفال عن طريقه ممارسة الحب وتكرار السلوك الذى قد لا يكون منطقيا ، فالأم فى نظر الطفل هيالحاضر وهى المثل الاعلى للحب ، والهدية التىتقدمها الاسرة للمرأة تتمثل فى تهيئتها وتدريبها على النهوض بدور ربة البيت ، ولذا فان القول بالغاء دور ربة البيت يعنى بالضرورة الغاء الاسرة ، حيث أن ربة البيت هي الزوجة وهي الأم ، ومهما حدث من تغيرات فى العلاقة بين الرجل والمرأة على مر السنين فلن يغير ذلك من دور المرأة التقليدى الذى يتمثل فى القيام بالعمل المنزلى .

وقد اوضحت نتائج البحوث انالزوجة العاملة تقصر فى دورها كربة بيت ، وان اى مكاسب تحصل عليها تكون على حساب هذا الدور .

وان ايديولوجية المجتمع هى التى تحدد دور الزوجين وبناء العائلة وهى غير قابلة للتعديل . وعلى ذلك يكون استبعاد الاسرة او الغاؤها قولا لا فعلا ، وتصوروا لا حقيقة .

والطريقة الثالثة التى تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة تتمثل فى الغاء تقسيم العمل على أساس الجنس . الحقيقة ان كثيرا من الثقافات يؤكد شيوع هذا الذى تدعو الحاجة الى الغائه .

وان الدعوة الى الغاء دور ربة البيت يؤدى ضمنا الى الغاء الاسرة ، ولكن ذلك ليس كافيا ، بل لا بد من التنبيه الى ضرورة الغاء التمييز بين الجنسين .

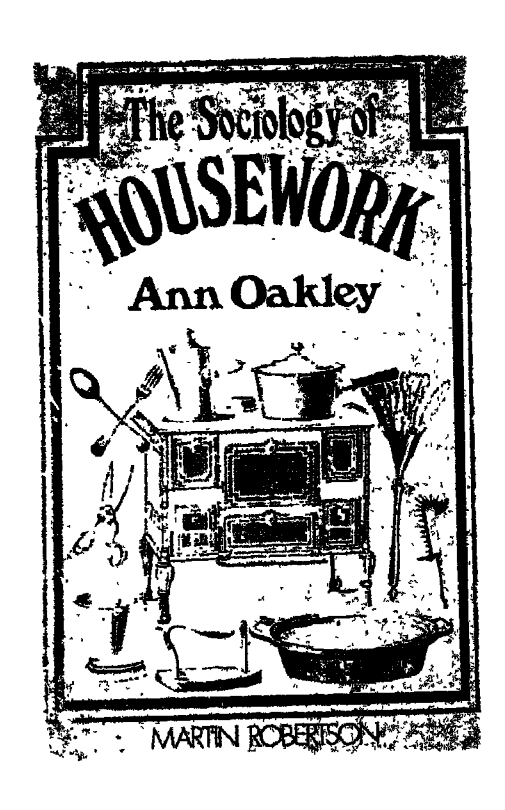
وهذه الطرائق الثلاث التى استشهدت بها باعتبارها السبيل لتحرير المرأة قد واجهت الكبير من المعارضة ، فالغاء دور ربة البيت والاسرة وتقسيم العمل على أساس الجنس كلها آراء لا يمكن ترجمتها الى واقع فعلى ، وتحقيقها رهن بتحديد وضع المرأة الاقتصادى والسياسى والقانونى فى المجتمع، هو أمر لم يتحقق بعد ، وتحقيقه يقتضى أن يغير الناس انفسهم أولا .

ولذا فالمرأة يمكنها أن تتحرر من العمل المنزلى عن طريق :

١ ـ رفض اى محاولة لربطها بالعمل المنزلى وتكرار تسميتها بربة البيت .

٢ ـ محاولة الحصول على كل ما تشاء من امتيازات لقيامها بتربية الاطفال . وعليها الا تعمد الى تعليم بناتها كيفية القيام بدور ربة البيت ، وتقلع عن غرس ذلك فىنفوسهن منذ الصغر ، وفى الوقت ذاته يجب أن تربط الابناء بالعمل المنزلى دون أن تخص الاناث بهذا العمل وتقصره عليهن .

٣ ـ محاولة التصرف فى العمل المنزلى وابتكار الاساليب التى تمكنها من انجاز هذا العمل فى اقصر وقت ممكن ، وعلى المرأة فوق ذلك ان تغير نفسها استعدادا لكسب معركة تحريرها .



سوسيولوجيا العمل المنزلي

ا . آن أوكلى *

عرض وتحليل الدكتورة سامية حسن الساعاتي

تأتى اهمية هذا الكتاب من انــه يفرض قراءته على كل مهتم بقضايا تحرير المراة ، فهو دراسةتتحدىالنظرة التقليديةالى العملالمنزلى التي تحاول دائما التقليل من شأنه ، كما أنها تتحدى اهمال السوسيولوجيين ، وبخاصــة المتخصصين فى علــم الاجتماع الأسرى وعلــم اجتماع العمل ، للعمل المنزلى ، كموضوععلمى جاد .

فقد داب الباحثــون فى علـم الاجتماع الأسرى على دراسة المراة اما من خلال دورها الاسرى كزوجةوأم ، او من خلالدورها كعاملة خارج المنزل ، لكن دورها كعاملة داخل المنزل بدون أجر لم يحظ بدراسة جادة أو منظمة .

ويتناول هذا الكتاب قضيـة هامة وهي موقف علم الاجتماع التقليدى من المراة . كما يعرض بين دفتيه موضوعات جديرة بالاهتمام مثل : نظرة النسـاء للعمل المنزلى ، ونظرتهن لانفسهن كربات بيوت ، ومشاعرهنالمختلفةنحو العمل المنزلى ، واتجاهاتهن نحو الاعمالالمنزلية المختلفة من طهى وتنظيف .. الخ . ومدةالعمل المنزلىالذى تقوم بهالمراة محسوبا بالاسبوع . ومدى أهمية المعايير والروتين كطريقة للتأكد مــن ان العمل المنزلى يتم علــى وجه أكمــل ، وكأسلوب على مكافاة الذات .

وقد حاولت الباحثة فى هذا الكتابوضع تقييم يكشف عما اذا كانت النساء راضياتأو

* Ann Oakley, The Sociology of House Work, Martin Robertson, 1974

غير راضيات عن العمل المنزلي، ومدى الاختلاف فى درجات الرضا بينهن . كما يتناول الكتاب أيضا الطبقة الاجتماعية ، وصلتها بالعمل المنزلى والرضا عنه، كما تناقش الباحثة تأثير التنشئة الاجتماعية على الحياة المنزلية للمرأة ، وتحلل تقسيم العمل بين ربة البيت وزوجها فى المنزل ، وتتفحص صعوبات الجمع بين العمل المنزلى ، وواجبات الأمومة .

وعماد هذا الكتاب دراسة قامت بها الباحثة فى سنة ١٩٧١ على أربعين زوجة من ربات البيوت الانجليزيات الحضريات .

والباحثة توجه كتابها الى فئتين مختلفتين من القراء ، الأولى تتألف من المتخصصين فى علم الاجتماع والثانية تتضمن هؤلاء الذين يهتمون بموقف ربة البيت اهتماما خاصا دون ان تكون لديهم معرفة بعلم الاجتماع ، لذلك فقد جاء الكتاب فى جملته جليا واضحا .

وعلى الرغم من أن العينة التي يثنى عليها هذا الكتاب، كانت عينة انجليزية ، فان وضع الزوجة ربة المنزل فيها ، ينطبق فى أساسياته على الزوجات فى مجتمعات صناعية معاصرة أخرى .

فصول الكتاب :

يحتوى هذا الكتاب على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة . وتكرس الباحثة **الفصل الاول** وهو فى رأينا أهم الفصول على الاطلاق ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، لقضية هامة ، وهى قضية التحيز الذكرى فى علم الاجتماع . ولايتأتى تقييمنا لهذا الفصل على أنه أهم فصول الكتاب من أهمية موضوعه فقط ، بل لان هذا الموضوع هو الفكرة الاساسية التي تتكرر فى كل فصول الكتاب ، بل وفى كتب المؤلفة الاخرى ولعل ذلك انعكاسا لاصداء موضوع التحيز ضد المرأة لا فى علم الاجتماع بخاصة ، بل وفى العلوم الاجتماعية بعامة ذلك الموضوع الذى أصبح يشغل عديدا من الباحثين المتخصصين .

وفى هذا الفصل تعرض المؤلفة لوضع المرأة فى المجتمع اليوم ، ذلك الوضع الذى تصفه بانه معوق ومنتقص من قدره . فعلى الرغم من كثرة التغيرات القانونية والتشريعية فى صالحها ، ومن صغر حجم الاسرة ، ومن فرص التعليم والعمل التى زادت وتحسنت وانفتحت امام النساء ، خلال القرن الاخير ، الا انه ما زال هناك تفاوت ملحوظ بين الادوار الاجتماعية والاقتصادية للرجال والنساء ، وقد شكل انبعاث نظرية المساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ،فى شكل حركة تحرير المراة ، هجوما عنيفا على هذه الفروق والتفاوتات .

ويبدو أن الموقف الذى نشهده الآن ليس نتاج الدعامات البيولوجية لادوار الجنسين وحدها ، ولا هو حصيلة التفاوت الذى تفرضه وتصر عليه نظم المجتمع ومؤسساته المختلفة فقط ، وانما يرجع التمييز والتفرقة بين الرجال والنساء الى الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية السائدة فى المجتمع .

ان حقيقة وضع المراة كما ترى المؤلفة يكمن فى أنه يتشكل يوميا من هذه الاتجاهات .. أن النساء يصبحن على الوجه الذى هن عليه ، تبعا للطريقة التي يتوقع منهن أن يكن عليها ، أو التي يفكر الناس فيهن على اساسها .

وتأسيسا على ما تقدم فاننا لا نجد أن التمييز والتفرقة ضد النساء موجودان فى المجتمع الكبير فحسب ، بل ان هذا التمييز وتلك التفرقة ينسحبان أيضا على الميدان الاكاديمي ويتضح ذلك بجلاء فى علم الاجتماع ، العلم الذى يدرس الواقع الاجتماعى ، وحيث نجد فيه تحيزا واضحا ضد المراة ، يعكس ، بل يطابق ذلك التمييز وتلك التفرقة الموجودين فى المجتمع الكبير بحيث يمكن القول ان التحيز

ضد المرأة فى علم الاجتماع انما يشكل الوجه الآخر للعملة للتمييز والتفرقة الموجهين ضدها فى المجتمع الكبير .

وتحاول المؤلفة فى هذا الفصل الهام ان تناقش موضوعين اساسيين ، وثيقى الصلة بالآخر : اولهما هو اهمال علم الاجتماع للعمل المنزلى كموضوع علمى جاد ، وثانيهما وهو الاكثر شمولا ويتركز فى التحيز ضد المرأة فى علم الاجتماع ككل .

ان علم الاجتماع علم متحيز ضد المرأة ، لانه علم موجه توجيها ذكريا (Male Oriented) وتعنى المؤلفة بذلك انه يمثل تركيزا على انشطة الذكور واهتماماتهم في مجتمع متمايز من حيث الذكورة والأنوثة . ان الوضع الاجتماعى للرجل اليوم متناقض الى حد كبير مع الوضع الاجتماعى للمرأة ، من الناحيتين البنائية ، والايديولوجية على السواء . كما نجد ان النسق القيمى السائد فى المجتمعات الصناعية الحديثة يخلع على الادوار الذكرية اهمية وقدرا اعظم مما يفعله بالنسبة للادوار الانثوية ، وبالمثل نجد ان هذا التحيز وتلك التفرقة ينعكسان على علم الاجتماع ، الذى ينحو الى تبنى قيم المجتمع الاكبر . وعلى الرغم من ان الموضوعية التى تمثل مسلمة اساسية من مسلمات المنهج السوسيولوجى ، يمكن ان تقلل كثيرا من التحيزات الظاهرة فى مجال علم الاجتماع ، الا انه يبدو انها لم تؤثر تأثيرا عميقا فى هذا التحيز المتأصل ضد الاناث فى علم الاجتماع .

ان وضع المرأة كموضوع فى علم الاجتماع يعطينا انطباعا محرفا عن الواقع الاجتماعى الحقيقى لوضعها في المجتمع ، ذلك لان علم الاجتماع لا يعطينا صورة صادقة لدور المرأة واهميتها ، وحجم تجاربها ، وذلك بهدف ان تتفق صورتها مع الصورة المحددة لها سلفا فى علم الاجتماع ، والموجهة توجيها ذكريا فى المحل الاول .

ويعد التوجيه الذكرى من وجهة نظر المؤلفة اهم المشكلات المسئولة عن اختفاء المرأة وقلة ظهورها على مسرح علم الاجتماع ، ذلك ان التركيز الذكرى المتجسد فى تحديد موضوعات علم الاجتماع انما يقلل من شأن المرأة ويفرد لها منذ البداية مكانا جانبيا ، ويجعلها دائما موضوعا ثانويا ، ولذلك فان التصنيف الحالى لموضوعات علم الاجتماع لا يعنى الكثير من وجهة نظر النساء فى وضعهن الحالى .

فاذا ما تناولنا العمل المنزلى على سبيل المثال ، وهو عمل اساسى للمرأة ، فسنجد ان اغفال هذا الموضوع من ميدانى علم الاجتماع الاسرى ، واجتماعيات العمل انما ينقل بوضوح انطباعا محرفا ومشوها عن موقف المرأة الحقيقى . فليس هناك اهتمام بمدى اهمية العمل المنزلى للمرأة ، لا من حيث مقدار الوقت الذى تنفقه في الانشطة المنزلية والعناية بالمنزل من جهة ، ولا من حيث المعنى الذاتى للعمل المنزلى بالنسبة للمرأة الذى يمكن ان يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية ، والطبقية من جهة اخرى .

ويعد ذلك تناقضا بين وجود المرأة فى علم الاجتماع ووجودها الاجتماعى الحقيقى ، كما يعد ايضا دليلا على فشل علم الاجتماع فى أخذ خبرات المرأة وواقع حياتها فى الاعتبار . ويمكن ان يوحى ذلك باعادة تصنيف موضوعات علم الاجتماع وميادينه بحيث تمثل كلا المنظورين الذكرى والانثوى على السواء .

وتمضى المؤلفة الى الفصل الثانى من الكتاب لتحلل العمل المنزلى بوجه عام ، وتصف البحث الذى قامت به بوجه خاص .
وترى انه على الرغم من ان هناك ميلا ، يتزايد فى السنين الحالية ، الى تقليل حدة الفروق النوعية بين الذكور والاناث فى عالم العمل والمهن والوظائف ، فسيظل هناك دائما دور وظيفى انثوى برمته وهو دور ربة البيت .

وعلى الرغم من انه ليس هناك قانون يمنع الرجال من القيام بهذه الوظيفة ، الا أن هناك ضغوطا اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية تقف عائقا امام الرجل ، وتمنعه من الدخول في رحاب هذه المهنة .

وتبدأ المؤلفة هذا الفصل بتعريف ربة البيت ، ويرتكز هذا التعريف على مفهوم المسئولية ، وعلى ذلك تكون ربة البيت هي الشخص المسئول وحده (دون الخادم المنزلي) عن معظم المهام المنزلية ، أو عن الاشراف على الخادم المنزلي الذي يقوم بهذه المهام . وقد تكون ربة البيت متزوجة كما قد لا تكون ، كما قد تكون عاملة خارج المنزل وقد لاتكون ، وقد أفصح ذلك المسح الذي قام به «هنت» (Hunt) عن ان تسعة اعشار النساء من غير العاملات خارج منازلهن كن ربات بيوت متزوجات . كما كانت سبعة أعشار العاملات خارج منازلهن من ربات البيوت . (١) وعلى هذا لايكون دور ربة البيت دورا انثويا فقط ، بل انه يعد الدور الوظيفي الرئيسي للمرأة في عصرنا الحالي ، لان مسئولية ادارة المنزل هي مسئولية مشتركة بين معظم النساء البالغات.

ذلك اذن هو التبرير الاساسي لدراسة العمل المنزلي ، فانه يمثل الخبرة اليومية المتكررة في حياة معظم النساء اللائي يكون احصائيا قسما كبيرا بين السكان .

وتنتقل الباحثة بعد ذلك الى وصف دراستها ، التي تطلق عليها المسح الاستطلاعي الكشفي ، والسبب في هذه التسمية يرجع كما تقول الباحثة الى ندرة البحوث والدراسات في هذا الموضوع الذي صادف اهمالا بالغا في علم الاجتماع .

وتبدأ بتحديد أهداف دراستها التي تجملها في ثلاثة أهداف رئيسية ، أولها يتضمن وصف موقف العمل المنزلي ، واتجاهات ربة البيت نحو ذلك العمل ، والثاني يتبلور في فحص نماذج الرضا ، وعدم الرضا عن العمل المنزلي في علاقته بعدد من المتغيرات التي تتضمن الطبقة الاجتماعية، والتربية والتعليم، وتقسيم العمل في الزواج ، والاجهزة والمعدات الفنية ، ونماذج التفاعل الاجتماعي .. الخ . اما الهدف الثالث والاخير فينحصر في اقتراح الفروض الممكنة والموجهة نحو تفسير الفروق

---

(١) تتفق هذه النتيجة مع نتائج توصلت اليها باحثات مصريات ، جاء فيها ما يلي :

« يتضح مما سبق بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بشئون المنزل بين الزوجين في الاسرة الحضرية ان الزوجة العاملة في معظم الحالات تقوم بعمل كل شيء يتعلق ببيتها بعد عودتها من عملها ، وانه ليس صحيحا ما يذهب اليه البعض من ان الام المشتغلة لا تقوم باى عمل منزلي في بيتها . وقد تبين من استعراضنا لما سبق من الاعمال المنزلية ، ومدى لسنا لاضطلاع الزوجة بالنصيب الاكبر في الغالبية العظمى من تلك الاعمال جميعا ، وهذا على الرغم من وجود الخادمة في الكثير من الاحيان » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجين في الاسرة المصرية ، دراسة ميدانية في الريف والحضر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٥٤١ .

« ويتفق هذا مع ما وجدته « فوزية دياب » عند تقصيها النشاط المنزلي لعينة تبلغ الواحد والسبعين من الامهات العاملات ومدى اسهامهن في اعمال البيت . اذ تبين لها ان اغلبية الامهات العاملات ونسبتهن ٦٤٫٨٪ من مجموعهن يقمن بكل الاعمال في البيت بعد عودتهن من العمل ، وان اقلية من هؤلاء الامهات العاملات بنسبة ١٢٫٧ ٪ من المجموع يقمن بالاشراف فقط على شئون البيت ، بينما تقوم ٢٢٫٥ ٪ من المجموع بالاشراف والاشتراك في بعض الاعمال » .

انظر : فوزية دياب ، دور الحضانة والمجتمع ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .

بين ربات البيوت فيما يختص باتجاهاتهن نحو العمل المنزلى ، وموقف العمل المنزلى ذاته ..

وقد تكونت العينة من أربعين من ربات البيوت الانجليزيات والايرلنديات اللائي تتراوح سنهن ما بين العشرين والثلاثين ، اثناء اجراء الاستبار ، وكن جميعا من الامهات ولهن طفل واحد على الاقل عمره اقل من خمس سنوات ، وقد تم اختيارهن من واقع التقارير الطبية لاثنين من الاطباء العموميين . وقد تم استبار افراد العينة فى أوائل سنة ١٩٧١ ، وكان عماد البحث استبارا مقيدا باستبيان ، وكانت تلك الاستبارات مسجلة على شرائط تظل مدة تصل الى حوالى الساعتين فى المتوسط . وعلى أساس من اجابات الاستبارات قننت الباحثة مقياسا لقياس الرضا عن العمل المنزلى بدرجاته المختلفة ، كما توصلت الى اختبار مظاهر اخرى داخل موقف العمل المنزلى ذاته ، وتشمل الرضا وعدم الرضا عن العمل المنزلى والعناية بالطفل ، والزواج ، والعمل الخارجي بأجر ، كما كان هناك تقييم لدرجة توحد المراة مع دور ربة البيت ، وأهمية تحديد معايير للعمل المنزلى وروتينيته .

وترى الباحثة أن النتائج التي حصلت عليها من بحثها انما تنطبق على مجتمع العينة فقط ، لكنها تذهب ايضا الى أنه ليس هناك من سبب يدعونا الى القول بأن هذه العينة هي عينة غير ممثلة ، وبخاصة انه ليس هناك دليل على أن تلك التسجيلات لا تعكس الواقع .

وتمضى الباحثة فى وصف دراستها ، فتقول ان نصف عدد النساء البالغ مجموعهن أربعين كن من الطبقة العاملة ، اما نساء النصف الآخر فكن من الطبقة الوسطى .

- **اما الفصل الثالث** فيعطينا فكرة واضحة عن صور العمل المنزلى وتبدؤه المؤلفة بعرض فكرتين نمطيتين سائدتين عن العمل المنزلى فى التفكير الشعبى المعاصر : الفكرة الاولى تذهب الى ان ربة البيت عاملة مظلومة ، تستعبد فى عمل محقر ، كريه ، بغيض ، يتضمن بالضرورة انكارا كبيرا للذات . أما الفكرة الثانية فترى ان العمل المنزلى يعطى فرصة غير محدودة للقيام بمجهودات خلاقة مبدعة . ولا تنظر هذه الفكرة الى العمل المنزلي على أنه عمل بل على انه صناعة منزلية يشكل فيها المنزل وزارة للمالية .

وقد ظهر من خلال فحص الاربعين استبارا ، أن هناك مفهوما واضحا للعمل المنزلى كعمل قد بدأ يبزغ . فالنساء فى عينة البحث يخبرن العمل المنزلى ، ويعرفنه على انه عمل مماثل لذلك الذى يتطلبه أى موقف عمل ، وقد ارتبطت ملاحظات هؤلاء النساء ارتباطا وثيقا بنتائج علم اجتماع العمل ، فقد كان لمظاهر العمل المنزلى التي اطلق عليها انها مشبعة أو غير مشبعة نظائر فى عالم المصنع ، والمكتب . ويتأكد هذا التطابق بوجود ميل لدى النساء لمقارنة انعكاساتهن نحو العمل المنزلى بخبرتهن فى العمل خارج منازلهن .

وقد كانت هناك اسئلة تكشف عن ايجابيات العمل المنزلى وحسناته كما يفصح عن سلبياته ، ومساوئه . وقد تبلورت ايجابيات العمل ، كما عبرت عنها الزوجات فى مظاهر كثيرة اهمها الاستقلال والذاتية ، ووجود الاطفال ، ، وتوفير ظروف العمل الحر ، وعدم الاضطرار للخروج من المنزل ، ووجود الزوج ، وتوفير الحياة العائلية ، وقد قصدت عينة الزوجات بالذاتية والاستقلال ، التحرر من الرقابة ، والقدرة على تحديد ايقاع العمل المنزلى وسرعته . وقد استخدمت حوالى نصف الزوجات المستبرات فى اجابتهن عن هذه الاسئلة عبارة « انك تكون رئيس نفسك » ليصفن شعورهن ازاء العمل المنزلى . وقد احتوت اجابات الكثير من هذه الاسئلة على

مقارنة عقدتها النساء بين العمل المنزلى والعمل الوظيفي خارج المنزل مثل :

« انك الى حد كبير تكونين سيدة نفسك. انك تستطيعين ان تحددى ما تريدين أن تفعلى وما لا تريدين ، انه شيء مختلف عن الوجود فى عمل وظيفي ، حيث يدق أحدهم الجرس ، فتضطرين الى الصعود او الهبوط لتلبية طلبه ، أو حيث تجدين نفسك مضطرة لانجاز هذا العمل أو ذاك فى غضون نصف ساعة » .

وفى اجابة أخرى نجد تعبيرا آخر عن مظاهر الاستقلال والذاتية مثل :

« ان اعظم محاسن كونك ربة بيت ، هو انك لا تضطرين الى الاستيقاظ مبكرا ، والذهاب الى العمل » .

وفى الحقيقة ان الذاتية والاستقلال فيما يتعلق بربة البيت هي امر نظرى اكثر منه واقعى متحقق ، فكونها رئيسة نفسها يفرض عليها واجبا ، هو انها لا بد ان تنجز العمل المنزلى وتتأكد من ان كل شيء فى موضعه . ومسئولية العمل المنزلى هى مسئولية من جانب واحد فقط ، والفشل فى تحملها ، قد يكون له نتائج بعيدة المدى ، وبخاصة على الزوج والاولاد .

ان حقيقة كون الانسان رئيس نفسه يضيف الى الضغوط السيكلوجية لاداء العمل المنزلى اكثر من كونه يخفف منها . وتوضح احدى الزوجات ذلك بقولها :

« ان اسوأ شيء يتعلق بالعمل المنزلى هو انك تضطرين لادائه لمجرد انك فى المنزل . وعلى الرغم من انى أملك حرية الاختيار فى الا اقوم به ، فانى اشعر انى لا استطيع ، لانه يجب أن اقوم به » .

وتصوره أخرى بقولها :

« ليس هناك احد يمسك لى سوطا اذا لم اقم بالعمل المنزلى ولكنى اعرف ، اننى اذا لم افعل ، فغدا سيكون على أن اقوم بضعف العمل ، ففى الحقيقة اننى اقوم بامساك السوط لنفسى » .

ان مسألة حرية العمل المنزلى يمكن اختزالها فى انها حرية من ، وليست حرية لفعل. انها حرية ربة المنزل من الرقابة ، لكنها ليست حرية لها لتختار ما تفعله من انشطة .

وعندما سئلت الزوجات عن مساوىء العمل المنزلى تبلورت الاجابات بالترتيب فى العمل المنزلى نفسه ، والرتابة ، والتكرار والسأم ، والمسئولية المنزلية المستمرة والعزلة والوحدة ، وضرورة الانتهاء من العمل المنزلى والتقيد الشديد بالمنزل .

وعندما طلب من الزوجات ان يقارن عملهن المنزلى ، بعمل ازواجهن ، كانت معظم الاجابات تشير الى انهن يعتقدن انهن يعملن اكثر من ازواجهن ، بينما ذهبت نسبة قليلة منهن الى أن الزوج يعمل اكثر ، او ان هذه المسألة تتحدد بنوع الشخصية من جهة ، ونوع العمل من جهة أخرى . وقد صورت احدى الزوجات ذلك بقولها :

« لا شك أن ربات البيوت يعملن اكثر . ان زوجى يعود دائما من عمله ، ليقول لى : لقد جلسنا اليوم وتحدثنا فى كيت وكيت . أو لقد كان يوما مسليا فقد ضحكنا ، وتسامرنا حول كذا من الموضوعات . اما انا فلا افعل ذلك ، انى لا أجلس لحظة » .

وكثيرا ما يوصف العمل المنزلى بأنه « عمل لا ينتهى » ، ويذهب البعض الى انه عمل اكثر ارهاقا من الناحية الجسمية ، من اى عمل آخر مأجور . وتذهب بعض السيدات الى القول بانه يأخذ جهدا عاطفيا اكثر من أى عمل آخر بالاضافة الى الجهد الفيزيقى . وتشير بعض السيدات الى طبيعة الاعمال المنزلية غير البناءة ، كما يلفتن الانظار ، الى الاحباط العاطفى الذى ينشأ عن كون احساس ربة البيت بأنها مشدودة الى طاحونة ، أو ساقية ، يتطلب منها أن تؤدى الفعل نفسه مرات ومرات .

والزوجات بوضعهن العمل المنزلى ضمن الاعمال اليدوية ، يجعلنه بذلك فى مرتبه عالية من مراتب الاعمال . وقد كان هذا الدفاع عن العمل المنزلى ضرورى من جانب الزوجات ، ازاء الاهمال السائد لهذا العمل ، وازاء النظر الى ربة البيت على انها مدبرة منزل تعمل بحريتها ، ووفق ما يحلو لها .

وعندما سئلت الزوجات عن مشاعرهن ازاء كتابتهن لوظيفتهن كربات بيوت فى أية صحيفة أو أوراق رسمية . اجابت اكثر من نصف افراد العينة بأنهن يستشعرن حرجا ، ومشاعر بالاقلية نشأت من أن العمل المنزلى عمل اقل من غيره من الاعمال ، وهن يعبرن عن ذلك بكتابتهن فى تلك الاوراق : « مجرد ربة بيت » . ان هذه الكلمة مجرد ربة بيت أو ربة بيت فقط تعنى الكثير ، انها تصور مدى شعور ربة البيت بتقليل المجتمع من شان هذا العمل مقارنا بالاعمال الاخرى ، كما ان هذا يتضمن ايضا تقليلا من شأن ادوارها كزوجة وأم . وتصور احدى افراد عينة البحث هذه المشاعر اصدق تصوير حين تقول : « انى اكره كلمة ربة بيت ، وعندما يسألوننى من أنت ؟ وماذا تعملين ؟ واجيب بانى أم ، ولى أولاد ، واننى زوجة ، فانهم يهزون رؤوسهم باستخفاف قائلين : أوه ، مجرد ربة بيت اننى أتعجب . . . مجرد ربة بيت ! أشق مهنة فى العالم . . . ينظر اليها بهذه الطريقة ؟! » .

ويتبين مما سبق ان مسألة التصنيف المهنى او الوظيفى مرتبطة ارتباطا وثيقا بصورة الذات ، لانها تعكس كيفية رؤية الزوجات لانفسهن كربات بيوت ، ولكن مهما كان مستوى توحد الزوجات الذاتي مع دور ربة البيت ، فيكفى ان الفكرة السائدة عنه فى ثقافة المجتمع هو أنه عمل تافه وضيع ، منخفض المكانة بالنسبة للاعمال الاخرى ، وهذا ما يخلع عليه اوصافا معينة مثل العمل الممل ، او العمل التافه ، وما يخلع على ربة البيت اوصافا مثل المملة ، والغبية . . . الخ من الاوصاف السلبية وتصور أحد الزوجات ذلك بقولها :

« انى اتحرج من كتابة ربة بيت على اية اوراق رسمية ، انى افضل ان اكتب سكرتيرة مثلا أو اية وظيفة أخرى ، فان لها انعكاسا أحسن ، ان معظم الزوجات ربات بيوت ، وهذا يبدو رتيبا مملا . انك لا تتوقع حينئذ الا التنظيف ، والاتربة ، والطبخ » .

تنتقل الباحثة بعد . ذلك الى نقطة اخرى جديرة بالاهتمام وهى مسألة الخلط بين الانشطة المختلفة التي يتضمنها العمل المنزلى ، ومدى الحاجة الى تحديدها ، وتصنيفها . ان العمل المنزلى فى رايها هو مجموعة من الاعمال غير المتجانسة التى تتطلب مهارات متنوعة ، وانواعا مختلفة من النشاط ، فمسح الارضية يختلف عن الذهاب لشراء بعض اللحوم

والفاكهة ، وطهي وجبة يختلف عن غسل الملابس ... الخ . واطلاقنا الاسم نفسه على كل هذه الاعمال امر يتضمن انكارنا لوجود اختلافات وفروق بينها . ففى الحقيقة توجد بين هذه الاعمال ، اعمال احب من الاخرى ، واعمال اقل رتابة وبعثا على الملل ، واخرى اكثر خلقا وايجابية ، وهكذا . وجدير بالذكر أن كل عمل من الاعمال التي تقوم بها ربة البيت كالطهى ، وغسل الملابس ، وكيها ، وتنظيف المنزل يمكن أن يشكل دورا مهنيا مأجوراً .

ومن تحليل المؤلفة للاعمال المنزلية المختلفة وجدت أن اهمها هى : التنظيف والتسوق، والطهى ، وغسل الاطباق، وغسيل الملابس ، والكى . وقد كانت هناك أسئلة من احب هذه الاعمال الى قلب ربات البيوت وعن ابغضها اليهن ، كشفت الاجابات عن أن ابغض تلك الاعمال ، كان كى الملابس لانه عمل مجهد رتيب ، يتلوه العمل الخاص بغسيل الاطباق لما فيه من قذارة ، وتكرار . أما تنظيف المنزل فأتى ترتيبه الثالث من حيث كراهية ربات البيوت له ، ذلك لانه عمل متكرر لا ينتهى ، كما انه على العكس من عملية التسوق ، عمل يؤدى فى عزلة وصمت ، فعندما تعمل المكنسة الكهربائية فانها لا تستطيع تبادل الحديث مع الآخرين ، بعكس ما يحدث لعملية الطبخ والكى، فيمكن لربة البيت تأديتهما وهى تتحدث الى صديقة مثلا . وتأتى بعد ذلك فى الترتيب الاعمال الخاصة بغسل الملابس والتسوق ، والطهى . أما بالنسبة لغسيل الملابس فهو عمل اقل بغضا الى ربات البيوت من غسيل الاطباق، رغم أن كلا العملين يتطلب ازالة القاذورات من الاشياء .

ويعزى ذلك الى أن هناك ارتباطا شخصيا بالملابس . فالملابس التى تغسلها ربة البيت تنتمى الى زوجها او أحد ابنائها ، او اليها ذاتها . يضاف الى ذلك أن وسائل الاعلام تركز على عملية الغسيل وتغلفها بهالة جميلة فى اعلاناتها التجارية عن المنظفات المختلفة موحية الى ربة المنزل بأن نقاء غسيلها وبياض لونه هو أحد واجباتها الاساسية .

وجدير بالذكر أن استخدام الآلة بالنسبة لعمليتى غسيل الاطباق وغسيل الملابس ، يقلب اتجاه ربة البيت اليهما من كره الى تقبل ، وقد لوحظ ذلك بالنسبة الى الكثير من أفراد العينة (٢) .

أما التسوق، كدور من أدوار ربة البيت، فأمره مختلف ، ذلك انه دور اكثر اجتماعية ، فهو يتطلب غيابا عن مقر عملها وهو المنزل ، لذلك فقد ذكرت معظم الاجابات أن التسوق من الاعمال المحببة لانه يتضمن خروجا من المنزل ، ومقابلة للناس ونوعا من التغيير من جو المنزل . وقد ذكرت بعض السيدات انهن لا يحتجن للخروج من المنزل يوميا للتسوق ، لكنهن يفعلن ذلك لمجرد الخروج من المنزل ، أو لاعطاء صغيرهن فرصة لنزهة قصيرة. ورغم هذه المزايا المرتبطة بالدور الاستهلاكى لربة

---

(٢) تتفق هذه النتيجة مع نتائج بحث مصري ، تقول فيه صاحبته :

« ان الزوجات انفسهن اصبحن يتضايقن من اداء الاعمال الخاصة بالغسيل ، وغسيل الصحون بالطرق التقليدية لانها تتضمن قدرا كبيرا من (الرمطة) . ولكنهن يقبلن عليها كلما اصبحت آلية . »

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر السابق ، ص ٥٤٣ .

البيت فان هناك سلبيات لهذا الدور تتبلور فى المصاعب الفيزيقية . فاصطحاب أطفال اثناء عملية التسوق ترهق ربة البيت جسمانيا وعقليا ، فان الجمع بين عملية التسوق وبين رعاية طفل أو اكثر أثناءها يجعل اهتمام ربة البيت موزعا ، ويقلل من كفاءتها كمشترية كما أن الانتظار الطويل فى بعض المجمعات الاستهلاكية ، او المحلات أمر يبعث على الملل . ويلاحظ ان هناك فرقا بين نوعين من التسوق : تسوق بشكل جزئي ، ويحدث يوميا تقريبا لشراء متفرقات بكميات قليلة ، وتسوق آخر كلى يأخذ شكل التخزين ويحدث مرة اسبوعيا أو كل اسبوعين . وهذا النوع الاخير من التسوق هو الاكثر كراهية من جانب ربات البيوت لانه يتطلب جهدا مضاعفا فى شرائه وتوصيله الى المنزل ، ولا شك أن وجود سيارة ، وهو أمر لا يتوفر للكثيرات ، يسهم فى التقليل من حدة كراهية هذا العمل .

اما العمل السادس من الاعمال المنزلية الرئيسية فهو الطهى ، والذى اعتبرته جميع ربات البيوت اللائي تضمنتهن العينة اكثر الانشطة المنزلية قربا الى قلوبهن لانه يمثل فى رأيهن فنا خلاقا،واستعراضا للقدرة والمهارة. ولا شك ان نظرة ربات البيوت للطهى على أنه عمل فنى خلاق ، يمثل انعكاسا للفكرة الثقافية السائدة عنه ، والتي تؤكدها وسائل الاعلام والاعلانات ، والمجلات النسائية ، ودور النشر التى تخصص كتبا بأكملها لهذا الفن. والملاحظ ان معظم التوجيهات الثقافية فى هذا المجال والتى تتناول الطهى بوصفه فنا ، واستعراض عضلات ، لا ترشد ربة البيت الى كيفية صنع اكثر الوجبات غنى بالمواد الغذائية المفيدة فى أقصر وقت ممكن ، قدر ما تعلمها كيف تزين الاكلات المختلفة وتجعلها شهية . وهذه محاولة لنقل الطهى من كونه عملا الى كونه تسلية وقضاء وقت،وتعكس تلك المحاولة مثلا واضحا على الانكار الاجتماعى لاعتبار العمل المنزلي عملا بالمعنى الصحيح . ولكن ايجابيات العمل المنزلى الخاص بالطهى تفسده سلبيات منها ان الازواج يطلبون الطعام فى اوقات محددة ، وأن وقت طهى الطعام قد يتداخل مع الوقت المحدد لغسل الملابس أو تغيير الاسرة ، أو اطعام الوليد او الصغير . ومن السلبيات الاساسية لعملية الطهى تلك المهمة الثقيلة التي لا تنتهى ابدا وهى التفكير الدائم فى السؤال الخالد : ماذا نأكل اليوم ؟ .

ويمكن ن نلخص فى آخر هذا الفصل الايجابيات المتصلة بالاعمال المنزلية بعامة مرتبة حسب اهميتها فى نظر الزوجات، وهى : التمكن من محادثة الآخرين اثناء العمل ، واعتدال المزاج اثناء اداء العمل المنزلى ووجود وقت كاف لادائه ، وان تكون هناك خلفية جيدة للعمل وذلك بتوفر الادوات الحديثة ، ووجود مقدار كاف من المال للمتطلبات المنزلية المختلفة وتوفر التقدير اللازم للعمل . اما السلبيات المتصلة بالعمل المنزلى ، فتمركزت حول الملل والرتابة والتكرار،وعدم توفر الادوات المناسبة لاداء الاعمال المنزلية ، وانحراف المزاج اثناء العمل ، واعتراض الاطفال طريق ربة البيت اثناء ادائها لعملها ، وعدم وجود الوقت الكافى لاداء العمل ، والعزلة الاجتماعية ، والاضطرار الدائم الى التفكير فى العمل المنزلى وترتيباته .

مما سبق يتضح لنا يتضح لنا اذن صدق ما ذهبت اليه المؤلفة من أن رباتالبيوتينظرن الى العمل المنزلى على أنه عمل يماثل غيره من أنواع الاعمال الاخرى . ومن تحليل ملاحظاتهن عن أحب مظاهر العمل المنزلى ، وعن أبغضها بالنسبة اليهن تبين أن التحرر من الرقابة كان

على رأس الصفات الايجابية ، اما العمل المنزلى ذاته فكان فى مقدمة السلبيات التى ذكرناها . وقد عرفن العمل المنزلى بانه عمل « حقيقى وشاق » ، وهى صفات أكدنها ليجابهن بها تلك الافكار النمطية الخاطئة السائدة فى ثقافتهن ، والتى تخلع على العمل المنزلى مكانة وقيمة منخفضة . كما تبين من البحث ايضا انه بينما تتناول تلك الافكار النمطية الخاطئة الشائعة فى الثقافة ، العمل المنزلى كنشاط منفرد ، فان ربات البيوت ينظرن اليه على أنه عمل رئيسى يتضمن اعمالا وانشطة فرعية منفصلة. وظهر من البحث أن مشاعر الرضا أو عدم الرضا عن مختلف الاعمال المنزلية تتأثر كثيرا بالظروف التى تتم فيها هذه الاعمال والتي تتعلق بمدى توفر الاجهزة والادوات الميسرة والمخففة .

وفى نهاية هذا الفصل يمكن القول بأن الصورة التى رسمتها المؤلفة للعمل المنزلى ولربات البيوت من خلاله ، من واقع النتائج التى أسفر عنها بحثها ، تتعارض مع الصورة السائدة عنه وعنهن فى الثقافة ، والتى تذهب الى أن ربات البيوت يشكلن طبقة مرفهة ، وانهن لا يعملن شيئا طوال اليوم .

اما الفصل الرابع ، فيتناول موضوعا هاما هو العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والاعمال المنزلية ومدى الرضا أو عدم الرضا عنها . ومفهوم الرضا عن العمل المنزلى فى هذا الفصل مشتق من مفهوم الرضا عن العمل المستخدم فى علم الاجتماع الصناعى ، وعلم اجتماع العمل فهو يمثل تقييما شاملا لدرجة الايجابية أو السلبية التى تتناول بها ربات البيوت عملهن . وقد حددت الباحثة مفهوم الطبقة الاجتماعية على أساس مهنة الزوج ، وهو مقياس تقليدى ، وقد بررت الباحثة اختيار ذلك المحك التقليدى بانه أكثر ملائمة فى المقارنة بين بحثها وبين بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه ، واتخذت ذلك المحك التقليدى أساسا للدراسة .

ومن النتائج الجديرة بالاهتمام في هذا الفصل انه ليست هناك فروق طبقية فى النوع وانما فى الدرجة فقط بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ربات البيوت ، اللائى كان لهن عمل خارجى قبل الزواج، فى تفضيل العمل الوظيفى على العمل المنزلى على أساس أن العمل المنزلى يفتقد المكافأة الاقتصادية ، ويتميز بالانعزال ونقص الاعتراف الاجتماعى بالمسئوليات الملقاة على عاتق ربة البيت .

ومن أهم النتائج التى توصلت اليها الباحثة ، هو أنه ليست هناك فروق فى الطبقة الاجتماعية بين الراضيات وغير الراضيات عن العمل المنزلى ، فقد كان الاتجاه السائد بين الغالبية العظمى من المستبرات فى عينة البحث هو عدم الرضا عن العمل المنزلى سواء بين ربات البيوت من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى . اما من حيث اتجاه أفراد العينة نحو دور ربة البيت فقد كانت هناك بعض الفروق الطبقية ، وحيث كان اتجاه ربات البيوت من الطبقة العاملة بعامة أكثر ايجابية من مثيله بين ربات البيوت من الطبقة الوسطى. ومن هذا يتبدى أن ربات البيوت من الطبقة الوسطى أكثر ميلا لادراك المكانة المنخفضة لدور ربة البيت من مثيلاتهن من الطبقة العاملة. ولذلك فان الشكوى من تلك العبارة الشائعة: « مجرد ربة بيت » ، هي أكثر ترددا بينهن منها بين نظيراتهن من الطبقة العاملة .

وقد يبدو فى النتائج السابقة شيئا من التناقض ، ولكن هذا التناقض يزول اذا ما أدركنا أن المؤلفة تفرق بين المشاعر نحو

العمل المنزلى ، وبين الاتجاه نحو دور ربة البيت . فربما أحست المرأة بايجابية وتقبل لدور ربة البيت ، ولكنها فى الوقت نفسه تكره العمل المنزلى ، كما أن عكس ذلك النموذج يمكن تواجده أيضا ، فالمشاعر تجاه العمل المنزلى يتدخل فيها التعود على أداء هذه الاعمال والخبرة بها ، اما اتجاهها نحو دور ربة البيت ، فمسألة يتدخل فيها مفهومها عن ذاتها ومعايير الثقافة الفرعية التى تعيش فيها والخاصة بمظاهر سلوك الدور الانثوى ، وحيث تختلف اتجاهات المرأة نحو دور ربة البيت فى الطبقة العاملة عنها فى الطبقة المتوسطة، بينما لا توجد اختلافات بينهما فيما يتعلق بنشاط العمل المنزلى .

وفى **الفصل الخامس** تناقش المؤلفة **ظروف العمل المنزلى** ، وتتناول فيه الفترات التى يستغرقها هذا العمل ، والخلفية التكنولوجية التى يتم فيها . وقد تبين منه أن متوسط عدد ساعات العمل المنزلى لربات البيوت فى هذا البحث كان سبعا وسبعين ساعة اسبوعيا، وهو عدد يماثل تقريبا ضعف عدد ساعات العمل الاسبوعية للعامل الصناعى والذى يقدر بأربعين ساعة فى المتوسط . كما تبين منه أن استخدام الاجهزة والادوات المناسبة فى العمل قد يقلل من الشعور بعدم الرضا عن العمل المنزلى لكنه لايحوله من عمل بغيض الى عمل سار محبوب . كما ظهر أن بعض الصلات الاجتماعية لربة البيت قد تقلل أيضا من ذلك الشعور بعدم الرضا .

وفى **الفصل السادس** تلقى المؤلفة الضوء **على المعايير المتعلقة بالعمل المنزلى** والتى على اساسها تتبع ربة البيت اسلوبا معينا أو روتينا معينا فى ادائه . وقد كانت هناك اختلافات عديدة بين ربات البيوت فى عينة البحث بهذا الصدد ، وحيث كانت بعضهن تضع لنفسها معايير صارمة فى أداء العمل المنزلى ، حتى انه يمكن تصنيفها باثولوجيا ضمن الحوازيات، بينما لا تتبع اخريات أسلوبا أو نظاما معينا فى أدائه . ولتحديد تلك المعايير وذلك الروتين وظائف هامة ، **أولها** انها وسيلة لتوحيد أعمال غير متجانسة تكون العمل المنزلى فى بناء وظيفى متماسك ، **وثانيها** أنها دليل على أن العمل المنزلى عمل له معاييره وروتينه مثل أى عمل آخر ، وهذا فى ذاته دفاع ضد من يقول أن المرأة فى المنزل لا تفعل شيء ، **وثالثها** أن فى تحديد تلك المعايير وذلك الروتين توسيع لمجال العمل المنزلى ، وبخاصة أمام ربة البيت المتفرغة التى لا تعمل خارج منزلها، **وآخرها** ان ربة البيت بذلك التحديد انما تضع ميكانيزما تستطيع أن تكافىء نفسها عن طريقه فى انجاز العمل المنزلى . وتأخذ المكافأة السيكلوجية التى تحصل عليها ربة البيت من تمسكها بمعايير أداء العمل المنزلى ، وروتينه المعين ، شكلا موضوعيا على الرغم من انها موضوعة سلفا بواسطة ربة البيت كاملة . وتلعب وسائل الاعلام أيضا دورا فى تحديد معايير العمل المنزلى ، كما تسهم فى ذلك الى حد كبير، التنشئة الاجتماعية المنزلية السابقة لربة البيت واعدادها للعمل المنزلى .

وتخصص المؤلفة **الفصل السابع** للعلاقة **بين التنشئة الاجتماعية لربة البيت وبين صورتها عن ذاتها**. وفيه تبين أن العمل المنزلى، مثله فى ذلك مثل أى عمل ، لابد أن تسبقه فترة تدريب مهنى أو تلمذة وظيفية . ولكن الاعداد الأنثوى للدور المنزلى ، يختلف عن الأعمال الاخرى فى أنه لا يتخذ شكلا رسميا ، ولذلك لا ينظر اليه على أنه تلمذة وظيفية .

والسبب الرئيسى فى ذلك هو أن اعداد المراة لتكون ربة بيت يختلط مع تنشئتها لدورها الأنثوى بالمعنى الواسع . وتفصح نتائج البحث عن أن جميع أفراد العينة قد قرن انهن على وعي بوجود صلة وثيقة بين طرقهن فى اداء العمل المنزلى وبين الطرائق التى كانت أمهاتهن يستخدمنها لأداء العمل نفسه . وفى هذا تقول احدى أفراد العينة :

« ان لي نفس المعايير التى كانت تتبعها أمى فيما يتعلق بأعمال المنزل . فقد كانت تفعل كل ما ينبغى عمله ، ولم يكن هناك من يستطيع أن يتجول بعينيه فى المنزل ليقول ان هذا العمل أو ذاك ينقصه شيء .. انني دائما أحاول أن اتمثل بها . . »

ومن النتائج الهامة فى هذا الصدد ، أن هناك فروقا طبقية بين ربات البيوت فيما يتعلق بصورة الذات ، فقد كان هناك ميل لدى اللائى ينتمين منهن الى الطبقة الوسطى الى ذكر أحد دورى الزوجة ، والأم أو كليهما، دون الاشارة الى دور ربة البيت فى تصورهن لذاتهن . كما وجد ميل لديهن أيضا الى رؤية انفسهن من خلال أدوار أخرى غير منزلية ، كالأدوار الدينية أو السياسية ... الخ . اما ربات البيوت من الطبقة العاملة فقد كن يملن الى اختصار دورى الزوجة والأم تحت كلمة « ربة بيت » ، وذلك فى وصفهن لذواتهن . وفيما يلي اجابة احدى ربات البيوت من الطبقة الوسطى على اختبار العشرجمل ، الذى يكشف عن تصور الذات ..

« اننى متقلبة ـ اننى اعمل بجد ـ اننى اتكلم كثيرا ـ اننى سعيدة معظم الوقت ـ اننى امرأة راضية ـ اننى احتاج وجود الآخرين طوال الوقت ـ اننى أعشق الخروج ـ اننى مسيطرة ـ اننى حالمة ـ اننى قلقة . »

وبهدف وضوح المقارنة فانانسوق اجابة أخرى للاختبار ذاته ، لربة بيت من الطبقة العاملة تكشف عن تصورها لذاتها :

« اننى ربة بيت جيدة ـ اننى أجيد معاملة ابنائى ـ اننى أجيد العمل المنزلى ـ اننى أجيد معاملة زوجى ـ اننى أجيد الغسيل ـ اننى أشعر بالسأم أحيانا ـ اننى اشعر بالغضب أحيانا ـ اننى شديدة السعادة بعملى ـ اننى سعيدة بأولادى ـ نادرا ما أكون تعيسة . »

وتتضح من المقارنة السابقة نتيجة هامة اخرى ، تضاف الى النتائج سالفة الذكر وتؤيدها ، وهي أن صورة المراة من الطبقة العاملة عن نفسها يتضح فيها بشدة توحدها بدور ربة البيت ، واقبالها على العمل المنزلى، بينما تظهر قدرة المراة من الطبقة الوسطى على رؤية نفسها ووصفها لها من منظور الشخصية وسماتها .

وفى الفصل الثامن تبحث المؤلفة موضوع الزواج ، وتقسيم العمل بين الزوجين من وجهة نظر بعض المتخصصين فى علم الاجتماع الأسرى ، كما تتعرض المؤلفة فى هذا الفصل الى وصف تقسيم العمل المنزلى بين الزوجين وتحليله كما تبحث معتقدات ربات البيوت من أفراد العينة حول الأدوار الذكرية والأنثوية .

وقد أجريت الاستبارات مع الزوجات فقط ، ولم تشمل الازواج ، وقد طلب منهن تقييم مدى اشتراك ازواجهن معهن فى العمل

المنزلى وفى رعاية الابناء على السواء بثلاثة محكات تتراوح بين عال، ومتوسط ، ومنخفض، وقد أفصحت اجابات الاستبارات عن ثلاث نتائج هامة :

١ — ان قلة من الأزواج فقط هم الذين يساعدون زوجاتهم بقدر مرتفع . فقد كان ١٥ ٪ من الأزواج فقط هم الذين حصلوا على تقدير عال فى المشاركة فى العمل المنزلى بينما حصل ٢٥ ٪ منهم على التقدير ذاته فى المشاركة فى رعاية الاطفال .

٢ — اختلفت نماذج مشاركة الازواج لزوجاتهم باختلاف الطبقة الاجتماعية فقد كان اشتراك الأزواج من الطبقة المتوسطة فى العينة ، اكثر انخفاضا من اشتراك الازواج من الطبقة الدنيا ، وذلك فيما يتعلق بالعمل المنزلى ورعاية الاطفال .

٣ — كان هناك ميل اكثر من قبل الازواج للمشاركة فى رعاية الاطفال منه فى العمل المنزلى .

ومن بين من حصلوا على تقدير عال فى المشاركة فى كل من العمل المنزلى ، ورعاية الاطفال ننتقى هذه الصورة لزوج يعمل فى تجارة المعلبات ، وكانت زوجته تعمل على الآلة الكاتبة قبل أن ترزق بطفلها :

« اننى أساعده فى عمله ، فاطبع له أوراقه ، وأضيف بعض فقرات اذا لزم الامر . كما انه يساعدنى فى عملى ايضا . انه طاه ممتاز ، وهو لا يمانع فى أن يأتى فى نهاية اليوم ليطهى وجبة . وفى الاسبوع الماضى مثلا قام بطهى ثلاث وجبات . واذا حدث ان كنت اقوم بتنظيف حجرة بالمكنسة الكهربائية واقبل هو فى هذه اللحظة فانه يقوم بتنظيف الحجرة الاخرى ، كما انه ينظف النوافذ بانتظام ، ويقوم بتجفيف الاطباق ، وهو يعيننى على الانتهاء من عمل المنزل لانه يحب أن نجلس معا سويا بعد الظهر ، وهو يكوى ملابسه أيضا . وعندمانكون فى المنزل معا فانه يشاركنى فى رعاية الطفل ، فهو يحممه فى المساء ويغير له لفائفه ، وفي يوم العطلة يصحو له مبكرا فى الصباح كي يعطينى الفرصة لانام بضعة ساعات . »

وهذه صورة أخرى لزوج حصل على تقدير منخفض فى المشاركة فى كل من العمل المنزلى ، ورعاية الاطفال ، تقول زوجته :

« انه لايساعدنى أبدا فى الاعمال المنزلية ، ولا فى شراء لوازم المنزل ، ولا فى الطهي ، انه يقول دائما : اننى اعمل طوال اليوم ، وعندما أعود الى المنزل أكون مرهقا تماما . وهو لا يشترك فى رعاية أبنائه أبدا . انه يحب الاطفال ، ولكنه لا يرعاهم . فقد كان على أن أؤدى واجب العزاء منذ يومين ، ولكنه لم يدعنى اذهب لأنه قال لى : انا غير مستعد لان ارعى الاطفال الى حين عودتك . لذلك فانه اذا كان على أن اذهب لأى مكان لقضاء احد شئونى فلابد أن تكون « مارى » اكبر بناتى بالمنزل . اننى أقصد انه يرفض مجرد الجلوس مع ابنائه لحين عودتى ، لا لانه يكره الاطفال ، بل لانه ببساطة قد ورث هذا الاتجاه عن والده ودائما ما يردد كلمته المأثورة : اننى لا يمكن أن أقبل أن تدلنى امرأة على ما ينبغى فعله . »

أما من حيث تحليل معتقدات ربات البيوت التى تدور حول الادوار الذكرية والادوار الأنثوية فقد ثبت من البحث أن معظمهن يذهبن الى أن مكان الرجل ليس فى

البيت ، حتى وان كن يحبذن مشاركة الرجل لهن فى الاعمال المنزلية مشاركة أكثر . وبالمثل فان من كانت تريد منهن أن تسهم بقدر أقل فى العمل المنزلى فانهــا كانت تجــابه بتلك الضغوط الاجتماعية الناشئة عن المعيار القائل بأن المرأة تنتمى الى مملكة العمل المنزلى ورعاية الاطفال .

كما اسفرت نتائج البحث ايضا انه خلال دورة الزواج تكون هنــاك فتــرات تتسـم بالمشاركة اكثر من غـيرها . فحـين تخرج الزوجات الى العمل تزداد درجــة مشاركة الأزواج لهن فى الاعمال المنزلية ، وفى رعــاية الابناء . وهذه النتيجة تتسق مع ما ذهبت اليه بحوث أخرى كبحث «هوفمان» Hoffman الشهير عن النساء العاملات وتأثير عملهن على الاسرة ، ولكن ذلك لا يعني ان آراء الزوجين متحررة أو منادية بالمساواة ذلك لانه عنــدما تكف الزوجة عن العمل خارج المنزل فان رغبة الزوج فى مساعدتها تقل ، ويعكس تقســيم العمل بينهما عندئذ نموذجا تقليديا واضحا. ويدل ذلك على أن معتقدات الزوجين الاصيلة عن الادوار الذكرية والأنثوية لم تتغير .

وتعالج الكاتبة فى الفصل التاسع والأخير تربية الاطفال كوظيفة مرتبطة كل الارتبــــاط بالعمل المنزلى . فمعظم ربات البيوت مــن الامهات ، وكل الامهات ربات بيوت . وقــد ظهر من خلال هذا الفصل والفصول السابقة، أن الاطفال يؤثرون فى مدى الاستمتاع بالعمل المنزلى، لانهم يجعلون ساعات العمل الاسبوعية اطول ، كما انهم كثيرا ما يظهرون كعــوامل محبطة لربة البيت كعاملة منزلية . فدائمــا ما يقطعون عليها عملها ، ودائما ما تجد نفسها وسط أعمالها المنزلية الكثيرة ، مطالبة برعاية ابنائها فى الوقت نفسه . ويزيد رضاء ربة البيت عن عملها المنزلى كلما ساعدها زوجها فى أن يحمل عنها بعض العبء فى تربية الاطفال لأنه عندما يحدث ذلك فان الضغوط الناشئة عن أداء دور ربة البيت ودور مربية الاطفال تخف حدتها .

وتلقى الكاتبة الضوء على دورى الزوجة كربة بيت ومربية اطفال معا ، وعلى المشكلات الناجمة عن الجمع بين هذين الدورين . وهي ترى أن هناك تناقضا واضحا بينهما ،ولاينجم هذا التناقض فقط عن أن الاطفال مخلوقات فوضوية ، تفسد نظام البيت المنظم ، ولا عن حاجتهم لأن تطعمهم الأم ، أو تلعب معهــم ، أثناء اعدادها الطعام أو تنظيفها للحجرات ، بل أن هناك تناقضا أساسيا يكمن فى طبيعة هذين الدورين ذاتهما . فتربية الاطفال عمل منتج ومثمر Productive ، بينمالاينطبق ذلك على العمل المنزلي . فالعملالمنزلي عمل له اهداف وقتية ومتكررة ، فالمنزل ينــظف اليوم ، وتعاد نظافته فى الغد ، وهكذا لمــدة سنوات قد تربو على الثلاثين أو الاربعــين . اما الامومة فان لها هدفا وحيدا بعيد المدى ، فالأم تربى الابناء حتى يعتمدوا على انفسهم ويستغنوا عنها بالتدريج ، ولذلك فقد كان أحد المحكات الاساسية فى اختيار العينة أن يكون لدى كل امرأة طفل على الأقل فى ســن ما قبل المدرسة .

وتنظر الكثير من الزوجات الى دورهن كربات بيوت ، ومربيات أطفــال على أنهمــا وجهان لعملة واحدة ، وغالبا ما يعتبرن تربية الطفل ، وتنظيف ملابسه ، وترتيبها ، جزءا من العمل المنزلى ، كما أن المعايير التى يضعنها لانفسهن والمتعلقة بالعمــل المنــزلى ، غالبا ما تنسحب على تربيتهن لأطفالهن ، واهمهــا

معايير النظافة والترتيب . وتعد هذه المماثلة بين الدورين ، مجرد انعكاس لمعايير المجتمع ، والاتجاهات الاجتماعية السائدة فى النظر الى المراة ، والتى تذهب الى أن دور ربة البيت يشمل ادوار المراة ، والزوجة ، والأم ونادرا ما تفرق بينهذه الادوار، أو تذكرها منفصلة.

وتنتهى الباحثة فى هذا الفصل الىنتائج هامة استقتها من بيانات بحثها ، وهي أنالأم المعاصرة تؤدى دورها فى سياق اجتماعى لايبعث على الرضا . ومنشأ عدم الرضا هو العزلة الاجتماعية ، والمسئولية المستمرة ، كما وجدت أن الأم كعاملةمنزلية تواجه صراعا بين المطالب المختلفة للعمل المنزلى بحيث يعد الطفل أحيانا وسط خضم هذه المطالب عائقا فى سبيل الرضا عن العمل المنزلى ، أمابالنسبة للطفل فيعد الجمع بين مطالبه ومطالب العمل المنزلي شيئا محبطا له وللأم . وعلى الرغم من أن الرجل يحاول أحيانا أن يعالج تلك المشكلة بالتدخل فى رعاية الاطفال ، فان تدخله يكون غالبا محدودا بأنشطة معينة مفضلة لديه كاصطحاب الاطفال للنزهة او وضعهم فى الفراش ، لكنه يحجم عن الاشتراك فى أنشطة أخرى لها مظاهر أكثر روتينية ، واقل متعة فى تربية الاطفال ورعايتهم . وهذا التوسع فى دور الأب يعطى الأم الفرصة لاداء بعض الاعمال المنزلية ، وترتيبا على ذلك فانه يعطيها مزيدا من الاحساس بالرضا عن العمل المنزلى .

وفى الخاتمة تركز المؤلفة على تلخيص اهم نتائج بحثها . وتكرس الجزء الاخير منها لمناقشة مسألة مركز ربة البيت فى المجتمع بعامة . وتطرح عدة أسئلة أهمها : ما هو مدى وعى ربات البيوت ــ او مدى الوعىالذى ينبغى أن يكن عليه ــ بموقفهن كنساء ، وهل ينظرن الى انفسهن كجماعة مضطهدة ؟ وهل تلاقى حركة تحرير المراة صدى بينهن ؟ والى أى مدى نجحت حركة التحرير هذه فىتوصيل ايديولوجيتها وافكارها اليهن ؟ وما هىأنسب الوسائل ، وانجع الطرق لتحرير ربة البيت؟.

وتجيب الباحثة عن هذه الاسئلة اجابة مركزة فتقول : ان انتماء معظم النساء للادوار التقليدية لربة البيت والزوجة والأم ، لايمكن أن يعالج فقطبالنظر لمواقعهن منبناء اجتماعى واقتصادى معين ، بل يجب أن تمتد لتشمل فهما شاملا للكيفية التى تستطيع بها النساء أن يتوحدن مع قهرهن . بمعنى آخر انالأبنية والنظم التى تضطهد المراة ، لا يمكن أن تتغير ما لم يوجد وعي مسبق لدى المراة لأهمية هذا التغيير ، وهذا هو دور حركة تحرير المراة .

● ● ●

ثانيا ــ تقييم ونقد :

نجحت المؤلفة فى ايضاح نظرتها الجديدة الى العمل المنزلى ، وفى تحليلها له كعمل يماثل غيره من الاعمال ، كما انها أظهرت زيف تللك الاسطورة السائدة فى الثقافة الانجليزية ،وفى ثقافات اخرى كثيرة ، والخاصة بسلبيةالعمل المنزلى ، وسهولته ، وطبيعيته بالنسبةللمراة والتى تتضح من اسئلة توجه الى النساء فى عالمنا المعاصر مثل : هل ستعملين ؟ أم ستبقين فى المنزل ؟ وكأن البقاء فى المنزل لا يتضمن عملا . (٣)

---

(٣) هناك عبارات تشير الى ذلك فىالثقافات المختلفة ،ففي الثقافة الاوروبية تجيب المراة اذا سئلت عن هويتها (مجرد ربة بيت Just a House wife) وفى الثقافةالمصرية تجيب (مجرد ست بيت) وتشير عبارات مصرية مثل (فلانة مش بتشتغل ، دى قاعدة فى البيت .. الخ) الى انالبقاء فى المنزل يتضمن الجلوس وعدم القيام بعمل وعبارة « فلانة بتشتغل وجوزها قعدها فى البيت » تشير ايضا الىان البقاء في البيت راحة ، بعكس العمل الذي لا يكون الا خارجه .

وكان تعمق المؤلفة فى تحليل صور ربات البيوت عن أنفسهن ، وعن اتجاهاتهن نحـو العمل المنزلى وما يتضمنه من أعمال فرعيـة مختلفة ، ومدى شعورهن بالرضا أو عـدم الرضا عن عملهن ، ونفاذها الى طبيعة العمل المنزلى نفسه ، بما يستغرقه من وقت ومـا يتفرع اليه من أعمال ، والكشف عن المعـايير التى تحكم انجازها ، كل ذلك كان عملا جديرا بالاعجاب ، كما وفقت الكاتبة فيعرض افكارها فجاءت فصول الكتاب منطقية مرتبطة ، يسلم كل فصل منها الى مابعده فيسلاسة ووضوح.

لكننى بالتعمق فى دراسة محتويات هذا الكتاب لا أجد مبرراً لهذا العنوان البـارز الذى اتخذه وهو (سـوسيولوجيا العـمل المنزلى) فقد كان الكتاب فيما عدا الفصـل الاول منه ، واجزاء يسيرة من الفصل الثالث والسابع والثامن ، سيكولوجي النزعة قلبـا وقالبا . فهو يلقى الضـوء كله على مسـألة الرضا أو عدمالرضا عنالعمل المنزلى ،ويحلل دور العاملة المنزلية من وجهة نظر سيكلوجية بحتة وذلكبالكشف عنصورة الذات ،واحيانا يغرق فى تحليلها بمنظور علم النفس التحليلى فيأتى ذكر (فرويد) فى عدة صفحات من الكتاب. اما تحديد الباحثة للطبقة علىأساس تقليدى وهو مهنة الزوج ، فلم يكن منطقيـا مع اتجاهها التجديدى ، كما انه لم يكنواضح الدلالات فى ثنايا الكتاب . ولا يشفع لها فى ذلك ما بررت به موقفها ، من أن ذلك التحديد كان اكثر ملاءمة فى المقارنة بين نتائج بحثهـا ونتائج بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه .

والخلاصة اننى أرى أن استبدالعنوان هذا الكتاب بـ (**سيكلوجية العمل المنزلى**) كان يصبح اكثر ايحاءا ودلالة على ما احتواه بين دفتيه من حقائق ومعلومات (٤) .

ان كتابا عنسوسيولوجيا العملالمنزلى، لابد أن يتضـمن موضـوعات سوسيولوجية متخصصة من بينها : تصنيـف الخلفيـات الاقتصادية والاجتماعية التى يجرى فىاطارها العمل المنزلى فى ثقافات مختلفة ، والمقارنة بوجه خاص بين الدول المتقدمة تكنولوجيا ، وبين الدول النامية والمتخلفة ، من حيثطبيعة العمل المنزلى فى كل منها . وتحليل دور ربة البيت وما يتضمنه من قوة تتمثل فى تأثيرها فى نماذج شخصيات اطفالها وسلوكهم فهي المنشئة الاساسية لهم ، بلأنمركزهاالمحورى فى الاسرة يمكن أن يؤثر فى صـحة افرادها ومرضهم على السواء . كما لابد أن يحتـوى مثل هذا الكتاب علىدراسة التفاعلالاجتماعى لربة البيت ، وتحليل عملها المنزلى كعمـل يجعلها تتفاعل مع زوجها وابنائها وجيرانهـا وأقاربها ، وصديقاتها ، ومعارفها ، والبائعين سواء من يذهبون اليها فى المنزل ، أو منتذهب هي اليهم ، وتفاعلها مع الدولة والاسعار عن طريق وضعها لميزانية الاسرة ، وتحديدهـا لمواصفات السلع المتوقفة على مدى اقبالها أو أحجامها عن شراء سلع معينة . وكذلك فى اتخاذ القـرارات اليـومية المتـعلقة بنماذج الاستهلاك والموضـات ، والشـئون العامة ، وأهمية النظر الى مطالبها التكنولوجية وكل ذلك يدخل فى اطار علم الاجتماع الاسرىوعلم الاجتماع الاقتصادى .

كما أن كتابا عن سوسيولوجيا العمل المنزلى لابد أن يشمل توضيحا للصـلة بين

---

(٤) ربما كان السبب في تلك النزعة السيكلوجيـةالتي لونت الكتاب هو ان المؤلفة قد اخذت افكار هذا الكتاب وموضوعاته من رسالتها للدكتوراه التي قدمتها سنة ١٩٧٤ ،وكانت بعنوان « الاتجاهات نحو العمل ، واتجاهات الرضا لدى ربات البيوت » وهو عنوان ينبىء عن منظور سيكلوجي .

Ann Oakley. "Work Attitudes and Work Satisfaction of Housewives", unpublished PH.D thesis. University of London, 1974.

العمل المنــزلى ، وبين اختيــار الشريكة فى الزواج ، فكم من رجل فضل الزواج بامرأة معينة لأسباب من بينها انها تجيد الطهي ، أو انها قدمت اليه أكلة مفضلة بطريقةمشوقة، أو لأنها ممتازة فى العمل المنزلى أو « شـغل البيت » كما تشيع الاشـارة اليه فى لغتنـا الدارجة (٥) وكم من رجل اعرض عن الزواج بامراة جاهرته بأنها لا تحب العمل المنزلـي ولا تجيده . كما ان مفهوم العمل المنــزلى نفسه لابد وأن يدرس فى أطره الاقتصادية المختلفة ، فهو فى المجتمع الزراعى الريفىغيره فى المجتمع الصناعى الحضرى ، غيره فىمجتمع الرعى (٦) وهكذا .

---

(٥) انظر فى ذلك نتائج البحث الذي قامت به باحثةمصرية عن الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، وقارنت فيه بين جيلين : جيل الشباب من ريف وحضر ، وجيل آبائهم« اما المهارة فى اداء اعمال المنزل (الشطارة فى شغل البيت) فقد اتى ترتيبها الثالث بين مجموع الصفات المفضلة عنداختيار الزوجة ، وذلك عند كل من الآباء الحضريين والريفيين على السواء ، بل لقد كان هناك اجماع منهم على هـذا الترتيب بلغ حد التطابق .

وقد كانت المهارة في اعمال المنزل ، امرا هاما وجوهريافى اختيار زوجة المستقبل فى المجموعات الثلاث المكونة لعينة الابناء ، وهي المجموعة الحضرية ، والمجموعة الريفو ـ حضرية،ومجموعة القرناء الريفيين .

كما ان احدا من افراد عينة الابناء ، لم يقرر ابدا فىاجابته بانه لا يرغب فى توافر هذه الصفة فى زوجـــــة المستقبل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الاختيـار للـزواج والتغير الاجتماعي،دار النجاح بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٠٢ .

(٦) انظر في ذلك نتائج البحث السابق نفسه وفيـهتقول الباحثة :

« رأينا ان اغلبية افراد عينة الابناء في مجموعاتها الثلاثيرغبون بلا استثناء فى ان تكون زوجة المستقبل ربـة بيت ماهرة ، لكن مفهوم ربة البيت الماهرة هذا مفهوم نسبي ،لذلك رأينا ان نتعرف على اهم مقاصده الشائعة فى عرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث . وكانت اهم الاجابات الشائعةما يلي :

(١) تهتم بشئون المنزل .

(٢) تجيد الطبخ .

(٣) مدبرة .

(٤) توازن بين عملها ومسئولياتها المنزلية .

(٥) توائم بين واجبها كزوجة وام .

(٦) تجيد العجن والخبز والحلب ، وتربية الطيور .

وكان السبب الثاني اكثر تواترا فى اجابات مجموعـةالقرناء الريفيين ، اما السبب الرابع فكان اكثر شيوعا في اجابات الطلبة الحضريين ، تليهم فئة الطلبـة الريفي ـحضريين ، ولعل ذلك يتفق مع تحبيذ هاتين المجموعتين الظاهر لاشتغال المراة خارج المنزل واعتبار ذلك قضية مسلم بها .

اما السبب السادس والاخير فاقتصر على فئة القرناءالريفيين ولعلنـا نلاحظ ان مفهـوم المهارة لديهم واسع ، ويتطلب دراية بامور كثيرة ومتشابكة . ولا غرابة فى ذلك فالمهارة (او شطارة البنت) كما يقول الريفيون ، من أولى الصفات التي ترفع قيمة الخطيبة وتتحدث عنها النساء فىالقرية اذ يقلن « ان بنت فلان ، نار وشرار » ، وقلبها حامي « أى انها سريعة في العمل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصـدر نفسـه ،ص ٣٣ .

وانظر ايضا للباحثة نفسها تفصيلا للاعمال المنزلية فىالثقافة الريفية فى والثافة الحضرية فى :

سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجين فيالاسرة المصرية ، المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر .

وقد اهتمت المؤلفة كثيرا بالجزاء الذاتي السيكولوجي الذي تحصل عليه ربة البيت من خلال قيامها بعملها وتمسكها بالمعايير التي حددتها ، والروتين الذي وضعته لنفسها . ولكنها نسيت أو تناست ابعادا اجتماعية غاية في الاهمية، وتشمل الجزاءات الاجتماعية التي تحصل عليه من خلال تعليقات زوجها ، وابنائها ، وجيرانها ، أو صديقاتها ، أو من مقارنة عملها بالاعمال المنزلية التي تصورها وتبرزها وسائل الاعلام المختلفة من اذاعة وصحافة وتليفزيون وسينما . ان ربة البيت حين تعمل فانها لا تعمل في فراغ وانما تعمل وهي تضع في ذهنها توقعات الآخرين منها ، وتتدخل علاقاتها مع هؤلاء الآخرين ابتداء من زوجها واولادها وانتهاء بمعارفها ، في مدى اقبالها على العمل المنزلي وتقبلها له ، أو اعراضها ونفورها منه . فالزوجة المحبة لزوجها ، والتي تتميز علاقاتها معه بالتفاهم والود ، تفكر في زوجها أثناء عملها المنزلي ، وتضع نصب عينيها أن تدخل السرور على قلبه حين يعود وان تنجز عملها على وجه يرضاه وترتضيه هي لاسعاده ، كما أن ثناءه عليها ، ومكافأته لعملها بالتقدير يجعلها أكثر رضا واقبالا على عملها المنزلي ، ويصدق ذلك أيضا على أبنائها وأصدقائها وجيرانها . اما من لا تتمتع بعلاقات جيدة مع زوجها ، أو لا تتمتع بتقدير زوجها أو أبنائها لعملها فسوف لا تستشعر بدوافع الابداع في عملها ولا الرضا عنه ، وينطبق القول ذاته بنسب مختلفة على ردود فعل أصدقائها واقاربها .

وفي النهاية كان لابد وان يتضمن كتاب عن سوسيولوجيا العمل المنزلي تحليلا وافيا لديناميات العمل المنزلي ، ودراسة لمدى مشاركة آخرين غير الزوج والأبناء لربة البيت في العمل المنزلي وانماط تلك المشاركة ، فهناك المشاركة المتبادلة ، وهي التي تحدث بين ربة البيت وجيرانها أو صديقاتها ، كأن يتبادلن المشاركة في أعمال منزلية معينة كطهي أكلات معروفة وشائعة في أوقات معينة كالاعياد مثلا ، أو كاعداد الخبز بطريقة معينة (٧) .

وهناك مشاركة طويلة المدى يقوم بها خدم دائمون ، أو مشاركة موقوتة يقوم بها خدم لساعات معينة من اليوم ، كما أن هؤلاء الخدم الذين يقومون بدور مساعد في العمل المنزلي قد يمتد دورهم أحيانا ليشمل رعاية الاطفال أيضا ، أو اداء العمل المنزلي برمته وفي ذلك انعكاسات بعيدة المدى على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية لربة البيت في اسرتها وفي عملها الخارجي ان كانت تعمل .

* * *

(٧) يشيع في القرية المصرية ، ان تتبادل ربات البيوت الريفيات ، المساعدة في الاعمال المنزلية لاعداد الخبز بطرق معينة تستلزم عمليات شتى من طحن وعجن وخبز ، وان يتبادلن المساعدة في الاعمال المنزلية في الاعياد والمواسم وبخاصة في العيد الصغير اثناء قيامهن بعمل الكعك ويأخذ ذلك شكل تجمعات متفاعلة تتشابك فيها العلاقات الاجتماعية بينهن بشكل واضح .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت الى ادارة المجلة ، وسوف نعرض لها بالتحليل في الاعداد القادمة

— Aykroyd, W. R., The Conquest of Famine, Chatto & Windus, London 1974.

— Johnson, Harry G., Technology and Economic Interdependence, Macmillan, London, 1975.

— Lawrence, Daniel, Black Migrants : White Natives, A Study of Race Relations in Nottingham, Cambridge University Press, 1974.

— Macguire, William, The Freud/Jung Letters, Routledge & Kegan Paul, 1974.

— Mcintosh, Mary, The Organisation of Crime, Macmillan, 1975.

* * *

العدد التالى من المجلة

العدد الرابع ـ المجلد الثامن

يناير فبراير مارس ١٩٧٨

قسم خاص عن :

آفاق المعرفة

بالاضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريالات	سوريا	٣	ليرات
السعودية	٥	ريالات	القاهرة	٢٥٠	مليمًا
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليمًا
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشًا
اليمن الشمالية	٤,٥	ريال	مسقط	٤٠٠	بايه
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢,٥	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلسًا	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للاشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص.ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت